دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

البخلاء

للجاحظ

رضيت في الجنة بكتب الجاحظ
عوضاً عن نعيمها

الزبيدي الاندلسي

سلسلة عيون التراث العربي
- ١ -

al-Jāḥiẓ

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

al-Bukhalā'

البخلاء

للجاحظ

رضيت في الجنة بكتب الجاحظ
عوضاً عن نعيمها

الزبيدي الاندلسي

سلسلة عيون التراث العربي
- ١ -

تصدير

الحمد لله الذي لا يُنال فضل الا بنعمته ، ولا يدرك خير الا برحمته لا تحصى نعماؤه ، ولا تجزى آلاؤه ، ولا يكافأ فضله ، ولا يبلغ شكره أحمده حمداً يرضاه ويتقبله ، وأسأله التوفيق والسداد .

وبعد

هذا - أصلحك الله ورعاك ، وجنبك الزلل وسدد خطاك - كتاب « البخلاء » ، إمام البيان واستاذ الادب عمرو بن بحر الجاحظ ، نقدمه اليك بعد أن جهدنا لاخراجه في حلة قشيبة من الشرح والتحقيق وفي ثوب جديد من التصحيح والتعليق ، لم ندخر وسعاً في إزاحة غموضه وكشف مراميه ، وشرح ما غمض من كلمه ، ولم نأل جهداً في اقتناص الاخبار المنتثرة والمطوية في ثنايا الكتب واثباتها في مواضعها ولم نبخل بالترجمة لبعض الاعلام التي يحتاج اليها النص والدلالة على مراجعها . مع الاعتناء الخاص بضبط النصوص والاشارة الى تعدد رواياتها واحالة القارىء الى موضعها . فان نكن قد وفقنا الى إخراجه صحيحاً مضبوطاً فذلك ما نبغيه ونأمله ، وإن يكن فيه تقصير عن الغاية فسيشفع لنا ما بذلناه من جهد وما أردناه من خدمة اللغة العربية ونشر عيونها وآدابها .

هذا ونحن واضعون بين يديك دراسة عن المؤلف والمؤلف نعرض لهما بشيء من التفصيل والايضاح .

المقدّمة

«الجاحظ»

١ – مولده ونسبه ونشأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني ، كان مولى لأبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقمى أحد النسابين ، قال يموت بن المزرع[1] :

« الجاحظ خال أمي ، وكان جد الجاحظ أسود يقال له « فزارة » وكان جمالاً لعمرو بن قلع الكناني » .

ومن هذا النسب تطرق الشك الى بعض الاذهان في صحة عربية الجاحظ واسرته ، وبخاصة من ناحية ولائه لابي القلمس الكناني ، ومن كون فزارة جد الجاحظ أسود اللون وجمالاً لعمرو بن قلع الكناني . ولكن هذا لا يصح أن يؤخذ دليلاً على نفي العروبة عنه . فلون السواد كان شائعاً بين العرب ، بل ربما عد مما كانت تفخر به وتفضله على غيره من الألوان .

وأما الرق فلم يرد عن أحد من الرواة والنسابين وأصحاب الأخبار

---

(١) معجم الادباء ج ١٦ ص ٧٤

أنه وقع على أحد أجداده . ولا عبرة هنا بوصفهم بالولاء لآل فقيم فليس الوصف بالولاء مما ينفي الحرية ويحتم الرق . لان الولي عند العرب هو : المحب ، والصديق ، والنصير ، والمولى ، والعبد ، والمعتق ، والمعتق ، والصاحب ، والقريب [1] ... الخ . وأكثر من ذلك أن بعض القبائل العربية الصريحة النسب قد تكون مولاة لقبيلة عربية أخرى .

وأما قيام فزارة على إبل عمرو بن قلع فهذا لايقدح في عربية الجاحظ ايضاً ، لأنه إن دل على شيء فليس يدل إلا على أنه كان يحسن القيام عليها . ولهذا استكفاه مولاه عظيماً من أمره [2] .

وشيء آخر ذو شأن وهو أن الجاحظ لو كان في دمه شيء قليل أو كثير من دم الأجناس الأخرى غير العربية لرأيناه في رأس الشعوبية الذين لايرون للعرب مزية ولا يعترفون لهم بفضل ، ولكنا نرى الجاحظ في كتبه وآثاره وفي كل ماروي عنه شديد العصبية للعرب ، لا يرى فضيلة في أمة إلا ويرى أكبر منها لهم . لا بل هو لايرى أمة من أمم الأرض تفضل الأمة العربية بأي خصلة من خصال الخير والنبل .

ولهذا كله نستطيع أن نقطع كما قطع المحققون من قبل ، من مثل الأنباري وابن عساكر وياقوت وغيرهم بأن الجاحظ كان كنانياً صلبية ، أي أنه كان خالص النسب ، عريق الأصل في العرب ، فهو عربي من سلالة عربية صريحة ، نشأ في بيت من أجل بيوتات العرب ومن أعرقها في المجد والشرف [3] .

أما لقبه الجاحظ ، فقد جاء من قبل أنه كان مشوه الخلق جاحظ

---

(١) ادب الجاحظ حسن السندوبي ص ١٣

(٢) المرجع نفسه

(٣) ادب الجاحظ حسن السندوبي ص ١٤

العينين ـ أي بارزهما ـ وكان يقال له (الحدقي) أيضاً [1] لأنه كان ناتىء الحدقتين .

وكما اختلف الرواة والمؤرخون في صحة عربية الجاحظ كذلك اختلفوا في مولده . منهم من زعم أنه ولد سنة تسع وخمسين ومائتين ، ومنهم من يرى غير ذلك . ولكن القول الفصل الذي لا يرتاب فيه ولا يشك في صوابه ماقرره هو عن نفسه ونقله الينا ياقوت في معجمه إذ يقول : « قال المرزباني : حدثني المادي قال : حدثني من رأى الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان . قال الجاحظ : أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت في أول سنه خمسين ومائة ، وولد في آخرها [2] » .

ولد الجاحظ والمصران ـ البصرة والكوفة ـ يزخران بالعمران ، ويتباريان في صنوف العلم والمعرفة ، ويتنافسان في ألوان الفنون والآداب ولما شب طلب العلم أولاً في الكتاب ثم راح يتعيش بعمل يديه ، فيبيع الخبز والسمك بالبصرة ، وهو لايدخر جهداً في طلب العلم ، ومطالعة الكتب ، ومجالسة العلماء ، وقد كان في البصرة في ذلك الحين طائفة حسنة من العلماء وأرباب النحو واللغة والأدب عرفوا « بالمسجديين » ، فأقبل عليهم الجاحظ يجالسهم ويأخذ عنهم ، وما أن أيفع حتى تلقى الفصاحة وأساليب التعبير شفاهاً من خطباء العرب في « المربد » . وقد ألف التردد عليه منذ حداثته . وكان بالاضافة إلى ذلك كله يكتري حوانيت الوراقين ويبيت فيها أحياناً للمطالعة .

وكان كثيراً مايترك البصرة قاصداً غيرها من المدن الاسلامية المعروفة في ذلك العهد للبحث والاستقراء ، ولقاء العلماء ، يعود بعدها مفعم الوطاب بصنوف العلوم وضروب الآداب . ولما جاوز الخمسين من عمره عنت له

---

(١) الوفيات جزء ٣ ص ١٤٤

(٢) معجم الادباء جزء ١٦ ص ٧٤

الرحلة إلى بغداد واتخاذها دار إقامة ، وكان ذلك في سنة ٢٠٤ ،في الوقت الذي قدم المأمون إليها . وهناك اتصل بالكبار من رجال الدين وعلماء اللغة . وتردد إلى مجالس الأدباء فنبه أمره ، وعظمت شهرته ، واشتهرت معارفه ، فقصد إليه العلماء ، وأمه الأدباء وأقبل عليه الطلاب من كل صنف ومن كل جنس ، وعلى اختلاف الملل وتباين النحل .

مرض الجاحظ في أواخر عهد الخليفة « جعفر » المتوكل على الله العباسي . والظاهر أنه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف طوال مدة مرضه وبالرغم من شدة العلة والمرض العضال الذي وصفه صاحب الوفيات بقوله: (١) « وكان الجاحظ في أواخر عمره قد أصابه الفالج ، فكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته ، والنصف الايسر لو قرض بالمقاريض لما أحس به على خدره وشدة برودته » . وكان يقول في مرضه : اصطلحت على جسدي الأضداد ، إن أكلت بارداً أخذ برجلي ، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي . وكان يقول : أنا من جانبي الأيسر مفلوج فلو قرض بالمقاريض ماعلمت به ، ومن جانبي منقرس فلو مر به الذباب لألمت ، وبي حصاة لاينسرح لي البول معها ، وأشد ماعلي ست وتسعون سنة .

وكان ينشد :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وما زال في علته هذه إلى أن وقعت عليه مجلدات العلم فقضت عليه وذلك في نهاية سنة ٢٥٥ هـ و ٨٦٨ م

ولما وصل نعيه إلى قصر الخلافة في بغداد ، أسف الخليفة المعتز بالله عليه أشد الأسف وقال ليزيد بن محمد المهلبي (٢) : يايزيد! ورد الخبر بموت

---

(١) الوفيات جزء : ٣ ص ١٧٤
(٢) معجم الادباء جزء : ١٦ ص ٧٦

الجاحظ ، فقال : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام النعماء ورثاه أبو شراعة القيسي بقوله :

في العلم للعلماء إن يتفهموه مواعظ
واذا نسيت وقد جمعت علاعليك الحافظ
ولقد رأيت الظرف دهراً ما حواه اللافظ
حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ
ثم انقضى أمد به وهو الرئيس الفائظ

ب ـ عصر الجاحظ

١ — البيئة السياسية :

دامت الخلافة العباسية خمسة قرون كان عرش العباسيين فيها مسرحاً للأهواء والنزعات المختلفة. وكان العصر بصفة عامة عصر صراع بين قوى مختلفة : صراع بين الثقافات المختلفة ، وصراع بين العناصر المتباينة التي شملتها الدولة ، وصراع بين النحل والمذاهب المتقاربة أو المتضاربة ، وصراع بين الحاكم والمحكوم اتخذ ألواناً شتى وثياباً مختلفة ، وصراع بين الأسرة الحاكمة نفسها .

هذا الصراع بين هذه القوى المختلفة هو الطابع العام للعصر العباسي في أدواره التاريخية المختلفة ، وما زال هذا الصراع يقوى حيناً ويضمر حيناً ، ويشتد حيناً آخر ، حتى أصاب الدولة داء الأمم فتمزقت وحدتها وتبعثرت قواها ، وضعفت هيبتها ، وأصبحت لقمة سائغة للتتار الذين قوضوا

عرشها بقيادة زعيمهم « هولاكو » . حيث استولى على بغداد سنة ٦٥٦هـ

لقد قامت الدولة العباسية في أول عهدها على القوة ، واستعانت بالفرس خاصة والشعوبية بصفة عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون بني هاشم ، ويتذمرون من الحكم الأموي . فرجحت لذلك كفة الأعاجم وكان للعنصر الفارسي أثر كبير في السيطرة على زمام الأمور وأعنة الشؤون الداخلية والخارجية ، مما أدى الى نقل الحكم الاسلامي من طور إلى طور ، ومما أثر في الحياة العربية تأثيراً كسروياً خالصاً . فبدأت تبعد عن عاداتها وصفاتها . فقل لذلك شأن العرب ، واقتصر أمرهم على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التي احتوتها الدولة ، التي أصبحت أممية اسلامية أكثر منها عربية اسلامية .

قوي نفوذ الفرس وتغلغل في صلب الدولة . فأدخلوا سياسة الحكم المطلق ، وأصبحت قصور الخلفاء في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة ، كما أدخلت طرائق الفرس في تنسيق الدواوين ونظم الحرب وأساليب الحكم .

ولم يمض ردح من الزمن حتى انتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي الأتراك ، الذين أخذوا ينكلون بالفرس والعرب جميعاً . وحتى أصبح لهم النفوذ التام على الخلافة والخلفاء ، وخاصة بعد فتح عمورية سنة ٢٢٣ هـ . فاعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء . وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ، ويتعرضون للحرم والغلمان ، فكرههم الناس أشد الكره ، ونفروا منهم أشد النفور ، فكان نفوذهم في الدولة جرحاً دامياً يؤلم كل عربي صميم ، يظهر ذلك في هجاء دعبل المتوفي سنة ٢٤٦ هـ للمعتصم لشدة تعصبه لهم :

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركي عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أب

ولم تخل البلاد في عهد بني العباس ، من حروب وفتن اتخذت اسماء

وألواناً ودعايات مختلفة . فقد قمعوا ثورات الراوندية ، والزنادقة ، والخرمية وغيرهم من الذين قاموا في وجه الأمن والسلام . هذا في الداخل ،واما في الخارج فقد أكثر الخلفاء من الغزوات ، وحاولوا غزو الممالك المجاورة لهم ، ولا سيما في عصر الجاحظ .

تلك خلاصة الحالة السياسية في عصر الجاحظ .

٢ — البيئة الاجتماعية :

امتدت الدولة العباسية وتوسعت حدودها ، حيث شكلت أكبر أمبراطورية معروفة في ذلك العهد . وبامتدادها ، وسعة أطرافها ، شملت عناصر متعددة ، واجناساً متباينة ، أهمها :

العنصر الفارسي : وكان عماد الدولة في نظامها السياسي والاداري ، وقد تأثرت الدولة العباسية بهذا العنصر تأثيراً مباشراً ، تأثرت بهم في حياتهم العقلية ، وفي عاداتهم ، وتقاليدهم العامة والخاصة ، وكان الفرس دعاة للترف والمجون والحضارة ، وكان طابعهم العام حب السيادة والترف والبزخ والقدرة على تنظيم ادارة الدولة وتسيير دفتها . وتشجيع العلوم والآداب والظهور بمظهر التشبيع .

الأتراك : أصبح لهم النفوذ في الدولة بعد أن قضوا على نفوذ العرب والفرس ، فتولوا المناصب الرفيعة في الدولة ، واستأثروا بمرافقها . وكانت ثقافتهم قليلة جداً ، أو معدومة ، وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة واهية ، وكان فيهم عبث بالأخلاق وشراهة في جمع الأموال [١] ، وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة . فكثرت الجواري الأتراك في قصور الخلفاء والأثرياء حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابع الترك ، حب

---

(١) ظهر الاسلام جزء ١ ص ٣٢

الجندية والفروسية ، والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل ، وحب المال وجمعه من أية سبيل ، وعدم الرغبة في الاصلاح .

العنصر العربي : وقد أقصي عن النفوذ وضعف شأنه في الدولة والخلافة وكان للمعتصم في ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون في الشام والجزيرة ، حيث كونوا لهم هناك دويلات عديدة . وطابع العربي : الزهو والفخر والاعتداد بالنفس والاعتزاز بها ، وحب الفضيلة والميل إلى الأدب والرغبة في السيادة (١) .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثرهما في الحياة الاجتماعية وتطورها في هذا العصر وهما : الزنج والروم . أما الروم فقد كثر أمرهم في بيوت الخلفاء والأغنياء . وكانت الجواري الروميات والغلمان الروم يملأن القصور ويتعشقهم الشعراء . وأما الزنج أو السود ، فكانوا يجلبون من سواحل افريقيا الشرقية ، وكانوا يعملون في الزراعة والصناعة وفي بيوت الطبقات المتوسطة ، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التي هددوا بها الدولة (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) وكانت حرباً بين الأجناس، وظلت خطرة على المجتمع الاسلامي حتى قضى عليها الموفق عام (٢٧٠ هـ) . (٢)

هذه العناصر المختلفة ، والشعوب المتباينة ، التي كانت تؤلف الدولة العباسية ، تمازجت مع بعضها واختلطت على الرغم من اختلاف ميزاتها وعاداتها وعقائدها ومناهج تفكيرها . فكان من نتيجة ذلك أن انحطت الأخلاق وذابت العادات والقيم ، وقويت الشعوبية وحركة التحرر من الأخلاق والعادات العربية الخالصة . فلم تعد البيئة الاجتماعية عربية صميمة ، بل أصبحت خليطاً فيه من كل لون ومن كل عادة .

---

(١) الحياة الادبية في العصر العباسي عبد المنعم خفاجي.
(٢) المصدر السابق .

وكانت اقتصاديات البلاد ومواردها ، واسعة جداً مما أفسح المجال للترف والنعيم والرخاء وسعة العيش . ولكن الفرق كان كبيراً بين طبقات المجتمع في التمتع بهذه الثروات الطائلة .

كان هناك طبقة الخاصة ، وكانت صاحبة النفوذ والثروة والجاه. وكانت تتمتع بلين العيش وترفل بالسعادة والنعيم والرخاء ، على حين كان الفقر والبؤس وشظف العيش والشقاء للطبقة العامة وهم — بطبيعة الحال — أكثر الناس .

وكان من نتائج تدفق الثروة والترف والنعيم والفراغ — عند الطبقة الخاصة وبعض رجال الصناعة والتجارة — أن شاع اللهو ، ومال الناس الى الغناء ، والتفنن في المآكل والملبس ، ومايتبع ذلك من مظاهر الحضارة المترفة . فشاع التسري ، وكثرت مجالس الغناء والشراب ، وانتشرت في البلاد تجارة الرقيق . وعنى العباسيون بتعليم الجواري وتلقينهن الغناء ، فكن من أقوى العوامل في نشر تلك الصناعة ، كما عملن على نشر الشعور بالجمال الفني ، وعلى إشعار الناس بالظرف وضروب التفنن في المأكل والملبس والأزياء المختلفة .

هذا ، ولتنوع الحياة الاجتماعية الى خاصة وعامة ، وترف وفقر ، ونسك ولهو ، وشقاء ونعيم ، كانت البلاد مسرحاً للنحل ، ومجالاً للدعايات ، وميداناً للجماعات السرية وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون الاغراض الاجتماعية بالمبادىء الدينية ، ويعالجون الترفيه عن الفقراء بالدعوة الى المساواة .

لذلك كله كنت ترى في الدولة العباسية ، التشيع برجالاته ومبادئه ، والاعتزال بطوائفه وزعمائه ، والسنة باختلاف أقوالها ورجالها ، والفلسفة بمذاهبها ومدارسها ، والعلوم الحديثة بانواعها ، وطوائف الأديان الاخرى بنزعاتها وآرائها ، والبدع والضلالات تأخذ أشكالاً ، وتلبس أثواباً ملونة مختلفة ، وتهدف إلى غايات ومآرب متنوعة ، مختلفة اختلاف القائمين بها والداعين

إليها . وبالاضافة الى هذا كله ، فقد قامت الى جنب الترف والفساد حركة استياء تنعي على العهد فسقه وترفه ، وتشدد النكير على المفسدين والمتحللين ، حركة زهد يسارية تحتقر الفانيات في سبيل الباقيات . وتستنكف مما وصلت اليه الأخلاق من الانحطاط ، والحياة الاجتماعية من المجون والتحلل ، ومما شاع من فنون الظلم والجور والبغي والفجور .

وإذا نظرنا الى ذلك العهد من الوجهة الدينية ظهر لنا أن النزعة السائدة فيه هي الحرية وسيطرة العقل ، وذلك لأن الفلسفة اليونانية كانت قد هبت ريحها وتنشقها المفكرون . فارتفع معها لواء العقل والمنطق في الاقطار والأمصار فغذت الأفكار ، وفتحت العقول . وكانت من أهم المواد لبعض الفرق والنحل الدينية والاجتماعية . وكانت المعتزلة من أشهر الفرق الدينية وأشدها تأثيراً في التحرر الفكري . وقد كانت في بداءة الأمر من مسائل الاجتهاد التي إن أثيب فيها المصيب على اصابته ، لم يأثم فيها المخطىء على خطأه ، ولكنها تشعبت وتفرعت وتولدت منها مذاهب وفرق . وقد تأثر الجاحظ بهذه الفرقة واتخذ طريقها في الجدل والمناقشة . وهو رأس فرقة من فرقها عرفت به وانتسبت إليه . هذه صورة مختصرة للبيئة الاجتماعية في عهد الجاحظ .

٣ — البيئة الثقافية :

ازدهرت الحياة الثقافية من أدبية وعقلية ازدهاراً كبيراً في العصر العباسي ، حيث تلاقت في الحواضر الاسلامية شتى الثقافات المختلفة التي تمثل حضارات الأمم العريقة في العلم والثقافة . ولما كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة مختلفة ، كانت عقلية الشعب الجديد يتجلى فيها أثر الثقافات القديمة والجديدة ووراثاتها .

لقد أخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية في نواحيها المتعددة ، ويعدونها

بعالمهم وجاههم ، وحذا الوزراء والأمراء حذو الخلفاء ، وكانوا يتنافسون في ذلك كما يتنافسون في فتح دور العلم . فظهر في الجيل الجديد ميل شديد الى الحياة العلمية والاغتراف من ثقافات الشعوب المتمدنة .

أما الثقافات التي كانت منتشرة وشائعة في ذلك العصر ، والتي كان لها أثر كبير في الأدب ، فهي ثلاث :

الثقافة العربية : وكانت تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدين ، كالتفسير والفقه والكلام والتصوف وماتبع ذلك . ثم على الشعر ، وما يحيط به من العلوم الأدبية ، كاللغة والنحو وغيرها . وقد كانت الثقافة العربية، الثقافة الروحية لهذه الشعوب المختلفة ، كما كانت المورد الأول للناس جميعاً .

الثقافة اليونانية : وقد دخلت على الفكر الاسلامي وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية الى العربية .

الثقافة الفارسية : وقد انتشرت هذه الثقافة انتشاراً كبيراً على يد الوزراء وكتابهم الفارسيين ، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية ، والعرب الذين اتقنوا الفارسية الى العربية ، تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة .

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الاسلامي مباشرة ، وبواسطة الفرس ايضاً . أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية ، وليس لهم ثقافة ؛ وبعد أن تعلموا العربية لم ينبغ منهم في الأدب والشعر إلا القليل .

تجمعت هذه الثقافات المختلفة وتفاعلت ، فأحدثت أثرها في العقول والأفكار . وكان المتكلمون اكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات (١) صلة الوصل بين الفلسفة اليونانية والأدب ، فقدموا للأدباء والشعراء معاني لم

---

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٨٠

يكونوا يعرفونها من قبل ، لذلك أمتاز هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه ، وبكثرة الحكم وتأليف الكتب الجامعة ، والمبالغة الشديدة ، والاكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية المنطقية .

وقد زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها ، بتطاول الزمن وتلاقح العصور . فازدهرت العلوم ، وتفتحت العقول ، وبلغت الثقافة ذروتها وأوجها .

وكان لكل ثقافة من هذه الثقافات التي انتشرت في العالم العربي طابع خاص : فالعقل اليوناني : كان ميالاً الى فلسفة التعليل والتحليل ، ميالاً الى المنويات الى التعمق ، لذلك كان من البواعث الكبرى على إحلال العقل محلاً عالياً رفيعاً عند العرب . كما كان دافعاً الى التصنيف والتأليف والاشتغال بالعلوم . أما العقل الهندي : فكان ميالاً الى التأمل ، فهو فكر شعري أكثر منه علمي . وعاطفة الزهد والتصوف عند الهنود كانت قوية ، وكان لها أثر كبير في حياتهم . لهاذ كان الفكر الهندي من البواعث الكبرى على الحكمة والزهد والقصص عند العرب . أما العقل الفارسي فكان يحوي كثيراً من العلوم القديمة والحضارة الفارسية تغلب عليها المادة ، لهذا كان العقل الفارسي من الأسباب التي أشاعت الزخرف والتفخيم والاطناب في الكلام والكتابة ومظاهر الحضارة . لقد كانت هذه الثقافات تؤلف التراث العلمي لذلك العصر . وكان فيها زبدة علوم الأمم المختلفة وثقافاتها وآدابها . وكان لابد للرجل المستنير في ذلك العصر أن يأخذ بحظ وافر من هذه الثقافات وأن يتعرف عليها جميعا .

تلك كانت البيئة الثقافية للجاحظ ، وتلك كانت الحال الاجتماعية والسياسية : تمازج ونزعات مختلفة ، وفوارق في كل الحقول ، ومذاهب وفروع في المجتمع والسياسة والدين والعلوم ، وتبسط في كل شيء ، وتداخل وتنافر .

ولقد عاش الجاحظ في تلك البيئات مصوراً ومؤرخاً ، يحيا ويراقب ، ينظر ويختبر ، يمتزج وينعزل . وهكذا كان العصر كله مصوراً في ذاته وفي

كتبه ، تتجلى فيه وفيها النزعات والثقافات ، فكان بذلك علماً من أعلام التاريخ والأدب ، وركناً من أركان العلم والتحري .

ج ـ ثقافة الجاحظ ومنزلته الادبية :

الجاحظ إمام البيان ، وأستاذ الأدب ، وليس من المبالغة أن نقول إنه سيد كتاب العربية بلا منازع ، وشيخ أدباء العرب بلا مدافع ، ويشهد على ذلك أن شهرته الأدبية ـ كانت ولا تزال ـ تدوي في كل أفق وتصل الى كل قطر ، وتسير على كل شفة ، ويرن صداها على سمع كل كاتب وشاعر وأديب .

وحسبك أن لقبه أصبح شعار مدرسة جامعة ، ودليلاً على التبحر في العلوم ، والتوسع في الآداب ، والتفوق في فنون البلاغه وصنوف الكلام ، ورمزاً يود أن يتحلى به كل عالم وأديب .

وهذه قاعدة قررها القاضي الفاضل وسجل فيها اعترافه على نفسه ، وشرعها لمن اقتدى به أو حاول الجري على سنته اذ يقول « وأما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب إلا من دخل داره ، أو شن على كلامه الغارة ، وخرج وعلى كتفه منه الكاره .

وروي لنا صاحب معجم الأدباء فيقول : « ومن كتاب هلال : قال ابو الفضل بن العميد : ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة انفس: اما الفقه فعلى ابي حنيفة ، لأنه دون وخلد ماجعل من يتكلم فيه من بعده مشيراً اليه ومخبراً عنه . واما الكلام فعلى ابي الهذيل . واما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى ابي عثمان الجاحظ » .

اما شهرته الادبية ، وشهرة مؤلفاته وانتشارها ، فانه لم يعرف كاتب في العربية لاقت مؤلفاته من واسع الشهرة وذيوع الانتشار ، ما لاقته

ورمزاً يود أن يتحلى به كل عالم وأديب .

وهذه قاعدة قررها القاضي الفاضل ، وسجل فيها اعترافه على نفسه ، وشرعها لمن اقتدى به أو حاول الجري على سنته إذ يقول : « وأما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب إلا من دخل داره ، أو شن على كلامه الغاره وخرج وعلى كتفه منه الكاره . »

ويروي لنا صاحب معجم الأدباء فيقول : « ومن كتاب هلال : قال أبو الفضل بن العميد : ثلاثة علوم كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس : أما الفقة فعلى ابي حنيفة ، لأنه دون وخلد ماجمل من يتكلم فيه من بعده مشيرا اليه ومخبراً عنه . واما الكلام فعلى ابي الهذيل ، واما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ . »

اما شهرته الأدبية وشهرة مؤلفاته وانتشارها ، فانه لم يعرف كاتب في العربية لاقت مؤلفاته من واسع الشهرة وذيوع الانتشار ما لاقته كتب الجاحظ على كثرتها ، وتنوع أغراضها ، وتباين مقاصدها .

ولعل من طريف ماروى في ذلك ماتحدث به أبو محمد الحسن بن عمرو النجيرمي قال(١) : كنت بالأندلس ، فقيل لي : إن ههنا تلميذاً لأبي عثمان الجاحظ يعرف بسلام بن يزيد ، ويكنى أبا خلف ، فأتيته فرأيت شيخاً هماً ، فسألته عن سبب اجتماعه مع أبي عثمان ، ولم يقع أبو عثمان إلى الأندلس ؟

فقال :

كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان ، فوقع الينا كتاب « التربيع والتدوير » له ، فأشاروا اليه . ثم أردفه عندنا كتاب « البيان والتبيين » له ، فبلغ الرجل الصكاك(٢) بهذين الكتابين . قال : فخرجت لأعرج على شيء حتى قصدت بغداد ، فسألت عنه فقيل لي : هو بسر من

(١) ادب الجاحظ للسندوبي ص٦٩

(٢) الصكاك : عنان السماء

رآى . فأصعدت اليها ، فقيل لي : قد انحدر الى البصرة. فانحدرت اليها ، وسألت عن منزله فأرشدت اليه ودخلت عليه ، فاذا هو جالس وحواليه عشرون صبياً ليس فيهم ذولحية غيره ! فدهشت فقلت : أيكم ابو عثمان ؟ فرفع يده وحركها في وجهي وقال .

من أين ؟

قلت : من الاندلس .

فقال : طينة حمقاء . فما الاسم ؟

قلت : سلام

فقال : إسم كلب القراد . ابن من ؟

فقلت : ابن يزيد

فقال : بحق ماصرت ! ابو من ؟

فقلت : ابو خلف

فقال : كنية قرد زبيدة . ماجئت تطلب ؟

فقلت : العلم

فقال : إرجع بوقت فانك لاتفلح

فقلت له : ماانصفتني ! فقد اشتملت على خصال أربع . جفاء البلدية ، وبعد الشقة ، وغرة الحداثة ، ودهشة الداخل

فقال : فترى حولي عشرين صبياً ليس فيهم ذولحية غيري ، وكان يجب ان تعرفني بها .

قال : فأقمت عليه عشرين سنة .

وهذا حديث آخر تعرف به مكانة كتب الجاحظ وما أدركت من من شأو وغاية .

قال ابو القاسم السيرافي(١) : « حضرنا مجلس الاستاذ ابي الفضل بن العميد

---

(١) وفيات الاعيان جزء ١ ص٣٨٩

فجرى ذكر الجاحظ ، فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به، وسكت الوزير عنه ، فلما خرج الرجل قلت له : سكت أيها الاستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك في الرد على امثاله ؛ فقال : لم أجد في مقابلته ابلغ من تركه على جهله . ولو واقفته وبينت له النظر في كتبه وصار بذلك (إنساناً) ياابا القاسم . فكتب الجاحظ تعلم العقل أولا ، والأدب ثانياً، ولم استطلحه لذلك .

ومن أشف وأطرف ما يدل على شهرته ومكانته ، ماتحدث به ابن مقسم قال : قيل لأبي هفان ـ وقد طال ذكر الجاحظ له ـ لم لاتهجو الجاحظ وقد ندد بك ، واخذ بمخنقك ؟

فقال : أمثلي يخدع عن عقلة ! والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما اصبحت إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة .

كل ذلك يدل على أن الجاحظ كان ذا ثقافة واسعة جداً ،جعلت منه دائرة معارف حية . ولا غرابة في الأمر لأنه قد وعى في صدره جميع معارف عصره في الأدب والعلم والفلسفة . وكان بالاضافة الى ذلك يملك مواهب عقلية وأدبية قل ان تجتمع في رجل غيره . وهذه المواهب أهلته لاحتلال هذا المركز ولهضم تلك العلوم والثقافات. وكان ميالا بطبعه الى الدراسة والبحث والتأليف والتحري يجد في ذلك متعته ولذته الكبرى . حدث ابو هفان قال : لم ار قط ولا سمعت من احب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فأنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان. حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .

وقال فيه ابن النديم :لم يكن في الارض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه

وأنت اذا رجعت الى الجزء الاول من كتاب الحيوان فتجده نتفاً للكتب ، يقوم دليلا بيناً على ماملأ الله به صدر هذا الرجل من ايمان بما

للعلم والكتاب من شرف وجاه، وما للتفهم والقراءة من مكان عالٍ ومنزل كريم.

وكانت مصادر ثقافة الجاحظ كثيرة منها ماطالعه من كتب العرب واليونان والفرس والهنود وغيرهم. لقد اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة، وعن طريق المتكلمين ومجالسة الكثير من المثقفين باليونانية وتأثر بخطابة أرسطو الى حد بعيد. ولم يكن الجاحظ متأثراً بالفلسفة اليونانية فحسب، بل كان عقله الجبار ينتقد بعض الآراء اليونانية وينقد التراجمة فقد نقد كتاب المنطق وقال ان اسلوبه عقيم.

كذلك كان الجاحظ ملماً بالثقافة الفارسية المترجمة الماماً واسعاً، ويظهر أنه كان يعرف الفارسية. في كتاب البخلاء يحكي الجاحظ كلام بخيل من آل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق: لو خرجت من جلدك لم أعرفك قال الجاحظ: وترجمة هذا الكلام بالفارسية « كراز بوستت بارون بيائي نشاسيم (١) ». وأثر ثقافته الفارسية واضح في كتبه وفي مؤلفه « البيان والتبيين » (٢) أما أثر ثقافته اليونانية فواضح ايضاً في كتاب « البيان والتبيين (٣) وفي كتاب « الحيوان ». فقد قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة « كتاب الحيوان » وأستدل برأي أرسطو، وكان مصدراً كبيراً له في كتابه.

ويرى الجاحظ أن لليونان فلسفة وصناعة ومنطق. أما بالنسبة للخطابة فليس لفلاسفتهم ذكر. ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعاينها. ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها في المنطق، وللهند حكمها وسيرها وعللها. ويرى أنها لاتوازن بما للعرب من بيان وبلاغه وصناعه وخطابة (٣)

أما اساتذة الجاحظ فعرب « المربد » الخلص الذي كان يسمع أقوالهم ويأخذ اللغة الصحيحة مشافهة عنهم. حيث كان المربد ملتقى الخطباء والشعراء والرواة

---

(١) البخلاء ص ٤٥ - ٤٦
(٢) البيان والتبيين جزء ٢ ص ١١٧
(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٧

والنسابين والرجاز وأرباب البلاغة من مختلف القبائل ومتباعد الأحياء، يعرضون فيه نتاج قرائحهم وثمرات بلاغتهم من ألوان البيان وأصناف التفكير .

كما تلقى الجاحظ علومه ومعارفه عن شيوخ المصرين وعن أكابر علمائها . وصفوة أهل الفضل من رجالاتها . وممن أخذ عنهم علومه وتلقى معارفه : أبو عبيدة معمر بن المثنى ،والأصمعي ، وأبو زيد الأنصاري ،وأبو الحسن الأخفش وكان صديقه .

وحدث الجاحظ عن فريق من الثقات وعمد السند منهم : القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ، ويزيد بن هارون ، والحجاج بن محمد بن حماد ابن سلمه ، وغيرهم .

وعن الجاحظ أخذ خلق كثير منهم المبرد ، ويموت بن المزرع وأبوبكر بن أبي داود السجستاني المحدث ومحمد بن عبد الله بن أبي الدهاب وغيرهم ممن يكاد يخطئهم الحصر(١) .

يضاف الى ماتقدم التجارب والخبرة الشخصية التي كانت سبباً هاماً في تغذية تفكير الجاحظ ومعرفته العميقة بنماذج البشر وطبائع النفوس .

لقد كان الجاحظ شعبياً بطبعه ، وكان فيه ولع وشغف للسؤال والتحري بل كانت غريزة حب الاطلاع قوية فيه ، فهو يتحدث الى الملاحين ومربي الحمام فيسأل ويستفهم . وهو يجالس صائدي العصافير فيسأل ويستفهم، وهو يخالط الحوائين فيسمع أحاديثهم ويناقشهم فيما لايعلم.ثم هو يرجع من ذلك كله وقد علم كل ماهو بحاجة اليه .

وشيء آخر لايمكن تجاوزه عند الكلام عن ثقافة الجاحظ وهو «مذهب المعتزلة » فقد كان الجاحظ إماماً من أئمتهم ، وشيخاً من شيوخهم ، ومن ذوي الرأي الصائب والنظر النافذ فيهم . وقد انفرد من بينهم بآراء خاصة

---

(١) ادب الجاحظ لحسن السندوبي ص٢٨

تابعه عليها قوم منهم تسموا « بالجاحظية » . فكان شيخ مذهب فيهم ورأس فرقة منهم .

ولا يخفى أن الجاحظ كان من أصحاب النظام الزعيم المعتزلي المشهور ثم أن الاعتزال في عصر الجاحظ قد تأثر الى حد بعيد بالعلوم المترجمة والمناحي الفلسفية . فدفع هذا التيار الجارف المعتزلة الى مواطن شتى من نواحي الحجاج والجدل والمنازعات الكلامية . وهذا بدوره أثر على الفن الأدبي كما كان فضله عظيماً في نشأة البلاغة العربية وتطورها واتخاذها صورة علمية .

والصفة الكلامية هذه، تأثر بها الجاحظ وتمثلت في مؤلفاته، وانك واجد في كتاب البخلاء مايعبر عن هذه النزعة بصورة واضحة ، ويمثل قدرة الجاحظ على صناعة الكلام والمداورة بالمعاني المختلفة والتفنن في أساليب النقاش والاقناع بما لايذهب اليه أو يؤمن به . تمثل لك ذلك بصورة خاصة في رسالة أبي العاص الثقفي ورد ابن التوأم عليه ، وفي جزء من قصة تمام بن جعفر .

هذا هو الجاحظ المعتزلي ، أما الجاحظ الناقد الأدبي فقد اتخذ له موقفاً رائعاً . فقد كان النقاد ينقسمون شقين : فريق يرمي الى الظهور بمظهر البداوة التقليدي في الأداء والتعبير. فهو ينظر الى فن القول على انه معرض لغريب اللغة وحواشيها متناسياً روح العصر وذوقه وتطوره . وفريق يهمه أن يكون الأدب أخلاقياً حسب النظم الأخلاقية التي انتهى اليها المجتمع العربي . فكان متأثراً بالحياة السياسية والاجتماعية، وبألوان الحضارة في العيش والتفكير، فمال الى رقة الاسلوب وسهولته مع حرص على صفاء الطبع والذوق .

شاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية ، فمال بطبعه وذوقه الى الاتجاه الأخير . وكتابه البيان كله دعوة الى هذا الرأي وقد عرف الأدب بأنه البيان ، والبيان هو الوضوح ، والوضوح يعني قرب اللفظ وسلامته . كما أنه أكد بأن شعر الخلعاء من الأدب ، بل إنه لم يتحرج ـ وهو الفقيه العلم ـ من أن يروي الفكاهة ويأنس لها .

هذا وانك واجد شخصية الجاحظ تطالعك فيما كتب ، وفيما ألف ،

وتطالعك من كل جوانب المواضيع التي طرقها . وهي حين تطالعك تلقاها بارزة ظاهرة واضحة تأنس اليها وتكبرها . هي شخصية المفكر الهادىء الواثق بنفسه وعلمه وعقله وثقافته، المؤمن بآرائه وأفكاره، المعتز بنفسه والحريص على كرامته، يخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم فلا تذوب شخصيته في شخصياتهم ولا تفنى نفسه لتمجيد نفوسهم . بل يراهم إخوانه ،ويرى له عليهم حق الصداقة ودالة الأخوة .وهو لايجبن عن توجيه اللوم والعتاب اليهم إن كان هناك مجال للوم والعتاب .

وأنت حين تقرأ في كتب الجاحظ، تجد ثقافة واسعة، ورواية كثيرة وذوقاً سليما ،واحاطة تامة بالبيان والبلاغة وصنوف القول، تطل عليك من وراء ذلك كله شخصية الرجل واضحة المعالم بينة الأثر والمكانة ، توجه بسحرها وقوتها وثقافتها عقل القارىء وفكره وشعوره[1]، وتنقله الى اجوائها، حتى يكاد يذيب في جوها البعيد ، وحتى يكاد ينسى أمامها نفسه ،وحتى يكاد يشعر أنه قد نقل من جوه هو الى جو آخر ، تشيع فيه روح قوية ساحرة تملك العقل والعاطفة ، وتلعب بالنفس والمشاعر ، وتروع بأدبها وكثرة حفظها وثقافتها وروايتها .

* * *

(١) الحياة الادبية في العصر العباسي عبد المنعم خفاجي

كتاب البخلاء

خلف لنا الجاحظ مؤلفات كثيرة ومتنوعة مابين كتب ورسائل ، فقد خرج عن زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفاً في ألوان شتى من المعرفة ، رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزي المتوفي سنة ٦٥٤.(١)

ذلك أدنى تقدير وصلت اليه كتب الجاحظ الذي يقول فيه المسعودي « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم اكثر منه كتباً »(٢) .

وقد عدد ياقوت في معجمه كتبه ورسائله فأثبت منها مائة وثمانية وعشرين مصنفاً . ومهما يكن من أمر ، فالجاحظ يعتبر في الرعيل الأول من مؤلفي عصره وكتابه .

لقد صنع الجاحظ هذه الكتب ، ولكنه يختلف عن غيره من المؤلفين اختلافاً غير يسير . فلم يكن همه الجمع والرواية والاخبار ، وانما كان يعمل جهده ليبدع ويبتكر ويطرف ويخلق للناس بديعاً . فتراه في كتاباته يمزج الجد بالهزل ، ويشيع النادرة والفكاهة في حديثه وكلامه .

لذلك جمع قلوب القارئين حوله ، واستولى منهم بفنه على شتى ميولهم فصبوا اليه وأغرموا به ، وطرق الجاحظ في كتابته أبوابا عجيبة ، وتقرب الى العامة ، وحرص أشد الحرص على استرضائهم ، ولم ينس في ذلك أن يستميل اعجاب الخاصة في المعارف العالية والسياسات الرفيعة .

ونحن اذا حاولنا تقديم كتابه البخلاء وتعريفه ، تلخص ذلك فيما وصفه به مؤلفه من أنه كتاب في « نوادر البخلاء واحتجاج الاشحاء وما يجوز من

---

(١) مقدمة الحيوان تحقيق وشرح الاستاذ عبد السلام محمد هارون

(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ١٣٥

ذلك في باب الهزل ، وما يجوز في باب الجد »[1].فهو يسوق احاديث على لسان من عرفوا بالبخل واشتهروا به من معاصريه .وهو مرة يصف ومرة يدافع ومرة يحتج واخرى يجد ويهزل ويسخر كل ذلك باسلوبه وطريقته التي آثرها والتي رمى من ورائها استهواء القراء والحرص على كسب رغبتهم وارضائهم .

وهو يذكر لنا في مقدمة الكتاب أن الذي حمله على وضع هذا الكتاب هو الفائدة التي أداها كتاب له آخر عنوانه « تصنيف حيل لصوص النهار وتفصيل حيل سراق الليل» . كما يذكر أن الذي ساعده على توفير مادة الكتاب «ملح الحزامي واحتجاج الكندي ورسالة سهل بن هارون و كلام ابن غزوان وخطبة الحارثي وكل ماحضره من أعاجيبهم واعاجيب غيرهم ».واحتجاجهم للبخل ، وشذوذ البخلاء في تفكيرهم ، الى غير ذلك مما لم يكن بد من تقويعه وتوضيحه ، حتى يكون من الكلام فائدة للبصير ودرس للبيب . وقد نعت الدكتور طه حسين كتاب البخلاء فقال : «هو من أجود الكتب ويحق للغة العربية أن تفاخر به . هذا الكتاب جمع فيه الجاحظ أخباراً تتصل بالبخلاء الذين في عصره . تناول فيه المتكلمين والمعتزله ،وقص من أخبارهم في البخل أشياء كثيرة . وقيمة هذا الكتاب لا أدري أهي في الجمال اللفظي واستقامة المعنى ؟ أم في خصب المعاني ؟ أم في هذا التصوير الدقيق الذي لا يقاس إليه تصوير ، تصوير حياة البصرة وبغداد في عصر الجاحظ »[2].

إفتتح الجاحظ كتابه بنظرة عامة حول نفسية البخلاء جعلها مقدمة بين يدي موضوعه ، وبعد هذه المقدمة التحليلية يثبت رسالة سهل بن هارون في البخل وفيها ردود الرجل على بني عمه آل راهبون الذين ذموا مذهبه في

---

(١) البخلاء ص ٢

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ٦٦

البخل وتعقبوا كلامه في الكسب .

ثم ينتقل الجاحظ الى موضوع كتابه فيبدأ بقصة أهل خرسان ولا سيما أهل مرو ، فاذا البخل في أهل مرو طبع واذا البخل عزيزة حتى في في ديوكهم نفسها ، فهي تسلب الحب من مناقير الدجاج . ثم يتبع قصة أهل خراسان بقصة أهل البصرة من المسجديين ، وقصص زبيدة بن حميد الصوفي ، وليلى الناعطية ، وأحمد بن خلف ، وخالد بن يزيد ، وأبي جعفر والحزامي ، والحارثي ، وغيرهم .

ثم يثبت الجاحظ بعد ذلك رسالتين إحداهما من أبي العاص الى الثقفي في ذم البخل ومدح الكرم ، والأخرى جواب ابن التوأم على رسالة الثقفي في اظهار مفاسد البذل وما الى ذلك . ثم يختم كتابه بكلام على أطعمة العرب .

والجاحظ حين يعرض عليك هذا كله لايفرق في التشهير والتنكير . ولا يزحمك حينما تقرأ بالاشارة الى أن هذا عيب يعاب وينكر ، ولكنه يضعك بين هؤلاء البخلاء وجهاً لوجه ، وينصفهم فيحكي دفاعهم عن أنفسهم وحججهم التي يبررون بها عملهم . يحكي ذلك بنفس اللهجه المخلصة التي يحكي بها رأيه هو . يتركك والمشكلة لاتزال قائمة أمامك تحاول أن تجد الوجه الأفضل لها : هل لهؤلاء أن يحرصوا كل هذا الحرص ويتمسكوا بالمال كل هذا الاستمساك ؟ أم هي مذمة ونقيصة حبذا لويبرأون منها ؟ ؟ ففي رسالة الكندي ــ وهي أمتع مافي الكتاب ــ تسمع أروع الحجج ، وتكاد تميل الى صف الكندي ورأيه لولا مايمسكك من كراهية هذا اللفظ المجرد ووقعه « البخل والبخلاء » .

والجدير بالملاحظة هنا أن الجاحظ في كتابه لا يتخير نماذجه من الأمراء

أو السادة أو ذوي الشأن ، ولكنه يأخذ أفراداً من هؤلاء الذين يكونون بنيان الحياة الاسلامية في ذلك العصر ، يجري كل ذلك في سرد رائع مرح وحياة متدفقة لاتملك أزاءها إلا الضحك وهي تثبت في ذهنك صورة بعض من عرفت من بخلاء عصرك ، فتتمنى أن لو رزقوا كاتباً محللا كالجاحظ ليحكي عنهم ويملأ قلبك سخرية بهم وينفس عنك بعض ماتشعر به من ضغينة نحوهم .

ونماذج الجاحظ وأشخاصه في كتابه أحياء يتحركون ، ويتكلمون بلغة هي لغتهم ، ويكشفون لنا عن أنفسهم . وهم عادة أصحاب جدل ومنطق يلجأون الى البراهين المختلفة ، والسفسطات التي تضحكنا من حيث تقنعهم أو تظهر أنها تقنعهم .

وبخلاء الجاحظ هم من « طياب البخلاء » لاتشمئز النفس منهم ، ولا تمل قراءة أخبارهم ، فقد استطاع الجاحظ أن يبث فيهم من خفة روحه ، وأن يجعل نكته على لسانهم ، ويبرئهم من التعدي الذميم على مال غيرهم مها أشتد حرصهم على مالهم ، لا بل يوضح من طرق أقتصادهم أحياناً ما يحمد وما يعتمد عليه في تدبير المنزل . وهو في ذلك يختبر أقرب الطرق للذوق الادبي ، فقد اعتنى بالظواهر إيضاحاً وكشفاً ، فكشف حركات النفس البخيلة من حيث أراد أن يكشف الغطاء عن حركات اليدين والعينين مما يدل على سعة ادراك الرجل ودقة ملاحظته .

ومن أبرز صفات الجاحظ في كتاب البخلاء قدرته على التحليل النفسي وبراعته في الوصف ودقته في التصوير والاخراج .

لقد حلل البخل تحليلا ، وأوضح جوانبه ، وكشف نفسية أصحابه ، وأظهر في ذلك قدرة عظيمة ودقة فائقة في تحليل الأعمال وبواعثها وأغراضها .

وحسبك في ذلك — كما يقول الاستاذ أحمد أمين — أنه ألف هذا الكتاب الضخم في جزئية صغيرة من جزئيات النفس ، وظاهرة واحدة من

ظواهرها المتعددة ، وهي ظاهرة البخل . فحوّرها ودورها وقلّبها على كل وجه . فنظر اليها من كل جانب ،وسبرها بمسبار دقيق ، ودون في هذا كله مشاهداته وتعليلاته فبلغ ، في ذلك الغاية وأجاد .

ولا ريب أن صلة الجاحظ بالطبقات الاجتماعية المختلفة، ومداخلته القوية مع الناس، وشعبيته وتعرفه على نماذج بشرية من كل نوع وصنف بالاضافة الى قوة ملاحظته ودقتها ، كل ذلك كان من الأسباب القوية في نجاح الجاحظ وتفوقه في هذا التحليل وذاك الوصف والاخراج

وصفة أخرى تطالعك في كتاب البخلاء تكاد تلمسها وتحسها وهي روح الجاحظ المرحة ، ونفسه التي تميل الى الفكاهة والدعابة ، وسخريته المتبسطة في التصوير والعرض حتى أنك لا تمالك نفسك أحياناً من الضحك العميق ، وهو مع ذلك بليغ في تعبيره قوي في تأثيره واضح فيما يريد أن يعرضه ويصوره .

هذا هو الجاحظ مؤلف البخلاء عرضنا له بتلك اللمحة الموجزة، وهذا كتاب البخلاء أشرنا الى أبرز صفاته وأهمها راجين العذر اذا كان هناك تقصير أو نقصان والله من وراء القصد .

طبعات البخلاء

أول من عني بنشر كتاب البخلاء المستشرق فان فلوتين ((Van Vloten)) عام ١٩٠٠ ونشرته له دار برل (Brill) بليدن عن نسخة خطية وحيدة عثر عليها الناشر في مكتبة كوبريلي، ثم عن هذه الطبعة أخذت الطبعة المصرية التي قام بنشرها الحاج الساسي المغربي سنة ١٩٠٥ م ثم قام الاستاذان أحمد العوامري وعلي الجارم فنشرا البخلاء باذن وزارة المعارف. إلا أن هذه الطبعة مدرسية أعتني فيها بشرح الألفاظ الصعبة ، والاعراب النحوي وحذف منها ما يخل بالأدب والأخلاق . واعتمد في أصول هذه الطبعة على

طبعة المستشرق فان فلوتن ، ثم عن هذه الطبعة أيضاً طبع البخلاء بدمشق بعناية دار النشر العربي. وتمتاز هذه الطبعة بالتحقيق والتدقيق معتمدة على التصحيحات التي قام بها المستشرقون فان فلوتن ودي جويه ومرسيه وفي سنة ١٩٤٨ قام الاستاذ ط ه الحاجري بنشر طبعة نفيسه نشرتها له دار الكاتب المصري عن مخطوطة جديدة أعتمد عليها ،وهذه الطبعة تمتاز بالتحقيق العلمي والجهد العظيم الذي قام به الاستاذ الحاجري ولا يسعنا إلا أن نعترف بمقدرته العلمية في التحقيق والتدقيق والعمل العلمي الصحيح الجليل .

وقد قمنا نحن باعادة نشر كتاب البخلاء عن مخطوطة كوپريلي بعد ان استأنسنا بكل من تصحيحات الأساتذة فان فلوتن ومرسيه ودي جويه وسلسلة مقالات الأستاذ داود الجلبي المنشورة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مع مقابلتها على طبعة الاستاذ الحاجري . وقد اجتهدنا ان نرجع كل خبر الى مصدره ، ومقابلته مع ماورد في غير البخلاء من كتب الأدب وأشرنا الى تعدد الروايات وأثبتنا مارأينا صحيحاً ولعلنا بهذا العمل قد قمنا بما يمليه علينا الواجب نحو الجاحظ والعربية سائلين المولى أن يتجاوز عن خطيئاتنا

ولا بد أن ننوه على أنه وقع أثناء طبع الكتاب بعض الأخطاء المطبعية لا تنبو عن القارئ اللبيب ، أصلحنا ما يمكن اصلاحه في جدول الخطأ والصواب في آخر الكتاب وبالله المستعان

البخلاء

قال القاضي الفاضل :

وأما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب الا من دخل داره ، أو شن على كلامه الغارة ، وخرج وعلى كتفه منه الكارة .

الملوك عيال على عمر اذا ساس ، والفقهاء عيال على أبي حنيفة إذا قاس ، والمحدثون عيال على أحمد اذا أسند ، والبلغاء عيال على الجاحظ اذا انتخب وأعرب .

ابن سيار

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ أنعمتَ فزِدْ

تولاك الله بحفظه، وأعانك على شكره، ووفّقك لطاعته، وجعلك من الفائزين برحمته.

ذكرتَ - حفظك الله! - أنك قرأت كتابي في «تصنيف حيل لصوص النهار، وفي تفصيل حيل سرّاق الليل [1]» وأنك سددت به كل خلل [2] وحصّنت به كل عوْرة [3] وتقدمت - مما أفادك من لطائف الخُدعِ، ونبّهك عليه من غرائب الحيل - فيما

(١) من كتب الجاحظ المفقودة، وقد أشار اليه الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان، وسماه كتاب «حيل اللصوص» وقد نهج به منهجه في كتاب البخلاء كما يظهر من بعض قصصه المنثورة في هذا الكتاب وكتاب الحيوان.

(٢) الخلل: النقص والعمل غير الكامل.

(٣) العوره: موضع الضعف في الجيش المحارب. والمراد تقويت اماكن الضعف.

على أن لا يبلغه كيد، ولا يجوزه مكر . وذكرتَ أنّ موقع نفعه عظيم، وأن التقدم في درسه واجب، وقلت: اذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشحّاء. وما يجوز من ذلك في باب الهزْل وما يجوز منه في باب الجد. لأجعل الهزل مستراحاً، والمزاحمة جمَاماً [١]؛ فانّ للجدِّ كدّاً [٢] يمنع من معاودته؛ ولا بدّ لمن التمس نفعه من مراجعته. وذكرتُ ملح الحزامي [٣]. واحتجاج الكندي [٤] ورسالة سهل بن هارون، [٥] وكلامَ بن

---

(١) الجمام: استعادة النشاط بالراحة.

(٢): الكد: الالحاح في الطلب.

(٣) الحزامي وروى الحرامي بالراء المهملة وقد ورد ذكره بالحيوان أيضاً بينه وأبي نواس طرائف ومساجلات وللحزامي شعر ورد باللآلي ص ٦٧٠ وحقق اسمه الراجكوتي «الحزامي» بتشديد الياء.

(٤) يدعي «فان فلوتن» ان الكندي هذا هو الفيلسوف أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي، إلا ان الاستاذ طه الحاجري يجعلها شخصان مستقلان لاصلة لا حدهما بالآخر، والذي جعل «فان فلوتن» يعتقد أن الكندي هذا هو الفيلسوف أبو يوسف لما عرف عن أبي يوسف من بخل شديد اشار اليه الحصري في زهر الآداب، وشخصية الكندي فكهة مما حمل الاستاذ توفيق الحكيم ان يجعل منها مادة طيبه لكتابه «تاريخ حياة معده».

(٥) ترجم له في الادباء لياقوت والفهرست لابن النديم وذكره الحصري في زهر الاداب، وكان مشهوراً بالبخل.

غزوان [1] وخطبة الحارثي [2] وكل ماحضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم ولِمَ سمّوا البخل إصلاحاً والشح [3] اقتصاداً؛ ولِمَ حاموا على المنع، ونسبوه الى الحزم؛ ولِمَ نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع؛ ولِمَ جعلوا الجود سرفاً، والأثرة جهلاً؛ ولِمَ زهدوا في الحمد، وقلّ احتفالهم بالذم؛ ولِمَ استضعفوا من هشّ للذكر، وارتاح للبذل؛ ولِمَ حكموا بالقوة لمن لايميل الى ثناء، ولا ينحرف عن هجاء؛ ولِمَ احتجوا بشظف [4] العيش على لينه، وبمرّه على حلوه، ولِمَ يستحيوا من رفض الطيبات في رحالهم، مع استهتارهم بها في رحال غيرهم، ولِمَ تتايعوا [5] في البخل؛ ولِمَ اختاروا ما يوجب ذلك الاسم مع انفتهم من ذلك الاسم؛ ولِمَ رغبوا في الكسب مع زهدهم في الانفاق؛ ولِمَ عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال

---

(١) هو اسماعيل بن غزوان، ذكره الجاحظ في الحيوان والبيان والتبيين. وكان من اصحاب الكندي، وأبي سعيد الثوري، وكان مستهتراً بالنساء كما تدل أخباره في الحيوان، وكان يأخذ مأخذ المتكلمين.

(٢) لم نعثر على مايدلنا على شخصيته الحقيقية.

(٣) الشح: البخل مع الحرص.

(٤) شظف العيش: خشونته.

(٥) التتايع: التهافت والاسراع في الشر.

الغنى ، ولمَ يفعلوا في الغنى عمل الراجي لدوام الغنى ؛ ولم وفّروا نصيب الخوف وبخسوا نصيب الرجاء ، مع طول السلامة ، وشمول العافية ، والمُعافى أكثرَ من المبتلى . وليست الفوائد أقلّ من الجوائح [1] بل كيف يدعو الى السعادة من خصّ نفسه بالشقوة وكيف ينتحل نصيحة العامة من بدأ بغش الخاصة . ولمَ احتجوا مع سدد [2] عقولهم بما أجمعت الأمة على تقبيحه ؛ ولم فخروا مع اتساع معرفتهم بما اطبقوا على تهجينه ، وكيف يفطن عند الاعتلال له . ويتغلغل عند الاحتجاج عنه الى الغايات البعيدة ، والمعاني اللطيفة ، ولا يفطن لظاهر قبحه ، وشناعة اسمه وخمول ذكره ، وسوء أثره على أهله ، وكيف وهو الذي يجمع له بين الكد وقلة المرفق . وبين السهر وخشونة المضجع وبين طول الاغتراب وطول قلة الانتفاع . ومع علمه بأن وارثه اعدى من عدوه ، وانه أحق بماله من وليّه . أوليس لو أظهر الجهل والغباوة وانتحل

---

(٤) الجوائح : جمع جائحه وتقول اجتاحتهم السنة ، ونزلت بهم جائحة من الجوائح .

(٥) السدد : الصواب والقصد من القول والعمل . وأسد الشيء استقام قال الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم   فلما استد ساعده رماني

الغفلة والحماقة، ثم احتجّ بتلك المعاني الشداد، وبالالفاظ الحسان وجودة الاختصار، وبتقريب المعنى وبسهولة المخرج وإصابة الموضع لكان ماظهر من معانيه وبيانه مكذباً لما ظهر من جهله ونقصانه؛ ولِمَ جاز ان يبصر بعقله البعيد الغامض ويعمي عن القريب الجليل.

وقلت: فبيّن لي ماالشيء الذي خبّل عقولهم وأفسد أذهانهم وأعشى تلك الأبصار. ونقض ذلك الاعتدال؛ وما الشيء الذي له عاندوا الحق، وخالفوا الامم؛ وما هذا التركيب المتضادّ، والمزاج المتنافي؛ وما هذا الغباء الشديد الذي الى جنبه فطنة عجيبة، وما هذا السبب الذي خفي به الجليل الواضح، وأُدرك به الدقيق الغامض.

وقلت: وليس عجبي ممن خلع عِذاره في البخل، وأبدى صفحته للذم، ولم يرض من القول إلا بمقارعة الخصم، ولا من الاحتجاج إلا بما رُسم في الكتب، ولا عجبي من مغلوب على عقله مسخّر لاظهار عيبه، كعجبي ممن قد فطن لبخله، وعرف إفراط شحه، وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه؛ ولربما ظن أنْ قد فُطن له وعَرِف ما عنده، فموّه شيئاً لا يقبل التمويه ورقع خُرقاً لايقبل الرقع. فلو أنه كما فطن لعيبه وفطن لمن فطن لعيبه، فطن لضعفه عن علاج نفسه، وعن تقويم أخلاطه

وعن استرجاع ماسلف من عاداته ، وعن قلبه أخلاقهُ المدخولة ، إلى أن تعود سليمة ، لترك تكلّف مالا يستطيعه . ولربح الإنفاق على من يذمّه ، ولما وضع على نفسه الرقباء . ولا مأدته الشعراء ولا خالط بُرُد الآفاق . ولا لابس الموكّلين بالأخبار . ولاستراح من كد الكلفة . ودخل في غمار الامة .

وبعدُ . فما بالُه يفطَنُ لعيوب الناس اذا أطعموه . ولا يفطن لعيب نفسه اذا أطعمهم ، وان كان عيبه مكشوفاً ، وعيب من أطعمه مستوراً ؛ ولمَ سَخَتْ نفس أحدهم بالكثير من التبر ، وشحت بالقليل من الطّعم ، وقد علم أنّ الذى منَع يسير في جنب مابذل . وانه لو شاء أن يحصل بالقليل مما جاد به اضعاف مابخل به كان ذلك عتيداً . ويسيراً موجوداً .

وقلتَ : ولا بدّ من ان تُعرّفني الهَنات التي نمّت على المتكلّفين ، ودلت على حقائق المتموّهين . وهتكت عن أستار الادعياء . وفرّقت بين الحقيقة والرياء وفصّلت بين المقهور المنزجر ، والمطبوع المُبتَبل لتقف ـ زعمت ـ عندها ولتعرض نفسك عليها ، ولتتوهّم مواقعها وعواقبها ، فان نبّهك التصفح لها على عيب قد اغفلته ، عرفت مكانه فاجتنبته فان كان عيباً

ظاهراً معروفا عندك نظرت فان كان احتمالك فاضلاً على بخلك دمتَ على إطعامهم ، وعلى اكتساب المحبة بمؤاكلتهم . وإن كان اكتراثك غامراً لاجتهادك سترت نفسك ، وانفردت بطيّب زادك ، ودخلت مع الغمار وعشت عيش المستورين . وإن كانت الحروب بينك وبين طِباعك سِجالاً ، وكانت أسبابكما أمثالا وأشكالا ، أجبتَ الحزمَ الى ترك التعرّض ، واجبتَ الاحتياط الى رفض التكلّف ، ورأيت أنَّ من حصّل السلامة من الذم ، فقد غنِم ، وأنَّ من آثر الثقة على التغرير فقد حزُم .

وذكرتَ أنك الى معرفة هذا الباب أحوج ، وان ذا المروءة الى هذا العلم افقر . وأني إن حصّنتُ من الذم عرضك بعد أن حصّنتُ من اللصوص مالك . فقد بلغتُ لك ما لم يبلغه أبٌ بارٌ ، ولا أمٌ رؤومٌ .

وسألتَ أن أكتب لك علة خبّابٍ [1] في نفي الغَيْرة وأن بذل الزوجة داخل في باب المواساة والأثرة ، وأنّ فرْجَ

---

(١) لم اعثر على ترجمة خباب هذا ، ويقول فان فلوتن : من المحتمل ان يكون اسمه خباب وان يكون خباب بن الخشخاش القاضي كما جاء في المشتبه ص ١٣٨

الأمَة في العارية كحُكم الخدمة ، وان الزوجة في كثير من معانيها كالأمة ، وأن الأمة مال كالذهب والفضة وأن الرجل أحقُ ببنته من الغريب وأولى بأخته من البعيد ، وأن البعيد أحق بالغيرة ، والقريب أولى بالأنفَة ، وان الاستزادة في النسل كالاستزادة في الحرث الا انّ العادةَ هي التي اوحشت منه ، والديانة هي التي حرمته ولأنّ الناس يتزيّدون ايضاً في استعظامه وينتحلون اكثرَ مما عندهم في استشناعه .

وعلة الجهجاه [1] في تحسين الكذب في مواضع ، وفي تقبيح الصدق في مواضع ، وفي إلحاق الكذب بمرتبة الصدق ، وفي حطِّ الصدق إلى موضع الكذب ؛ وانّ الناس يظلمون الكذبَ بتناسي مناقبه ، وتذكّر مثالبه ، ويحابون الصدق بتذكر منافعه ، وبتناسي مضارّه ؛ وانهم لو وازنوا بين مرافقهما ، وعدلوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق . ولما رأوهما بهذه العيون .

ومذهب صحصح [2] في تفضيل النسيان على كثير من

---

(١) لم نعثر على ترجمة هذا الرجل .

(٢) لم نعثر على ترجمة هذا الرجل وقد اشار اليه الجاحظ في الحيوان ج ٣ ص ٣٩٥ ط البابي الحلبي

الذِّكر وأن الغباء في الجملة أنفعُ من الفطنة في الجملة ، وأن عيشَ البهائم احسنُ موقعاً من النفوس من عيش العقلاء . وانك لو أسمَنْتَ بهيمة ورجلاً ذا مروءة ، أو امرأةً ذات عقل وهمة وأخرى ذاتَ غباء وغفلة ، لكان الشحم إلى البهيمة اسرع ، وعن ذات العقلِ والهمةِ ابطأ ، لأنّ العقل مقرون بالحذر والاهتمام ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن فلذلك البهيمةُ تقنو شحماً في الأيام اليسيرة ولا تجد ذلك لذي الهمة البعيدة ـ ومتوقّع البلاء في البلاء وإن سلم منه ، والغافل في الرخاء إلى أن يدركه البلاء ـ .

ولولا أنك تجد هذه الأبواب وأكثرَ منها مصورة في كتابي الذي سُمي كتاب المسائل (١) ، لأتيت على كثير منها في هذا الكتاب .

فأما ما سألتَ من احتجاج الأشحّاء ونوادر أحاديث البخلاء ، فسأوجدُكَ ذلك في قصصهم ـ إن شاء الله تعالى ـ مفرقا ، وفي احتجاجاتهم مجملاً ، فهو أجمع لهذا الباب من وصف

---

(١) من كتب الجاحظ المفقودة وقد ذكره أيضاً في الحيوان ونوه به ياقوت في الادباء .

ماعندي دون ما انتهى إليَّ من أخبارهم على وجهها ؛ وعلى أن الكتاب أيضاً يصير أقصرَ ، ويصير العارُ فيه أقلَّ .

ونَبْتدِيء برسالة سَهْل بنِ هارون، ثم بطرف [١] أهل خُراسانَ ، لإكثار الناس في أهل خُراسانَ .

ولك في هذا الكتاب ثلاثةُ أشياء : تبين حجّة طريفة ، أو تعرُّف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة . وأنت في ضحكٍ منه إذا شئت ، وفي لهوٍ إذا مللت الجد .

وأنا أزعم أن البكاء صالحٌ للطبائع ومحمودُ المغبة [٢] اذا وافق الموْضع ولم يجاوزِ المقدارَ ، ولم يعدل عن الجهة ، ودليل على الرقه . والبعد عن [٣] القسوة ؛ وربما عدَّ من الوفاء ، وشدةِ الوجد [٤] على الأولياء . وهو من أعظم ما تقرّب به العابدون واسترحم به الخائفون .

وقال بعضُ الحكماء لرجلٍ اشتدَّ جزعُه من بكاء صبي

---

(٢) الطرف : جمع طرفه وهو ما يستطرف ويستملح به .

(٣) المغبة : العاقبة .

(٤) في جميع النسخ وكذا في العقد الفريد (من) بدلا من « عن » والتصحيح جرى من قبلنا .

(٥) الوجد : الحزن .

له : لاتجزع ، فانه أفتحُ لصوته [١] ، وأصح لبصره .

وضرب عامر بنُ عبد قيس [٢] بيده على عينه فقال : جامدةٌ شاخصة لاتندى ! وقيل لصفوان بن محرزٍ [٣] عند طول بكائه وتذكُّر أحزانه : إنَّ طول البكاء يورِثُ العمى ، فقال : ذلك لها شهادة ! [٤] فبكى حتى عمي . وقد مُدح بالبكاء ناسٌ كثير . منهم يحيى البكَّاء ، وهيثم البكاء ، وكان صفوانُ بنُ محرزٍ يسمّى البكاء . واذا كان البكاء : مادام صاحبه فيه فانه في بلاء ، وربما أعمى البصر وأفسدَ الدماغ ودلَّ في السُّخْف وقضى على صاحبه بالهلع وشُبِّه بالأمةِ اللكعاء، وبالحدث الضرع [٥]

(١) وفي بعض النسخ لجرمه بدلاً عن لصوته . والجرم الجسم . وقوله افتح لجرمه أي أكثر انماء له . وما اثبتناه اصح لمعنى السياق .

(٢) هو عامر بن عبد الله بن عبد قيس ، كان زاهداً ورعا من أهل البصرة ، تلق عن أبي موسى الاشعري ، وكان ينكر على عثمان سيرته ، ترجم له أبو نعيم الأصبهاني في الحليه .

(٣) هو صفوان بن محرز وينسب الى غسان تميم ، صحب أبا موسى الأشعري . ومات في البصرى سنة ٧٤ هـ في ولاية بشر بن مروان ، ترجم له أبو نعيم في الحليه وعده الجاحظ في البيان والتبين بين النساك والزهاد من أهل البيان .

(٤) اي العمي شهادة لأحزانه .

(٥) الحدث الضرع : الشاب الذليل .

كذلك [١] فما ظنك بالضحك الذي لايزال صاحبُه في غاية السرور الى أن ينقطع عن سببه ؟ ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزهرة والحِبرة والحَلْي والقصر المبنيّ كأنه يضحك ضَحِكاً . وقد قال الله جل ذكره : « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا [١] » فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ، وأنه لايضيفُ اللهُ الى نفسه القبيح ولا يمنّ على خَلقه بالنقص . وكيفَ لا يكونُ موقِعه من سرور النفس عظيماً ، ومن مصلحةِ الطباع كبيراً ؛ وهو شيء في اصل الطباع وفي اساس التركيب ، لأنّ الضَّحِكَ أولُ خير يظهر من الصبيّ ، وبه تطيبُ نفسهُ ، وعليه ينبتُ شحمهُ ، ويكثر دمه . الذي هو علة سروره ومادةُ قوّته ، ولفضل خصال الضحكِ عند العرب تسمي اولادها بالضحّاك وببسّام وبطلْق وبظليق . وقد ضحك النبي ﷺ وفرح وضحك الصالحون وفرحوا واذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن وبسّام العشيات وهشّ الى الضيف وذو اريحة واهتزاز ؛ واذا ذموا قالوا : هو عبوس

---

(٦) كذلك : خبر كان في قوله : واذا كان ...

(١) سورة النجم ، الآية ٤٣

وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم المحيا وهو مكفهر ابداً وهو كريه ومقبّض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح .

وللضحك موضع وله مقدار ، وللمَزْح موضع وله مقدار متى جازهما أحد وقصّر عنهما احد ، صار الفاضل خَطَلاً ، والتقصير نقصاً . فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر . ومتى أُريد بالمزح النفعُ وبالضحك الشيء الذي له جُعل الضحك ، صار المزح جداً والضحك وقاراً .

وهذا كتاب لا أغرك منه ولا أستر عنك عيبه ، لأنه لايجوز أن يكمل كما تريده ،ولا يجوز أن نوفي حقه كما ينبغي له لأن ههنا أحاديثَ كثيرة متى اطلعنا منها حرفاً عُرف اصحابُها وإن لم نسمهم ولم نَرد ذلك بهم ، وسواء سميناهم أو ذكرنا مايدل على اسمائهم . منهم الصديق والولي والمستور والمتجمّل . وليس يفي حسن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم . فهذا باب يسقط ألبتّة ، ويختل به الكتاب لامحالة . وهو اكبرها باباً ، وأعجبها منك موقعاً . واحاديث أُخر ليس لها شهرة، ولو شُهرت لما كان فيها دليل على أربابها ولا هي مفيدةٌ اصحابَها . وليس يتوفر أبداً حسنها إلا بأن يعرف اهلها ،وحتي تتصل بمستحقها وبمعادنها

واللائقين بها ؛ وفي قطع مابينها وبين عناصرها ومعانيها سقوطُ نصف الملحة. وذهاب شطر النادرة. ولو أن رجلاً ألزق نادرة بأبي الحارث جمّين [1]. والهيثم بن مطهر [2] ومزبد [3]. وابن أحمر ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون. ولو ولّد نادرة حارة في نفسها. مليحة في معناها ثم أضافها الى صالح بن حنين، والى ابن النواء والى بعض البُغَضاء لعادت باردة ولصارت فاترة فان الفاتر شرٌ من البارد. وكما انك لو ولدت كلاماً في الزهد وموعظة للناس ثم قلت: هذا من كلام بكر بن عبد الله المزني [4] وعامر بن عبد قيس العنبري ومؤرق العجلي [5] ويزيد الرقاشي [6]

---

(١) ابو الحارث جمين : كان رجلا مدنياً ثم رحل الى العراق وقد عرف بالنادرة الحلوة . ويقال ان اسمه جميز لاجمين ذكر له كل من الحصري والثعالبي وابن قتيبة بعضا من قصصه ونوادره الجميلة وكذا صاحب الاغاني والمبرد ويقال انه كان له صلة بمحمد بن يحيى البرمكي وعيسى بن جعفر .

(٢) احد اصحاب النوادر ، عاش ايام المهدي .

(٣) هو ابو اسحاق مزبد نشأ في المدينة ثم رحل الى العراق وهو ايضاً من اصحاب النكتة والنادرة .

(٤) احد اصحاب الحسن البصري ترجم له في الحلية والمعارف لابن قتيبة.

(٥) » » » » » » » وتهذيب التهذيب .

(٦) هو يزيد بن ابان الرقاشي، أحد زهاد أهل البصرة ترجم له في تهذيب التهذيب

لتضاعف حسنه ولأحدث له ذلك النسب نضارة ورفعة لم تكن له . لو قلت : قالها ابو كعب الصوفي أو عبد المؤمن ، أو أبو نواس الشاعر أو حسين الخليع لما كان لها الا مالها في نفسها ، وبالحرى ان تغلط في مقدارها ، فتبخس من حقها .

وقد كتبنا لك احاديثَ كثيرةً مُضافةً الى أربابها ، واحاديثَ كثيرةً غيرَ مضافةٍ الى اربابها ، اما بالخوف منهم ، واما بالاكرام لهم ، ولولا انك سألتني هذا الكتابَ لما تكلفته ولما وضعت كلامي موضع الضَّيْم والنقمة ، فان كانت لائمةٌ أو عجزٌ فعليك وان كان عذر فلي دونك .

رسالة سهل بن هرون

الى محمد بن راهبون الى بني عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكتب (1)

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلّمكم الخير، وجعلكم من أهله.

---

(1) في رواية راهيون بالياء المثناة، والأصل ما ذكرناه. وقد ذكر أيضاً ان هذه الرسالة أرسلت من سهل بن هاورن الى محمد بن زياد، والى بني عمه من آل زياد، وقد كان نفوراً ومهاجاة بين سهل ابن هارون ومحمد بن زياد، ولا يمكننا البت فيما إذا كانت هذه الرسالة مرسلة إلى آل راهبون، أم الى زياد، إلا أن أكثر الروايات تذكر انها مرسلة الى بني عم سهل بن هارون آل راهبون.

وقال ياقوت « ترجمة سهل بن هارون » وكذا صاحب الفهرست: وله - أي سهل بن هارون - رسالة في مدح البخل ارسلها الى بني عمه من آل راهبون، وارسل نسخة منها الى الوزير الحسن بن سهل، فوقع عليها الوزير: لقد مدحت مالم الله، وحسنت ماقبح، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناك، وقد جعلنا ثواب عملك سماع قولك، فما نعطيك شيئاً. وقال جولد تسيهر « الدراسات المحمدية ص ١٦١ ». إن —

قال الأحنفُ بنُ قيس: يا معشرَ بني تميم! لا تُسرعوا الى الفتنة، فإنَّ أسرعَ الناس الى القتال، أقلُّهم حياء من الفرار. وقد كانوا يقولون: إذا أردتَ أن ترى العيوب جمة فتأمل عياباً، فانه إنما يعيب (الناسَ) [1] بفضل مافيه من العَيب. ومن أعيب [2] العيب أن تعيب ماليس بعيب. وقبيح أن تنهى مرشداً (وأن) [1] تُغرى بمشفق. وماأردنا بما قلنا إلا هدايتكم، وتقويمكم وإلا إصلاح فسادكم [3] وابقاء النعمة عليكم، ولئن أخطأنا سبيلَ ارشادكم، فما أخطأنا سبيلَ حُسن النّية فيما بيننا وبينكم. ثم [4] قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلاّ بما قد [5] اخترناه

— العالم المشهور أمين سر المأمون وخازن بيت الحكمة سهل بن هارون الدستميانى كتب عدداً كبيراً من الكتب أظهر فيها تعصبه ضد العرب وفخره بالعجم، وكان من متطرفي قومه في أيامه، وأدبه الغريب الذي اشتهر به، انما وضعه ليسخر به من العرب، فانه كتب سلسلة من الرسائل يمدح فيها البخل، بل كتب كتابا على ماقال يذم فيه الكرم ويفضل البخل، وما ذلك إلا لأن الكرم صفة من صفات العرب.

والجاحظ يفضله ويصف براعته وفصاحته، ويحكى عنه في كتبه.

(١) مزيده من العقد ج ٦ ص ٠٠ لجنة التأليف والترجمة والنشر

(٢) وفي نسخه: واول العيب، وما أثبتناه عن العقد.

(٣) في العقد: واصلاح فاسدكم.

(٤) في العقد: : وقد. (٥) قد: غير موجودة في العقد.

«لكم[1]» ولأنفسنا قبلكم ، وشُهِرنا في الآفاق دونكم (ثم تقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : وَما أُريد أنْ أخالِفَكُمْ إلى ما أنهاكُمْ عَنْهُ ، إنْ أُريدُ إلاّ الإصْلاحَ ما اسْتَطَعْتُ وَما تَوفيقي إلاّ باللهِ ، عَلَيه تَوكَلْتُ)[2] . فما كان أحقكم - في تقديم[3] حرمتنا بكم - أن ترعَوا حق قصدنا بذلك اليكم (على مارعيناه)[4] من واجب حقكم ، فلا العذرَ المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قُمتم . ولو كان ذِكرُ العيوب براً وفضلاً[5] لرأينا في أنفسنا عن[6] ذلك شغلا . وانَّ من أعظم الشقوة ، وأبعدها من السعادة ، ألاّ يزالُ يتذكّر زللُ المعلّمين ، ويُتناسى سوء استماع المتعلّمين ، ويستعظم غلطُ العادلين ، ولا يُحفل بتعمد المعذولين[7]

عبتموني بقولي لخادمي : أجيدي عجْنه خميراً ، كما

---

(١) زيادة من العقد

(٢) زيادة من العقد

(٣) في العقد : كريم بدلاً عن تقديم .

(٤) كذا في العقد وفي الاصل : وتنبيهنا على ما أغفلناه .

(٥) في العقد : يراد به فخراً .

(٦) في العقد من بدلاً عن : عن .

(٧) « وإن من .. المعذولين » ساقطة من العقد .

أجدته [1] فطيراً ليكونَ أطيبَ لطعمه، وأزيد في ريعه ، وقد قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه ورحمه لأهله [2] : املكوا العجين ، فانه أحد الريعين [3] .

وعبتم عليّ قولي : من لم يتعرف مواقع السَّرف في الموجود الرخيص ، لم يعرف مواقع الاقتصاد في المُمتنع الغالي . فلقد أُتيت من ماء الوضوء بكَيْلة يدلّ حجمُها على مَبلغ الكفاية ، وأشفّ من الكفاية . فلما صِرتُ (الى) [4] تفريق أجزائه على الأعضاء ، والى التوفير عليها من وظيفة [5] الماء وجدتُ في الأعضاء فضلاً على الماء ، فعلمتُ أن لو كنت مكّنت الاقتصادَ في أوائله ، ورغبتُ عن التهاون به في ابتدائه ، لخرج آخرُه على كفاية أوّله ، [6] ولكان نصيبُ العضو الأول

---

(١) وردت الجملة في العقد : أجيدي العجين فهو أطيب لطعمه ، وأزيد في ريعه .

(٢) ورحمة لأهله : ساقطة في العقد .

(٣) في بعض النسخ : فانه اربع الطحنين . ويقال : ملك العجين وأملكه ـ وملكه ، بالتشديد : انعم عجنه .

(٤) ساقطة في الاصل .

(٥) الوظيفة : مايقدر للمرء في اليوم من طعام او رزق أو نحوه .

(٦) وفي رواية لخرج أوله على كفاية آخره .

كنصيب الآخر .فعبتموني بذلك وشنّعتموه بجُهدكم ، وقبحتموه . وقد قال الحسن [١] عند ذكر السَّرَف : انه ليكونُ في الماعونين الماء والكلاء فلم يرضَ بذكر الماء ، حتى أردفه بالكلاء [٢]

وعبتموني حين ختمت على سَلٍ [٣] عظيم ، وفيه شيء ثمينٌ من فاكهة نفيسة ، ومن رُطَبة غريبة على عبدٍ نَهم ، وصبي جَشع ، وأمة لَكْعاء ، وزوجة خرقاء [٤] . وليس من أصل الأدب ، ولا في ترتيب الحكم ، ولا في عادات القادة ، ولا في تدبير السادة ، أن يستوي في نفيس المأكول ، وغريب المشروب وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعم من كلّ فنّ ، واللُّباب من كل [٥] شكل ، التابعُ والمتبوعُ ، والسيّد والمسُود ، كما لاتستوي مواضعهم في المجلس [٦] ومواقع أسمائهم في العُنوانات [٧]

---

(١) المقصود الحسن البصري وهو أشهر من ان يعرف .

(٢) وعبتم علي قولي . . حتى اردفه بالكلأ : ساقطة من العقد ط لجنة التأليف .

(٣) وفي رواية سد والمعنى واحد ، والسد سلة تتخذ من قضبان ، لها أطباق .

(٤) في العقد مضيعة بدلاً عن خرقاء

(٥) والناعم ... كل « غير موجودة في العقد »

(٦) المجالس : وفي العقد ... (٧) العنوان « العقد » .

وما يستقبلون [1] به من التحيّات . وكيف ، وهم لا يفقِدون من ذلك ما يفقد القادر ، ولا يكترثون له اكتراث العارف . من شاء [2] أطعم كلبه الدجاج المسمّن [3] واعلف [4] حماره السمسم المقشر . فعِبتموني [5] بالختم وقد ختَم بعض الأئمة على مزود سويق ، وختم [6] على كيسٍ فارغ ، وقال : طينة خير من ظنة [7] فأمسكتم عمّن ختم على لاشيء وعبتم من ختم على شيء .

وعبتموني حين [8] قلت للغلام : اذا زدتَ في المرق فزد في الانضاج لتجمع بين التأدُّم باللحم والمرق ، ولتجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب [9] . وقد قال النبي ﷺ : اذا « طبختم لحماً فزيدوا

---

(١) وما يستقبلون ... العارف . غير موجودة في العقد .

(٢) ومن . العقد .

(٣) السمين : العقد .

(٤) وعلف : العقد

(٥) وعبتموني : العقد .

(٦) ختم : ساقطة من العقد .

(٧) في الأصل : طيه . يريد : لأن تختم عليه بالطين ، خير من أن تهمله وتتهم الناس فيه .

(٨) أن : العقد

(٩) « لتجمع بين ... الطيب » جاءت في العقد : ليجتمع مع التأدم باللحم طيب المرق » .

في الماء، فانْ لمْ يُصب أحدُكم لحماً أصابَ مرقاً [1] »

وعبتموني بخَصف النعال [2] وبتصدير [3] القميص، وحين زعمتُ أن المخصوفة (من النعل) [4] أبقى وأوطأ وأوقى [5] وأنفى للكبر [6] واشبه بالنسك. وأنْ الترقيع من الحزم، وأن الاجتماع مع الحفظ وأن التفرق مع التضييع. [7] وقد كان النبي ﷺ يخصِفُ نعله ويرقع ثوبه ويلطَع [8] اصبعه ويقول: « لو أتيتُ بذراعٍ لأكلْتُ [9] ولو دُعيتُ الى كُراعٍ لأجبتُ) ولقد لفّقت سُعْدى ابنةُ عوف ازارَ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، وابن ابي شيبة بلفظ: اذا طبختم فأكثروا المرق، فانه أوسع وأبلغ للجيران وفي العقد « إذا طبخ احدكم لحماً، فليزد من الماء، فمن لم يصب لحماً أصاب مرقاً ».

(٢) في العقد النعل. وخصف النعل: اطبق عليها مثلها وخرزها بالخرز.

(٣) في الاصل بتصديد وتصدير القميص: ان يجعل له رفقة في الصدر

(٤) الزيادة من العقد.

(٥) وأقوى: العقد.

(٦) وأنفى للكبر: ساقطة في العقد.

(٧) وأن الاجتماع ... التضييع جاءت في العقد: والتفريط من التضييع والاجماع مع الحفظ.

(٨) يلطع: يلحس.

(٩) لو .. لأكلت جاءت في العقد: لو أهدى إلي ذراع لقبلت.

طلحة ، وهو جواد قريش ، وهو طلحةُ الفيّاض (١) وكان في ثوب عمرَ رقاعُ أُدم (٢) . وقال (عليه الصلاة والسلام) (٣) . « من لم يشبع (٤) من الحلال خَفَّتْ مؤونَتُهُ وقَلَّ كِبرُهُ »

وقالوا : (٥) لاجديد لمن لم يلبسُ الخلَقَ .

وبعث زيادٌ رجلاً يرتاد له محدِّثاً (٦) واشترط على الرائد (٧) أن يكون (٨) عاقلا مسدَّداً (٩) فأتاه به موافقاً (فقال) له (١٠) : أكنت ذا معرفة به ؟ قال : لا ! ولا رأيتُه قبل ساعته ! قال : أفناقلتَه

(١) هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله التيمي من تيم قريش وكان أحد الستة أصحاب الشورى وشهد المشاهد مع رسول الله وكان ممن ثبت معه يوم أحد ودافع عنه ، ولما قتل عثمان خرج مع الذين خرجوا على علي مع عائشة ، وقتل في معركة الجمل سنة ٣٦ هـ . ولما عرف به من كرم وجود ، لقب بطلحة الفياض وطلحة الخير ، وطلحة الطلحات ، ترجم له في الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ١٥٢ والمعارف لابن قتيبة ص ١٧٧ وتهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢٠

(٢) ولقد لفقت ... أدم . ساقطة في العقد .

(٣) زيادة من العقد .

(٤) كذا في العقد .

(٥) وفي العقد : قالت الحكماء .

(٦) المحدث هنا بمعنى النديم .

(٧) على الرائد : جاءت في العقد عليه .

(٨) أي المحدث .

(٩) مسدداً : زيادة من العقد . (١٠) زيادة من العقد .

الكلام ، وفاتحته الامور ،قبل ان توصله اليَّ ؟ قال : لا ! قال : فلمَ اخترته على جميع من رأيته ؟ قال : يومُنا يومٌ قائظ ، ولم أزل أتعرّفَ عُقول الناس بطعامهم ولباسهم في مِثل هذا اليوم ورأيتُ ثيابَ الناس جُدُداً وثيابَهُ لُبُساً [1] ؛ فظننت به الحزم وقد علِمنا أنّ الجديد في غيرِ موضعه دون الخلق [2] وقد جعل اللهُ عزّ وجلّ لكل شيء قدْراً وبوّأ له [3] موضعاً . كما جعل لكل دهرٍ [4] رجالاً ، ولكل مقامٍ مقالاً . وقد احيا الله [5] بالسُم وأمات بالغذاء [6] ، واغصّ بالماء ، وقتل بالدواء [7] فترقيعُ الثوب يجمع مع الاصلاح التواضُع ، وخلافُ ذلك يجمع مع

---

(١) جمع لبيس ، وهو الثوب قد كثر لبسه فأخلق . وقميص لبيس أي خلق .

(٢) قال لا ولا رأيته ... دون الخلق . جاءت في العقد : قال لا ! ولكني رأيته في يوم قائظ يلبس خلقاً ، ويلبس الناس جديداً ، فتفرست فيه العقل والأدب . وقد علمت ان الخلق في موضعه مثل الجديد في موضعه .

(٣) وسما به . كذا في العقد .

(٤) زمان . العقد .

(٥) زيادة من العقد .

(٦) بالدواء العقد .

(٧) « وقتل بالدواء » غير موجودة في العقد .

الاسراف التكبر [١] . وقد زعموا ان الأصلاح أحد الكسبين [٢] كما زعموا أنّ قلة العيال احد اليسارين [٣] وقد جبرَ الأحنفُ « بن قيس » [٤] يد عنز ، وأمر بذلك النعمان . [٥] وقال عمر « بن الخطاب [٦] » : من أكل بيضة فقد اكل دجاجة . «ولبس سالم بن عبد الله جلد اضحية » [٧] . وقال رجلٌ لبعض السادة : [٨] أُهدي اليك دَجاجة ؛ قال : ان كان لابدّ فاجعلها بياضة [٩] ! وعد ابو الدرداء [١٠] العراق [١١] جزر البهيمة [١٢] .

---

(١) « فترقيع الثوب .. التكبر » غير موجودة في العقد .

(٢) الكاسبين : العقد .

(٣) في أمالي القالي . ج ٢ ص ٥٦ : خفة الظهر أحد اليسارين وفي شرح النهج ج ٤ ص ٣٠٩ : قلة العيال كما في الأصل .

(٤) زيادة في العقد .

(٥) « وأمر بذلك النعمان » جاءت في العقد : وأمر مالك بن أنس بفرك النعل .

(٦) زيادة في العقد .

(٧) زيادة من العقد .

(٨) الحكماء . العقد .

(٩) في العقد : بيوضاً .

(١٠) هو عويمر بن قيس بن امية الانصاري ولى قضاء الشام عهدعمر بن الخطاب وفي ولاية معاوية على الشام . ترجم لهفي حلية الأولياء ج ١ ص ٢٠٩ .

(١١) العراق : العظم أخذ ماعليه من اللحم ، والجذر الذبيح .

(١٢) « وعد ... البهيمة » ساقطة في العقد .

وعبتموني حين [١] قلتُ : لايغترنّ احدٌ [٢] بطول عمره وتقوّس [٣] ظهره ، ورقةِ عظمه . ووَهن قوته ان يرى اكرومته . ولا يُحرجُه [٤] ذلك الى اخراج ماله من يديه [٥] وتحويله الى ملك غيره ، والى تحكيم السّرف فيه . وتسليط الشهوات عليه . فلعلّه ان يكون مُعمّراً وهو لايدري . وممدوداً له في السنّ وهو لايشعر . ولعله ان يُرزق الوَلدَ على اليأس او يحدث [٦] عليه بعض مخبّات الدهور [٧] ممّا لايخطرُ على البال [٨] ولا تدركه العقول [٩] ، فيستردُّه ممن لايردُّه ويظهرُ

---

(١) أن كذا في العقد .

(٢) احدكم بالعقد .

(٣) في العقد تقويس بدلا عن تقوس .

(٤) أن يرى اكرومته ولا يحرجه . جاءت في العقد : وأن يرى نحوه أكثر ذريته فيدعوه .

(٥) يده العقد .

(٦) ويحدث . العقد .

(٧) بعض ... مما . في العقد : ويحدث عليه من آفات الدهر ما .

(٨) في العقد جاءت هذه الجملة : مالا خطر على باله .

(٩) ولا يدركه عقله العقد .

الشكوى الى من لايرحمه ، اضعف [1] ماكان عن [2] الطلب ، واقبح مايكون به الكسبُ فعبتموني بذلك [3] . وقال عمرو بن العاص : « اعمل لدنياك عمل من يعيشُ ابداً . واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً [4] .

وعبتموني حين زعمتُ ان التبذير الى مال القمار ومال الميراث . والى مال الالتقاط وحباء الملوك اسرع ، وان الحفظ الى المال المكتسَب والغنى المجتلب ، والى مايعرض فيه لذهاب الدين واهتضام العرض ونَصَب البدن واهتمام القلب، اسرع . وان من لمْ يحسُب ذَهابَ نفقته ،لم يحسُب دخله ؛ ومن لم يحسُب الدخل ، فقد اضاع الأصل ، وانّ من لم يعرِف للغنى قدره فقد اذن بالفقر وطاب نفساً بالذل . [5]

---

(١) اصعب العقد .

(٢) عليه العقد .

(٣) واقبح .. بذلك في العقد : واقبح ماكان به أن يطلب .

(٤) في العقد : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

(٥) وعبتوني ... بالذل . ورد هذا النص في العقد باختلاف بعض الألفاظ فاليراجع ج ٦ ص ٢٠٢ ط لجنة التأليف .

وزعمتُ إن كسْبَ الحلال مضمّن بالانفاق في الحلال ، وإن الخبثَ ينزع الى الخبيث ، وان الطيّب يدعوا الى الطيب وان الانفاق في الهوى حِجاب دون الحقوق [1] . وإن الانفاق في الحقوق حجاز دون الهوى [2] . فعبتم عليَّ هذا القول . وقد قال معاوية : لم أر تبذيراً [3] قط إلا والى جانبه حقٌ مضيع . وقد قال الحسن : اذا [4] اردتم ان تعرفوا من اين [5] أصاب الرجل ماله ، فانظروا في أي شيْ [6] ينفقه ، فان الخبيث (انما) [7] يُنفق في السّرف .

وقلت لـكم بالشفقة مني [8] عليكم ، وبحسن النظر (مني)

---

(١) دون الهوى العقد .

(٢) وأن .. الهوى غير موجودة في العقد .

(٣) سرفاً راجع : عيون الاخبار .

(٤) إن العقد .

(٥) كلمة أين هنا زائدة . وفي عيون الأخبار طبعة دار الكتب ص ٢٤٤ ج ١ س س ١١ وقد وردت بالنص التالي : « إذا أردتم أن تعلموا من أين أصاب المال فانظروا فيم ينفقه فان الخبيث ينفق سرفاً » .

(٦) فيماذا بدلا عن : في أي شيْ بالعقد .

(٧) انما : زيادة من العقد .

(٨) مني ساقطة في العقد .

لكم . وبحفظكم لآبائكم ولما يجبُ في جِواركم وفي مما لحتكم وملابستكم [1] وانتم في دار الآفات والجوائح [2] غير مأمونات فان أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع الى بقية [3] فأحرزوا [4] النِعمة باختلاف الأمكنة ، فانّ البلية لاتجري في الجميع إلا مع [5] موت الجميع . وقد قال عمرُ (بن الخطاب) [6] رضي الله عنه في العبد والأمة ، وفي ملك [7] الشاة والبعير ، وفي الشيء الحقير واليسير [8] : فرّقوا بين المنايا ، واجعلوا الرأس رأسين . وقال بنُ سيرين لبعض البحريين : [9] كيف تصنعون بأموالكم ؟ قال [10] نفرّقها في السفن ، فان عطِب بعضٌ . سلِم بعض ، ولولا أن

(١) « وبحفظكم ... وملابستكم » ساقطة من العقد .

(٢) في بعض النسخ : الحوائج .

(٣) نفسه (كذا في العقد) .

(٤) في العقد. فاحذروا النقم .

(٥) في العقد : الاءوت بدلا مع موت .

(٦) ابن الخطاب زيادة من العقد .

(٧) ملك : غير موجودة في العقد .

(٨) « وفي ... اليسير » ساقطة في العقد ،

(٩) البحريين : أي تجار البحر ، وكلمة لبعض البحريين: غير موجودة في العقد .

(١٠) العقد : قالوا

السلامةَ أكثرُ لما حملنا خزائننا [١] في البحر . قال ابن سيرين : تحسبَها خَرْقاء وهي صناع [٢] .

وعبتموني أن قلت لكم عند اشفاقي عليكم : إن للغِنى سكراً [٣]، وان للمال لنزوة [٤] فمن لم يحفظ الغنى من سُكر الغنى [٥] فقد اضاعه ، ومن لم يَرْتَبط المالَ بخوف الفقر ، فقد اهمله . فعبتموني بذلك . وقال زيدُ بن جَبَلَة : [٦] ليس أحدٌ أفقر [٧] من غَنِيّ أمن الفقر ، وسكرُ الغنى أشد [٨] من سكر الخمر . وقلتم : قد لزم الحثَّ على الحقوق ، والتزهيدَ في الفضول حتى صارَ يستعملُ ذلك في أشعاره بعد رسائله ، وفي خطبه

---

(١) « لما حملنا خزائننا » ، وردت في العقد « ما حملنا أموالنا » .

(٢) صناع : حاذقة .

(٣) لسكراً في العقد .

(٤) في العقد : وللمال لثروة .

(٥) في العقد : سكره بدلا عن سكر الغنى .

(٦) وردت بعض اخباره في البيان والتبيين ، ج ٢ ص ١١٦ - ١١٧ ط السندوبي . وفي العقد ج ٢ ص ٦٣ (ط) لجنة التأليف وغيرها . وكلها تذكر في الوفود التي كانت تفد على عمر وعلي ، وكان بينه وبين الاحنف ملاحاة .

(٧) في العقد : أقصر عقلا .

(٨) اكثر في العقد .

بعد سائر كلامه (١) فمن ذلك قوله (٢) في يحيى بن خالد :

عدوُّ تِلادِ المالِ فيما ينوبُهُ   مَنوعٌ إذاما مَنْعُهُ كانَ أحزاما (٣)

ومن ذلك قولهُ في محمّد بن زياد :

وخليقتان تقى وفضلُ تحرّم   وإهانةٌ في حقّه ، للمال (٤)

وعبتموني حين زعمتُ أني اقدّم المال على العلم ، لأنّ المال به يغاثُ العالم (٥) ، وبه تقوم النفوس (٦) ، قبل أن تعرف فضيلة (٧) العلم (فهو أصل) (٨) وأن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع . وأني قلت : وإن كنا نستبينُ الأمورَ بالنفوس ، فانا

---

(١) « وقلتم ... كلامه » ساقطه في العقد .

(٢) في العقد : وقال الشاعر بدلاً عن : فمن ذلك قوله . والشاعر هو سهل بن هارون نفسه .

(٣) راجع البيان والتبين ج ٣ ص ٢١٠ س ١١ طبعة السندوبي القاهرة ١٩٣٢ قد ورد هذا البيت في العقد : « وهوب تلاد المال ... » :

(٤) « ومن ذلك ... حقه للمال » غير موجود في العقد .

(٥) « به يفاد العلم » هكذا في العقد .

(٦) النفس (العقد) .

(٧) فضل (العقد) .

(٨) زيادة من العقد .

بالكفاية نستبين ، وبالخلة نعمى [1] وقلتم : [2] وكيف تقول [3] هـذا ، وقد قيل لرئيس الحكماء ، ومقدّم الادباء [4] : العلماء أفضل أم الاغنياء ؟ قال : بل العلماء ! قيل (له) [5] : فما بالُ العلماء يأتون أبوابَ الاغنياء ، أكثر مما [6] يأتي الاغنياء أبواب العلماء ؟ قال :(ذلك)لمعرفة العلماء بفضل الغنى [7] ، ولجهل الاغنياء بفضل [8] العلم ! فقلت : حالهما في القاضية بينهما . وكيف يستوي شيءٌ ترى [9] حاجة الجميع [10] اليه ، وشيءٌ يغني بعضهم فيه عن بعض.

وعبتموني حينَ قلتُ : ان فضل الغنى على الفقر [11] ، انما هو كفضل الآلة تكونُ في الدارِ [12] ، ان احتيج اليها

(١) « وإني ... نعمي » غير موجودة في العقد .

(٢) فقلتم (العقد) .

(٣) تقول غير موجودة في العقد .

(٤) « ومقدم الادباء » غير موجودة في العقد .

(٥) زيادة في العقد .

(٦) ما (العقد) .

(٧) المال (العقد) .

(٨) بحق (العقد) .

(٩) ترى : ساقطة من العقد .

(١٠) العامة (العقد) .

(١١) القوت « العقد » .

(١٢) البيت « العقد » .

استُعملت وان استغني عنها كانت عُدَّة. وقد قال الُحصين (١) بن المنذر : وَدِدتُ أن لي مثلَ أُحد ذهباً لاأنتفع منه بشيء! قيل : فما ينفعك من ذلك (٢) ؟ قال. لكثرة من يخدمني عليه (لأن المال مخدوم ؟) (٣) وقال أيضاً (٤) : عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك (٥) فيه إلاّ أنه عزّ في قلبك، وشبهة في قلب غيرك (٦) لكان الحظ فيه جسيماً، والنفع فيه عظيماً .

ولسنا ندعُ سيرةَ الأنبياء. وتعليم الخلفاء، وتأديب الحكماء، لأصحاب الأهواء (٧). كان رسول الله ﷺ يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج. وقال : درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك ٨ . فقسَّموا الأمور كلّها على الدين

---

(١) وفي رواية الحضين .

(٢) « قيل . . . ذلك » وردت في العقد : « قيل فما كنت تصنع به » .

(٣) زيادة من العقد .

(٤) « وقال أيضاً » وردت في العقد : وقد قال بعض الحكماء .

(٥) غير موجودة في العقد .

(٦) وذل في قلب عدوك: كذا وردت في العقد .

(٧) اللهو : العقد .

والدنيا ثمَّ جعلوا أحد قسمي الجميع الدرهم . وقال ابو بكر الصديق رحمة الله عليه ورضوانه : إني لأبغضُ أهلَ البيت ينفقون رزق الأيام في اليوم (الواحد) [1]. وكانوا يبغضون أهل البيت اللَّحِمين . [2] وكان هشام يقول : ضع الدرهم على الدرهم يكونان مالا [3] ونهى [4] ابو الأسود الدؤلي وكان حكيما أديباً وداهياً أريباً ، عن جودكم هذا المولّد ، وعن كرمكم هذا المستحدث [5] ، فقال لابنه [6] : اذا بَسط الله لك في [7] الرزق فابسُط ، واذا قبَض فاقبض ، ولا تجاود الله فان الله أجود منك [8] . وقال : درهم من حِلّ يخرجُ في حق ، خير من عشرة آلاف قبضاً ، وتلقّط عرُنداً من بريم فقال : تضيّعون مثل هذا ، وهو قوتُ امرئ مسلم يوما الى الليل ؟ وتلقط ابو

---

(١) زيادة في العقد .
(٢) اللحم : الاكول اللحم .
(٣) وكانوا يبغضون ... مالا : غير موجودة في العقد .
(٤) وكان: العقد .
(٥) « وكان حكيماً ... المستحدث » غير موجودة في العقد .
(٦) يقول لولده : العقد .
(٧) في : ساقطة من العقد .
(٨) « ولا تجاود منك » غير موجودة في العقد .

الدرداء حبّات حنطة فنهاه بعض المسرفين فقال : ايها ابن العبسية ! إن من فقه المرء رفقه في معيشته [1] فلستم عليَّ تردون ، ولا رأيي تفندون ، فقدّموا النظر قبل العزم ، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا مالكم [2] والسلام .

(١) « وقال درهم .. في معيشته » غير موجودة في العقد . وهذا النص مضطرب بحد ذاته غير مفهوم المعنى .

(٢) « وتذكروا .. مالكم » وردت في العقد : « وأدركوا ماعليكم قبل أن تدركوا مالكم » .

قصة أهل خراسان

نبدأ بأهل خُراسانَ ، لإكثار الناس في أهل خرسان . ونخصُّ بذلك أهل مَرو[1] ، بقدر ما خُصّوا به .

قال اصحابنا : يقول المروَزيُّ للزائر إذا أتاه ، وللجليس إذا طال جلوسُه : تغديتَ اليومَ ؟ فانْ قال : نَعم ! قال : لولا انك تغدَّيْتَ لغديتُكَ بغداءٍ طيبٍ ، وان قال لا ! قال : لو كنت تغديتَ لسقيتُكَ خمسةَ اقداحٍ ! فلا يصيرُ في يده على الوجهين قليل ولا كثير[2]

وكنت في منزل ابنِ ابي كريمة ـ وأصله من مَرو ـ فرآني أتوضأ من كوزِ خزفٍ ، فقال : سبحان الله ! تتوضأ بالعذبِ والبئرُ لك مُعرضةٌ ؟! قلت : ليس بعذب ، انما هو من ماء البئرِ . قال : فتفسدُ علينا كوزَنا بالملوحةِ ! فلم أدر كيفَ التخلصُ منه .

---

(١) مرو من مدن خراسان والنسبة اليها مروزي . كانت مشهورة بصناعة النسيج .

(٢) ورد هذا النص مروياً عن طريق الأصمعي باختلاف بعض الألفاظ.

وحدثني عمرو بن نهيوى قال : تغديت يوماً عند الكندي فدخل عليه رجل كان له جاراً ، وكان لي صديقاً ، فلم يعرض عليه الطعامَ ، ونحن نأكل ، وكان ابخلَ من خلقَ اللهُ ؛ قال : فاستحيْت منه ، فقلت : سبحان الله ! لو دنوتَ فاصبتَ معنا مما نأكل ! قال : قد والله فعلت ! فقال الكندي : مابعد الله شيءٌ ! قال عمرو فكتفه والله كتفاً [1] لايستطيع معه قبضاً ولا بسطاً وتركه ولو مدَّ يده لكان كافراً أو لكان قد جعل مع الله ـ جل ذكره ـ شيئاً. وليس هذا الحديثُ لأهل مرو ، ولكنه من شكلِ الحديثِ الأولِ .

وقال ثُمامة [2] : لم أر [3] الديك في بلدة قط ، الا وهو

---

(١) كتفه كتفاً وكتافاً ، شد يديه الى خلف كتفه بالكتاف ، وهو كناية عن أنه أفحمة فلم يعرف كيف يتكلم .

(٢) هو ثمامة بن أشرس كان من زعماء المعتزلة ، وكان المأمون يرفع قدره ويجلة بعكس الرشيد فقد أوذي بعهده . وقد عهد اليه المأمون بالوزارة فرفضها ثمامه . وكان رجال الحديث يستمعون عليه ، ويحاولون النيل منه بسبب توجيه سياسة الدولة الدينية .

والخبر الذي يرويه الجاحظ هنا ورد في العقد ج ٦ ص ١٧٤ خبر لجبا ودونه باختلاف الألفاظ .

(٣ مارأيت بدلاً عن لم أر في العقد .

لافظُ (١) يأخذ الحبةَ بمنقاره ، ثم يلفظها (٢) قُدّام الدجاجة إلا ديكةَ مَرْوَ ، فاني رأيتُ ديكة مرو تسلُبُ الدجاج ما في مناقيرها من الحب . قال : فعلمتُ أن بُخْلَهم شيء في طبع البلاد ، وفي جواهر الماء . فمن ثم (٣) عمَّ جميع حيواناتهم. فحدّثتُ بهذا الحديث أحمد بن رشيد ، فقال : كُنْتُ عندَ شيخ من أهل مَرْوَ ، وصبيّ لهُ صغيرٌ يلعبُ بين يديه ، فقلتُ له - إما عابثاً او ممتحناً - : أطعمني من خبزكم . قال : لا تُريدُه هو مرّ ! فقلت : فاسقني مِنْ مائِكم . قال ! لا تُريدُه هو مالحٌ ! قلت : هات لي من كذا وكذا . قال : لا تريده هو كذا وكذا . الى ان عَددْتُ أصنافاً كثيرةً ، كلّ ذلك يمنعنيه ويُبغّضُهُ اليَّ . فضحكَ أبوه وقال : ماذنبنا ؟ هذا من علّمه ما تسمع ؟ يعني ان البخل طبعٌ فيهم وفي اعراقهم (٤) وطينتِهِمُ .

وزعم اصحابنا ان خراسانيةً ترافقوا في منزل ، وصبروا

---

(١) وردت في العقد باختلاف بعض الألفاظ وكذا في الحيوان ج ٢ ص ١٤٩ البابي .

(٢) وفي رواية لافظ . ثم يلفظها .

(٣) ثم : ظرف بمعنى هناك .

(٤) أي اصلهم .

عن الارتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر ، ثم انهم تناهدوا[1] وتخارجوا . وأبى واحد منهم أن يعينهم ، وأن يدخل في الغُرم معهم ، فكانوا إذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل ، ولا يزال ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح ، فاذا أطفؤوه أطلقوا عينيه ،

ورأيت أنا حَمّارة[2] منهم[3] زهاء خمسين رجلاً يتغدون على مباقل[4] ، بحضرة قرية الأعراب في طريق الكوفة ، وهم حُجّاج فلم أر من جميع الخمسين رجلَين يأكلان معاً ، وهم في ذلك متقاربون ، يحدّث بعضهم بعضا . وهذا الذي رأيته منهم من غريب مايتفق للناس .

حدثني مويس بن عمران قال : قال رجلٌ لصاحبه ـ وكانا إما متزاملين وإما مترافقين ـ : لِم لانتطاعم ، فان يدَ الله مع الجماعة وفي الاجتماع البركة ، وما زالوا يقولون طعام الاثنين يكفي

---

(١) تناهدوا : أخرج كل منهم نفقة بقدر نفقة صاحبه ليشتروا بها طعاما يشتركون في أكله وتخارجوا بمعنى واحد .

(٢) أي أصحاب الحمير .

(٣) أي من أهل خراسان .

(٤) مباقل : واحدتها مبقلة ، وهي هنة يجعل عليها البقل .

الثلاثة ، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة ؛ فقال له صاحبه . لولا أعلم أنك آكل مني لأدخلتُ لك هذا الكلام في باب النصيحة فلما كان الغد ، وأعاد عليه القول ، قال له : ياعبدَ الله ! معك رغيفٌ ، ومعي رغيف ، ولولا أنك تريد الشر ، ما كان حرصك على مؤاكلتي ! تريد الحديث والمؤانسة ؟ إجعل الطبقَ واحداً ، ويكون رغيفُ كل منا قدامَ صاحبه وما أشك أنك إذا اكلت رغيفك ونصف رغيفي ستجده مباركاً ، انما كان ينبغي أن اكون أجده انا ، لا أنت .

وقال خاقانُ بنُ صُبَيْح [1] : دَخلْتُ على رجلٍ من أهل خراسانَ ليلاً واذا هو قد أتانا بِمَسْرجةٍ فيها فتيلةٌ في غاية الدقةِ ، واذا هو قد ألقى في دُهنِ المِسْرَجة شيئاً من ملحٍ وقد علّق على عمود المنارة عموداً [2] بخيط ، وقد حزّ فيه حتى صار فيه مكانٌ للرباط . فكان المصباحُ اذا كاد يَنْطفئ أشخص [3] رأس الفتيلة بذلك ، قال : فقلت له : مابالُ العودِ مربوطاً ؟

(١) راجع العقد ج ٦ ص ١٧٤ - ١٧٥ . ط لجنة التأليف
(٢) المنارة : موضع المسرجه .
(٣) اشخص : أي رفع أو شد .

قالَ : هذا عودٌ قد تشرَّب الدُّهْنَ ؛ فان ضاع ولم يُحْفَظْ احتجنا الى واحدٍ عَطشان ، فاذا كان هذا دأبنا ودأبه ، ضاع من دُهنِنا في الشَّهر بِقَدرِ كِفايةِ ليلةٍ .

قال فبَينا أنا اتعجَّبُ في نفسي وأسألُ الله جلَّ ذكرُه العافيةَ والسترَ ، اذ دخلَ شيخٌ من أهل مرو ، فنظر الى العود فقال : يا أبا فُلانٍ ! فررتَ من شيْ ووقعت في شبيه به ! أما تعلمُ أن الريحَ والشمسَ تأخُذانِ من سائرِ الاشياء ؛ أوليسَ قد كان البارحةَ عند اطفاء السِراجِ أروى وهو عند إسراجك الليلة أعطشُ ؛ قد كنتُ أنا جاهلاً مثلك (حتى وفقني الله الى ماهو ارشد) [1] إرْبُطْ - عافاك الله - بَدَلَ العودِ ابرةً او مِسَلَّةً صغيرةً ، وعلى انَّ العودَ والخلالَ والقَصَبةَ رُبما تعلَّقَتْ بها الشَّعْرَةُ من قُطْنِ الفتيلةِ اذا سوَّيناها بها ، فتَشْخصُ لها [2] ، ورُبما كانَ ذلك سبباً لانطفاء السراج ، والحديدُ أملَسُ ، وهو مع ذلك غيرُ نشّاف [3] .

---

(١) زيادة من العقد .

(٢) تشخص : تذهب .والفاعل يرجع الى الفتيلة .

(٣) نشاف : صيغة مبالغة أي يمتص ،

قال خاقان : في تلكَ الليلةِ عرَفتُ فضلَ أهلِ خُراسان على سائر الناس ، وفضل أهل مرو على سائر أهل خُراسان [١]

قال مُثنّى بن بشير : دخل ابو عبد الله المرْوزيَ على شيخ من اهل خُراسان ، واذا هو قد استصبح في مِسْرجة خزَف ، من هذه الخزَفيّة الخضر ، فقال له الشيخ : لايجيء والله منك امر صالح ابداً ، عاتبتُك في مسارج الحجارة ، فأعتبْتني بالخزف ! او ماعلمتَ ان الخزفَ والحجارةَ يحسوان الدُهنَ حسواً ؟ قال : جُعلت فداك ! دفعتها الى صديق لي دهّان فألقاها في المصفاة شهراً حتى رويت من الدُهن ريّاً لا تحتاج معه ابداً الى شيء ! قال : ليس هذا أُريد ، هذا دواؤه يسير ، وقد وقعتَ عليه ، ولكن ماعلمتَ ان موضعَ النارِ من المسرجة في طرف الفتيلة لاينفك من إحراق النار وتجفيفه وتنشيف مافيه ، ومتى ابتل بالدهن وتسقاه ، عادت النار عليه ، فأكلته ، هذا دأبها ، فلو قِستَ مايتشرب ذلك المكانُ من الدُهن ، بما يستمده طرفُ الفتيلةِ منه ، لعلمتَ انّ ذلك اكثرُ . وبعد هذا فان ذلك الموضعَ من الفتيلة والمِسرجة لايزال سائلاً جارياً

(١) وردت هذه القصه بالعقد باختلاف بعض الالفاظ .

ويقال إنك متى وضعتَ مِسرجةً فيها مصباح ، وأخرى لا مصباحَ فيها ، لم تلبثْ إلا ليلةً او ليلتين ، حتى ترى السفلى ملآنة دُهناً واعتبر ايضاً ذلك بالملحِ الذي يوضعُ تحت المسرجة والنُخالةِ التي توضعُ هناك لتسويتها وتصويبها ، وكيف تجدهما ينعصران دُهناً . وهذا كلـه خسران وغبن ، لايتهاون به إلا اصحابُ الفسادِ . على أن المفسدين انما يُطعمون الناس ، ويسقون الناس ، وهم على حال يستخلفون شيئاً ، وان كان روثاً . وانت انما تُطعم النارَ وتسقي النار . ومن أطعمَ النار جعله الله يومَ القيامة طعاماً للنار ! قال الشيخُ : فكيف اصنع جعلت فداك ؟ قال : تتخذ قِنديلا ، فان الزجاج احفظُ من غيره ، والزجاجُ لايعرفُ الرشح ولا النشف ، ولا يقبل الاوساخَ التي لاتزول إلا بالدلك الشديد او باحراق النارِ ، وايها ما كان ، فانه يعيد المِسرجة الى العطش الاول ، والزجاج ابقى على الماء والتراب من الذهب الابريز ، وهو مع ذلك مصنوعٌ ، والذهب مخلوق ، فان فَضَله الذهب بالصلابة ، فضله الزجاج بالصفاء . والزجاج مجلٍ ، والذهب ستار ، ولان الفتيلةَ انما تكونُ في وسطه ، فلا تحمى جوانبه بوهَجِ المصباح ، كما تحمى بموضع النار من المِسرجة .

واذا وقع شعاعُ النار على جوهر الزجاج ، صار المصباح والقنديل مصباحاً واحداً وردَّ الضياءَ كلُّ واحد منهما على صاحبه واعتبر ذلك بالشعاع الذي يسقط على وجه المرآة ، أو على وجه الماء أو على الزجاجه ، ثم انظر كيف يتضاعف نوره ، وان كان سقوطه على عين انسان أعشاه ، وربما أعماه ؛ وقال الله جل ذكره : « اللهُ نُورُ السَّموات والأرْض مَثلُ نُوره كمِشْكاة فيها مِصْباحٌ ، ألمِصبَاحُ في زُجاجَة ، الزُّجاجَةُ كأنَّها كَوْكَبٌ دُرّيّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرة مُبارَكَة زَيْتونَة لاشَرْقيَّة ولاَ غرْبيَّة يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ ولوْ لمْ تَمْسَسْه نَارٌ نورٌ عَلى نُور يَهْدي اللهُ لِنُورِه مَنْ يَشاء »[1] والزيتُ في الزجاجة نورٌ على نور ، وضوء على ضوء مضاعف ، هذا مع فضل حُسن القِنديل على حُسن مسارج الحجارة والخزف . وابو عبد الله هذا ، كان من أطيب الخلق ، واملحهم بخلا ، واشدهم رياء . أُدخل على ذي اليمنين طاهر بن الحسين وقد كان يعرفه بخراسانَ بسبب الكلام ، فقالَ له : منذ كم أنت مقيمٌ بالعراق يا أبا عبد الله ؛ فقال : أنا بالعراق منذُ عشرين سنة

(١) القرآن الكريم :سورة النور الآية ٣٥

وأنا أصوم الدهر منذُ أربعين سنة . قال : فضحك طاهرٌ وقال : سألناك يا أبا عبد الله عن مسألةٍ فأجبتنا عن مسألتين !

ومن أعاجيب أهل مَرْوَ ما سمعناهُ من مشايخنا (١) على وجه الدهر : وذلك أنَّ رجلاً من أهل مرْو كان لا يزال يُحج ويتجر وينزل على رجل من أهل العراق فيكرمُه ويكفيه مؤنته ، ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقيّ : ليت أني قد رأيتك بمرو حتى أكافئك لقديم احسانك وما تجدد لي من البرِّ في كل قَدْمة (٢) ، فأما ههنا فقد أغناك الله عني ! قال : فعرَضتْ لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجةٌ في تلك الناحية ، فكان مما هوّن عليه مكابدةَ السفر ووحشة الاغتراب مكان المروزي هناك . فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوَته وكسائه ليحط رحله عنده ، كما يصنع الرجل بثقته وموضع أنسه فلما وجده قاعداً في أصحابه أكبَّ عليه وعانقه فلم أثبته (٣) ولا سأل به سؤال من رآه قط ! قال العراقيْ في نفسه : لعلَّ

(١) في بعض النسخ : مشيختنا

(٢) مرة

(٣) أي عرفه حق المعرفة ،

إنكاره إياي لمكانِ القناع . فرمى بقناعه وابتدأ مُساءلته ، فكان له أنكر ! فقال : لعله أن يكون انما أُتِيَ من قبل العمامة : فنزعها ثم انتسب وجدد مُساءلته ، فوجده أشد ما كان إنكاراً . قال : فلعله إنما أُتي من قبل القلنسوة . وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل . قال : لو خرجتَ من جلدك لم أعرفك ! وترجمة هذا الكلام بالفارسية : (اكراز پوست بارون بيائي نشنانسم) .

وزعموا أنهم ربما ترافقوا وتراملوا فتناهدوا [1] وتلازقوا في شراء اللحم ، فاذا اشتروا اللحم قسّموه قبل الطبخ ، وأخذ كلُ انسان منهم نصيبه فشكه بخوصةٍ أو بخيط ، ثم أرسله في خل القدر والتوابل ، فاذا طبخوه تناول كل انسان خيطه وقد علّمه بعلامةٍ ، ثم اقتسموا المرقَ ، ثم لا يزال احدهم يسل من الخيط القطعةَ بعدَ القطعة ، حتى يبقى الحبلُ لاشيءَ فيه ؛ ثم يجمعون خيوطهم . فان أعادوا الملازقةَ أعادوا تلك الخيوط لأنها قد تشربتْ الدسم فقد رُويت ، وليس تناهدهم من طريق الرغبة في المشاركة . ولكن لأن بضاعة كل واحد منهم لاتبلغ مقدار

(١) تشاركوا في الأكل .

الذي يحتمل أن يطبخ وحده ، ولأن المؤنة تخف ايضاً في الحطب والخل والثوم والتوابل ولان القدرَ الواحدَة أمكن من أن يقدر كل واحد منهم على قدر ، وانما يختارون السكباج (١) لأنه أبقى على الأيام وأبعد من الفساد .

حدثني أبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظّام قال : قلتُ مرة لجار كان لي ، من اهل خراسان : أعرني مقلاكم ، فاني احتاج اليه . قال : قد كان لنا مِقلى ولكنّه سُرق . فاستعرت من جار لي آخر ؛ فلم يلبث الخُراسانيّ ان سمع نشيش اللحم في المقلى ، وشمّ الطُباهج (٢) ، فقال لي كالمُغضب : مافي الأرض اعجب منك ! لو كنت خبرتني أنك تريدُه لِلَحم او لشحمٍ لوجدتني أسرع اليك به ، انما ظننتك تريده للباقلّى ، وحديد المَقلى يحترق إذا كان الذي يقلى فيه ليسَ بِدسم . وكيف لا أعيرك اذا اردتَ الطُباهج ، والمقلى بعد الردّ من الطباهج احسن حالا منه وهو في البيت ! ؟

وقال ابو اسحاق ابراهيم بن سيّار النظام : دعانا جارٌ لنا

---

(١) اللحم المطبوخ بخل وهي كلمة فارسية .

(٢) وهي كلمة فارسية مثل السكباج وهو طعام مؤلف من بيض وبصل ولحم .

فأطعمنا تمراً وسمناً سِلاءً [1]، ونحن على خوان ليس عليه الاّ ماذكرت، والخُراساني معنا يأكل، فرأيته يقطّر السمن على الخوان حتى اكثر من ذلك، فقلت لرجل الى جنبي: مالأبي فلان يضيع سمن القوم، ويسيء المؤاكلة، ويغرف فوق الحق؟ قال: وما عَرفتَ علّته؟ قلت: لا والله! قال: الخِوان خِوانه فهو يريد أن يدسمه ليكون كالدّبغ [2] له؛ ولقد طلق امرأتهُ، وهي امُ أولاده، لأنه رآها غسلتْ خِواناً له بماء حار؛ فقال لها: هلاّ مسحته؟!!

وقال ابو نُواس: كان معنا في السفينة ـ ونحن نريد بغداد ـ رجلٌ من اهل خُراسان، وكان من عقلائهم وفهائهم [3] فكان يأكلُ وحده، فقلتُ له: لم تأكل وحدك؟ قال: ليس عليّ في هذا الموضع [4] مسألة، انما المسألة على من أكل مع الجماعة

---

(١) مادام السمن خالصا طريا فهو سلاء. وهو عند أهل الحجاز سمن الغنم الصافي الرقيق الطيب الريح الذي يشبه ماء الورد في القوارير لايغيره مرور المدد الطوال.

(٢) الدبغ والدباغ مايدبغ به الادیم ليحفظ من البلى.

(٣) في العقد: من فقهائهم وعقلائهم.

(٤) ساقطة في العقد.

لأن ذلك هو التكلف [١] ، وأكلي وحدي هو الأصل ، واكلي مع غيري زيادة في الأصل [٢] .

وحدثني ابراهيمُ بنُ السِّنديّ [٣] قال : كان على « ربع الشاذروان » [٤] شيخٌ لنا من اهل خُراسان . وكان مصحّحاً ، بعيداً من الفساد ، ومن الرشا . ومن الحكم بالهوى ، وكان حفيًّا جداً ، وكذلك كان في إمساكه ، وفي بخله ، وتدنيقه في

---

(١) في العقد : لانه يتكلف .

(٢) في العقد : أو أكلي مع الجماعة تكلف ما ليس علي .

(٣) هو ابراهيم بن السندي بن شاهك السندي من موالي ولد العباس تولى القضاء ، وكان واليا على الشام والكوفة . ذكره الجاحظ في البيان والتبين ج ١ ص ٢٦٦ قال :

... وأما ابراهيم فانه كان رجلا لانظير له ، وكان خطيباً ، وكان ناسبا ، وكان فقيهاً ، وكان نحوياً عروضياً ، وحافظاً للحديث ، راوية للشعر شاعراً ، وكان فخم الالفاظ شريف المعاني . وكان كاتب القلم كاتب العمل . وكان يتكلم بكلام رؤبه ، ويعمل بعمل زادان فروخ الأعور ، وكان منجماً طبيباً . وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالماً بالدولة وبرجال الدعوة ، وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوماً ، وأصبرهم على السهر .

(٤) هو على مايظهر من السياق حي من أحياء بغداد .

نفقاته، وكان لا يأكل إلا ما لا بدّ منه، ولايشرب إلا مالا بد منه، غير أنه اذا كان في غَداة كلّ جُمعة، حمل معه منديلا فيه جردقتان [١]، وقطع لحم سكباج مبرَّد، وقطع جبن وزيتونات وصرّة فيها ملح، وأخرى فيها أشنان واربع بيضات ليس منها بدّ، ومعه خِلال [٢] ومضى وحده حتى يدخل بعض بساتين الكرخ، وينظر موضعاً تحت شجرة، وسط خضرة، وعلى ماء جار؛ فاذا وجد ذلك، جلس، وبسط بين يديه المنديل وأكل من هذا مرّة، ومن هذا مرّة؛ فان وجد قيِّم ذلك البستان رمى اليه بدرهم، ثم قال: اشتر لي بهذا، أو أعطني بهذا رُطَباً - ان كان في زمان الرطب - او عنباً - ان كان في زمان العنب - ويقول له: ايّاك ايّاك ان تحابيني ولكن تجوّد لي فانك ان فعلت لم آكله، ولم اعد اليك، واحذر الغَبن، فان المغبون لا محمودٌ ولا مأجور [٣]. فان أتاه به أكل كلّ شيء معه وكلّ

---

(١) الجرذق والجردق بمعنى واحد وهو الرغيف الغليظ معرب «كردو» فارسية.

(٢) وهو ماتخلل به الاسنان.

(٣) هذا مثل يقال في البائع والمشتري وسيأتي هذا المثل في رسالة ابن التوأم.

شيء أُتي به ، ثم تخلّل وغسل يديه ، ثم يمشي مقدار مئة خُطوة ثم يضع جنبه فينام الى وقت الجمعة ، ثم ينتبه فيغتسِل ويمضي الى المسجد . هذا دأبه كلّ جمعة .

قال ابراهيم : فبينا هو يوماً من أيامه يأكلُ في بعض المواضع ، اذ مرّ به رجل فسلم عليه . فرد السلام ثم قال : هلمّ عافاك الله . فلما نظر الى الرجل قد انثنى راجعاً يريد أن يَطْفر [1] الجدول او يتعدى النهر [2] قال له : مكانك ! فانّ العجلة من عمل الشيطان . فوقف الرجل فأقبل عليه الخراسانيّ وقال : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن اتغدّى ! قال : ولِمَ ذلك ، وكيف طمِعتَ في هذا ؟ ومن أباح لك مالي ؟ قال الرجل : أوَليسَ قد دعوتني ؟ قال : ويلك ! لو ظننتُ انك هكذا احمقُ ما رَددتُ عليك السلام ! الأمر [3] فيما نحنُ فيه ان تكونَ اذا كنتُ انا الجالس ، وانت المار ، ان تبدأ انت فتُسلِّم ، فأقول أنا حينئذ مجيباً لك : وعليك السلام ، فان كنتُ لا آكل شيئاً سكتُّ أنا . وسكتَّ أنتَ ؛ ومضيتَ أنت ، وقعدت انا على

---

(١) يثب في ارتفاع .

(٢) تعدى النهر : تجاوزه .

(٣) في الاصل : الايين وقد صلحناها عن نسخة فان فلوتن .

حالي . وإن كنتُ آكل ، فها هنا اين[1] آخر : وهو أن أبدأ أنا فأقول : هلمّ وتجيبُ أنتَ فتقول : هَنيئاً فيكون كلامٌ بكلام ! فأما كلامٌ بِفعالٍ ، وقولٌ بأكلٍ ، فهذا ليس من الانصافِ ! وهذا يخرج علينا فضلاً كثيراً ! قال : فورَدَ على الرجل شيءٌ لم يكنْ في حِسابِه ، فشُهِرَ[2] بذلك في تلك الناحية ، وقيلَ له : قد أعفيناك من السلام ومن تكلّف الردّ . قال : مابي إلى ذلك حاجة ، إنما هو أن أُعفي أنا نفسي من « هلمّ » وقد استقامَ الأمرُ .

ومثلُ هذا الحديثِ ما حدّثني به محمد بنُ يسير[3] عن والٍ كان بفارس ، إما أن يكون خالداً أخا مهرويه ، أو غيره ، قال :

بينا هُوَ يوماً في مجلس ، وهو مشغولٌ بحسابه وأمرِه وقد احتجب جُهْده[4] إذ نجَمَ[5] شاعرٌ من بَين يديه فأنشده

(١) في نسخة فان فلوتن : بيان بدلا عن أين . وفي نسخة : وجه .

(٢) أي الخراساني .

(٣) هو أبو جعفر بن يسير الرياشي شاعر من شعراء البصرة . ذكره صاحب الاغاني ج ١٢ ص ١٣٢ ط التقدم .

(٤) أي احتجب عن الناس على قدر ما أمكنه .

(٥) نجم : ظهر .

شعراً مدحه وقرّظه ومجّده ، فلمّا فرغ قال : « قد أحسنت » ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ! ففرح الشاعر فرحاً قد يستطار[1] له ، فلمّا رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ! إجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده ، فلمّا رأى فرحه قد تضاعف[2] قال : وإنّ فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ؛ أعطه يافلان أربعين ألفاً ! فكاد الفرح يقتله

فلما رجعت إليه نفسه قال له : أنت ـ جعلت فداك ـ رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحاً ، زدتني في الجائزة ، وقبول هذا منك لايكون إلا من قلة الشكر له ، ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضي منك بأربعين درهماً ، تأمر له بأربعين ألف درهم ! قال : ويلك ! وتريد أن تعطيه شيئاً ؟ قال : ومن إنفاذ أمرك بدّ[3] ؟

(١) أي كاد يطير فرحاً .
(٢) في بعض النسخ : أضعف .
(٣) في بعض النسخ : ولم أمرت له بذلك .

قال : يا أحمق إنما هذا رجل سرّنا بكلام، وسررناه بكلام! هو حين زعم أني أحسن من القمر، وأشدّ من الأسد، وأنّ لساني أقطع من السيف، وأنّ أمري أنفذ من السنان، جعل في يدي من هذا شيئاً أرجع به إلى شيء؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب؟ ولكنّه قد سرّنا حين كذب لنا، فنحن أيضاً نسرّه بالقول، ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذباً، فيكون كذب بكذب، وقول بقول؛ فأما أن يكون كذب بصدق، وقول بفعل فهذا هو الخسران الذي ما (١) سمعت به.

ويقال : إنّ هذا المثل الذي قد جرى على ألسنة العوام من قولهم : ينظر إليّ شزراً كأني أكلت اثنين، وأطعمته واحداً إنما هو لأهل مرو.

قال : وقال المروزي : لولا أنني أبني مدينة لبنيت آريّاً (٢) لدابتي.

قال : وقلت لأحمد بن هشام (٣) - وهو يبني داره ببغداد -

(١) في بعض النسخ : حذفت « ما ».

(٢) الآري : محبس الدابة، وحبل تشد به في محبسها.

(٣) رجل من بغداد كان بينه وبين اسحاق الموصلي صداقة. وقد روى له صاحب الأغاني بيتين من الشعر.

إذا أراد اللهُ ذهابَ مالِ رجلٍ سلّط عليه الطينَ والماءَ ، قال : لا بل إذا أراد الله ذهابَ مالِ رجلٍ جعله يرْجو الخلف ، والله ما أهلك الناس ، ولا أفقر بيوتهم ، ولا ترك دورهم بلاقع إلا الايمان بالخلف . وما رأيت جُنة قط أوقى من اليأس .

قال : وسمعَ رجُلَ من المراوزة الحسنَ[1] وهو يحثُ الناس على المعروف ويأمرُ بالصدقة ، ويقول : ما نقص مالٌ قط من زكاةٍ . ويعدهم سرعة الخلف ، فتصدّق بماله كلّه ؛ فافتقر ! فانتظرَ سنةً وسنة ، فلما لم ير شيئاً بكّر على الحسنِ فقال : حسنُ[2] ما صنعت بي ! ضمنت لي الخلف ، فأنفقتُ على عِدَتِك وأنا اليومَ مذ كذا وكذا سنةً انتظر ما وعدتَ ، لا أرى منه قليلا ولا كثيراً ، هذا يحلْ لك ؟ اللصْ كان يصنع بي أكثر من هذا ؟

والخلف يكون معجّلاً ومؤجلاً . ومن تصدّق وتشرّط الشروط ، استحقّ الحرْمان . ولو كان هذا على توهمه المرْوَزيْ

(١) الحسن : هو الحسن البصري .
(٢) تعبير يراد به التهكم .

لكانت المحنة فيه ساقطة ، ولترك الناسُ التجارةَ ، ولما بقي فقير ، ولذهبتْ العبادة .

وقيل : أصبح ثُمامةُ [1] شديدَ الغمِّ حين احترقت داره ، وكان كلما دخل عليه انسانٌ قال : الحريق سريعُ الخلفِ ، فلما كثر ذلك القول منهم قال : فاستحرق الله . اللهمَّ إني استحرقك فاحرق كل شيءٍ لنا .

وليسَ هذا الحديثُ من حَديثِ المراوِزَة ، ولكنا ضممناه إلى ما يشاكله .

قال سَجّادة ـ وهو أبو سعيد سَجّادة ـ : إن أُناساً من المراوزة إذا لبسوا الخفافَ في الستَّةِ الأشهرِ التي لا ينزعون فيها خفافهم ، يمشون على صدور أقدامِهمْ ثلاثةَ أشهرٍ ، وعلى أعقاب أرْجلهمْ ثلاثة أشهرٍ ، حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة أشهرٍ مخافةَ أن تنجرد نِعال خفافهم أو تنقب .

* * *

(١) ثمامة بن أشرس من أئمة المعتزلة وله فرقة تسمى الثامية .

وحكى أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ سيّار النظّام، عن جاره المرْوَزيِّ أنه كان لايلبس خفاً ولا نعلاً إلى أن يذهب النبقُ [1] اليابسُ لكثرة النوى في الطريق والأسواق .

قال : ورآني مرة مصصتُ قصب سكّرٍ ، فجمعت ما مصصت ماءهُ لأرمي به ، فقال :إن كنت لا تنّور لك ولاعيال، فهبه لمن له تنّور ، وعليه عيال ، وإياكَ أن تعوّد نفسك هذه العادة في أيام خفة ظهرك ، فانك لاتدري مايأتيك من العيال [2] .

* * *

(١) حمل شجر السندر .

(٢) في بعض النسخ : متى يأتيك العيال .

قصة اهل البصرة من المسجديين

قال أصْحَابُنا من المسجديين[1] .

اجتمع ناسٌ في المسجد ، ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة والتنمية[2] للمال ؛ من أصحاب الجمع والمنع . وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحابِّ ، وكالحلف الذي يجمع على التناصر . وكانوا إذا التقوا في حِلَقهم تذاكروا هذا الباب ، وتطارحوه ، وتدارسوه ، التماساً للفائدة ، واستمتاعاً بذكره ، قال شيخٌ منهم : ماء بئرِنا كما قد علمتم ، مالحٌ أُجاجٌ

(١) المسجديون : قوم كانوا يلزمون المساجد وقد ذكرهم الجاحظ في البيان والتبين : ج ١ ص ٢٠٥ وج ٣ ص ٢٣٥ مصطفى محمد ١٩٣٢ والحيوان ص ١٦٣ . وكان منهم الشعراء ومصطنعو الحكم والرواة . ومن الشعراء المسجدين ابو عمران موسى بن محمد السلمي . وفي الموازنة بين الشعراء للآمدي فيما يستكره من اشعار العرب هذا الشطر .

وسنا كسنيق سناء ا وسنما

ووصفه بأنه بيت مسجدي . وفي أخبار أبي نواس لابن منظور أنه لما شب وكبر صحب اهل المسجد والمجان .

(٢) في بعض النسخ : والتميز ولعلها التشمير .

لايقربه الحمارُ ، ولا تسيغهُ الابل ، وتموت عليه النخل ، والنهرُ منا بعيدٌ ، وفي تكلف العذب علينا مؤنةٌ ، فكنا نمزجُ منه للحمار ، فاعتلّ منه وانتقض علينا من أجله ، فصرنا بعد ذلك نُسقيه العَذْبَ صرفاً . وكنت أنا والنعجة كثيراً ما نغتسل بالعذب مخافةَ أن يعتري جلودنا منهُ مثل ما اعترى جوف الحمار ، فكان ذلك الماء العذبُ الصافي يذهب باطلاً . ثم انفتح لي فيه باب من الاصلاحِ ، فعمِدْت الى ذلك المتوضّأ ، فجعلت في ناحية منه حفرة ، وصهرجتها ، وملستها ، حتى صارت كأنها صخرة منقورة وصوّبت اليها المسيل ، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء اليها صافياً لم يخالِطهُ شيء . ولولا التعبّد ، لكان جِلدُ المتغوّطِ أحقَّ بالنّتن من جلد الجُنب ، فمقادير طيبِ الجلودِ واحدةٌ ، والماء على حاله ، والحمار أيضاً لاتقزّز له من ماء الجنابة ، وليس علينا حرجٌ في سقيه منه ، وما علمْنا أن كتاباً حرّمه ، ولا سنّة نهت عنْهُ ، فربحنا هذهِ منذ أيامٍ ، وأسقطنا مؤنةً عن النفس والمال .

قال القوم : وهذا بتوفيق الله ومنة .

فأقبل عليهم شيخٌ فقال : هل شعرتم بموت مريم الصنّاع

فانها كانت من ذوات الاقتصاد ، وصاحبة إصلاح . قالوا : فحدثنا عنها . قال : نوادرُها كثيرةٌ ، وحديثها طويل ، ولكني أُخبركم عن واحدةٍ فيها كفاية . قالوا وما : هي ؟ قال :

زوّجت ابنتها وهي بنت اثنتي عشرة ، فحلّتها الذهب والفضة ، وكستها المرويّ والموشيّ والقزّ والخزّ ، وعلّقت المعصفر ، ودقت الطيب ، وعظّمت أمرها في عين الختن ، ورفعت من قدرها عند الأحماء ، فقال لها زوجُها : أنّى هذا يامريمُ ؟ قالت : هو من عند الله ! قال : دعي عنك الجملة ، وهاتي التفسير ، والله ما كنت ذاتَ مالٍ قديماً ، ولا ورثتِهِ حديثاً ، وما انت بخائنة في نفسك ، ولا في مال بعلك ، إلا أنْ تكوني قد وقعت على كنزٍ . وكيف دار الأمر فقد أسقطت عني مؤنة ، وكفيتني هذه النائبة ! قالت : اعلم أني منذ يوم ولدتها ، إلى أن زوجتها ، كنتُ أرفع من دقيق كلِّ عجنة حفنة ، وكنّا — قد علمت — نخبز في كلّ يومٍ مرة ، فاذا اجتمع من ذلك مكّوك [1] بعتُه . قال زوجها : ثبّت

(١) المكوك : مكيال يسع صاعاً ونصف .

الله رأيك ، وأرشدكِ ، ولقد أسعدَ الله من كنت له سكَنًا ، وبارك لمن جُعلت له إلفاً . ولهذا وشبهه قال رسول الله ﷺ : « من الذَّوْد إلى الذَّود إبلٌ [1] » . وإني لأرجو أن يخرج ولدك على عِرقك الصالح ، وعلى مذهبك المحمود ، وما فرحي بهذا منك بأشدَّ من فرحي بما يثبّت الله بكِ في عقبي من هذه الطريقة المرضية !

فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها ، وصلّوا عليها . ثم انكفؤا إلى زوجها فعزّوه على مصيبته ، وشاركوه في حزنه .

ثم اندفع شيخ منهم فقال :

ياقوم ! لا تحقروا صغار الأمور ، فانّ أول كلِّ كبيرٍ صغير ، ومتى شاء الله أن يعظِّم صغيراً عظَّمه ، وإن يكثّر قليلا كثّره . وهل بيوت الأموال إلا درهم إلى درهم [2] ؟ وهل الذهب إلا قيراطٌ إلى جنب قيراط ؟ وليس [3] كذلك رمل عالج وماء

(١) الذود من الابل : مابين الثنتين الى التسع ، وقيل مابين الثلاث الى العشر . وفي مجمع الامثال واللسان ضرب مثلا ، وهو فيهما ليس حديثاً ونصه فيهما : « الذود الى الذود إبل » ومن زائدة .

(٢) في بعض النسخ : درهم .

(٣) يريد : أوليس كذلك ؟

البحر ؟ وهل اجتمعت اموالُ بيوتِ الأموال إلا بدرهم من هنا ، ودرهم من ههنا ؟ فقد رأيت صاحب سَفَطٍ [1] قد اعتقد مائةَ جريب في أرض العرب ، ولربما رأيتُه يبيعُ الفلفلَ بقيراط ، والحمص بقيراطٍ ، فاعلم أنه لم يربحْ في ذلك الفلفل إلا الحبة [2] والحبّتين من خشب الفلفل ، فلم يزل يجمع من الصغار الكبار ، حتى اجتمع ما اشترى به مائة جريب [3] .

ثم قال : اشتكيتُ أياماً صدري من سُعال كان أصابني ، فأمرني قومٌ بالفانيذ السكري [4] وأشار عليّ آخرون بالحريرة [5] تتّخذ من النشاشتج [6] والسكر ودهن اللوز ، واشباه ذلك . فاستثقلتُ المؤنة ، وكرهت الكلفة ، ورجوْتُ العافية ، فبينما

---

(١) في بعض النسخ سقط والسفط كالقفة .

(٢) الحبة : ربع القيراط أو جزء من ثمانية واربعين جزءاً من درهم.

(٣) الجريب : من الأرض مقدار الزراع والمساحة وقيل هو مكيال . وقال ابن دريد : لا أحسبه عربياً . والجمع أجربه وجربان. وقيل الجريب المزرعة

(٤) الفانيذ : ضرب من الحلواء يصنع من السكر ودقيق الشعير والترنجين وهو فارسي معرب لكلمة بانيد .

(٥) في الاصل بالخزيرة. والحريرة نوع من الحلواء تصنع من السمن والسكر والطحين وتأكل صباحاً ضد السعال .

(٦) النشا : وهو فارسي معرب .

أنا أُدافع الأيام ، إذ قال لي بعض الموفّقين : عليكَ بماء النخالة فاحْسه حارّاً . فحسوْت ، فاذا هو طيّب جداً ، وإذا هو يعصِم فما جعت ولا اشتهيتُ الغداءَ في ذلك اليوم إلى الظهر . ثم ما فرغتُ من غَدائي وغَسلَ يدي ، حتى قاربتْ العصرُ ، فلما قَرُبَ وقتُ غدائي من وقتِ عشائي ، طويت العَشاءَ ، وعرفت قصدي .

فقلت للعجوز : لِمَ لاتطبخين[1] لِعيالنا في كلّ غداة نخالة؟ فان ماءَها جِلاءٌ للصدر ، وقوتها غذاء وعصمة ؟ ثم تجففين بعدُ النخالة ، فتعود كما كانت ، فتبيعينه إذا اجتمع بمثل الثمن الأول . ونكون قد ربحنا فضل مابين الحالين ! قالت : أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السُّعال مصالح كثيرة ، لِما فتح الله لك بهذه النخالة ، التي فيها صلاح بدنك ، وصلاح معاشك .

وما أشكُ أنّ تلك المشورة كانت من التوفيق .

قال القوم : صدقت ! مثل هذا لايكتسب بالرأي ، ولا يكون إلا سماويّاً .

* * *

ثم أقبل عليهم شيخٌ آخر فقال :

---

(١) في بعض النسخ : تطحنين .

كنا نلقى من الحُرّاق والقدّاحة جهداً لأن الحجارة كانت إذا انكسرت حروفها ، واستدارت ، كلّت ولم تقدح قدحَ خير ، وأصلدت فلم تُورِ ، وربما أعجلنا المطر والوكَف . وقد كان الحجرُ أيضاً يأخذُ من حروفِ القدّاحةِ حتى يدعها كالقوس ، فكنت أشتري المرقشيثا [1] بالغلاء ، والقدّاحةَ الغليظة بالثمن الموجع . وكان علينا أيضاً في صَنعة الحُرّاق ، وفي معالجة القطنة مؤنة . وله ريحٌ كريهةٌ . والحُراق لايجيء من الخِرق المصبوغةِ ، ولا من الخِرق الوسِخة ، ولا من الكتان ، ولا من الخُلقان ، فكنا نشتريه بأغلى الثمن . فتذاكرنا منذ أيام أهلَ البدو والأعراب ، وقدحهم النارَ بالمرخ والعفار ، فزعم لنا صديقنا الثوري ـ وهو ماعلمت أحدُ المرشدين ـ ان عراجين الأعذاق [2]

(١) في كتاب الاحجار لارسطاليس ص١١٢طهيدليرج. وانظر مفردات ابن البيطار « حجر المرقشيثا : المرقشيثا الوان كثيرة منها الذهبية والفضية والنحاسية ، هذه الوانه . فاذا كلس وحرق حتى يصير مثل الدقيق وقد في الصنعة ، وان القى مع يسيرمن الكبريت في البوطقة خلص الذهب واذا حك المسقي بالمرقشيثا قدح النار وهي تعني حجر النار .

(٢) العراجين: ج عرجون وهو أصل عنقود النخل والاعذاق ج. عذق وهو فروع العنقود .

تنوبُ عن ذلك أجمع ، وعلّمني كيفَ تُعالج ، ونحن نُؤتى بها من أرضِنا بلا كلفة . فالخادم اليوم لا تقدَحُ ولا تُورِى إلا بالعرجون .

قال القوم : قد مرت بنا اليوم فوائد كثيرة، ولهذا قال الأولُ : « مذاكرةُ الرجال ، تلقّح الألباب » ! ثم اندفع شيخ منهم فقال :

لم أر في وضع الأمور مواضعها، وفي توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبرية . قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟ قال : أهدى اليها العامَ ابنُ عمٍ لها أضحية ، فرأيتها كئيبةً حزينةً مفكرةً مطرقةً ، فقلت لها : مالك يامعاذة ؟ قالت : أنا امرأةٌ أرملةٌ ، وليس لي قيّم ؛ ولا عهد لي بتدبير لحمِ الأضاحي، وقد ذهب الذين كانوا يدبِّرونه ، ويقومون بحقّه . وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة، ولستُ اعرفُ وضع جميع أجزائها في أماكنها وقد علمتُ أن الله لم يخلق فيها ، ولا في غيرها، شيئاً لامنفعة فيه ، ولكنَّ المرءَ يعجز لا محالة . ولستُ أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجرُّ تضييع الكثير .

أما القرن فالوجه فيه معروفٌ : وهو أن يجعل منه كالخطاف

ويسمَّر في جِـذع من جذوعِ السقف ، فيعلَّقُ عليه الزُّبُل والكيران [١] ، وكلّ ماخيفَ عليه من الفأرِ والنملِ والسنانير وبنات وردان والحيّات وغير ذلك . وأما المصران : فانه لأوتار المندفة [٢] ، وبنا إلى ذلك أعظمُ الحاجةِ . وأما قِحف الرأسِ واللّحيان وسائر العظام : فسبيله أن يكسر بعد أن يُعرَق. ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللأدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها ، فلم ير الناس وقوداً قطّ أصفى ولا أحسنَ لهباً منه ، واذا كانت كذلك فهي أسرع في القدر ، لقلة مايخالطها من الدخان . وأما الأهاب : فالجلد نفسه جِراب . وللصوف وجوه لاتعد [٣] . وأما الفرث والبعر فحطب إذا جفّف عجيب .

ثم قالت : بقي الآن علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت أن الله ـ عز وجل ـ لم يحرِّم من الدم المسفوح إلا أكلَهُ وشربه ، وأن له مواضع يجوز فيها ولا يُمنع منها ، وإن أنا لم أقع على

(١) الكيران : ج . كور ، وهو أداة البيت .

(٢) المندفة : اسم آلة لما يندف به القطن وغيره .

(٣) تعد وردت في فان فكوتن تدفع .

عِلْمِ ذلك - حتى يوضع موضع الانتفاع به - صار [1] كيَّةً في قلبي ، وقذى في عيني ، وهمّاً لايزال يعاودني [2] . فلم ألبث أن رأيتُها قد تطلّقت وتبسمتْ فقلتُ : ينبغي أن يكون قد انفتح لك باب الرأي في الدم ، قالت : أجل ! ذكرتُ أنَّ عندي قدوراً شاميةً جُدُداً . وقد زعموا أنَّه ليسَ شيءٌ أدبغ ولا أزيد في قوَّتها من التلطيخ بالدم الحارِّ الدسم ، وقد استرحتُ الآن ، إذْ وقعَ كلُّ شيءٍ موقعه .

قال : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ، فقلت لها : كيف كان قديد تلك ؟ قالت : بأبي أنت ! لم يجئْ وقتُ القديد بعدُ . لنا في الشَّحم والألية والجُنُوب والعظم المعرق وغير ذلك معاش . ولكلِّ شيءٍ إبّان [3] .

فقبضَ صاحبُ الحمارِ والماء العذب قبضةً من حصى ، ثم ضرب بها الأرض . ثمَّ قال : لاتعلمُ أنك من المسرفين ، حتّى تسمعَ بأخبارِ الصالحين !

---

(١) كان صار « فان فلوتن » .

(٢) في نسخة : يعودني .

(٣) إبان : أي وقت .

قصة زبيدة بن حميد

وأما زبيدة بنُ حُميد الصيرفي ، فانه استلَفَ من بقّالٍ كان على بابِ دارِهِ درهمين وقيراطاً ، فلما قَضاه بعد ستّة أشهرٍ قضاه درهمين وثلاثَ حبات شعيرٍ . فاغتاظ البقالُ ، فقال : سُبحانَ الله أنتَ ربُّ مائةالف دينارٍ ، وأنا بقّال لا أملك مائة فلْسٍ ، وإنّما أعيشُ بكدي وباستِفضال الحبّة والحبّتين صاح على بابك حمّال والمالُ لم يحضُرك ، وغابَ وكيلُك ، فنقدتُ عنك درْهمين وأربع شعيرات ، فقضيتني بعد ستة أشهرٍ درْهمين وثلاثَ شعيرات ؛ فقال زبيدةُ : يامجنونُ ! أسلفتني في الصيفِ ، فقضيتك في الشتاء ، وثلاثُ شعيراتٍ شتويّةٍ نديةٍ أرزنُ من أربع شعيراتٍ يابسةٍ صيفيةٍ ، وما أشكُّ أن معكَ فضلاً . (١)

---

(١) ورد هذا النص بالعقد الفريد ج ٦ لجنة التأليف باختلاف بعض الالفاظ .

وحدّثني أبو الاصبغ بن ربعي قال : دخلتُ عليه بعد أن ضرب غلمانه بيوم ، فقلتُ له : ما هذا الضربُ المبرّح وهذا الخُلُق السيء ؟ هؤلاء غلمانٌ ، ولهم حُرمة وكفايةٌ وتربيةٌ ، وإنما هم ولد ، هؤلاء كانوا إلى غير هذا أحوج ! قال : إنّكَ لستَ تدري أنهم اكلوا كل جُوارِشنٍ [1] كان عندي .

قال أبو الأصبغ ، فخرجتُ إلى رئيسِ غِلمانه فقلتُ : ويلك ! مالكَ وللجُوارشن ، وما رغبتُك فيه ؟ قال : جعلتُ فِداكَ ! ما أقدر أن أكلِّمك من الجوعِ إلا وأنا متّكئ ، الجُوارِشن ما أصنعُ به ؟ هو نفسُه ليسَ يشبع ، ولا نحتاجُ إلى الجوارشن ـ ونحن الذين إنما نسمع بالشبع سَماعاً من أفواه الناس ، مانصنع بالجوارشن ؟

واشتدّ على غِلمانه في تصفيةِ الماء ، وفي تبريده وتزميله لأصحابه وزوّارِه ، فقال له غازي أبو مُجاهد : جُعلتُ فداك ! مُرْ بتزميلِ الخبزِ وتكثيره [2] ، فانّ الطعام قبلَ الشرابِ .

---

(١) الجوارشن والجوارش بمعنى واحد تعريب كوارش وهو الهضام . وهي عند الاطباء نوعه من الادوية .

(٢) وردت في بعض النسخ : وبتكبيره .

وقال مَرَّةً : ياغلامُ ! هاتِ خوانَ النَرد - وهو يريد تختَ النَرْد - فقال له غازي نحن إلى خِوانِ الخبزِ أحوج !

وسكِر زُبيدةُ ليلةً ، فكسا صديقاً له قميصاً ، فلما صار القميص على النديم خاف البَدَوات ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فمضى من ساعته إلى منزله فجعله بَرَنْسكاناً [1] لامرأته فلما أصبحَ ، سأل عن القميص وتفقّدهُ ، فقيلَ لهُ : إنَّك قد كسوتَهُ فلاناً . فبعثَ اليه ، ثم أقبلَ عليه ، فقال : ما علمتَ أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لايجوز ! وبعد فاني أكره ألاّ يكون ليَ حَمْد ، وأن يوجّه الناس هذا مني من السُكر ، فرُدّه عليّ حتى أهبَه لك صاحياً عن طيب نفسٍ ، فاني أكرَهُ أن يذهبَ شيء من مالي باطلاً فلما رآه قد صمم ، أقبلُ عليه فقال : ياهناه ! إنَّ الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء من ذلك ، فردَّ القميص عافاك الله . قال له الرجلُ : إنّي والله قد خفتُ هذا بعينه ، فلم أضع جنبي إلى الأرض حتى جيّبته لامرأتي ، وقد زدتُ في

---

(١) كساء اسود يلف الجسم كله .

الكمّين ، وحذفت المقاديمَ ، فان أردتَ بعد هذا كلّه أن تأخذه فخذه . قال نعم ! آخذه لأنه يصلحُ لامرأتي كما يصلح لامرأتك . قال : فانه عندَ الصبّاغ ، قال : فهاتِه ! قال : ليسَ أنا أسلمتُه اليه . فلمّا عَلِمَ أنه قد وَقَع قال : بأبي وأمي رسولُ الله ﷺ حيثُ يقول : جُمع الشرّ كله في بيت وأُغلِقَ عليه فكان مفتاحُه السكر !

* * *

قصة ليلى الناعطية (١)

وأما ليلى الناعطيةُ ، صاحبةُ الغاليةِ من الشيعةِ ، فأنها مازالت ترقّع قميصاً لها وتلبسه ، حتى صار القميصُ الرّقاعَ وذهب القميص الأول . ورفَت كساءها ولبِسته حتّى صارتْ لا تلبس إلا الرّفو ، وذهبَ جميعُ الكِساء . وسمعتْ قولَ الشاعر .

إلبَسَ قميصكَ ما اهتَدَيْتَ لجَيْبه
فاذا أضلّك جيبُه فاستبدِل

فقالت إنّي إذن لخرقاء ! أنا والله أحوصُ الفتقَ وفتقَ الفتقِ ، وأرقَع الخرْق وخرُق الخرق .

* * *

(١) ليلى الناعطية تنسب إلى ناعط وهو حصن في رأس جبل بناحية اليمن قديم كان لبعض الاذواء ، وليلى هذه هي التي جاء ذكرها في قصيدة صفوان الانصاري في الرد على بشار :

اتجعل ليلى الناعطية نحلة — وكل عريق في التناسخ والرد

ومضيتُ أنا وأبو اسحاقَ النّظّامُ وعمرُو بنُ نهيَوى ، نريدُ الحديثَ في الجَبّان [1] لنتناظر في شيءٍ من الكلامِ . فررنا بمجلسِ وَليدِ القُرَشي – وكانَ على طريقنا – فلما رآنا تمشّى معنا ، فلما جاوزنا الخندقَ جلسنا في فِناء حائطه ، وله ظلٌ شديدُ السوادِ باردٌ ناعمٌ ، وذلك لثخنِ الساتر ، واكتنازِ الأجزاء ، ولبُعد مَسقط الشمسِ من أصل حائطه ؛ فطال بنا الحديثُ ، فجرينا في ضروبٍ من الكلامِ ، فما شعرنا إلا والنهار قدِ انتصفَ ، ونحن في يومٍ قائظٍ ، فلما صرنا في الرجوع ، ووجدت مسَّ الشمسِ ووقعَها على الرأس أيقنت بالبرسام ، فقلتُ لأبي اسحاق – والوَليدُ إلى جنبي يسمعُ كلامي – : الباطِنة [2] منا بعيدةٌ وهذا يومٌ منكرٌ ، ونحن في ساعه تذيبُ كلَّ شيءٍ ، والرأيُ أن نميلَ إلى منزلِ الوليدِ ، فنَقيل فيه ، ونأكل ما حضَر ، فانه يومُ تخفيف ، فاذا أبردنا تفرقنا ، وإلاَّ فهو الموتُ ليس دونه شيءٌ . قالَ الوليدُ رافعاً صوتَهُ أما على هذا الوجه فلا يكونُ والله أبداً ، فضَعه في

(١) الجفاف : فان فلوتن .
(٢) وفي رواية البلد .

سُويداء قلبك ! فقلت له : ما هذا الوجهُ حتى أنكرتَه علينا رحمك الله ، هل ههنا إلاّ الحاجةُ والضرورة ؟ قال : إنك أخرجتَه مخرجَ الهُزء . قلت : وكيفَ أُخرجُهُ مُخرجَ الهزء وحَياتي في يدك ، معَ معرِفتي بِك ؟ فغَضِبَ وَنترَ يَدهُ من أيدينا ، وفارقَنا . ولا واللهِ ما اعتذَرَ الينا مما رَكِبنا به إلى الساعة .

ولَمْ أرَ من يجعل الأسى حجّةً في المنع إلاّ هو ، وإلاّ ما كان من أبي مازن إلى جبل الغمر (١) .

وكان جَبلٌ قد خَرَجَ ليلاً من موضِع كان فيه ، فخاف الطائف (٢) ، ولم يأمن من المستقفي ، فقال : لو دَققْتُ البابَ على أبي مازن ، فبتُّ عندَهُ في أدنى بيت ، أو في دهليزه ، ولم أُلزِمْه من مؤنتي شيئاً ، حتّى إذا انصَدع عمودُ الصبحِ خرجتُ في أوائلِ المدلجين . فدقّ عليه البابَ دقّ واثقٍ ، ودَقّ مُدلٍ ، ودقّ من يخافُ أن يدركه الطائف ، أو يقفوه المستقفي ، وفي قلبِه عزُّ الكِفايةِ ، والثقة باسقاط المؤنة ؛ فلم

(١) جبل الغمر : اسم لشخص .

(٢) في نسخة فخاف العس ولم يأمن من أحد يتبعه فيضره .

يشكُ أبو مازن أنه دقَّ صاحبِ هديةٍ ، فنزل سريعاً ، فلما فتح البابَ وبصَرَ بجبل ، بصُر بملك الموتِ ! فلما رآه جبل واجماً لايحير كلمةً قال له : إني خفتَ معرَّة الطائفِ ، وعجلة المستقفي ، فملت إليك لأبيتُ عندكَ . فتساكر [1] أبو مازن وأراه أن وُجُومَهُ إنما كان بسبب السُكر ، فخلَّع جوارحَه وخبَّل لِسانهُ ، وقال : سكرانُ واللهِ أنا واللهِ سكرانُ ! قال له جبل : كُن كيفَ شئتَ ، نحن في أيامٍ ، الفصلُ لاشتاء ولا صيفُ ، ولستُ أحتاجُ إلى سَطح فأغمَّ عيالك بالحرِّ ، ولستُ أحتاجُ إلى لحافٍ فأكلفَك ان تؤثرني بالدثار ، وأنا كما ترى ثَمِلٌ من الشراب ، شبعانُ من الطعام ، ومن منزلِ فلانٍ خرجتُ ، وهو أخضَبُ الناس دخلاً ، وإنما أريد أن تدعني أغفي في دهليزك إغفاءةً واحدةُ ، ثم أقومُ في أوائلِ المبكرين قال أبو مازن ـ وأرض عَيْنيه وفكَّيه ولسانه ـ ثم قال : سكرانُ والله ، أنا سكرانُ ، لاوالله ما أعقِلُ أين أنا ، والله إنْ [2] أفهمُ ماتقول . ثم أغلق البابَ في وجههِ ، ودَخلَ لايشك أن

---

(١) تساكر : أي أدعي السكر .
(٢) إن : ما .

عِذْره قد وضحَ ، وأنه قد ألطف النظرَ حتى وقع على هذه الحيلة

* * *

وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير مُعرَبٍ ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الأعراب يبغّض هذا الباب ويخرجُه من حده ، إلا أن أحكى كلاماً من كلامِ متعاقِلي البخلاء ، واشحاء العلماء ، كسهل ابن هارون وأشباهه [1] .

* * *

(١) لعل هنا نقص في الاصل أو تحريف من النساخ لانقطاع السياق .

قصة أحمد بن خلف

ومن طيّاب البخلاء أحمدُ بنُ خلفٍ اليزيدي ، ترك أبوه في منزله يومَ ماتَ ألفَيْ درهمٍ وستمائة الف درهم ، وأربعين ومائة الف دينار ، فاقتسمها هو وأخوه حاتمٌ قبل دفنه . وأخذ أحمدُ وحدَه الفَ الفٍ وثلاثمائة الفٍ درهمٍ وسبعين الف دينار . ذهباً عيناً مثاقيلَ وازنةً جياداً ، سوى العروض .

فقلت له ـ وقد ورثَ هذا المال كله ـ : ما أبطأ بكَ الليلةَ ؟ قال : لا والله ! إلاّ أني تعشيتُ البارحةَ في البيت . فقلتُ لأصحابنا : لولا أنه بعيدُ العهدِ بالأكل في بيته ـ وإنّ ذلك غريبٌ منه ـ لما احتاج إلى هذه الاستثناء ، وإلى هذه الشَّريطة . وأين يتعشّى الناس إلا في منازلهم ؟ وإنما يقولُ الرجل عند هذه المسألة : لاوالله ! إلا أن فلاناً حبَسني ؛ ولا والله ! إلا أن فلاناً عزَم علي ! فأما ما يستثنى ويُشترط ، فهذا مالا يكونُ إلا على ما ذكرناه قبلُ .

وقال لي مبتدئاً مرّة من غير مَشُورة وعن غير سبب جرى : أُنظر ! إن تتّخذ لعيالك في الشتاء من هذه المثلّثة [1] فإنها عظيمة البركة ، كثيرة النُزل [2] ، وهي تَنُوب عن الغداء، ولها نفخة تُغني عن العشاء ؛ وكلُّ شيء من الأحساء فهو يُغني عن طلبِ النبيذ، وشُرْبِ الماء؛ ومن تحسّى الحارّ عرق، والعرق يبيض الجلدَ ، ويخرج من الجوف ، وهي تملأُ النفسَ ، وتمنع من التشهّي ، وهي أيضاً تدفيء ، فتقومُ لك في أجوافهم مقامَ فحم الكانون من خارج . وحسو الحارّ [3] ، يغني عن الوقود وعن لبس الحشو . والوقودُ يسوّد كلّ شيء وينتنه ، وهو سريع في الهضم ، وصاحبه معرض للحريق [4] ، ويذهبُ في ثمنه المال العظيم ، وشرُّ شيء فيه أنَّ من تعوّده لم يدفئه [5] شيء سواه ! فعليك يا أبا عثمان بالمثلّثةِ ، واعلم أنها لا تكون إلا في منازل

---

(١) المثلثة : شراب طبخ حتى ذهب ثلثاه .
(٢) في بعض النسخ الفوائد .
(٣) صححنا طار بالحار .
(٤) في الاصل : بعرض الحريق .
(٥) في الاصل : لم يذقه وفي معجم الادباء ج ٤ ص ٤٧ : لم يدفه .

المشْيَخةِ ، واصحابِ التجربة ، فَخُذها من حكيم مجرِّب ، ومن ناصح مُشفق .

وكان لا يفارق منازلَ إخوانه ، وإخوانُهُ مخاصيبُ مناويبُ [1] أصحابُ نفخ وتَرف . وكانوا يَتحفونه ويدللّونه ويفكّهونه ويحكّمونه ، ولم يشكّوا أنه سيدعوهم مرّةً ، وأن يجعلوا بيته نزهة ونشوةً ؛ فلما طال تغافلهُ ، وطالتْ مدافعته ، وعرّضوا له بذلك فتغافلَ ، صرّحوا له ؛ فلما امتنع قالوا : اجعلها دعوةً ليس لها أخت ! فلما بلغ منهُ ومنهُم المجهود ، اتّخذ لهم طُعَيّما خفيفاً شهياً مَليحاً لا ثمن له ، ولا مؤنة فيه ، فلما أكلوا وغسَلوا أيديهم ، أقبل عليهم فقال : أسألكم بالله الذي لاشيْ أعظمُ منهُ : أنا الساعة أيسَرُ واغنى ، أو قبل أن تأكلوا طعامي ؟ قالوا : مانشُكْ أنك ـ حينَ كنت والطعامُ في ملكك ـ أغنى وأيسَر ! قال : فأنا الساعة أقربُ إلى الفقر أم تلك الساعة ؟ قالوا : بل أنتَ الساعة أقربُ من الفقر ! قال : فمن يلومُني على دعوة قوم قرّبوني الى الفقر ، وباعدوني من الغِنى ، وكلما دعوتهم أكثر ، كنت من الفقر أقرب ،

(١) كذا بالاصل ولعلها مثاويب او جمع منيب أو محرفة عن متاريب

ومن الغنى أبعد ؛ وفي قياسه هذا أنَّ من رأيه أن يهجُرَ كلَّ من استسقاه شربةَ ماء، أو تناولَ من حائطه تبنةً ومن خليط دابته وعوداً.

ومر بأصحاب الجِداء [1] وذلك في زمان التوليد، فأطعمه الزمانُ في الرُّخصِ، وتحرَّكتْ شهوتُه على قَدْرِ إمكانه عندَه، فبعثَ غلاماً له يقالُ له ثَقْف — وهو معروف — ليشتريَ له جَدْياً، فوقفَ غيرَ بعيد، فلم يلبثْ أن رَجَع الغلامُ يحضر، وهو يُشير بيده، ويومئ برأسه، أن: اذهب ولا تَقِف، فلم يبرحْ! فلما دنا منهُ قال: ويلك! تهرُبُني كأني مظلوب! قال: هذا أطرف [2]. الجدْيُ بعشرة، أنت من ذي البابة! مرَّ الآن! مرَّ! فاذا غلامُه يرى أن من المنكَر أن يُشترى جَدْيٌ بعشرة دراهم! والجدْيُ بعشرةٍ إنما ينكرُ عندنا بالبصرة، لكثرة الخير، ورُخص السعر. فأمّا في العساكر. فان أنكرَ ذلك مُنكر، فانما ينكره من طريق رُخصه، وقلّة ثمنه، لاغير ذلك. ولا تقولوا الآن: قد والله

---

(١) جمع جدي.

(٢) في بعض النسخ: طرفه.

أساء أبو عثمان إلى صديقه ، بل ماتناوله بالسُّوء حتى بدأ بنفسه ومن كانت هذه صفَته، وهذا مذهبه ، فغير مأمون على جليسه وأيْ الرجال المهذّب ؛ هذا والله الشيُوع والتبُوع والبذاء ، وقلةُ الوفاء . إعلموا أني لم ألتمس بهذه الأحاديث عنه إلا موافقته وطلب [1] رضاه ومحبَّته ؛ ولقد خفتُ أن أكونَ عندَ كثير من الناس دسيساً من قبله ، وكميناً من كنائنه . وذلك أن أحبّ الأصحاب اليه . أبلغهم قولاً في أيأس الناس ممّا ، قبله وأجودُهم حَسْماً لأسباب الطمع في ماله . على أني أنْ أحسنتُ بجُهدي ، فسيجعل شكري موقوفاً ، فان جاوَز كتابي هذا حُدود العراقِ شكر ، وإلاّ أمسك، لأن شُهرته بالقبيح عند نفسه في هذا الاقليم ، قد أغناه عن التنويه والتنبيه على مذهبه . وكيفَ ، وهو يرى أن سهل بن هارون وإسماعيل بنَ غَزوان ، كانا من المسرفين ؛ وأن الثّوريّ والكنديّ يستوجبان الحجْر ؛ وبلغني أنه قال : لو لم تعرفوا من كرامةِ الملائكة على الله إلا أنه لم يبتليهمْ بالنفقة . ولا بقوْل العيال : هات ! لعرفت حالهم ومنزلتهم .

* * *

(١) في الاصل : فطلب .

وحدثني صاحبٌ لي قال :

دخلتُ على فلان بن فُلان ، وإذا المائدةُ موضوعة بعد وإذا القومُ قد أكلو ورفعُوا أيديهم ، فمددت يدي لآكل فقال : أجْهِزْ على الجرحى ، ولا تعرض للاصحّاء ! يقولُ : إعرض للدجاجة التي قد نيل منها . وللفرخ المنزوع الفخذِ ، فأما الصحيحُ فلا تعرّض[1] له ! وكذلك الرغيفُ الذي قد نيل منه ، وأصابه بعضُ المرق ! .

وقال لي الرجلُ : أكلنا عنده يوماً ، وأبوه حاضر ، وبُنَيٌّ له يجيء ويذهب ، فاختلف مِراراً ، كلّ ذلك يرانا نأكل ، فقال الصبيُ : كم تأكلون ؟ لأطعم اللهُ بطونكم ! فقال أبوه ـ وهو جدّ الصبيّ ـ : إبني وربِّ الكعبة !

* * *

وحدّثني صاحبُ مَسْلحة باب الكرخ قال :

قال لي صاحبُ الحمّام : ألا أُعجّبك من صالح بن عفان كان يجيء كلّ سَحرَ ، فيدخلُ الحمّام ، فاذا غبتُ عن إجّانة النُورة[2] . مسح عانته أرفاغه ، ثم يتستّر بالمئزر ، ثم يقومُ

(١) ورد هذا النص دخلت ... فلا تعرض له في العقد الفريد .
(٢) الاجانة : الاناء . والنورة اخلاط تضاف الى الكلس من زرنيخ وغيره لازالة الشعر .

فيغسله في غمار الناس ، ثم يجيء بعد في مثل تلك الساعة ، فيطلي ساقيه وبعضَ فخذيه ، ثم يجلسُ ويتزر بالمئزر ، فاذا وجد غَفلة غسله . ثم يعودُ في مثل ذلك الوقت فيمسحُ قطعة أخرى من جسده ، فلا يزال يَطّلي في كلِّ سَحَر حتى ذهب منّي بطلْية ! قال : ولقد رأيتُه وإنّ في زيق سراويله نورة .

وكان لا يرى الطبخَ في القدور الشاميّة ، ولا تبريدَ الماء في الجرار المذارية [1] ، لأن هذه ترشح وتلك تنشف !

حدثني أبو الجهجاه النوشَرواني قال :

حدثني أبو الأحوصِ الشاعرُ قال : كنّا نفطر عندَ الباسياني [2] ، فكان يرفعُ يديه قبلنا [3] ، ويستلقي على فِراشه ويقول : « إنما نطعمكم لوجهِ اللهِ لا نُريدُ منكم جزاء ولا شُكوراً » [4] .

* * *

(١) المذارية : نسبة الى مذار كحساب بلد بين واسط والبصرة . كانت مشهورة بجرارها .

(١) الباسبياني : فان فلوتن .

(٢) كذا في العقد وفي الاصل : قبلها .

(٣) سورة الانسان : ٩

حديث خالد بن يزيد (١)

وهذا خالدُ بنُ يزيد ، مولى المهالبة . — هو خالويه المُكدِّى — . وكان قد بلغ في البخل والتكدية (٢) وفي كثرة المال المبالغَ التي لم يبلغها أحد . وكان ينزل في شِقِّ بني تميم فلم يعرفوه ، فوقف عليه ذاتَ يومٍ سائلٌ وهو في مجلسٍ من مجالسهم ، فأدخل يده في الكيس ليُخرج فلساً - وفلوس البصرة كبار - فغلط بدرهم بَغْلي ، فلم يفطن حتى وضَعَه في يد السائل ، فلما فطن استردّه وأعطاه الفلس ! فقيل له : هذا لانظنه يحلّ وهو بعدُ قبيح قال : قبيح عند من ؟ إني لم أجمع هذا المال بعقُولكم فأفرّقه بعقولكم ، ليسَ هذا من مساكين الدراهم ، هذا من مساكين الفلوس ! والله ما أعرفه إلا بالفراسة ! قالوا : وإنك لتعرف المكدّين ؟ قال : وكيفَ لا أعرِفُهم ؟ وانا

(١) ترجم له ياقوت في معجمه ترجمة لاتختلف عما ذكره الجاحظ هنا .

(٢) التكدية : السؤال والاستجداء وهم جماعة فرق سيأتي أوصافهم فيما بعد .

كنت كاخان في حداثة سني. ثم لم يبق في الأرض مخطراني ، ولا مستعرض الأقفية ، ولا شحاذ ، ولا كاغاني ، ولا بانوان ، ولا قرسي ، ولا عواء ، ولا مشعب ، ولا فلور [١] ، ولا مزيدي ، ولا أسطيل إلاّ وقد كان تحت يدي ولقد أكلت الزكوري [٢] ثلاثين سنة ، ولم يبق في الأرض كعبيّ ، ولا مكدٍ [٣] إلا وقد أخذت العرافة عليه ، حتى خشع لي إسحاق [٤] فمال المرء بنحويه [٥] شعر الجمل ، وعمر القوقيل ، وجعفر كردي ،

---

(١) فيلور : كذا وردت في المحاسن والمساوئ ج ٢ ص ٢٠٩ م السعاده وسيأتي اوصاف هولاء الفرق فيما بعد .

(٢) الذكوري وردت في شرح الجاحظ ان المراد بها خبز الصدقة وشرحها الثعالبي في اليتيمة بما يلي : كدي على الابواب وهو من أجلائهم

(٣) في بعض النسخ : مكدي

(٤) لعل اسحاق هذا أحد رؤساء التكدية

(٥) كذا بالاصل ولم اعثر على مرجع يهديني الى تحقيق هذه الاسماء والوحيد الذي يؤرخ لحياة المجتمع وأشخاصه بعد الجاحظ ويذكر دقائق احواله ومعيشته هو المحسن التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة والاسف فان اصول هذا الكتاب مفقوده خلا الجزئين الاول والثامن الذين قام المجمع العلمي العربي بدمشق بنشرهما . وقد ذكر صاحب اليتيمة ج ٣ ص ٣٢٣ ط الصاري قصيدة أبي دلف المعروفة بالساسانية ؛ والساسانية قوم اشتهروا بالعياره ولعل كلمة التكدية قد تحورت فأصبحت تعني العيارة والشحاذة على اختلاف —

وكلك ، وقرن إبره ، وحمَّويه عين الفيل ، وشهرام حمار أيوب ، وسعدويه نائك أمـه . وإنما أراد بهذا أن يؤنسهم من ماله حين عرف حرصَهم وجَشَعهم ، وسوءَ جوارهم . وكان قاصّاً مُتكلماً بليغاً داهياً ، وكان أبو سليمانَ الأعور وأبو سعيد المدائني القاصّان من غلمانه .

وهو الذي قالَ لابنه عندَ موته : إني قد تركتُ لك ما تأكله إن حفظته ، وما لا تأكلُه إن ضيّعته ؛ ولما ورّثتُك من العُرف الصالح ، وأشهدتُك من صَوَاب التدبير ، وعوّدتُك من عيش المقتصدين ، خيرٌ لك من هذا المال . وقد [1] دفعت اليك آلةً لحفظ المال ، عليك بكل حيلة . ثم إن لم يكنْ لك معينٌ من نفسك ، لما انتفعت بشيءٍ من ذلك ، بل يعودُ لك النهيُ كلّه اعتزالاً لك ، وذلك المنعُ تهجيناً لطاعتك . قد بلغتُ في البَرِّ منقطَعَ التراب ، وفي البحر أقصى مبلغِ السفن ، فلا عليكَ ألا ترى ذا القرنين . ودع عنك

—انواعها ثم عرف اهل التكدية بالساسانية وقد ذكر ابو دلف في قصيدته هذه جميع فرق الساسانية ووصف اعمالهم واحوالهم وطرق معيشتهم ولهم اصطلاحات والفاظ اخترعوها تجدها منثورة في القصيدة

(١) كذا بالاصل ولعلها محرفة عن « لو » .

مذاهب ابن شَرْيَة (١) ، فانه لايعرفُ إلا ظاهرَ الخبر ، ولو رآني تميمٌ الداريَ (٢) لأخذ عني صِفةَ الروم . ولأنا أهدى من القَطا ، ومن دُعيميص (٣) . ومن رافع المِخش (٤) ، إني

---

(١) هو عبيد بن شريه الجرهمي . ترجم له في الفهرست وياقوت. وذكره الجاحظ في البيان والحيوان .وأخباره مشهورة مع معاوية يغلب عليها الصنعة .

(٢) هو تميم بن أوس بن خارجه من بني عبد الدار من بطون لخم وفد على النبي بعد منصرفه من غزوة تبوك واسلم وسكن المدينة ثم ارتحل بعد قتل عثمان الى الشام حيث وطنه الاول ، ومات آخر خلافة علي سنة « ٤٠ » هـ وله قصة تذكر في كتب الحديث .

(٣) رجل يضرب به المثل فيقال : أدل من دعيميص الرجل . وشرحه الميداني فقال : هو اسم رجل كان دليلا خريتا داهياً يضرب به المثل : فيقال : هو دعيميص هذا الامر ، أي عالم به .

(٤) هو رافع بن عمير الطائي الذي دل خالد بن الوليد حين خرج خالد الى الشام والياً عليها وقال فيه الراضي :

لله در رافع ! أنى اهتدى — فوز من قراقر الى سوى،
أرضاً إذا سار بها الجيش بكى — ماسارهامن قبلك من إنس أرى

وقد ذكره ابن قتيبة في عيون الاخبار ج ١ ص ١٤٢ – ١٤٣ والميداني والبلاذري والطبري .

قد بتُ بالقفْرِ مع الغول [1] ، وتزوّجتُ السِّعلاة [2] وجاوبت الهاتِف ، ورغتُ عن الجنّ إلى الحنّ [3] ، واصطدتُ الشّقّ [4]

(١) الغول : فسره الجاحظ في الحيوان ص ٤٨ ج ٥ ساسي بما يلي: اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ويتكون في ضروب الصور والثياب ذكر كان أم انثى ،إلا ان الاكثر على انه انثى . والعامه تزعم ان الغول تتصور في أحسن صورة إلا انه لابد ان تكون رجلها رجل حمار ، واذا ضربت ضربة ماتت إلا أن يعيد إليها الضارب قبل ان تقضي ضربة اخرى فانه ان فعل ذلك لم تمت

(٢) السعلاة كما فسرها الجاحظ : اسم لواحدة من نساء الجن تتغول لتفتن السفار . أولعلها ان تفزع انسانا فيتغير عقله من اجلة عند ذلك . والتغول التلون والتخيل .

وقد فرق بين الغول والسعلاة عبيد بن أيوب حيث قال :

وساخرة مني ولو أن عينها رأت ما ألاقيه من الهول جنت
أزل وسعلاة وغول بقفرة اذا الليل واري الجن فيه أرنت

واذا رؤيت الفتاة حديدة الطرف والذهن،سريعة الحركة ممشوقة قالوا:سعلاة

(٣) جن وحن : من الخوافي أي ما خفي ولم ينظر . ويجعلون الحن فوق الجن . روى اسماعيل المكي عن أبي عطاء العطاردي قال : سمعت ابن عباس يقول : السود من الكلاب الجن ، والبقع منها الحن ، ويقال ان الحن ضعفة الجن ، كما ان الجني اذا كفر وظلم وتعدى وافسد قيل شيطان ، وبعض الناس يزعم ان الحن والجن صنفان مختلفان .

(٤) الشق : جنس من الجن صورة الواحد منهم على نصف صورة الانسان ، وانه كثيراً مايعرض للرجل المسافر اذا كان وحده . ولعل المقصود هنا هو شق بن انمار بن نزار زعموا انه كان شق انسان ، له يد واحدة ،ورجل واحدة ، وعين واحدة .

وجاوبتُ (١) النِّسناس، وصَحِبني الرَّئيّ (٢)، وعرَفتُ خُدَع الكاهِنِ، وتدسيسَ العرّاف (٣)، وإلى ما يذهبُ الخطّاط (٤) والعيّاف، وما يقول أصحابُ الأكتاف (٥) وعرفتُ التنجيم والزجر، والطَّرْق والفكر.

إنَّ هذا المالَ لم أجمعه من القَصَص والتكْدِية، ومن احتيال النهار ومكايدة الليل، ولا يُجمع مثله أبداً إلا من مُعاناة ركوبِ البحر، أو مِن عمَلِ السلطانِ، أو من كيمياء

---

(١) النسناس: كما يقال ان الجن جن وحن فان البشر ناس ونسناس قال اعشى سليم:

فما أنا من جن اذا كنت خافياً ولست من النسناس في عنصر البشر

وزعموا ان النسناس تركيب ما بين الشق والانسان، ويزعمون أن خلقاً من وراء السد تركيب من النسناس والناس، والشق يأجوج ومأجوج.

(٢) الرئي: يقال اذا ألف الجني انساناً، وتعطف عليه وخبره ببعض الاخبار ورأى خياله قالوا مع فلان رئي من الجن. فالرئي عبارة عن جني يألف الانسان. وممن كان يقال فيه ذلك عمرو بن لحاء بن قمعة والمأمون الحارثي، وعيينه بن الحارث بن شهاب وغيرهم.

(٣) العراف: دون الكاهن.

(٤) الخطاط: الذى يخط في الرمل.

(٥) اصحاب الاكتاف: طائفة من أهل الكهانة والفراسة يصطنعون بذلك النظر في الاكتاف كما ينظر غيرهم في الكتف.

الذهب والفضة. وقد عرفتُ الرأس [1] حقَّ معرفته، وفهمتُ كسر الاءكسير على حقيقته، ولولا علمي بضيق صَدرِك، ولولا أن أكون سبباً لتلفِ نفسِك لعلّمتُك الساعة الشيء الذي بلغ بقارون، وبه تبنكت [2] خاتون والله ما يتّسع صدرك عندي لسرّ صديق، فكيف مالا يحتمله عزْم، ولا يتسع له صدر؛ وحَرْز سرّ الحديث، وحبس كنوز الجواهر، أهونُ من خَزْن العلم؛ ولو كنتَ عندي مأموناً على نفسِك لأجريتُ الأرواحَ في الاجساد، وأنت تبصر. إذ كنت لا تفهمه بالوصف ولا تحققّه بالذكر، ولكني سألقي عليك علم الأدراك، وسَبك الرخام، وصنعة الفسيفساء، وأسرار السيوف القلعيّة [3] وعقاقير السُيوف اليمانية، وعمل الفرعَوني [4]، وصنعة التلطيف على

---

(١) علم الرأس: باب من ابواب الكيمياء والاكسير عرض لها ابن النديم في الفهرست ص ٣٥٣ فالتراجع.

(٢) تبنك بموضع كذا: اقام فيه، وتبنك في غيره: تمكن.

(٣) السيوف القلعية: هي سيوف تنسب الى الهند ـ قال الفرزدق:

متقلدي قلعية وصوارم هندية وقديمة الآثار

ويقال ان هذه السيوف تضرب في قلعة عظيمة بالهند واليها تنسب.

(٤) الفرعوني: هو نوع من الزجاج.

وجهه ، إنْ أقامني اللهُ من صَرْعتي هذه . ولست أرضاك وإن كنتَ فوق البنين ، ولا أثِقُ بك وإنْ كنتَ لاحقاً بالآباء لأني لم أبالغ في محبتك [١] . أني قد لابست السلاطينَ والمساكين ، وخدمت الخلفاء والمُكْدين ، وخالطتُ النُسّاك والفتّاك ، وعَمَرتُ السجون كما عمرتُ مجالسَ الذكر ، وحلبتُ الدهر أشْطُرَهُ ، وصادفتُ دهراً كثير الأعاجيب ، فلولا أني دخلت من كلّ باب ، وجريت مع كل ريح ، وعرَفت السرّاء والضراء ، حتى مثّلت لي التجاربُ عواقبَ الأمور ، وقرّبتني من غوامضِ التدبير ، لما أمكنني جمعُ ما أخلّفه لك ، ولا حفظُ ما حبسته عليك . ولم أحمَد نفسي على جَمعه ، كما حَمدتُها على حفظه ، لأن بعضَ هذا المال لم أنله بالحزم والكيس . قد حفِظتُه عليك من فتنة الرياء ومن أيدي الوكلاء ، فانهم الداء العَياء .

ولست أوصيك بحفظِه لفضل حبيّ لك ، ولكن لفضل بُغضي للقاضي ! إنّ الله ـ جلّ ذكره ـ لم يسلِّط القُضاة على أموال الأولاد ، إلاّ عقوبةً للأولاد ، لأن أباه إن كان غنياً قادراً أحبَّ أن يُريَه غناه وقدرتَه ، وإن كان فقيراً عاجزاً أحبّ

(١) في بعض النسخ : محنتك .

أن يستريح من شَيْنه ، ومن حمل مؤنته ، وان كان خارجاً من الحالين ، أحبَّ أن يَستريح من مُداراته ، فلا هُمْ شكروا منْ جمع لهم وكفاهم ووقاهم وغرسهم ، ولا هُمْ صَبروا على من أوجَبَ الله حقَّه عليهم . والحقُّ لايوصفُ عاجلُه بالحلاوة كما لايوصفُ عاجِل الباطل بالمرارة . فان كنتَ منهم فالقاضي لك ، وإن لم تكن منهم فالله لك ؛ فان سلكتَ سبيلي صار مالُ غيرك وديعةً عنك ، وصرتَ الحافظَ على غيرك ؛ وإن خالفت سبيلي صار مالُك وديعةً عند غيرك ، وصار غيرُك الحافظ عليك وإنك يومَ تطمع أن تُضيع مالك ، ويحفظه غيرُكَ ، لجشع الطمع مخذول الأمل . إحتال الآباء في حَبْس الأموال على أولادهم بالوقف ، فاحتالتْ القُضاة على أولادهم بالاستحجار [1] ما أسرعهم الى إطلاق الحجْر ، وإلى ايناس الرُشد إذا أرادوا الشِراء منهم ، وأبطأهم عنهم إذا أرادوا أن تكون أموالُهم جائزةَ لصنائعهم .

يا ابنَ الخبيثةِ ! انك وإن كنتَ فوقَ أبناء هذا الزمان

---

(١) بالاصل : بالاستبحاث .

فان الكفاية قد مسخَتك ، [1] ومعرفتُك بكثرة ما أخلف قد أفسدتك ؛ وزاد في ذلك أن كنتَ بكري ، وعجزة أمك أنا لو ذهب مالي لجلستُ قاصّاً ، أو طفتُ في الآفاق — كما كنت — مكدِّياً ، اللحيةُ وافرةٌ بيضاء ، والحلق جهير طلَ ، والسمتُ حسَن ، والقبولَ عليّ واقع . إن سألتُ عَينيَ الدمع أجابتْ ، والقليلُ من رحمة الناسِ خيرٌ من المال الكثير وصرتُ محتالاً بالنهار ، واستعملتُ صناعةَ الليل ، أو خرجتُ قاطعَ طريق ، أو صرتُ للقوم عيناً ، ولهم مجهراً ! سلْ عني صعاليكَ الجبلَ ، وزواقيلَ [2] الشام ، وزُطَّ الآجام ، ورؤوس الأكراد ، ومَرَدة الأعراب ، وفُتّاك نهر بط ، [3] ولصوص

---

(١) وردت في الاصول : منحتك مجفنك « دي غويه » فنختك . فتحتك .

(٢) الزواقيل : اللصوص .

(٣) نهر بالأهواز قال فيه الشاعر :

لأرجعن الى الاخواز ثانية قعيقعان الذي في جانب السوق

ونهر بط الذي أمسى يؤرقني فيه البعوض بلسب غير تشفيق

قال ياقوت : ... هم قوم لا خلاق لهم وجوههم وحشة وقلوبهم قاسية وفيهم بأس وجلادة . لايبقون على احد ، ولا يقنعون بأخذ المال حتى يقتلوا صاحبه ... ويعظمون من بين جميع الناس على ابن أبي طالب .

القُفْص ، وسل عني القيقانية [١] والقطرية ، وسل عني المتشبهة وذبّاحي الجزيرة ، كيفَ بَطشي ساعةَ البطش ، وكيف حيلتي ساعةَ الحيلة ، وكيف أنا عندَ الجولة ، وكيف ثبات جناني عند رؤية الطليعة ، وكيفَ تَيقظي اذا كنت ربيئة ، وكيف كلامي عندَ السلطان إذا أُخذتُ ، وكيف صبري إذا جُلدت ، وكيفَ قلّة ضجري اذا حُبستُ ، وكيف رسفاني في القيْد إذا أُثقلت ! فكم من ديماسٍ [٢] قد نقبته ، وكم من مُطبق أفضيْته ، وكم من سجن قد كابدته . لم تَشهدني وكردويه الاقطع أيامَ سندان [٣] ، ولا شهدتني في فتنة سرنديب [٤] ولا رأيتَني أيامَ حرب المولتان [٥] . سل عني الكتيفية والخليدية والحربية [٦] والبلالية ، وبقية أصحابِ صخرٍ ومُصخرٍ ، وبقية

---

(١) القيقانية : نسبة الى قيقان بلد من بلاد السند مما يلي خراسان .

(٢) ديماس : لعله السجن .

(٣) مدينة هـ ملاصقة السند .

(٤) سرنديب : هي سيلان .

(٥) بلد في بلاد الهند : وتسمى فرج بيت الذهب وبها صنم تعظمه الهند

(٦) ذكرت الكتيفية والخليدية والحربيه والبلاليه في كتاب فضائل الاتراك للجاحظ على انها فرق ، وقد فسرها فان فلوتن بما يلي : الخليديه ، أن مما يحتمل أن يكون المراد بها جماعة المسجونين الذين حكم عليهم بالسجن —

أصحاب فاسٍ وراسٍ ومقلاس [1] ؛ ومن لقيَ أزهرَ أبا النقم . كان آخر من صادفني حمدويه أبو الأرطال ، وأنا مجيب مردويه ابنَ أبي فاطمة ؛ وأنا خلعت بني هانئ ؛ وأنا أوّل مَنْ شرِبَ الغَربيَّ [2] حاراً ، والنزيل [3] بارداً ، وأول من شرب العرق بالكبر ،

« المؤبد » كما تشير الى ذلك كلمة الخلد بمعنى التخليد في السجن وفي بعض النصوص « الخلديه » بدلاً من الخليدية . وعلى هذا تكون « الكتيفية » الذين شد كتافهم .

والحربية طائفه من الشيعة كانت تشتهر بأنها لاتحقر السرقة والنهب .

والبلالية طائفة من المقاتلة بالبصرة منذ بدء ثورة الزنج فيها .

راجع : Worgers in irak

المنشورة في : Feest bundel Angeboden aan Prof. Veth. p 61

(١) في الحيوان للجاحظ على ان هذا الاسم مما يطلقه القرادون والمتكسبون الطوافون عن بعض السباع المولدة بين السباع المختلفة الاعضاء المتشابهة الارحام ج ٦ ص ٨ - ٩ وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ان باني بغداد ملك يقال له مقلاس ، فقال المنصور : ان أمه كانت قلطية مقلاساً . ويتضح من سياق الكلام ان مقلاس وصخر ومصخر وفارس وراس هم عبارة عن رؤساء عصابات اللصوص .

(٢) في القاموس : الغربي نوع من الشجر ماأصابته الشمس بحرها عند أفولها ، ونوع من التمر .

(٣) صحجنا البرد .

وجعل المنقل قرعـةً ، وأوّل من ضَرَبَ الشاهسبرم [١] على ورقِ القرع ، وأوّل من لَعبَ باليرمع [٢] في البَدو ، واسقط الدفَّ المربع من بـين الدِّفاف . وما كان النقّاب إلا هدّاماً حتى نشأتُ ، وما كان الاستقفاء إلا استلاباً حتى بلغتُ ، وانت [٣] غلامٌ لسانُكَ فوقَ عَقلك ، وذكاؤك فوق حَزمك ، لم تعجُمك الضرّاء ، ولم تزل في السراء ، والمال واسع ، وذرعُك ضَيّقٌ وليس شيءٌ أخوف عليك عندي من حُسن الظن بالناس فانهم شمالك على يمينك ، وسمعَك على بَصرِك . وخَفْ عباد الله على حَسب ماترجو الله ، [٤] فأول ماوقع في روعي أنّ مالي محفوظ عليّ ، وأنّ النماء لازمٌ لي ، وأن الله سيحفظ عقبي من بعدي إني لمّا غلَبتني يوماً شهوتي ، وأخرجتُ يوماً درهماً لقضاء وَطَري ، ووقعتْ عيني على سِكّةٍ ، وعلى اسم الله المكتوب

---

(١) نوع من الورود وفي السان هو ريحان الملك وقال الاعشى .

وشاهسبرم والياسمين ونرجس　　　يصبحنا في كل دجن تغيا

(٢) اليرمع : الخزروف يلعب به الصبيان وهو المعروف ببلاد الشام بالبلبل والصياح .

(٣) الواو للحال .

(٤) راجع عيون الاخبار ج ٣ ص ٢١٥

عليه [1]، قلتُ في نفسي : إني إذن لمن الخاسرين الضالين ، لئن أنا أخرجتُ من يدي ومن بيتي شيئاً عليه لا إله إلا الله ، [2] أخذتُ بدله شيئاً ليس عليه شيء ! والله إنَّ المؤمنَ لينزع خاتمه للأمر يريده، وعليه « حسبي الله » ، أو « توكلتُ على الله » ، فيظن أنه قد خرجَ من كنف الله — جل ذكره — ، حتّى يُردّ له الخاتم في موضعه . وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريدُ أن أخرج في كلّ يوم درهماً عليه الاسلامُ كما هو ! إن هذا لعظيم .

ومات [3] من ساعته . وكفَّنه ابنُه ببعض خُلقانه ، وغسّله بماء البئر ، ودفنه من غير أن يَضرَح له [4] ، أو يلحد [5] له ، ورجع . فلمّا صار في المنزل ، نظر إلى جرّة خضراء معلّقة ، قال أيُّ شيء في هذه الجرة ؟ قالوا : سمن . قال : وما كان يُصنعُ به ؟ قالوا: كنّا في الشتاء نلقي له في البُرمة شيئاً

(١) في بعض النسخ : وعليه مكتوب اسم الله .
(٢) المقصود بالشيء المكتوب عليه لا إله إلا الله : الدرهم .
(٣) أي خالد بن يزيد .
(٤) أي يجعل له ضريحاً .
(٥) أي يجعل له لحداً .

من دقيق نَعمَله له ، فكان ربّما برّقه بشيء من سمن . قال : يقولون ولا يعقلون ، السمنُ أخو العسل ، وهل أفسدَ الناسُ أموالَهم إلا في السمن والعسل ! والله إني لولا أنّ للجرّة ثمناً لما كسرتُها إلا على قبره ! قالوا : فخرج فوق أبيه، وما كنّا نظن أن فوقه مزيداً .

* * *

المخطراني [1] الذي يأتيك في زيّ ناسك ، ويريك أن « بابَكَ » [2] قد قوّر لسانه من أصله ، لأنه كان مؤذِّناً هناك ثم يفتحُ فاه ، كما يصنعُ من يتثاءب ، فلا ترى له لساناً ألبتة ولسانُهُ في الحقيقة كلسان الثور . وأنا أحد من خُدع بذلك ولا بدّ للمخطراني أن يكونَ معه واحدٌ يعبّر عنه، أو لوحٌ أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته .

والكاغاني [3] : الذي يتجنّنَ ويتصارع ويُزبِد ،

(١) يرجع الجاحظ الى شرح الألفاظ التي أوردها في أول الحديث عن خالويه وقد جاء تفسيرها في المحاسن والمساوئ للبيهقي ج ٢ ص ٢٢٠ طسعادة واليتيمة للثعالبي ج ٣ ص ١٧٨ .

(٢) أي يوهمك بأن بابك الديلمي الخارج على الخليفة قد انتزع لسانه .

(٣) في اليتيمة ج ٣ ص ٣٢٤ : الكاغ والكاغة .

حتى لايُشَكّ أنه مجنونٌ لادَواءَ له ، لِشدّة مايُنزِلُ بنفسه حتى يُتعجّبَ من بقاء مثله على مِثْلِ علّته .

والبانوان[1] : الذي يقف على البابِ ويسل الغلق ويقول : « بانوا » وتفسير ذلك بالعربية : يامولاي .

والقَرَسي : الذي يَعصِب ساقَه وذراعَه عَصباً شديداً ويبيتُ على ذلك ليلة ، فاذا تورَّم واختنقَ الدمَ ، مَسَحه بشيء من صابون ودَم الأخوين[2] وقطر عليه شيئاً من سمن ، وأطبق عليه خِرقة ، وكَشَفَ بعضَه ، فلا يشكّ من رآه أنّ به الأكلة ، أو بليّةٌ شبهُ الأكلة .

والمشعب : الذي يحتالُ للصبي حين يولد بأن يُعميَه أو يجعله أعسم[3] أو أعضد[4] ، ليسأل الناسَ اهله . وربما جاءت

---

(١) في اليتيمة : البانوانية : هم الشطار .

(٢) في مفردات ابن البيطار ج ٢ : ٩٦ - ٩٧ انه صمغ شجرة يؤتى به من سقطرى تداوى به الجراحات . قال ابو نواس يهجو جعفر بن يحيى .

لاتشربن وجعفراً في المجلس   أبداً ولا تحمل دم الاخوين

(٣) الاعسم : عوج في اليد من العسم : أي اليبس في مفصل الرسغ تعوج منه اليد .

(٤) الاعضد : الدقيق العضد .

به أمه وأبوه ليتولى ذلك منه بالغرم الثقيل ، لأنه يصيرُ حينئذ عُقْدة وغَلّة ؛ فامّا يكتسبا به، وإما أن يُكرياه بكِراء معلوم ، وربّما أكروا أولادَهم ممن يمضي إلى أفريقية ، فيسأل بهم الطريقَ أجمع بالمال العظيم . فان كان ثِقةً مليئاً وإلاّ أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً .

والفلور [1] الذي يحتالُ لخصيتيه حتّى يريك انه آدر ، وربما أراك أنّ بهما سرطاناً أو خُرّاجاً أو عَرَباً [2] ، وربما أرى ذلك في دُبره بأن يدخل فيه حُلقوماً ببعض الرئة ، وربما فعلت ذلك المرأةُ بفرجها .

والكاغان : الغلام المُكدّي ، إذا واجر [3] وكان عليه مَسحة جمال ، وعمل العَملين جميعاً .

والعوّاء : الذي يسأل بين المغرب والعشاء ، وربما طرّب إن كان له صوتٌ حسن وحَلق شجي .

والأسطيل [4] : هو المتعامي ، إن شاء أراك أنه منخسفُ

---

(١) في المحاسن والمساوئ ص ٢١٩ ج ٢ : الفيلور .

(٢) في الاصل غرباً . والعرب : الورم .

(٣) واجر : أي أجر واوه مقلوبة من الف . والمقصود الذي يؤجر نفسه أي مأبون .

(٤) في اليتيمة : سطل اذا تعامى وهو بصير . يقال للاعمى الاسطيل —

العينين ، وإن شاء أراك أن بها ماء وإن شاء أراك أنه لا يبصر للخَسْف ، ولريح السَبَل [1] .

والمزيدي : الذي يدور ومعه الدُرَيهمات ويقول : هذه دراهمُ قد جُمِعَت لي في ثمن قطيفةٍ ، فزيدوني فيها رحمكم الله ! وربما احتملَ صبياً على أنه لقيط . وربما طلب في الكَفَن [2] .

والمستعرِض : الذي يُعارِضُك ، وهو ذو هيأة وفي ثياب صالحة ، وكأنه قد مات من الحياء ، ويخاف أن يراه معرفة ، ثم يَعترضُك اعتراضاً ويكلّمك خفياً .

والمقدِّس [3] : الذي يقفُ على الميْتِ يسأل في كفنه ،

—وفي شفاء الغليل : الاصطيل بالصاد بلغة أهل الشام الاعمى كما في كتاب الهميان وفي اليتيمة : الاسطيل أيضاً الجامع ص ٣٣٩ ج ٣

(١) ريح السبل : وردت في الحيوان ج ٥ ص ٤٠٠ – ٤٠١ ط البابي أن العقارب يأكلها مشوية من من بعينه ريح السبل فيجدها صالحة ورمى بها في الزيت ، حتى اذا تفسخت وامتص مافيها من قواها فطلوا بذلك الدهن الجفن الذي فيه النفخ . . وهذا هو دهن العقارب وفي اللسان : بأنه داء يصيب العين .

(٢) أي ثمن كفن لميت له .

(٣) المقدس : لم ترد هذه الكلمة في الاصل في اول حديث خالد ابن يزيد . ولعلها ساقطة .

ويقف في طريق مكة على الحمار الميت، والبعير الميت، يدّعي أنه كان له، ويزعم أنه قد أُحصر، وقد تعلم لغة الخراسانية واليمانية والأفريقية، وتعرّف تلك المدن والسكك والرجالَ. وهو متى شاء كان أفريقياً، ومتى شاء كان من أهل فَرْغانة، ومتى شاء كان من أي مخاليف اليمن شاء.

والمُكدّي: صاحب الكداء.

والكعبي: أُضيف إلى أبيّ [1] بن كعب المَوْصلي، وكان عريفهم بعد خالويه سنة على ماء.

والزكوري: هو خبز الصدقة، كان على سجين [2] أو على سائل [3].

هذا تفسير ماذكر خالويه فقط، وهم أضعاف [4] ماذكرنا

---

(١): ابن ساقطة في فان فلوتن.

(٢) في بعض النسخ: سجني.

(٣) الزكوري: معناه في الفارسية اللئيم وقاطع الطريق وقد ذكر بالتبيين بالذاي بدلا عن الزاي.

(٤) راجع اسماءهم في اليتيمة ترجمة أبي دلف وفي المحاسن والمساوئ ج ٢ ص ٢١٩ وما بعد.

في العَدَدِ ، ولم يكن يجوزُ أن نتكلّف شيئاً ليس من الكتاب في شيءٍ .

* * *

رفع يحيى بنُ عبد الله بنِ خالد بن أُمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد رَغيفاً من خوانه بيده ، ثم رطله ، والقوم يأكلون ثم قال : يزعمون أن خُبزي صِغار ، أيُّ ابن زانية يأكل من هذا الخبز رغيفين ؟

وكنتُ أنا وأبو إسحاق إبراهيمُ بن سيّار النظّام وقُطْرُب النحوي [1] وابو الفتح ، مؤدِّبُ منصورِ بن زياد ، على خِوان فلان بن فلان ، والخوانُ من جَزْعة ، والغَضَار [2] صِينيٌّ ملمّع ، أو خَلَنجية [3] كِيماكِيّة [4] ، والألوانُ طيّبة شهيّة ، وغذيه قدية [5] ، وكل رغيفٍ في بياضِ الفضة ، كأنه

(١) ترجم له ياقوت في معجمه وصاحب الفهرست والسيوطي .

(٢) أي آنية الطعام .

(٣) الخلنج : شجر تتخذ من خشبة الاواني والخلنجية هنا عبارة عن آنية مصنوعة من الخلنج .

(٤) كيماكية : نسبة إلى كيماك وقد ذكرها ياقوت في معجم البلدان بأنها ولاية واسعة في حدود الصين وأهلها ترك .

(٥) قدية : طيبة الرائحة .

البدرُ ، وكأنه مِرآةٌ مجلوّةٌ ، ولكنّه على قَدرِ عدد الرؤوس ، فأكل كلُّ إنسانٍ رغيفَهُ إلا كسرة ، ولم يشبَعُوا فيرفعوا أيديهم ، ولم يغذوا بشيء فيتمّوا أكلهم والأيدي مُعلقة ، وإنعام في تنقير وتنتيف . فلما طال ذلك عليهم ، أقبل الرجلُ على أبي الفتح ـ وتحت القصعة رقاقة ـ فقال : يا أبا الفتح ! خُذ ذلك الرغيفَ فقطّعه واقسمه على أصحابنا . فتغافل أبو الفتح ! ثم أعاد عليه القولَ ، فتغافل ! فلما أعاد عليه القول الرابعة قال : مالك ويلك لاتقطّعه بينهم ؟ قطّع الله أوصالك ! قال تبتلى على يدْي غيري أصلحَك الله ! فخجّلناه مرة ، وضحكناه مرّة ، وما ضحك[1] صاحبنا وما خجل .

وزُرته أنا والمكي ، وكنتُ أنا على حمارٍ مُكاري ، والمكي على حمار مُستعار فصار الحمار إلى أسوأ من حال الرود . فكلّم المكيُّ غلمانه فقال : لا أُريد منكم التبن فما فوقه ، أسقوه ماء فقط فسقوه ماء بئر فلم يشربه الحمارُ وقد مات عطشاً ؛ فأقبل المكيُّ عليه فقال ! أصلحَك الله ! إنهم يسقون حماري ماء بئر ومنزلُ صاحبِ الحمار على شارع دجلة ، فهو لا يعرِفُ إلا العذب .

---

(١) في نسخة : ماضحكنا .

قال : فامزجوه له ياغلام ! فمزجوه فلم يشربه ، فأعاد المسألة ، فأمكنَنَه من أذن من لايسمع إلاّ مايشتهي .

وقال لي مرّةً : ياأخي ! إنّ ناساً من الناس ، يغمسون اللّقمة إلى أصبارها في المرّيّ ، فأقول : هؤلاء قومٌ يحبون الملوحة ، ولا يُعجَبون [1] الحامض ؛ فما ألبث أن أرى أحدهم يأخذ حرف الجرذقة ، فيغمسها في الخلّ الحاذق ؛ ويغرقها فيه ! وربما رأيت أحدَهم يُمسِكها في الخل بعد التغريق ساعة ، فأقول : هؤلاء قومٌ يجمعون حبَّ الحموضة إلى حبِّ الملوحة ! ثمّ لا ألبثُ أن أراهم يصنعون مثلَ ذلك بالخرْدل ، والخردلُ لأيرام . قلْ لي : أيُّ شيءٍ طبائع هؤلاء ؟ وأيُّ ضربٍ هم ؟ وما دواؤهم ؟ وأي شيءٍ علاجهم ؟ فلما رأيتُ مذهبَه وحُمْقَه ، وغلبةَ البُخل عليه وقهره له ، قلتُ : مالهم عندي علاجٌ هو أنجعُ فيهم من أن يُمنعوا الصِّباغ كله ! قال : لا والله ؟ ان هو غيره

وصديقٌ لنا آخر كنا قد ابتُلينا بمؤاكلته وقد كان ظنّ أنا قد عرَفناه بالبُخل على الطعام ، وهجَس ذلك في نفسه ، وتوهم أنا قد تذاكرنا أمرَه ، فكان يتزيّدُ في تكثير الطعام

(١) في فان فلوتن : يحبون .

وفي إظهار الحِرص على أن يؤكل، حتى قال: من رَفع يده قبل القوم غرَّمناه ديناراً! فيرى بَعْضُهم أن غُرْمَ دينارٍ، أو ظاهر لائمته، مُحتمَل في رضا قلبه، وما يرجو من نفع ذلك له؟

ولقد خَبَّرني خبازٌ لبعضِ أصحابِنا أنه جَلده على إنضاج الخُبز، وأنه قال له: أنضج خُبزي الذي يوضَعُ بين يديّ، واجعلْ خبزَ من يأكلُ معي على مقدارٍ بين المقدارين، وأما خبزُ العيالِ والضيفِ فلا تقربنه من النارِ إلاّ بقدرِ ما يصير العجينُ رغيفاً، وبقدر ما يتماسك فقط. فكلَّفه العويص [1]. فلمّا أعجزَهُ ذلك جَلده حدَّ الزاني الحر. فحدثتُ بهذا الحديث عبدَ الله العَروضي فقال: ألم تَعرِف شأن الجدْي؟ ضَرَب الشوَّاء ثمانين سوطاً لمكان الانضاج؛ وذلك انه قال له: ضَعْ الجُدْيَ في التنور حينَ نضعُ الخوان، حتّى استبطئكَ أنا في إنضاجه، وتقولُ أنتَ: بقيَ قليل! ثم تجيئنا به وكأني قد أعجلتُك، فاذا وُضِع بين أيديهم غيرَ مُنْضَج احتسبتُ عليهم باحضار الجدْي، فاذا لم يأكلوه أعدته إلى التنور، ثم

(١) فكلفه العويص: أي أمره بعمل المستحيل، والأمر الصعب.

أحضرناه الغد بارداً ، فيقوم الجدي الواحد مقام جديين! فجاء به الشواء يوماً نضيجاً ، فعمل فيه القومُ ، فجلده ثمانين جلدة ، جلد القاذفِ الحرَّة !

حدثني أحمدُ بنُ المثنى عن صديقٍ لي وله ، ضخم البدن كثير العلم ، فاشي الغلّة ، عظيم الولايات ، أنه إذا دعا[1] على مائدته بفضل دجاجة ، أو بفضلِ رُقاق ، أو غير ذلك ، ردَّ الخادم مع الخباز إلى القهرمان ، حتى يصُكّ له بذلك إلى صاحبِ المطبخ .

ولقد رأيتُه مرّةً وقد تناولَ دجاجةً فشقّها نصفين[2] ، فألقى نصفها إلى الذي عن يمينه ، ونصفها إلى الذي عن شماله ثم قال : ياغلام ! جئني بواحدة رخصة ، فان هذه كانت عضلة جداً ، فحسبتُ أن أقل ماعندَ الرجلَين أن لايعودا إلى مائدته أبداً ، فوجدتُهما قد فخرا عليَّ بما حباهما به من ذلك دوني .

وكانوا ربما خصّوه ، فوضعوا بينَ يديه الدُرّاجة السمينة ، والدجاجةَ الرخصةَ ، فانطفأت الشمعةُ في ليلة من تلك الليالي

---

(١) في نسخة : دعي

(٢) في الأصل : بنصفين

فأغار عليَّ الأسواري [1] على بعض مابينَ يديه ، واغتنمَ الظلمة وعمل على أنَّ الليلَ أخفى للويل ، ففطن له ، وما هو بالفطن إلا في هذا الباب . وقال : كذلك [2] الملوك كانت لا تأكل معَ السوقة [3] .

وحدثني أحمدُ بنُ المثنى : أنهم كانوا يعمدون إلى الجراذق التي تُرفع عن مائدته ، فما كانَ منها ملطخاً دُلك ذلك دلكاً شديداً ، وما كان منها قد ذهب جانبٌ منه قطع بسكين من ترابيع الرغيفِ مثلُ ذلك ، لئلا يشكَّ من رآه أنهم قد تعمدوا ذلك ، وما كان من الأنصاف والأرباع جُعِلَ بعضُه للثريد وقطع بعضه كالأصابع ، وجُعِلَ مع بعض القلايا .

ولقد رأيتُ رجُلاً ضخماً ، فخم اللفظ ، فخم المعاني ، تربيةً في ظل ملك ، مع علم جم ، ولسان عضبٍ ، ومعرفة بالغامض من العيوب ، والدقيق من المحاسن ، مع شدةِ تسرُّع إلى أعراض الناس ، وضيق صدر بما يعرَّف من عيوبهم ، وإنَّ

---

(١) ورد اسمه في رسالة التربيع والتدوير للجاحظ : علي بن خالد الاسواري ولم اعثر له على ترجمة .

(٢) في نسخة : لذلك .

(٣) في الاصل : السوق .

ثريدته لبلقاء ، إلا أنّ بياضها ناصع ، ولونها الآخر أصهب . ما رأيتُ ذلكَ مرةً ولا مرتين ، وكنتُ قد همَمْتُ قبل ذلك أن أعاتبه على الشيء يستأثِر به ، ويُحِصُ به ، وأن أحتمل ثِقل تلك النصيحة وبشاعتها في حظّه ، وفي النظر له ، ورأيت أن ذلك لايكونُ إلا من حاقِّ الاخلاص ، ومن فرط الأخاء بين الاخوان . فلما رأيت البُلقة هان عليَّ التحجيلُ والغُرَّة ، ورأيت أن تَرْكَ الكلام أفضل ، وأن الموعظة لَغوٌ .

وقد زعمَ أبو الحسنِ المدائني [1] أن ثريدةَ مالك ابن المنذر [2] كانت بلقاء ، ولعلَّ ذلك أن يكونَ باطلاً . وأما أنا

---

(١) المدائني : هو ابو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني مولى شمس بن عبد مناف . ولد سنة خمس وثلاثين ومائة على ماروي عنه . ومات سنة خمس عشرة ومائتين ، وقيل سنة خمس وعشرين ومائتين وكان متكلما ، ومنقطعاً إلى اسحاق بن ابراهيم الموصلي . قال ثعلب : من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب ابي عبيدة ، ومن أراد أخبار الاسلام فعليه بكتب المدائني ، وكتبه كثيرة صنفها صاحب الفهرست بتسعة أقسام ١ ــ في أخبار النبي ﷺ . ٢ ــ اخبار قريش . ٣ ــ في اخبار مناكح الاشراف واخبار النساء . ٤ ــ في اخبار الخلفاء . ٥ ــ في الاحداث . ٦ ــ في الفتوح . ٧ ــ اخبار العرب . ٨ ــ اخبار الشعراء ٩ ــ مواضيع مختلفة . الفهرست ص ١٤٧ - ١٥٢ .

(٢) هو مالك بن المنذر بن الجارود من عبد القيس ، وهم يسكنون ــ

فقد رأيتُ بعيني من هذا الرجل ما أُخبرُك به، وهو شيء لم أرَه إلا فيه، ولا سمعتُ به في غيره.

ولسنا من تسميَة الاصحاب المتهتِكين، ولا غيرهم على المستورين في شيء. أما الصاحب، فانا لانُسمّيه لحرمته وواجب حقِه. والآخر لانسميه لستر الله عليه، ولما يجبُ لمن كان في مثل حاله، وإنما نسمي من خرَج من هاتَين الحالين؛ ولربما سمَّينا الصاحبَ إذا كان ممن يُمازحُ بهذا كثيراً، ورأيناه يتظرّف به، ويجعلُ ذلك الظرف سُلّماً إلى منع شينه!

* * *

البحرين وكان آمر على شرطة البصرة من قبل خالد بن عبد الله القسري أمير العراق. وقد حبس الفرزدق، ويقال ان مالك هذا ذكر يوما عبد الاعلى بن عبد الله بن عامر بن كريز القرشي، فافترى عليه مالك، فقال عمر بن يزيد الاسيدي: تفتري على مثل عبد الاعلى! فأغلظ له مالك فضربه بالسياط حتى قتله، وقد ذكر الفرزدق هذا الحادث فقال في مالك

لعمري لئن كان ابن عمرة مالك   تنهك ظلماً سادراً غير مقصر
لتنكشفن عنه ضبابة فسوه   لضغمة رئبال من الأسد مخدر
اذا علقت أسبابة القرن غادرت   به أثراً كالجدول المتفجر

وقد مات مالك بالسجن بعد ان مرض وبه بطن، وكان القى به بالسجن الخليفة هشام.

قصة أبي جعفر

ولم أرَ مثل أبي جعفر الطَّرسوسي :

زار قوماً فأكرموه وطيَّبوه ، وجعلوا في شاربه وسبَلته غالية ، فحك بها شفتَهُ العليا ، فأدخل إصبعه فحكَّها من باطن الشفة ، مخافة أن يأخذ إصبعُه من الغالية شيئاً إذا حكها من فَوق .

وهذا وشبهه إنما يطيبُ جداً إذا رأيت الحكاية بعينك ، لأن الكتابَ لايصوِّر لك كل شيء ، ولا يأتي لك على كُنهه ، وعلى حدوده وحقائقه .

* * *

قصة الحزامي (١)

وأما أبو محمّد الحزاميّ ، عبدُ الله بن كاسب ، كاتب مُونِس ، وكاتبُ داودَ بن أبي داود ، فانه كان أبخل من برأ الله ، وأطيبَ من برأ الله . وكان له في البُخل كلام . وهو أحد من ينصره ويفضّله ، ويحتجّ له ، ويدعو اليه .

وإنه رآني مرة في تشرين الأول ، وقد بكّر البرد شيئاً فلبستُ كساءً لي قومِسياً (٢) خفيفاً ، قد نِيل منه ؛ فقال لي : ما أقبحَ السَّرَف بالعاقل ، وأسمج الجهل بالحكيم ! ما ظننتُ أن إهمالَ النفس ، وسوء السياسة ، بلَغ بك ما أرى . قلتُ : وأي شيء أنكرْتَ منا مُذ اليوم ؟ وما كان هذا قولك فينا بالأمس فقال : لبسُكَ هذا الكِساءَ قبل أوانه . قلتَ : قد حَدَث من البرد بمقداره . ولو كان هذا البردُ الحادثُ في تموز وآب لكان إبّاناً لهذا الكِساء . قال : إنْ كان ذلك كذلك ، فاجعل

(١) راجع ص ٤ .

(١) لعله نسبة الى قومس ذكرها ياقوت في معجمه ج ٧ ص ١٨٥ قال : كورة كبيرة واسعة ، تشمل على مدن وقرى ومزارع وهي ذيل جبال طبرستان

بَدَلَ هذه المبطَّنة جبة محشوَّةً ، فإنها تقومُ هذا المقام ، وتكون قد خَرَجتَ من الخطأ ، فأمَّا لبسُ الصوفِ اليوم ، فهو غير جائز ! قلت : ولِمَ ؟ قال : لأن غُبار آخر الصيِّف يتداخلُه، ويسكن في خَلَلِه ، فاذا أُمطر الناس ، ونديَ الهواء ، وابتلَّ كلُّ شيء ، ابتلَّ ذلك الغُبار ! وإنما الغُبار تراب ، إلا أنه لُباب التراب ، وهو مالِحٌ ويتقبَّضُ عند ذلك عليه الكِساء ويتكرَّش ، لأنه صوف ، فتنضمُّ أجزاؤه عليه ، فيأكلُه أكلَ القادِح ، ويعملُ فيه عَملَ السُّوس ! ولهو أسرَعُ فيه من الأرضة في الجزوع النَّجْرانيَّة ! ولكن أخِّرْ لُبسه حتى إذا أُمطر الناسُ وسَكَن الغُبار ، وتلبَّد الترابُ ، وحطَّ المطرُ ما كان في الهواء من الغُبار ، وغَسله وصفّاه ، فالْبَسْهُ حينئذ على بركة الله .

وكان يقع الى عِياله بالكوفة كلَّ سنة مرَّة ، فيشتري لهم من الحَبِّ مقدار طحينهم (١) ، وقوتِ سَنَتهم ، فاذا نظر إلى حبِّ هذا ، وإلى حبِّ هذا ، وقام على سِعره ، اكتال

(١) في بعض النسخ : طبيخهم .

من كلِّ واحد منها كيْلة معلومة «ووزنها» [1] بالميزان ، واشترى أثقلها وَزْناً . وكان لا يختارُ على البَلدي والموصليِّ شيئاً ، إلاّ أن يتقاربَ السعر . وكان على كلِّ حالٍ يفرّ من الميْساني ، إلا أنّ يُضطرّ اليه ، ويقول : هو ناعمٌ ضعيفٌ ، ونارُ المعدة شيطان ، فانما ينبغي لنا أن نُطعمَ الحجر ، وما أشبه الحجر . وقلتُ له مرّة : أعلمت أن الخبز البلديّ ينبتُ عليه شيْ شبيهٌ بالطين والتراب والغبار المتراكم ؛ قال : حبّذا ذلك من خُبز ، وليْته قد أشبه الأرضَ بأكثر من هذا المقدار .

وكان إذا لبس [2] جديدَ القميص ومغسولهُ ، ثم أتوْه بكل بخور في الأرض ، لم يتبخّر مخافةَ أن يُسوّد دخانُ العُود بياض قميصه ، فان اتّسخ فأُتي بالبخور ، لم يرضَ بالتبخّر ، واستقصاء ما في العُود من القتار ، حتى يدعوَ بدُهن ، فيمسح به صَدره وبطنَه وداخلة إزاره ، ثم يتبخّر ليكون أعلقَ للبخور . وكان يقولُ : حبّذا الشتاء ، فانه يحفظُ عليك رائحة

---

(١) ساقطة من الاصل .

(٢) في الاصل : « كان » وقد وضعنا بدلا عنها « لبس » ليستقيم الكلام .

البخور ، ولا يَحمض فيه النبيذ إن تُرِكَ مفتوحاً ، ولا يفسد فيه مَرَق إن بَقيَ أياماً .

وكان لايتبخّر إلا في منازل أصحابه ، فاذا كان في الصَّيف دعا بثيابه فلبِسَها على قميصِه لكيلا يضيعَ من البَخور شيء .

وقال مرةً [(١)] : إن للشيب سَهْكَةً [(٢)] وبياضُ الشعر هو موْتهُ ، وسوادُه حياتُه . ألا ترى أن موضع دُبُرَةِ الحمار الأسودِ لاينبتَ إلا أبيض ؛ والناسُ لايرضوْنَ منّا في هذا العسكر إلا بالعناق والالثام [(٣)] ، والطيبُ غالٍ ، وعادُته ردية ، وينبغي لمن كان أيضاً عنده أن يحرُسَه ويحفظه من عياله ، وإن العطّار ليختمه على أخص غلمانه به ، فلستُ أرى شيئاً هو خيرٌ من اتخاذ مُشط صندل ، فانَّ ريحَه طيبةٌ . والشعرُ سريعُ القبول ، وأقلُّ ما يصنع أن ينفي سهك الشيّب ! فصرنا في حال «لا» [(٤)] لنا ولا علينا . فكان عطْر الحزامى ـ إلى أن فارق الدنيا ـ مُشط صندل ، إلاّ أن يُطيبَه صديق .

---

(١) راجع العقد ص ١٧ ج ٢ الجلنة .

(٢) السهك : ريح العرق والصدء .

(٣) في العقد : والمثامة .

(٤) ساقطة في الاصل وقد أثبتناها عن العقد .

واستَسْلفَ منه عليُّ الاسواري مائة درهم ، فجاءني وهو حزينٌ مُنكسِر ، فقلت له : إنما يحزنُ من لا يجدُ بُداً من إسلاف الصديق ، مخافةَ ألا يرجع اليه مالهُ ! ولا يُعدُّ ذلك هبةً منه ! أو رجلٌ يخاف الشكيَّة ، فهو إن لم يسلف كرَماً أسلف خوفاً . وهـذا بابٌ الشُّهرة فيه هي قرة عينك . وأنا واثق باعتزامك وتصميمك ، وبقلة المبالاة بتبخيل الناس لك ، فما وجه انكسارك واغتمامك ؟ قال : اللهم غفراً ، ليسَ ذاك بي ، إنما في أني قد كنتُ أظنُّ أن أطماع الناسِ قد صارت بمعزلٍ عني ، وآيسةُ مني ، وأني قد أحكمتُ هذا الباب واتقنته وأودعتُ قلوبهم اليأس ، وقطعتُ أسبابَ الخواطر ، فأراني واحد منهم ! إن من أسبابِ إفلاس المرء طمَعَ الناس فيه ، لأنهم إذا طمعوا فيه . احتالوا له الحيل ، ونصبوا له الشَّرك ، واذا يئسوا منه ، فقد أمن . وهذا المذهبُ من عليّ استضعافٌ شديد ، وما أشكُّ أني عنده غمرٌ [1] وأني كبعضِ من يأكل ماله ! وهو مع هذا خليطٌ وعشير . واذا كان مثله لم يعرفني، ولم يتقرّر عنده مذهبي ، فما ظنك بالجيران ؟ بل ما ظنك بالمعارف

(١) غمر ومغمر : غير مجرب وهم أغمار .

أراني أنفخُ في غير فحم ، وأقدحُ بزند مصلد ! ما أخوفني أن أكون قد قُصد إليّ بقول . ما أخوفني أن يكون اللهُ في سمائه قد قصد إلى أن يفقرني !

قال : ويقولون : ثوبك على صاحبك أحسن منه عليك ، فما يقولون إن كان أقصر مني ؟ أليس يتخبّل في قميصي ؟ وان كان طويلاً جداً وأنا قصيرٌ جداً ، فلبسه ، أليس يصير آية للسابلين ؟ فمن أسوأُ أثراً على صديقه ممن جعله ضُحكةً للناس ؟ ماينبغي لي أن أكسوه حتى أعلمَ أنه فيه مِثلي ! ومتى يتفقُ هذا ، والى ذلك مَحيا ومَمات ؟

وكان يقول : أشتهي اللحمَ الذي تهرّأ ، واشتهي أيضاً الذي فيه بعضُ الصّلابة ! وقلتُ له مرة : ما أشْبَهكَ بالذي قال : أشتهي لحم دَجاجتين ! قال وما تصنع بذلك القائل : هوذا أنا أشتهي لحم دَجاجتين ، واحدة خِلاسيّة مسمّنة ، وأخرى خوامزكة (١) رَخْصَة .

وقلتُ له مرة (٢) : قد رضيتَ بأن يقال : عبد الله بخيل

---

(١) كلة فارسية ولعلها تدل على نوع من أنواع طبخ لحم الدجاج .
(٢) راجع عيون الاخبار ج ٢ ص ٣٣ .

قال : لا أعدمني الله هذا الاسم ! قلتُ : وكيف ؟ قال : (لأنه) [1] لا يقالُ فلان بخيلٌ . إلا وهو ذو مال ! فسلِّم إليّ المال ، وادْعُني بأي اسم شئت ! قلتُ : ولا يقال أيضاً فلانٌ سخيٌ ، إلا وهو ذو مال . فقد جمع هذا الاسمُ الحمدَ والمال ، واسمْ البُخل يجمعُ المال والذم ، فقد اخترتَ أخسَّهما وأوضعها . قال : وبينهما فرق ! قلت فهاته ! قال : في قولهم بخيلٌ تثبيتٌ لأقامة المال في مِلكه ، وفي قولهم سخي ، إخبار عن خروج المال من مِلكه ، واسم البخيل اسمٌ فيه حفظ وذم ، واسم السخيِّ اسمٌ فيه تضييعٌ وحمد ! والمال زاهر [2] نافع مكرِّم لأهله معزٌ ، والحمد ريحٌ وسخرية ، واستماعك له ضعف وفسولة . وما أقل غَناء الحمد ـ والله ـ عنه إذا جاع بطنُه ، وعري جلدُه ، وضاع عياله ، وشمِت به من كان يحسده .

وكنا عندَ داود بن أبي داود بواسط ، أيام ولايته كسكر ، فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق دبس ، فقسمها بيننا ، فكل

---

(١) زائده من عيون الاخبار .

(٢) في العقد : ناضر وفي عيون الاخبار : راهن.

ما أخذ منها الحزامي أعطى غيره ،[1] فأنكرت ذلك من مذهبه ولم أعرِف جهة تدبيره ، فقلت للمكيّ : قد علمتَ أن الحزامي إنما يجزعُ من الأعطاء ، وهو عدوُّه ، فأمّا الأخذُ ، فهو ضالته وأمنيته ، وإنه لو أُعطي أفاعي سِجستان ، وثعابين مصر وحيات الأهواز ، لأخذها إذا كان اسمُ الأخذ واقعاً عليها فمَساه أراد التفضيل في القسمة . قال أنا كاتبه ، وصَداقتي أقدم ، وما ذلك به . وإنَّ ههنا أمراً ما نقعُ عليه ! فلم يلبث أن دخَلَ علينا ، فسألتهُ عن ذلك ، فتعصَّر قليلاً ، ثم باح بسرِّه ، قال : وضيعتُهُ أضعافُ رِبحه ، وأخذُه عندي من أسباب الادبار . قلتُ : أوَّل وضائعه احتمالُ الشكر ![2] قال : هذا لم يَخطُر لي قط على بال . قلتُ : فهات إذن ماعندك . قال : أولُ ذلك كراء الحمّال ، ثم هو على خطر حتى يصير الى المنزل ، فاذا صار الى المنزل ، صار سبباً لطلب المَصيدة والارُزة والبستَنْدود[3] فان بعتُه فراراً من هذا صَيَّروني

---

(١) كذا بالأصل وفي نسخة : فكلنا اخذ ما اعطي غيره . ولعله ساقط بالأصل بعض الكلام .

(٣) فان فلوتن : السكر .

(٢) البستندود : كلمة فارسية قال فان فلوتن : أنها الفطائر محشوة (PATE

شُهرةً ، وتركتموني عنده آية ! وإنْ أنا حَبستهُ ذهبَ في العصائد وأشباه العصائد ، وجذب ذلك شراءَ السمن ، ثم جذب السمنُ غيره ، وصار هذا الدِّبسُ أضرَّ علينا من العيال . وإن أنا جَعلته نبيذاً احتجْتُ إلى كِراء القُدور ، وإلى شراء الحُبِّ[1] ، وإلى شراء الماء ، وإلى كِراء من يوقدُ تحته ، وإلى التفرُّغ له . فان وليَت ذلك الخادِمَ اسودَّ ثوبُها . وغرِمنا ثمنَ الأشنان والصابون ، وازدادت في الطعام على قدر الزيادة في العَمَل ، فان فسد ذهبَتْ النفقة باطلاً ، ولم نستخلفْ منها عِوَضاً بوجهٍ من جميع الوجوه ، لأن خلَّ الداذيِّ يخضبُ اللحم ويغيِّر الطَّعم ، ويسوِّد المرقَ ، ولا يصلحُ إلا للاصطباغ وهذا إذا استحال خلاً ، وأكثرُ ذلك أن يحولَ عن النبيذ ، ولا يصيرُ إلى الخل . وإن سلِم ـ وأعوذُ بالله ـ وجاد وصفا ، لم نجد بُداً من شُربه ، ولم نطِب أنفسنا بتركه ، فان قعدتُ في البيت أشربُ منه ، لم يُمكن إلا بترك سُلافِ الفارسيِّ المعسل ، والدجاج المسمَّن ، وجِداء كسكر[2] . وفاكهة الجبل ،

---

(١) الحب : بالضم القدر ، والخابية ، والجرة الضخمة

(٢) كسكر : كورة واسعة ينسب اليها الفراريج الكسكرية ، لانها تكثر بها جداً وقصبتها واسط . كما في معجم البلدان لياقوت .

والنقل الهش والرَّيحان الغضّ ، عند من لا يغيض ماله ، ولا تنقطعُ مادته ، وعند من لا أبالي [٢] على أي قطرية سقط ، مع فوت الحديث المؤنِس ، والسماع الحسن . وعلى أني إن جلست في البيت أشربه ، لم يكن لي بدٌّ من واحد ، وذلك الواحدُ لابدَّ له من درهم لحم ، ومن طَسُّوج نقل ، وقيراط رَيحان ، ومن إبراز للقدر ، ومن حطَبٍ للوقود ! وهذا كلّه غُرْمٌ . وهو بعد هذا شؤمٌ وحرقةٌ ، وخروجٌ من العادة الحسَنة فان كان ذلك النديمُ غيرَ موافق ، فأهل الحبس أحسنُ حالاً مني ! وإن كان ـ وأعوذ بالله ـ موافِقاً ، فقد فتَح الله على مالي باباً من التلف . لأنه حينئذ يسيرُ في مالي كسيْري في مال من هو فوقي . وإذا علِمَ الصديقُ أن عندي داذياً [٣] أو نبيذاً ، دقَّ البابَ دقَّ المُدِلْ ، فان حجَبناه فبلاء ، وإن أدخلناه فَشقاء .

وإن بدا لي في استحسان حديثِ الناس ، كما يَستحسِنه مني من أكونُ عندَه ، فقد شاركتُ المسرفين ، وفارقتُ

---

(١) لايبالي : عيون الاخبار .

(٢) لعلها زاداً وفي نسخة زائراً .

إخواني من المصلحين ، وصرتُ من إخوان الشياطين ، فاذا صرتُ كذلك ، فقد ذهب كسْبي من مالِ غيري ، وصارَ غيري يكتسبُ مني . وأنا لو ابتليتُ بأحدهما لم أقم له ، فكيف إذا ابتليتُ بأن أعطي ولا آخذ ؟ أعوذُ بالله من الخذلان بعد العصمة ، ومن الحور بعد الكوْر [1] . لو كان هذا في الحداثة كان أهون .

هذا الدُوشاب دَسيسٌ من الحرفة ، وكيدٌ من الشيطان وخُدعة من الحَسود ، وهو الحلاوةُ التي تُعْقب المرارة ! ما أخوفني أن يكون أبو سليمان قد ملّ منادمتي ، فهو يحتال لي الحيل

وكنا مرةً في موضع حشمة ، وفي جماعة كثيرة ، والقوم سكوت ، والمجلس كبير ، وهو بعيدُ المكان مني ، فأقبل علي المكيُّ وقال ـ والقوم يسمعون ـ فقال : يا أبا عثمان ! من أبخلُ أصحابنا ؟ قلت : أبو الهذيل ! قال : ثمَّ من ؟ قلتُ : صاحبٌ لنا لا أُسميه ، قال الحزاميُّ من بعيد : إنما يعنيني ! ثم قال : حسَدتم للمقتصدين تدبيرهم ، ونماء أموالهم ، ودوام نعمتهم ، فالتمستم تهجينَهم بهذا اللقب ، وادخلتم المنكرَ عليهم بهذا النَّبز

(١) أعوذ بالله من الحور بعد الكور : أي الزيادة .

تظلمون المتلِف لماله باسم الجود، إدارة له سيئة [1]، وتظلِمون المصلحَ لماله باسم البخل، حسداً منكم لنعمته! فلا المفسد ينجو ولا المصلح يسلم.

* * *

قال أبو عبيدة: بلغَ خالدَ بن عبدِ الله القسْري [2] أن الناسَ يرمونه بالبخل على الطعام، فتكلَّم يوماً، فما زال يُدخِل كلاماً في كلام، حتى أدخلَ الاعتذار من ذلك في عُرض كلامه فكان مما احتجَّ به في شدَّة رؤيةِ الآكيل عليه، وفي نُفوره منه، أن قال: نظر خالدٌ المهزول في الجاهليَّة يوماً، إلى ناس يأكلون، وإلى إبل تجترُّ. فقال لأصحابه: أترونني بمثل هذه العين التي أرى بها الناس والابل؟ قالوا: نعم! فحلفَ بالهه أن لا يأكل بقلاً، وإن مات هزالاً [3]، وكان يغتذي اللبنَ

---

(١) فان فلوتن: شينه وفي الاصل شيه.

(٢) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد البجلي القسري ولي العراق سنة ١٠٦ هـ ومات قتيلا في الحيرة سنة ١٢٦ من قبل يوسف بن عمر الثقفي.

(٣) في بعض النسخ: هزلا.

ويصيب من الشراب ، فأضمره ذلك ، وأيبسه ، فلمّا دقّ جسمه واشتد هزاله ، سمّي : المهزول .

ثم قال خالد : ها أنا ذا مبتلى بالمضغ ، ومحمولٌ على تحريك اللَّحيَيْن ، ومضطرٌ إلى مناسبة البهائم ، ومحتملٌ مافي ذلك من السخف والعجز ، ما أبالي أحتملتُه فيمن لي منه بد ، ولي عنه مذهب ، ليأكلْ كلُّ امرىءٍ في منزله وفي موضع أمنه وأنسه ودون ستره وبابه .

هذا مابلغنا عن خالد بن عبد الله القَسْري ، واحتجاجه .

فأما خالد المهزول فهو أحد الخالدَين ، وهما سيّدا بني أسد ، وفيه وفي خالد بن نضلة [1] يقول الأسودُ بن يعفر [2] .

---

(١) خالد بن نضلة: لعله خالد بن المضلل الذي كان ينادم المنذر بن ماء السماء مع عمرو بن مسعود وهما اسديان وهما اللذان عناهما الشاعر بقوله:

الا بكر الناعي بخيري بني اسد   بعمرو بن مسعود وبالسعيد الصمد

فشرب المنذر ليلة معهما فراجعاه الكلام فأغضباه، فأمر بهما فقتلا وجعلا في تابوتين ودفنا بظاهر الكوفه . ولندمه على قتلها أمر ببناء الغريين وجعل لنفسه في كل سنة يومين : يوم بؤس ويوم نعيم . والقصه تجدها في ذيل الامالي والنوادر للقالي ص ١٩٥ دار الكتب. وأما خالد المهزول فلعله عميد بني حجوان .

(٢) الاسود بن يعفر كان شاعرا متقدما فصيحا من شعراء الجاهليه وليس بالمكثر . ترجم له في المؤتلف والمختلف للآمدي وبشعراء النصرانية ص ٤٧٥ وما بعد . . . والاغاني وطبقات الشعراء الخ

وقبلك ماتَ الخالدانِ كلاهما

عميدُ بني جحْوان وابن المضلَّل [1]

* * *

---

(١) روي البيت في شعراء النصرانيه ص ٤٨٤

فقبلي مات الخالدان كلاهما   عميد بني حجوان وابن المضلل

وورد البيت ايضاً في معجم البلدان ص ٢٧٨ ج ٦ ط السعاده

قصة الحارثي

وقيل للحارثي بالامس :

والله إنك لتصنعُ الطعامَ فتجيدُه ، وتعظُم عليك النفقة وتكثر منه ، وانك لتُغالي بالخبّاز والطباخ والشوّاء والخبّاص . ثم أنتَ ـ مع هذا كلّه ـ لاتُشهده عدواً لتغمّه ، ولا وليّاً فتسرّه ، ولا جاهلاً لتعرّفه ، ولا زائراً لتعظمه ، ولا شاكراً لتثيبه ، وانت تعلم حين يتنحّى من بين يديك ، ويغيبُ عن عينيك ، فقد صار نهباً مقسّماً ، ومتوزَّعاً مستهلكاً ، فلو أحضرته من ينفع شكرُه ، ويبقى على الأيام ذِكرُه ، ومن يُمتعك بالحديث الحسَن والاستماع ، ومن يمتدّ به الأكل ويقصرُ به الدهر ، لكان ذلك أولى بك ، وأشبهَ بالذي قدمته يدُك .

وبعدُ فلِمَ تبيحُ مصون الطعام لمن لا يحمدُك ، ومن إن حمِدك لم يحسِن أن يحمدك ، ومن لايفصلُ بين الشهيِ

القَدِيّ ، وبين الغليظ الزَّهِم[1] ؟

قال : يمنعُني من ذلك ما قال أبو الفاتك . قالوا : ومن أبو الفاتك ؟ قال : قاضي الفتيان ، وإني لم آكل مع أحد قط إلا رأيتُ منه بعضَ ما ذمَّه ، وبعض ما شنَّعه وقبَّحه . فشيء يقبحُ بالشطّار ، فما ظنُّك به إذا كان في أصحاب المروءات ، وأهل البيوتات ؟ قال[2] : فما قال أبو الفاتك :

قال : قال أبو فاتك الفتى لايكون نشَّافاً ، ولا نشالاً ولا مِرسالاً ولا لكاماً ، ولا مصَّاصاً ، ولا نفّاضاً ، ولا دلاَّكاً ، ولا مقوِّراً ولا مغربلاً ، ولا محلقماً ، ولا مسوِّغاً ، ولا مُبلعماً ، ولا مخضراً . فكيف لو رأى أبو الفاتك اللطّاع ، والقطّاع ، والنهاش ، والمدّاد ، والدفّاع ، والمحول[3] والله إني لأفضِّل الدهاقين حين عابوا الحسو ، وتقزّزوا من التعرُّق ، وبَهْرَجوا صاحب التمشيش ، وحين أكلوا بالبارجين[4] ، وقطعوا

---

(١) الزهومة : ريح لحم سمين منتن .

(٢) كذا بالاصل والصحيح : قالوا .

(٣) سيأتي شرح هذه الكلمات فيما بعد كما شرح الكلمات الواردة في حديث خالد بن يزيد .

(٤) كلمة فارسية تدل على نوع من الطعام .

بالسكّين ، ولزموا عند الطعام السكتة ، وتركوا الخوض ، واختاروا الزمزمة

أنا والله أحتملُ الضيفَ والضيفين ، ولا أحتمل اللّعْموظ ولا الجَردَبيل [1] . والواغِلُ أهونُ عليّ من الراشن . ومن يشكّ أن الوحدة خيرٌ من جليسِ السوء ، وأن جليس السوء خيرٌ من أكيلِ السوء ؛ لأن كلّ أكيل جليس ، وليس كلُّ جليس أكيلا . فان كان لابدّ من المؤاكلة ، ولا بدّ من المشاركة ، فمع من لايستأثرُ عليّ بالمخّ ، ولا ينتهزُ بيْضةَ البقيلة ، ولا يلتهم كبد الدجاجة ، ولا يبادر إلى دماغ رأس البقيلة ، ولا يلتهم كِبدَ الدّجاجةِ ، ولا يبادر إلى دماغ رأس السُّلافة [2] ، ولا يختطفُ كلية الجدي ، ولا يزدرد قانصة [3] الكُرْكيّ ولا ينتزعُ شاكلة الحمل ، ولا يقتطع سُرّةَ الشّصَر ولا يعرضُ لعيونِ الرؤوسِ ، ولا يستَوْلي على صدور الدجاج ولا يسابقُ إلى إسقاط الفراخ ، ولا يتناولُ إلاّ ما بين يديه ،

---

(١) الجردبيل : النهم ويقال : جردبت على الطعام وجرذمت .
(٢) في نسخة : السلاءة .
(٣) القانصة : هنة كأنها حجير في بطن الطائر .

ولا يلاحظُ ما بين يدَيْ غيره، ولا يتشهّى الغرائب، ولا يمتحن الاخوانَ بالأمور الثمينة، ولا يهتِكُ أستار الناس بأن يتشهّى ماعسى ألاّ يكون موجوداً.

وكيف تصلُح الدنيا، وكيف يطيبُ العيش مع مَنْ إذا رأى جَزورِيّة[1] التقط الأكباد والأسنمة، وإذا عاين بقريّة استولى على المرق والقِطنة، وإن أُتوا بجَنب شِواء اكتسح كل شيء عليه، لايرحمُ ذا سنٍ لضعفه، ولا يرقّ على حَدَثٍ لحدّةِ شهْوته، ولا ينظرُ للعيال، ولا يُبالي كيفَ دارت بهم الحال؟ وإن كان لابدّ من ذلك، فمع من لا يجعلُ نصيبَه في مالي أكثر من نصيبي. وأشدُّ من كل ماوصفنا، وأخبثُ من كلِ ماعددنا أنّ الطباخَ ربما أتي باللونِ الطريف، وربما قدّم الشيء الغريب، والعادةُ في مثلِ ذلك اللون أن يكونَ لطيفَ الشخص، صغيرَ الحجم، وليس كالطفَيْشَليّة ولا كالهريسة ولا كالفجليّة ولا كالكرنبية، وربما عُجّل عليه فقدّمه حاراً ممتنعاً، وربما كان من جوهرٍ بطيءِ الفتور. وأصحابي في سُهولةِ ازدِراد الحار عليهم في طِباع

(١) أي لحمة أو طعام منسوب إلى جزور، ومثلها بقرية.

النعام ، وأنا في شدّة الحارّ عليّ في طباع السباع ، فان انتظرتُ إلى أن يُمكن أتوا على اخره ، وإن بدرْتُ مخافة الفوْت وأردتُ أن أشاركَهم في بعضه ، لم آمن ضَرَره ، والحارْ ربما قتل ، وربما أعقم ، وربما أبال الدم .

ثمّ قال : هذا عليّ الأسواريّ أكلَ مع عيسى ابنُ سليمان بن علي (١) ، فوضعتْ قُدّامهم سَمكة عجيبة ، فائقة السِمَن ، فجلط بطنها جلطة (٢) ، فاذا هو يكتنز شَحْماً ! وقد كان غَصّ بلُقمةٍ ، وهو لمستسق (٣) ، ففَرَغ من الشرابِ وقد غرَف من بطنها كلْ إنسان منهم بلُقمته غَرفة ، وكان عيسى ينتخب الأكلة ، ويختارُ منهم كلّ منهوم فيه ، ومفتونٍ به . فلما خاف عليّ الأسواريّ الاخفاق ، واشفق من الفوْت

---

(١) هو ابن عم أبي العباس السفاح وهو الذي هجاه ابن أبي عيينه لتزوجه امرأة من آله فقال :

إذا مابنو العباس يوما تبادروا — عرا المجد وابتاعوا كرام الفضائل
رأيت أبا العباس يسمو بنفسه — الى بيع بياحاته والمباقل
يرخم بيض العام تحت دجاجه — ليخرج بيضا من فراريج قابل

والقصيدة اوردها المبرد في الكامل ج ٢ ص ٢٩ - ٣٠

(٢) فان فلوتن : فخاط بطنها لحظة .

(٣) في نسخة المستسقي .

— وكان أقربهم اليه عيسى — استلب من يده اللُّقمة بأسرعَ من خطفة البازي ، وانكِدار [1] العُقاب ، من غير أن يكونَ أكلَ عندَه قبل مرَّتهِ ! فقيل له : ويحك ! استلبتَ لُقمة الأمير من يده ، وقد رفعها اليه ، وشحا لها فاه ، من غير مؤانسة ولا ممازحة سالفة ؟ — قال : لم يكن الأمر كذلك — وكذَبَ مَنْ قال ذلك — ولكنّا أهوَيْنا أيدينا معاً . فوقعت يدي في مُقدَّم الشَّحمة، ووقعت يده في مؤخر الشحمة معاً والشحمُ ملتبسٌ بالأمعاء ، فلمّا رفعنا أيدينا معاً كنتُ أنا أسرعَ حركةً وكانت الامعاء متصلة غير متباينة ، فتحوَّل كلُّ شيء كان في لُقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي ، لاتِصال الجِنس بالجنس ، والجوهر بالجوهر .

وأنا كيف أؤاكل أقواماً يصنعون هذا الصنيع ، ثم يحتجُّون له بمثلِ هذه الحُجَج ؟

ثم قال : إنكم تُشيرون عليَّ بِمُلابَسة شِرار الخلق ، وأنذال الناس ، وبكلِّ عيَّاب متعنِّت ، ووثّاب على أعراض الناس متسرِّع . وهؤلاء لم يرضَوا أن يدعُوَهم الناس ، وأن

(١) انكدار العقاب : انقضاضه وانحداره .

يأكلُوا ولا يطْعموا، وأن يتحدَّثوا عن غيرهم، ولا يبالون أن يُتحدَّث عنهم، وهم شِرار الناس.

ثم قال: أجلسَ معاوية - وهو في مرتبة الخلافة، وفي السطح من قُرَيش، وفي نُبل الهمة، وإصابة الرأي، وجَوْدة البيان، وكمال الجِسم، وفي تمام النفْس عندَ الجولة، وعند تقصُّف الرماح، وتَقطّع السيُوف - رجُلاً على مائدته مجهولَ الدار، غيرَ معروف النَّسب، ولا مذكوراً بيوم صالح [1] فأبصر في لقمته شعرة [2] فقال: خُذ الشعرةَ من لُقمتك - ولاوجه لهذا القولِ منه إلا محضُ النصيحةِ والشفقة - فقال الرجلُ: وإنَّك لتُراعيني مُراعاةَ من يُبصر معها الشَّعرة؟ لاجلستُ لكَ على مائدةٍ ماحييتُ، ولا حكَيْتُها [3] عنك مابقيت. فلم يَدْرِ الناسُ أيّ أمريْ معاوية كان أحسنَ وأجمل: تغافُلُه عنه، أم شفقتُه عليه. فكان هذا جزاؤه منه، وشكرُه له.

ثم قال: وكيف أُطعِمُ من أن رأيتُه يقصّر في الأكل

---

(١) مأخوذ من قول الشاعر:

كأن لم يكن يوم - بزورة - صالح   وبالقصر ظل وارف وظليل

(٢) زيادة من عيون الاخبار.

(٣) لعلها: لا أحكينها.

فقلتُ له : كل ولا تقصِّر في الأكل : قام ولم يفطن لفضل مابينَ التقصير وغيره ، وإن قصَّر فلم أُنشِّطه ، ولم أحثه. قال : لولا [1] أنه وافقَ هواه !

ثم قال ومدَّ رجلٌ من بني تميم يده إلى صاحب الشراب يستسقيه - وهو على خِوان المهلب - فلم يَره الساقي ، ولم [2] يفطَن له ، ففَعل ذلِك مِراراً والمهلّب يراه ، وقد أمسَك عن الأكل ، إلى أن يُسيغ لقمتَه بالشراب . فلمَّا طالَ ذلك على المهلّب ، قال : اسقِه يا غلامُ ما أحبَّ من الشراب . فلما سقاه ، استقلّه وطلبَ الزيادةَ منه ، وكان المهلّبُ أوصاهم بالاقلال من الماء ، والاكثار من الخبز . قال التميميُّ : إنك لسريع إلى السقي ، سريعٌ إلى الزيادة ! وحبَس يده عن الطعام . فقال المهلّب : أَلْهُ عن هذا أيها الرجل ، فان هـذا لا ينفعك ولا يضرُّنا ، أردنا أمراً ، وأردتَ خلافه

وقد علمتُ أني دون معاوية ، ودون المهلّب بنِ أبي صفرة ، وأنهم إليَّ أسرع ، وفي لحمي أرتع .

---

(١) لعلها : ولو أنه .

(٢) فان فلوتن : فلم . والصحيح ما أثبتناه .

ثم قال : وفي الجارود بن أبي سبرة [1] الكُمْ واعظٌ ، وفي أبي الحارث جُميَّن زاجر : فقد كانا يُدْعيان إلى الطعام وإلى الاكرام ، لظَرفهما وحلاوتهما ، وحسن حديثهما ، وقِصَر يومهما . وكانا يتشهيّان الغرائب ، ويقترحان الطرائف ، ويكلفان الناسَ المؤنَ الثقال ، ويمتحِنان ما عندَهم بالكُلَف الشِداد ، فكان جزاؤهم من أحسانهم ما قد علمتم .

قال : ومن ذلك أن بِلال بنَ أبي بُردة [2] ، كان رجلاً عيَّاباً ، وكان إلى أعراض الأشراف مُتَسرِّعاً ، فقال للجارود :

---

(١) ذكره الجاحظ في البيان ج ١ ص ٢٦٢ التجارية سنة ١٩٣٢ قال : الجارود بن أبي سبرة ، ويكنى ابا نوفل ، من ابين الناس واحسنهم حديثاً وكان رواية علامة شاعراً مفلقا ، وكان من رجال الشيعة ، ولما استنطقه الحجاج قال : ما ظننت أن بالعراق مثل هذا ؟ وكان يقول : ما أمكنني وال قط من اذنه إلا غلبت عليه ماخلا هذا اليهودي « يعني بلال بن برده » وكان عليه متحاملا ، فلما بلغه انه دهق حتى دقت ساقه وجعل الوتر في خصييه انشأ يقول :

لقد قر عيني ان ساقيه دقتا ... وأن قوى الأوتار في الخصية اليسرى
بخلت وراجعت الخيانة والخنا ... فيسرك الله المقدس للعسرى
فما جذع سوء خرب السوس جوفه ... يعالجه النجار يبرى كما تبرى

(٢) هو بلال ابن ابي برده بن ابي موسى الاشعري وكان قاضيا واميراً توفي سنة ١٠٣ هـ .

كيفَ طعامُ عبد الله بن أبي عثمان ؟ قال : يُعرَف ويُنكر . قال فكيفَ هو عليه ؟ قال : يُلاحظ الاقم ، وينتهرُ السائلَ ! قال : فكيفَ طعام سَلم ابنُ قُتَيبة [١] ؟ قال : طعامُ ثلاثة ، وإن كانوا أربعةَ جاعوا ! قال : فكيفَ طعامُ تَسنيم ابن الحواري [٢] ؟ قال : نَقَط العروس . قال : فكيفَ طعام المنجاب ابن أبي عُيينة ؟ قال : يقول : لاخيرَ في ثلاث أصابعَ في صحفة حتى أتى حاجته أهلَ البصرة ، وعلى كلِّ من كانَ يُؤثِره بالدّعوة وبالأنسة والخاصّةِ ، ويحكّمه في ماله . فلم يَنجُ منه إلا من كانَ يبعده كما لم يُبتلَ به إلاّ من كانَ يقربه .

وهذا أبو شُعَيب القلاّل [١] .

---

(١) سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي : ولاه ابن هبيرة على البصرة ثم تولاها لأبي جعفر ، وكان يعرف الغريب ويتباصر به كما قال عنه بشار حين مدحه بقصيدة اكثر فيها من الغريب فسئل عنها ، فقال : بلغني ان سلما يتباصر بالغريب فأحببت ان اورد عليه مالا يعرفه . ومات سلم بالري .

(٢) تسنيم بن الحواري : كان صديقا لبشار ، وقد هجاه ببيت مقذع القصد منه كان لضبط القافية لا للهجاء وقد ذكر في الاغاني ج ٣ ص ١٧٣ دار الكتب .

(٣) القلال : نسبة الى صنع القلل ، وكان ابو شعيب هذا يهوى مجالسة الشعراء والادباء وكان من جلساء ابي نواس وقد ذكره ابن —

في تقريب مُوَيْس[1] له، وأنسه به، وفي إحسانه اليه، مع رصانه[2] على المأكول، وغضِّ طرْفه عن الأكيل، وقلة مبالاته بالحفظ، وقلة احتفاله بجمع الكثير، سُئل عنه أبو شعيب فزَعَم أنه لم يرَ قط أشحَّ منه على الطعام. قيل: وكيف؟ قال: يدلك على ذلك أنه يصنَعُه صنعة، ويهيئهُ تهيئة من لا يُريد أن يُمَسَّ، فضلا على غير ذلك. وكيف يجترىء الضِّرس على إفساد ذلك الحسن، ونقضِ ذلك النظم، وعلى تفريق ذلك التأليف، وقد علم أن حُسنهُ يُحشِم، وأن جماله يهيِّب منه. فلو كان سخيًّا لم يمنع منه بهذا السِّلاح ولم يجعل دونه الجُنن، فحوَّل إحسانه إساءة، وبذله منعاً، واستدعاءه اليه نهياً.

قال: ثم قيل لأبي الحارث جُمَيْن: كيفَ وجهُ محمد

منظور في اخبار ابي نواس وقال عنه الرشيد: والله مارأيت انطق منه أولاً ولا أعى منه آخراً ينبغي لهذا ان يكون اعقل الناس او اجن الناس.

(١) هو مويس بن عمران.

(٢) في نسخة: مع سخائه.

ابن يحيى [1] على غدائه ؛ قال : أما عيناه فعينا مجنون .

وقال فيه أيضاً لو كان في كفّه كُرٌّ خردل ، ثم لعب الأبْليّ بالأكرة ، لما سقطَتْ من بَين أصابعه حبّة واحدة .

وقيل له أيضاً : فكيفَ سخاؤه على الخبز خاصّة ؛ قال : والله لو ألقيَ إليه من الطعام بقَدْر ما إذا جلس فوق السحاب يؤثر ماتجافى عن رَغيف .

وكان أبو نواس يرتعي على خِوان إسماعيلَ بن نُيْبَخت ، كما ترتعي الابل في الحمض بعد طول الخلّة ، ثم كان جزاؤه منه أنه قال :

خُبْزُ إسماعيل كالوشْـ ي إذا ما شُقَّ يرْفَا

قال :

وما خبْزُه إلا كُليبُ بْنُ وائلٍ

ليالي يَحْمي عزُّه منْبتَ البقْلِ

وكان أبو الشمَقْمق يعيب في طعام جعفر بن أبي زهير

---

(1) محمد بن يحيى احد ابناء يحيي بن خالد البرمكي تولى الكتابة لمحمد بن الرشيد ، وقد سجن في الرقة لما وقعت نكبة البرامكة ، وظل سجيناً حتى اطلقه الأمين وكان رجلا بخيلا عكس اخوته ،

وكان له ضيفاً في ضيافة جعفر وهو مع ذلك يقول :

رأيتُ الخبزَ عزَّ لديكَ حتى ... حسبتُ الخبزَ في جو السَّحاب

وَما روَّحتَنا لتذُبَّ عنا ... ولكنْ خفتَ مرْزِئةَ الذُّبابِ [1]

وقيل للجمّاز : رأيناك في دِهليز فلان ، وبين يديْك قصعة وأنت تأكل ، فمن أيّ شيء كانت القصعة ، وأي شيء كان فيها ؟ قال : قيءُ كلب في قحف خنزير .

وقيل لرجُل من العرب : قد نزلتَ بجميع القبائل ، فكيفَ رأيتَ خُزاعة ؟ قال : جوعٌ وأحاديث !

ونزل عمروُ بنُ معدي كرب برجُلٍ من بني المغيرة - وهم أكثرُ قريش طعاماً - فأتاه بما حضَر - وقد كان فيما أتاه به فضل - فقال لعمرَ بن الخطاب ، وهم أخواله : لئام بني المغيرة يا أميرَ المؤمنين . قال : وكيفَ ؟ قال : نزلتُ بهم فما قروني غيرَ قوسٍ [2] وكعبٍ وثور . قال عمر : إن ذلك لشبعة .

---

(١) في المحاسن والمساوئ : ... وعن حذيفة بن محمد الطائي قال: قال الرشيد : لا أعرف لمولد أهجى من قول أبي نواس ثم . يورد البيتين على أنهما لابي نواس .

(٢) في الاصل : قرين والصحيح ما أثبتناه . والقوس البقية من التمر

وكم قد رأينا من الأعراب من[1] نَزلَ بربّ صِرْمة ، فأتاه بلَبَن وتمر وحَيْس وخُبز وَسَمْن سلاء ، فبات ليلَته ثم أصبح يهجوه : كيف لم ينحرْ له — وهو لا يعرفه — بعيراً من ذَوْده ، أو من صِرمته . ولو نحرَ هذا البائسُ لكلِّ كلب مرَّ به بعيراً من مخافة لسانه ، لما دار الأسبوع إلا وهو يتعرَّض للسابلة يتكفَّف الناس ، ويسألهم العُلَق[2] .

وسأل زيادٌ عن رَجُلٍ من أصحابه فقيل : إنه لملازم ، وما يُغبْ غداء الأمير . فقال زياد : فليُغِبَّه ، فان ذلك مما يضرْ بالعيال فالزَموه الغِبَّ ! فعابوا زياداً بذلك . وزعموا أنه استثْقَل حُضورَه في كل يوم ، وأراد أن يزجُر به غيره ، فيُسقط عن نفسه ، وعن ماله مؤنة عظيمة . وإنما كان ذلك من زياد على جِهةِ النظرِ للعيالات ، وكما ينظُر الرَّاعي للرعيَّة ، وعلى مذهبِ عُمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقد قال الحسن[3] : تشبَّه زيادٌ بعمرَ فأفرط ، وتشبَّه

---

(١) ساقطة في الاصل .

(٢) العلق : اليسير من الطعام . وايضاً : ما تتبلغ به الماشية من الشجر. والدم الجامد يأكلونه عند المجاعة .

(٣) أي الحسن البصري .

الحجاجُ بزيادٍ فأهلك الناس [1] . فجعلتم ذلك عنتاً منه .

وقال يوسف بنُ عُمرَ [2] لقُوّام موائده : أُعظموا الثريدة فانها لقمة الدرداء ، فقد يحضُر طعامَكم الشيخُ الذي قد ذهب فمه، والصبيُّ الذي لم ينبت فمه ، وأطعموه ماتعرفون ، فانه أنجعُ وأشفى للقوم [3] . فقلتم : إنما أراد العَجَلة والراحة بسُرعة الفراغ ، وأن يكيدهم بالثريد ، ويملأ صدورهم بالعِراق [4] ، وقد

---

(١) وكذا في البيان ص ٥١ ج ٢ م الرحمانية .

(٢) هو يوسف بن عمر الثقفي ابن عم الحجاج احد ولاة بني امية عرف بالشدة والبطش ، ولى اليمن لهشام فلما غضب هشام على خالد ابن عبد الله القسري عزله وولى مكانه يوسف عن الكوفة فمضى اليها واصطنع العنف وحاسب خالد وحبسه كما اودع السجن اصحاب خالد كبلال ابن ابي بردة وعذبها حتى مات خالد بين يديه كما مات بلال بن أبي بردة وبقي والياً على الكوفة الى ان بويع يزيد بن الوليد فهرب يوسف الى الشام فظفر فيه يزيد وحبسه ثم دخل عليه في السجن يزيد بن خالد بن عبد الله القسري فبطش به أخذاً بثأر ابيه .

وكان يقال ما اشبه زمان يوسف بن عمر بزمان الحجاج .

(٣) كذا بالاصل ولعلها القرم . نقول : ليس من الشرف والكرم عادة الشره والقرم ، وقال ابو دؤاد :

يزين البيت مربوطا ويشفى قرم الركب

(٤) العراق : العظم أكل لحمه .

قال رسول الله ﷺ : « سيّدُ الطّعام الثّريدُ ، ومَثلُ عائشة في النّساء مثلُ الثّريد في الطّعام » [1] . ولِعظَمِ صنعة الثريد في أعين قريش ، سمّوا عَمْرو بن عبد مناف بهاشم ، حين هشمَ الخبز ، واتخذ منه الثريد ، حتى غلَبَ عليه الاسمُ المشتقُّ من ذلك .

وقال عوفُ بنُ القعقاع [2] لمولاه اتخذْ لنا طعاماً يُشبع فضلُه أهل الموسم . قلتم : فلمّا رأى الخبزَ الرِّقاق والغِلاظ والشواءَ والألوان ، واستطرافَ الناس للّون بعد اللون ، ودوامَ أكلهم لدوام الطّرف ، وأن ذلك لو كان لوناً واحداً لكان أقلّ لأكلهم . قال فهلاّ فعلته [3] طعام يد ، ولم تجعلْه طعام يدَيْن ؟ فقلتم اتسع ثم ضاق ، حين أراد إطعامهم الثريد والحيْس وكل ما يؤكل بيدٍ دون يدين !

(١) في البخاري ومسلم : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

(٢) هو عوف بن القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس ، تميمي دارمي ، عداده في اعراب البصره ، ويعد في الصحابة ؛ لانه وفد مع ابيه على النبيﷺ . راجع اسد الغابة .

(٣) كذا في الاصل ووردت في بعض النسخ جعلته وهو الأصح كما هو واضح من سياق الحديث كما سيأتي .

والقعقاع [1] عربيّ كره لمولاه أن يرغب من طعام العرب إلى طعام العجم ، وأراد دوامَ قومه على مثل ما كانوا عليه . وعلى أن التّرفة ، تفتّخهم ، وتُفسدهم ، وأن الذي فُتح عليهم من باب الرّفه أشدّ عليهم مما أُغلق عليهم من باب فضول اللذة . وقد فعَل عمرُ من جهة التأديب أكثر من ذلك حين دُعي إلى عُرس ، فرأى قِدراً صفراء ، وأُخرى حمراء ، وواحدة مرّة ، وأُخرى حُلوة ، وواحدة مُحمّضة ، فكازها [2] كلّها في قِدر عظيمة ، وقال : إن العربَ إذا أكلت هذا قتلَ بعضُها بعضاً !

* * *

(١) اي عوف بن القعقاع لا القعقاع نفسه . ولعل ابن ساقطة من الاصل.
(٢) اكتاز الماء : اغترفه بالكوز وكاز الشيء : جمعه .

تفسير كلام أبي فاتك

أما قوله : الفتى لايكونُ نشالاً ، « فالنشال » عنده : الذي يتناوَلُ من القِدر ، ويأكل قبل النُضج ، وقبل أن تنزل القدر ، ويتتامَّ القوم .

« والنشاف » الذي يأخذُ حرفَ الجرذقة ، فيفتحهُ ثم يغمسُه في رأسِ القِدر ، ويشرَّبه الدَسم ، يستأثِر بذلك دون أصحابه .

« والمرسال » : رجلان : أحدهما إذا وضع في فمه لقمة هريسة ، أو ثَريدة ، أو حيْسة ، أو أرُزَّة ، أرسلها في جوف حلقه إرسالاً . والوجه (1) الآخر : هو الذي اذا مَشَى في أشَبِ (2) من فَسيل ، أو شَجر ، قَبضَ على رأس السَّعفة ، أو على رأس الغصن ، لينَحِّيها عن وجهه ، فاذا قضى وطرَه ،

---

(١) لعلها . والرجل .

(٢) الأشب : النخيل الملتفة .

أرسلها من يده . فهي لامحالة تصكّ وجهَ صاحبِه الذي يتلوه ، لايحفلُ بذلك ولا يعرف مافيه .

وأما « اللكّام » : فالذي في فيه اللّقمة ، ثم يلكمها بأخرى قبل إجادة مضغها أو ابتلاعها .

« والمصّاص » : الذي يمصّ جوفَ قَصَبة العَظم ، بعد أن استخرج مخّه ، واستأثر به دون أصحابه .

وأما « النّفاض » : فالذي إذا فَرغ من غسل يده في الطّست ، نفضَ يديه من الماء ، فنضح على أصحابه .

وأما « الدلاّك » فالذي لايجيدُ تنقية يدَيه بالأشنان ، ويجيدُ دَلكها بالمِنديل ، وله أيضاً تفسيرٌ آخر ، وليس هو الذي تظنه ، وهو مليح ، وسيقع في موضعه إن شاء الله .

« والمقور » : الذي يقوّر الجرادِق ويستأثر بالأوساط ويدعُ لأصحابه الحروف .

« والمغربل » : الذي يأخذُ وِعاء الملح ، فيديره إدارةَ الغربال ، ليجمعَ أبازيره ، يستأثرُ به دونَ أصحابه ، لايبالي أن يدعَ ملحهم بلا أبزار [1] .

---

(١) الأبزار والابازير : التوابل .

« والمحلقم » : الذي يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه نقول لهذا : قبيح ! دع الكلام إلى وقت مكانه !

« والمسوغ » : الذي يعظم اللقم فلا يزال في غصص ولا يزال يسيغه بالماء .

« والمبلعم »[1] الذي أخذ حروف الرغيف ، أو يغمز ظهر التمرة بإبهامه ليحملا له من الزبد والسمن ومن اللبّاء واللبن ومن البيض النيمبرشت أكثر .

« والمخضّر » : الذي يدلك يده بالأشنان من الغمر والودك ، حتى إذا اخضرّ واسودّ من الدرن ، دلك به شفته .

هذا تفسير ما ذكر الحارثيّ من كلام أبي فاتك .

فأما ما ذكره هو فان « اللطاع » معروف : وهو الذي يلطع إصبعه ! ثم يعيدها في مرق القوم أو لبنهم أو سويقهم وما أشبه ذلك .

« والقطاع » : الذي يعضّ على اللقمة ، فيقطع نصفها ، ثم يغمس النصف الآخر في الصباغ .

« والنهاش » : — وهو معروف — وهو الذي ينهش

---

(١) المبلغم ، الملغم : كذا في بعض النسخ .

اللحمَ كما ينهشُ السبعُ .

« والمدّاد » : الذي ربما عضَّ على العصَبة التي لم تنْضج وهو يمدُّها بفيه ، ويدُهُ توتِّرها له ، فربما قَطَعها بنَتْرة ، فيكون لها انتضاحٌ على ثوْبِ المؤاكل ، أو هو : الذي إذا أكل مع أصحابه الرُّطَب أو التّمر أو الهريسة أو الأرزَّة فأتى على مابينَ يديه ، مدَّ مابين أيديهم اليه .

« والدَّفّاع » : الذي إذا وقع في القصعة عظمٌ ، فصار مما يليه ، نحّاه بلقمة من الخبز ، حتى تصير مكانه قطعة من لحم وهو في ذلك كأنه يطلب بلُقمتة تشريبَ المرق ، دون إراغة [1] اللحم .

« والمحوِّل » : هو الذي إذا رأى كثرةَ النوى بين يَديه ، احتال له حتى يخالطه بنوى صاحبه .

وأما « ما »[2] ذكره « من »(الضيف) و (الضّيفن) ، فانَّ الضيفنَ ضيفُ الضيفِ ؛ وأنشدَ أبو زيد :

إذا جاءَ ضيفٌ جاءَ للضيف ضيفنَ
فأودَى بما يقري الضيوف الضيافِنُ

---

(١) الاراغة : الطلب .

(٢) ساقطة من الاصل .

يقول : الأكيل لا يكون إلاّ بالمعاينة ، وقد يكونُ الضيفُ . وإن كان (معه الضيفن [١]) لا يؤاكل من أضافه .

يقول : فأكل الكثير من حيث لا أراه ، أهونُ عليَّ .

وأما قوله : « الواغل أهونُ عليَّ من الراشن » ، فانه يزعم أن طفيليَّ الشراب ، أهونُ عليه من طفيليّ الطعام .

وقول الناس فلان طفيليّ ، ليس من أُصول كلام العرب ليس كالراشن واللعموظ [٢] . وأهلُ مكة يسمّونه البُرقيّ .

وكان بالكوفة رجلٌ من بني عبد الله بن غطفان ، يُسمى « طُفيل » ، كان أبعد الناس نجعةً في طلب الولائم والأعراس . فقيل له لذلك « طُفَيل العرائس » ، وصار ذلك نبزاً له ، ولقباً لا يُعرَف بغيره ، فصار كلُّ من كانت تلك طعمته يقال له طفيليّ . هذا من قول أبي اليقظان .

ثم قال الحارثي :

وأعجب من كل عجيب ، وأطرف من كل طريف ، أنكم تشيرون عليّ باطعام الأكلة ، ودفعي إلى الناس مالي ، وأنتم

---

(١) ساقطة من الاصل .

(٢) الطفيلي .

أتركُ لهـذا مني ، فان زعمتم أني أكثر مالاً ، وأعدُّ عدة ، فليس بين حالي وحالـكم في التفاوت ، أن أُطعِمَ أبداً ، وأنتم تأكلون أبداً ، فاذا أتيتم في أموالـكم من البذل والأطعام على قدر احتمالـكم ، عرفتُ بذلك أن الخيرَ أردتُم ، وإلى تربيتي ذهبتم ، وإلا فانـكم إنما تحلبون حلباً لـكم شطره ، بل أنتم كما قال الشاعر :

يُحبُّ الخمرَ من مالِ النَّدامى ويكرهُ أن يُفارقَهُ الفُلوسُ

ثم قال

والله إني لو لم أتركْ مُؤاكلة الناسِ وإطعامهم ، (إلاّ)[1] لسُوءِ رِعَةِ[2] عليّ الاسواريّ ، لتركتُه ، وما ظنكم برَجل نهش بَضعة لحمٍ تعرّقاً ، فبلع ضِرسَه وهو لا يعلم . فعَلَ ذلك عند إبراهيم بنِ الخطّاب ، مَوْلى سليمان . وكان إذا أكل ذهب عقله ، وجحَظَت عينُه ، وسكِر وسدِر[3] وانبهر ،

(١) مزيدة .

(٢) الرعة : الشأن والهيأة .

(٣) سدر بصرة : اذا تحير فلم يحسن الادراك وتكلم سادرا غير متثبت في كلامه .

وتربّد وجهه ، وغُصِب (١) ولم يسمع ، ولم يبصر . فلما رأيتُ مايعتريه ، وما يعتري الطعام منه ، صرتُ لا آذنُ له إلاّ ونحن نأكل التمرَ والجوْز والباقلى ، ولم يفجأني قط وأنا آكل تمراً إلا استفّهُ سَفّاً ، وحساه حسواً ، وذرا (٢) به ذرواً ، ولا وجده كثيراً (٣) ، إلا تناول القصعة (٤) كجُمْجمة الثّور ، ثم يأخذُ بحِضنيها (٥) ويُقلّها من الأرض . ثم لايزال ينهُشها طولاً وعرضاً ، ورفعاً وحفضاً ، حتى يأتيَ عليها جميعاً . ثم لا يقعُ غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث (٦) . ولم يفصل تمرةً قطْ من تمرة . وكان صاحبَ جُمَل . ولم يكن يرضى بالتفاريق . ولا رمى بنواةٍ قط ، ولا نزَع قمعاً ، ولا نفى عنه قشراً ، ولا فتّشه مخافة السوس والدود . ثم ما رأيتُه قط إلاَ وكأنه طالبُ ثأر وشَحْشَحان صاحبُ طائلة . وكأنه عاشِق مغتلِم ، أو جائع مقرور.

---

(١) غصب على عقله . واغتصبت فلانة نفسها : جومعت مقهورة .
(٢) وردت بالنسخ الخطية : زد زدوا ، ردابه ردوا .
(٣) كذا في عيون الاخبار والاصل كنيزاً .
(٤) في الاصل : القطعة . وما اثبتناه عن عيون الاخبار .
(٥) أي بجانبيها .
(٦) في عيون الاخبار وبعض الاصول : الاتلاف .

والله يا إخوتي لو رأيتُ رجُلاً يفسد طين الردغة [1] ويُضيع ماءَ البحر ، لصرفتُ عنه وجهي . فاذا كان أصحاب النظر ، وأهل الديانة والفلسفة ، هذه سيرتهم ، وهكذا أدبهم ، فما ظنكم بمن لا يعَد ما يعُدُّون ، ولا يبلغ من الأدب حيثُ يبلغون .

* * *

---

(١) الردغة : الوحل الشديد .

قصة الكندي

حدثني عمرو بن نَهيوى قال :

كان الكِنْديّ لايزال يقول للساكن ، وربما قال للجار : إنّ في الدار امرأةً بها حَمْلٌ ، والوَحْمى ربما أسقَطتْ من ريح القِدر الطيِّبة ، فاذا طبختم فردُّوا شَهْوتها ولو بغَرفة أو لعقةٍ ، فانّ النفس يردُّها اليسير ، فان لم تفعلْ ذلك بعدَ إعلامي إياك ، فكفّارتك – إن إسقطت – غُرّةٌ : عبدٌ أو أمة ألزَمْتَ ذلك نفسك أم أبيت . قال : فكان ربما يوافي إلى منزله من قصاع السكان والجيران ، ما يكفيه الأيام ، وكان أكثرُهم يفطَن ويتغافل .

وكان الكنديّ يقول لعياله : أنتم أحسنُ حالاً من أرباب هذه الضياع ، إنما لكل بيتٍ منهم لونٌ واحد ، وعندكم ألوان .

قال وكنتُ أتغدّى عنده يوماً ، إذ دخل عليه جارٌ له وكان الجارُ لي صديقاً ، فلم يعرض عليه الغداء ، فاستَحيْتُ أنا

منه فقلتُ : لو أصبتَ معنا مما نأكل ؟ قال قد – والله – فعلت ! قال الكنديّ ما بعدَ الله شيء ! قال : فكتفه والله – يا أبا عثمان – كتْفاً ، لا يستطيعُ معه قبضاً ولا بَسْطاً ، وتركه ولو أكل لشَهِد عليه بالكُفر ، ولكان عندَه قد جعل مع الله شيئاً .

قال عَمْرو : بينا أنا ذاتَ يوم عنده ، إذ سمِع صوتَ انقلاب جرَّة من الدار الأخرى . فصاح : أيْ قَصافِ ! فقالت ، مجيبةً له بئر وحياتك ! فكانت الجارِيةُ في الذكاء أكثر منه في الاستقصاء .

قال مَعبد نزلنا دار الكنديّ أكثر من سَنَة ، نروّج له الكراء [1] ، ونقضي له الحوائج ، ونفي له بالشرط . قلتُ : قد فهمتُ ترويجَ [2] الكراء ، وقضاءَ الحوائج ، فما مَعْنى الوفاء بالشرط ؟ قال في شرطه على السُّكان أن يكونَ له روْث الدابة ، وبعرُ الشاة ، ونَشْوار العلوفة ، وأن لا يخرجوا [3]

---

(١) يأخذ الكرى .

(٢) أخذ .

(٣) في نسخة : يلقوا .

عظماً ، ولا يخرجوا كُساحة [1] ، وأن يكون له نَوى التمر وقشور الرمان ، والغَرفة من كلِّ قدر تطبخ للحبلى في بيته ! وكان في ذلك يتنزّل [2] عليهم ، فكانوا لطيبه ، وإفراط بخله ، وحسن حديثه ، يحتملونَ ذلك .

قال معبد فبينا أنا كذلك ، إذ قدم ابن عمّ لي ، ومعه ابنٌ له ، وإذا رقعةٌ منه قد جاءتني « وفيها » [3] «إن كان مُقام هذين القادمين ليلةً أو ليلتين ، احتملنا ذلك ، وإن كان إطعامُ السكان في الليلة الواحدة ، يجرُّ علينا الطمعَ في الليالي الكثيرة » فكتبتُ اليه « ليس مُقامُهما عندنا إلا شهراً أو نحوه . » فكتب إليّ « إنَ دارك بثلاثين درهماً ، وانتم ستة ، لكل رأس خمسة ، فاذْ زدتَ رَجُلين ، فلا بدّ من زيادة خمستين ، فالدارُ عليكَ من يومك هذا بأربعين . » فكتبتُ إليه : « وما يضرك من مُقامهما ، وثقلُ أبدانهما على الأرض التي تحمِل الجبال ، وثقَلُ مؤنتهما عليّ دونك ؟ فاكتب إليّ بعُذرك لأعرفه . »

(١) الكساحة : القامة . وتقول فلان نقي الساحة قليل الكساحة .
(٢) أي ينزل في دورهم كأنه يزورهم .
(٣) زيادة يقتضيها السياق .

ولم أدر أني أهجمُ على ما هجمت ، وأني أقع منه فيما وقعت .

فكتب إلي :

« الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة ، وهي قائمة معروفة ، من ذلك سرعةُ امتلاء البالوعة ، وما في تَنْقِيَتِها من شدة المؤنة . ومن ذلك أنّ الأقدام إذا كثرت ، كَثُرَ المشيُ على ظُهور السُّطوح المطيَّنة ، وعلى أرض البيوت المجصَّصة ، والصعودُ على الدَّرَج الكثيرة ، فينقشر لذلك الطين ، وينقلع الجصّ ، وينكسر العَتَب ، مع انثناء الأجذاع لكثرة الوطء ، وتكسّرها لفرْط الثقل . وإذا كثُر الدخول والخروج ، والفتحُ والأغلاق والاقفالُ ، وجذبُ الأقفال ، تهشمت الأبواب ، وتقلّعت الرزّات ، وإذا كثُر الصبيان ، وتضاعف البوْش [1] نُزعت مسامير الأبواب ، وقُلِعت كل ضَبَّة ، ونزعت كل رزّة ، وكسرت كل حَوزة ، وحفر فيها آبار الددن [2] ، وهشَموا

(١) جاءوا في هوش وبوش ، وهو الجمع والكثرة ، وقد بوشوا .

(٢) حقق الاستاذ الحاجري هذه الكلمه بالزدو وقال :

المقصود بأبار الزدو الحفائر التي يحفرها الصبيان في لعبة « الزدو » وتسمى الحفيرة التي تحفر لذلك « المزداو » وهي التي يلقى فيها بالجوز الذي يلعب به ثم ان الاستاذ الحاجري جعلها نفس اللعبة التي تسمى بالفارسية « خازكا » —

بلاَطها بالمداحي . هذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد ، وخشب الرفوف ، وإذا كثُر العيال والزوار ، والضيفان والنُدماء احتِيج من صَبّ الماء ، واتخاذ الحِبَبَة [١] القاطِرة ، والجرار الراشِحة ، إلى أضعاف ما كانوا عليه . فكم من حائط قد تأكل أسفله ، وتناثر أعلاه ، واسترخى أساسه ، وتداعى بنيانهُ ، من قطْر حُبّ ، ورشح جرة ، ومن [٢] فَضل ماء البئر ، ومن سوء التدبير . وعلى قدر كثرتِهم يحتاجون من الخبز ، والطبيخ ، ومن الوقود ، والتسخين . والنارُ لا تُبقي ولا تذَر . وإنما الدورُ حَطَبٌ لها . وكل شيء فيها من متاع فهو أُكُل لها . فكم من حريقٍ قد أتى على أصل الغلّة فكلّفتم أهلها أغلظَ النفقة . وربما كان ذلك عند غاية العُسرة وشدّة الحال . وربما تعدّت تلك الجنايةُ إلى دُور الجيران ، وإلى مجاورة الأبدان والأموال . فلو ترَكَ الناسُ حينئذٍ ربّ

— وقد اعتمد في تحقيقه على مقال كتبه عن هذه اللعبه الدكتور داود الجلبي في مجلة المجمع العلمي العربي ٢٠ :٥ عدد ايار وحزيران عام ١٩٤٥ ص ٢٥٦

(١) جمع حب وهو الجرة ، فارسي معرب ، وراجع المعرب للجواليقي

(٢) ومن : الواو مزيدة .

الدار ، وقدرَ بليّته ، ومقدار مصيبته ، لكان [1] عسى ذلك أن يكونَ مُحتملاً ، ولكنهم يتشاءمون به ، ولا يزالون يستثقلون ذكره ، ويُكثرون من لائمته وتعنيفه . نعم ! ثمَّ يتّخذون المطابخ في العلاليّ على ظهور السّطوح ، وإن كان في أرض الدار فضل ، وفي صحنها متّسع ، مع مافي ذلك من الخطار بالأنفُس ، والتغرير بالأموال ، وتعرُّض الحُرَم ليلةَ الحريق لأهل الفساد ، وهجومهم مع ذلك على سرٍ مكتوم ، وخبيءٍ مستور . من ضيفٍ مُستخفٍ ، وربِّ دارٍ متوارٍ ، ومن شراب مكروه ، ومن كتاب مهم [2] ، ومن مال جم . أُريدَ دفنُه فأعجلَ الحريقُ أهلَه عن ذلك فيه ، ومن حالاتٍ كثيرة ، وأمور لايحبّ الناسُ أن يُعرَفوا بها . ثم لاينصبون التنانير ، ولا يمكِّنون للقُدور إلاّ على متْن السطح ، حيث ليسَ بينَها وبين القصَب والخشَب إلا الطينُ الرقيق ، والشيء لايقي . هذا مع خِفّة المؤنة في إحكامها ، وأمن القلوب من المتالف بسببها . فان كنتم تُقدِمون على ذلك منّا ومنكم ،

---

(١) في نسخة : لكان ذاك محتملاً باسقاط « عسى » و « أن يكون » .
(٢) كذا في الاصل . وفي نسخة متهم .

وأنتم ذاكرون . فهذا عَجَب ! (١) وإن كنتم لم تحفلوا بما عليكم في أموالنا ، ونسيتم (٢) ما عليكم في أموالكم ، فهذا أعجب .

ثم إن كثيراً منكم يُدافع بالكراء ، ويماطل بالأداء ، حتى إذا جُمِعَت (٣) أشهر عليه ، فرَّ وخلَّى أربابها جياعاً ، يتندَّمون على ما كان من حُسن تقاضيهم وإحسانهم . فكان جزاؤهم وشكرُهم اقتطاع حقوقهم ، والذَّهاب بأقواتهم .

ويسكنها الساكنُ حين يسكُنُها ، وقد كَسَحناها ونظَّفناها ، لتحسُن في عَيْن المستأجر ، ليرغبَ فيها الناظر ، فاذا خَرَج تَرَكَ فيها مزبلة وخراباً ، لا تصلحه إلا النفقةُ الموجعة! ثم لا يدع متَرساً إلا سرقه ، ولا سُلَّماً إلا حمله ، ولا نِقضاً إلا أخذه ، ولا برادة إلا مضى بها معه . ويدَعُ دقَّ الثوب ، والدقَّ في الهاون والمنجاز (٤) في أرض الدار ، ويدق على

---

(١) في نسخة : اعجب .

(٢) الواو مزيدة .

(٣) في الاصل اجتمعت وما اثبتناه عن فان فلوتن .

(٤) كذا بالاصل وصحتها : المنحاز وشرحها كما في الأمالي والسيوطي : المهراس والهاون والفعل نحز نحزا وهو دقك الشيء وبينه وبين الارض وقاية . راجع الامالي ج ٢ ص ٢٧٠ دار الكتب والمزهر ص ١٦٦ .

الأجذاع والحواضِن والرواشِن [١] ، وإن كانت الدارُ مُقرمَدة ، أو بالآجر مفروشة . وقد كان صاحبُها جَعَل في ناحية منها صَخْرة [٢] ، ليكونَ الدقُّ عليها ، ولتكون واقيةً دونها دعائم التهاونُ والقسوةُ والغشُّ والفُسولة [٣] إلى أنْ يدقُّوا حيث جلسوا ، وإلى ألاّ يحفلوا بما أفسدوا . ولم يُعْطِ قط لذلك أرْشاً [٤] ، ولا استحلَّ صاحبَ الدار ، ولا استغفرَ اللهَ منه في السر . ثم يستكثرُ من نفسه في السنة إخراج عشرةَ دراهم ولا يستكثرُ من ربِّ الدار ألفَ دينار في الشراء. [٥] أيذكرُ ما يصير إلينا مع قلته ، ولا يذكرُ مايصير اليه مع كثرته ؛ هذا والأيام التي تنقض المبرم ، وتُبلي الجِدَّة ، وتفرِّق الجمع [٦]

---

(١) جمع روشن : وهو الكوة أو النافذة . ولعل الحواض : مايحضن البناء من العمد والجذوع .

(٢) لعله يقصد بالصخر حجر الطاحون الصغيرة التي يطحن بها القمح أو الحجر المخصص لدق الكبة .

(٣) الفسولة : قلة المروءة .

(٤) أي عوضا عما افسد .

(٥) في الاصل الشر وصححناها عن فان فلوتن فيكون المعنى في شراء الدار .

(٦) في الاصل : الجميع . والتصحيح عن فان فلوتن .

المجتمع ، عاملةٌ في الدور ، كما تعمل في الصخور ، وتأخذ من المنازل ، كما تأخذ من كلِّ رطب ويابس ، وكما تجعلُ الرَّطب يابساً ، واليابس هشيماً ، والهشيم مضمحلاً .

ولانهدام المنازل غايةٌ قريبة ، ومدَّة قصيرة . والساكنُ فيها هو كان المتمتعَ بها ، والمنتفع بمرافقها ، وهو الذي ابلى جِدَّتها و«اذهب»[1] بحلاها ، وبه هَرِمت وذهب عمرها لسوء تدبيره . فاذا قسْمنا الغُرم عند انهدامها باعادتها بعد ابتلائها ، وغُرم ما بينَ ذلك من مرمّتها وإصلاحها ، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاَّتها ، وارتَفَقْنا به من إكرائها ، خرج على المُسكِنِ من الخُسران ، بقدر ما حصل للساكن من الربح . إلاّ أن الدراهم التي أخرجناها من النفقة كانت جملة ، والتي أخذناها على جهة الغلَّة جاءت مقطّعة . وهذا مع سُوء القضاء ، والاحواج إلى طُولِ الاقتضاء ، ومع بغض الساكن للمُسكِنِ ، وحب المُسْكِنِ للساكن . لأن المُسْكِن يحب صحَّة بدن الساكن ، ونفاقُ سوقه إن كان تاجراً ، وتحرُّك صناعته إن كان صانعاً ، ومحبةُ الساكن أن يشغلَ الله عنه المسكِن كيفَ شاء : إن

(١) بالاصل وبحلاها . وصححناها عن طبعة الحاجري .

شاء شغله بعينه [١] ، وإن شاء بزمانه ، وإن شاء بجنس ، وإن شاء بموْت . ومدارُ مناه أن يُشغَل عنه، ثمَّ لا يُبالي كيفَ كان ذلك الشغل . إلاّ أنه كلما كان أشدّ ، كان أحبّ اليه، وكان أجدر أن يأمن ، وأخلق لأن لا يسكُن . وعلى أنه إن فترتْ سوقُه ، أو كسدَت صناعته ، ألحّ في طلب التخفيف من أصل الغلّة ، والحطيطه مما حصل عليه من الأجرة . وعلى أنه إن آتاه اللهُ بالأرباح في تِجارته والنّفاق في صناعته ، لم يرَ أن يزيد قيراطاً في ضريبته ، ولا أن يُعجّل فلساً قبل وقته. ثم إن كانت الغلّة صحاحاً ، دفع أكثرها مقطّعة ، وإن كانت أنصافاً وأرباعاً ، دفعها قُراضة مفتّتة . ثم لا يدعُ مزبقاً ، ولا مكحلاً ، ولا زائفاً ، ولا ديناراً بهرَجاً [٢] ، إلا دسّه فيه ، ودلّسه عليه ، واحتال بكلِّ حيلة ، وتأتي له بكل سبب . فان ردّوا عليه بعد ذلك شيئاً ، حلف بالغمُوس [٣] أنه ليس

---

(١) مرسيه : بعينه .

(٢) المزبق والمكحل والزائف والبهرج : أنواع من الدنانير زائفة لاتصلح للتعامل .

(٣) اليمين الغموس : الكاذبة التي يتعمدها صاحبها . جمع غمس.

من دراهمه ولا من ماله ، ولا رآه قَطّ ، ولا كان في ملكه
فان كان الرسولُ جاريةً ربّ الدار أفسدها ، وربما أحبلها ، وإن
كان غلاماً خدَعه ، وربما شطر [1] به . هذا مع الأشراف [2] على
الجيران والتعرُّض للجارات ، ومع اصطِياد طُيورهم ، وتعريضِنا
لِشكاياتهم . وربما استضْعف عقولهم ، وطمع في فسادهم وعيبهم
فلا يزال يضربُ لهم بالأسلاف ويُغريهم بالشهَوات ، ويفتحُ
لهم أبواباً من النفقات ، ليغنيهم [3] ، ويربح عليهم ، حتى إذا
استَوْثق منهم أعجلهم ، وحزَق [4] بهم ، حتى يشقوه ببَيْع بعض
الدار ، أو باسْتِرهان الجميع ، ليربح — مع الذهاب بالاصل —
السلامة ، مع طول مقامه من الكراء . وربما جعله بيعاً في الظاهر
ورهناً في الباطن ، فحينئذ يقتضيهم دون المهلة [5] ، ويدَّعيها قبل
الوقت . وربما بلغ من استِضْعافه واستِثْقاله لأداء الكراء ،

---

(١) صححنا الشرف .
(٢) ربما معناه قصده نحوه فجعله غلاماً له وافسده على صاحبه .
(٣) في الاصول : ليعيبهم ، ليعبهم .
(٤) حزق بهم : أي شدهم اليه .
(٥) في الاصل : لقطنهم ، وفي فان فلوتن : يغظ بهم .

أن يدّعي أن له شقيصاً [1] وأن له يداً ، ليصيرَ خَصْماً من الخصوم ، ومنازعاً غير غاصب . وربما أخذهم ومعه امرأةٌ يفجرُ بها ، فيجعلُ استيجارَ البيوت وتصفُّح المنازل ، علّة لدخولها ، والمقام ساعة فيها . فاذا استقرَّ في المنزل قضى حاجته منها ، ورد المفتاح . وربما اكترى المنزل وفيه مرَمّةٌ ، فاشترى بعض ما يُصلِحُها ، ثمَّ يتوخّى عاملاً جيِّد الكُسوة ، وجيراناً أصحاب آنية وآلة ، فاذا شُغِل العاملُ وغفلَ ، اشتَملَ على كلِّ ما قدر عليه ، وتركهم يتسكّعون . وربما استأجر إلى جَنْب سجن لينقُب أهله اليه ، وإلى جَنب صرّاف لينقبَ عليه طلباً لطول المُهله والستر ، ولطولِ المدّة والأمن . وربما جنى الساكنُ مايَدْعو إلى هَدْم دار المسكن ، بأن يقتل قتيلاً ، أو يجرح شريفاً ، فيأبى السلطانُ الدار ـ وأربابُها إما غُيَّبٌ ، وإما أيتام وإما ضعفاء ـ فلا يصنع شيئاً دون أن يسوّيها بالأرض .

وبعدُ فالدُّور ملقّاة ، وأربابُها منكوبون ومُلَقّون ، وهم

(١) الشقيص : الشريك . ويقال أخذ شقصه ، وهو شقيصي : شريكي وشقص الشاة تشقيصا : عضاها ، ويقال للقصاب : المشقص . وفي الحديث « من باع الخمر فليشقص الخنازير » .

أشدُّ الناس اغتراراً بالناس، وأبعدُهم غايةً في [1] سلامة الصدور وذلك أنّ من دفع داره ونقضها، وساجها [2]، وأبوابها [3] مع حديدها وذهبِ سقوفها، إلى مجهولٍ لا يُعرف، فقد وضعها في مواضع الغَرر، وعلى أعظم [4] الخطر. وقد صار في معنى المُودِع، وصار المُكتَري في موضع المودَع. ثم ليستْ الخيانة، وسوء الوَلاية، إلى شيءٍ من الودائع، أسرعَ منها إلى الدور. وأيضاً إن أصلح السكان حالاً من إذا وجَدَ في الدار مَرمّة فوضوا اليه النفقة، وأن يكون ذلك محسوباً له عند الأهِلّة [5] الذي يشفف [6] في البناء، ويزيد في الحساب، فما ظنك بقوم هؤلاء أصلحهم، وهم خيارهم؛ وأنتم أيضاً، إنما [7]

---

(١) كذا في فان فلوتن، وفي الاصل «من».

(٢) الساج: خشب سود رزان لاتكاد الارض تبليها، وقيل ان سفينة نوح عملت من ساج. وتجلب من الهند مشرجعة مربعة.

(٣) ورد الضمير في نقضها وساجها وابوابها بالتذكير.

(٤) كذا بالاصل. وفي فان فلوتن «عظم».

(٥) يقال: جئته عند مهل الشهر ومستهله، وكاريته مهالة كما تقول مشاهرة. وهنا بمعنى عند حلول الاجرة لغرة الشهر، وأهل الهلال، واستهل: اذا ابصر.

(٦) شف الثوب: رق وهنا بمعنى ينقص

(٧) ربما «مرسيه».

اكتريتم [1] مستغلات غيركم، بأكثرَ مما اكتريتموها منه، فسيروا فينا كسيرتكم فيهم، وأعطونا من أنفسكم مثلَ ما تريدونه منهم. وربما بنيتم في الأرض، فاذا صار البناء بنياً نكم -وإن كانت الارض لغيركم- ادّعيتم الشركة، وجعلتموه كالأجارة، وحتى تُصيّروه كتلاد مال، أو موروث سلف.

وجرمٌ آخر: وهو أنكم أهلكتم أصول أموالنا، وأخربتم غِلاَّتنا، وحطَطتم بسوء معاملتكم أثمان دورنا ومُستغلاتنا، حتى سقطتْ غلاتُ الدور من أعين المياسير وأهل الثروة، ومن أعين العوام والحُشوة، وحتى يدافعوكم بكل حيلة، وصرّفوا أموالهم في كل وجه، وحتى قال عُبَيد الله بن الحسن [2] قولا أرسله مثلاً، وعاد علينا حجّة وضرراً. وذلك أنه قال:

« غلّة الدار مسكة [3]، وغلّة النخل كفاف، وإنما الغلّة غلّة الزرع والنّسولتين [4] ». وإنما جرّ ذلك علينا حسنُ

---

(١) في نسخه: اكريتم.

(٢) في العقد ج ٣ ص ٣٢: عبد الله بن الحسن.

(٣) في العقد مسألة بدلاً عن مسكة وفي عيون الاخبار: مسكة.

(٤) لعلها من النسولة: وهي مايتخذ للنسل من الابل والغنم. وفي العقد الفريد ج ٣ ص ٣٢ ط لجنة التأليف: غلة الدور مسألة، وغلة النخل كفاف، وغلة الحب ملك.

اقتضائنا ، وصبرنا على سوء قضائكم ، وانتم تُقَطِّعونها علينا ، وهي عليكم مجملة وتُدْوونا بها وهي عليكم حالّة . فصارت لذلك غلاّتُ الدور - وإن كانت أكثر ثمناً ودخلاً - أقلّ ثمناً ، وأخبثَ أصلاً من سائر الغلات

وأنتم شر علينا من الهند والروم ، ومن الترك والديلم ، إذ كنتم أحضرَ أذىً ، وأدومَ شراً . ثم كانت هذه صفتكم وحليتُكم ومعاملتُكم ، في شيء لابدّ لكم منه ، فكيف كنتم لو امتُحِنْتُم بما لكم عنه مندوحة ، والوجوه لكم فيه مُعرِضة وأنتم فيها بالخيار ، وليس عليكم طريق الاضطرار ؛ وهذا مع قولكم : إن نزولَ دورِ الكِراء أصوبُ من نزول دور الشراء وقلتم : لأن صاحب الشراء قد أغلق رهنه ، وأشرط نفسَه ، وصار بها ممتحناً ، وبثمنها مرتهناً . ومن اتخذ داراً فقد أقام كفيلاً لايخفر ، وزعيماً لايغرم . وإن غاب عنها ، حنّ اليها ؛ وإن أقام فيها ألزمته المؤن ، وعرّضته للفتن : إن أساؤوا جوارَه ، وأنكر مكانَه ، وبَعُدَ مُصلاَّه ، ونأت عنه سوقه ، وتفاوتت حوائجه ورأى أنه قد أخطأ في اختيارها على سواها ، وأنه لم يُوفَّق لرشده حين آثرها على غيرها . وأن من كان كذلك ، فهو عبد

داره ، وخَوَلُ جاره . وأنّ صاحب الكِراء الخيار في يدَه ، والأمر إليه ، فكل دار هي له متنزه إن شاء ، ومتجر إن شاء ، ومسكن إن شاء . لم يحتمل فيها اليسيرَ من الذل ، ولا القليل من الضَيْم ، ولا يعرف الهوان ، ولا يسام الخسفَ ، ولا يحترِسُ من الحسّاد ، ولا يداري المتعللين . وصاحبُ الشراء يجرّع المرار ويُسْق بكأس الغيظ ، ويُكدّ بطلب الحوائج . ويحتمل الذلّة وإن كان ذا أنفة ، إن عفا ، عفا على كَظَم ، ولا يُوَجّه ذلك منه إلاّ إلى العَجْز ، وإن رام المكافأة ، تعرض لأكثر مما أنكره . قال رسول الله ﷺ : « الجارُ قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق » .

وزعمتم أن تسقّط الكِراء أهون إذا كان شيئاً بعدَ شيْء وأن الشدائد إذا وقعت جُملة ، جاءت غامرة للقوّة ، فأما إذا تُقَطّعُ وتُفرّق ، فليس يكترث لها إلا من يفقدها ، ويذكرها ومالُ الشراء يخرج جُملة ، وثلمته في المال واسعة ، وطعنته نافذة . وليس كلّ خرق يُرقع ولا كلّ خارج يرجع ، وأنه قد أمن من الحَرَق والغَرَق ، وميل أسطُوان ، وانقصاف سهم واسترخاء أساس ، وسُقوط سِترة ، وسوء جوار ، وحسد مُشاكل

وأنه إما لايزال في بلاء . وإما أن يكونَ متوقعاً لبلاء .

وقلتم : إن كان تاجراً ، فتصريف ثمن الدار في وجوه التِجارات أربح ، وتحويله في أصناف البياعات أكيسَ ، وإن لم يكن تاجراً ، ففي ما وصفناه له ناهٍ ، وفيما عددنا له زاجر . فلم تمنعكم حُرمة المساكنة ، وحقُّ المجاورة ، والحاجة إلى السُكنى وموافقة المنزل ، أن أشرتمُ على الناس بترْك الشراء . وفي كَساد الدور فساد لأثمان الدور ، وجرأة للمستأجر ، واستِحْطاط من الغلّة ، وخسران في أصل المال . وزعمتم أنكم قد أحسنتم إلينا حين حثثم الناس على الكِراء ، لما في ذلك من الرَّخاء والنماء . فأنتم لم تَريدوا نفعنا بترغيبهم في الكِراء ، بل إنما أردتم أن تضُروا بتزهيدكم في الشِراء . وليس ينبغي أن يُحكَم على كل قوم إلا بسبيلهم ، وبالذي يغلِبُ عليهم من أعمالهم .

فهذه الخِصال المذمومة كلّها فيكم ، وكلها حُجّة عليكم وكلّها داعيةٌ إلى تُهمَتكم ، وأخذ الحِذْر منكم . وليست لكم خصلة محمودة ، ولا خَلّة فيما بيننا وبينكم مرضية .

وقد أريناكم أنَّ حكم النازلين ، كحُكم المقيمين ، وأنَّ كلَّ زيادة فلها نصيبٌ من الغلّة .

ولو تغافلتُ لك ـ يا أخا أهل البَصرة ـ عن زيادة رَجُلين لم أبعِدْكَ على قَدْر ما رأيتُ منك أن تلزَمني ذلك ، فيما يتبيَّن حتى يصيرَ كِراء الواحد ككِراء الألف ، وتصير الاقامة كالظَّعن ، والتفريغ كالشغل . وعلى أني لو كنت أمسكت عن تقاضيك ، وتغافلتُ عن تعريفك ما عليك ، لذهب الأحسان إليك باطلاً . إذ كنتَ لاترى للزيادة قدراً . وقد قال الأوَّل .

والكُفرُ مَخبَثةٌ لِنفسِ المُنْعِمِ (١)

وقال الآخر :

تَبدَّلْتُ بالمعْرُوف نُكْراً ورُبَّما

تَنَكَّرَ للمعْروف مَنْ كان يَكْفُرُ

أنت تطالبني ببغض المعتزلة للشيعة ، وبما بين أهل الكوفة والبَصرة ، وبالعداوة التي بين أسد وكِندة (٢) ، وبما في قلب

---

(١) عجز بيت لعنترة من معلقته وأوله : « نبئت عمراً غير شاكر نعمتي »

(٢) العداوة بين أسد وكندة مشهورة . والمعروف أن بني أسد قتلت حجر ابي امرىء القيس الشاعر ملك كندة . واستعان امرؤ القيس ببكر وتغلب على بني اسد قتلة ابيه . والقصة تراجع في الشعر والشعراء وطبقات فحول الشعراء ، وغيرهما من كتب ادب .

الساكن من استثقال المُسْكِن وسيعين الله عليك والسلام » . [1]

قال إسماعيل بنُ غزوان لله درّ الكنديّ ! ما كان أحكمه ، وأحضرَ حجته ، وأنصحَ جيبه ، [2] وأدوم طريقته ! رأيته وقد أقبلَ على جماعة ما فيها إلا مفسد ، أو من يزيّن الفسادَ لأهله : من شاعرٍ يودّه أن الناس كلهم قد حازوا حدّ المسرفين ، إلى حدود المجانين . ومن صاحب تنقيع واستئكال ومن ملاّق متقرّب ، فقال :

تسمّون من منَعَ المال من وجوه الخطأ ، وحصّنه خوفاً من الغيلة ، وحَفِظه إشفاقاً من الذلة ، بخيلاً . تريدون بذلك ذمه وشينه ؛ وتسمّون من جهِل فضلَ الغنى ، ولم يعرف ذلة الفقر ، وأعطى في السرف ، وتهاون بالخطأ ، وابتذل النعمة ، وأهان نفسَه باكرام غيره : جواداً . تريدون بذلك حمدَه ومدحه ؛ فاتّهموا على أنفُسِكم من قدّمكم على نفسه . فان من أخطأ على نفسه ، فهو أجدر أن يُخطئ على غيره ، ومنْ أخطأ في ظاهر

---

(١) انتهت هنا رسالة الكندي إلى مسكن داره معبد والذي قدم ابن عم له ومعه ابنه زائران له .

(٢) الجيب : الصدر والمعنى : ما أبعده عن الغش .

دُنياه . وفيما يوجدُ في العَين ، كان أجدر أن يخطِئ في باطن دينه ، وفيما يوجد بالعقل . فمدحتم من جمع [1] صنوف الخطأ ، وذممتم من جمع صُنوف الصَّواب . فاحذروهم كل الحذر ، ولا تأمنوهم على حال .

قال إسماعيل : وسمعت الكنديَّ يقول :

إنما المال لِمن حَفِظه ، وإنما الغنى لمن تمسّك به . ولحفظ المال بنيت الحيطان ، وغُلقت الأبواب ، واتُّخذت الصناديق ، وعُملت الأقفال ، ونُقشت الرسوم والخَواتيم ، وتُعلِّم الحساب والكِتاب . فلِم تتّخذون هذه الوقايات دون المال ، وانتم آفته، وأنتم سوسه وقادحه ؟ وقد قال الأول : أحرُس أخاك إلا من نفسه . ولكن أحسب أنك قد أخذته في الجَواسق ، وأودعته الصخور ، ولم يشعُرْ به صَديق ولا رسول ولا مُعين .

مَنْ لك بأن لاتكون أشدَّ عليه من السارق ، وأعدى عليه من الغاصب ؟ واجعلْك قد حصَّنته من كلّ يد لا تملكه كيف لك من أن تحصّنه من اليد التي تملكه ، وهي عليه أقدر ودواعيها أكثر ، وقد علمنا أن حِفظ المال أشدّ من جمعه ؟

(١) في الاصل : مدح وما اثبتناه عن فان فلوتن .

وهل أُتِيَ الناس إلاّ من أنفسهم ، ثم ثقاتهم ؛ والمال لمن حفظه والحسرةُ لمن أتلفه . وإنفاقُه هو إتلافه ! وإن حسّنتموه بهذا الاسم ، وزينتموه بهذا اللقب .

وزعمتم إنما سمينا البخل صلاحاً ، والشح اقتصاداً ، كما سمّى قومٌ (١) الهزيمة انحيازاً ، والبذاء عارضة ، والعزل عن الولاية صَرْفاً ، والجائرَ على أهل الخراج مُستقصياً . بل أنتم الذين سمَّيتم السَّرف جوداً ، والنفح (٢) أريحيَّة ، وسوءَ نظر المرء لنفسه ولعقبه كرماً . قال رسول الله ﷺ : « إبدأ بِمَنْ تعُولُ » (٣) وأنت تُريد أن تغني عِيال غيرِك بافقار عيالك ، وتُسعِد الغريب بشقوة القَريب ، وتتفضّل على من لا يعدِل عنك ، ومن لو أعطيتَه أبداً ، لأخذ أبداً .

قد علِمتم ماقال صاحبُنا لأخي تغْلِب ، فانه قال : يا أخا تغلب ! إني والله كنتُ أجري ما جرى هذا الغيل ، وأجرى وقد انقطع النيل . إني والله لو أعطيتُك ، لما وصلت اليك حتى

---

(١) في الاصل : يوم . وقد اصلحناها : قوم .

(٢) في الاصل . النفخ واصلحناها : النفح أي العطاء . ويجوز أن تكون النفج بالجيم المعجمة بمعنى جمع المال وتوسيعه وتعظيمه .

(٣) رواه الطبراني .

أتجاوز من هو أحقُّ بذلك منك . إني لو أمكنتُ الناسَ من مالي ، لنزعوا داري طُوبة طُوبة . إنه والله ما بقي معي منه إلا ما منعتُه الناس ، ولكني أقول : والله إني لو أمكنتُ الناسَ من نفسي ، لادَّعوا رقي ، بعد سلب نعمتي[1] .

قال إسماعيل وسمعته يقول :

عجبت لمن قلَّت دراهمه ، كيف ينام ! ولكن لايستوي من لم يَنم سروراً ومن لم ينم غماً .

ثم قال :

قال رسول الله ﷺ ، في وصية المرء يومَ فقره وحاجته ، وقبل أن يُغَرْغر : « الثُلثُ ، والثُلثُ كثيرُ[2] » فاستحسَنت الفُقهاء ، وتمنّى الصالحون أن تنقص من الثُلث شيئاً ، لاستكثار رسول الله ﷺ الثلث ، ولقوله : « إنَّكَ إنْ تدَعْ عِيالك

---

(٤) في العقد الفريد ج ٦ ص ١٩٦ : وقال رجل من تغلب : أتيت رجلا من كندة أسأله ، فقال : يا أخا بني تغلب إني لن أصلك حتى أحرم من هو أقرب إلي منك ، وإني وان لو مكنت من داري لنقضوها طوبة طوبة . والله يا أخا بني تغلب ، ماتي بيدي من مالي وأهلي وعرضي إلا ما منعته من الناس .

(٢) البخاري ج ٢ ص ١٨٥ ورواه أيضاً أحمد والنسائي .

أغنياء ، خَيْرٌ مِنْ أن تَدَعهُمْ عَالةً يتكفّفُون النّاس »[1] .

ورسولُ الله ﷺ لم يرحم عِيالنا إلا بفضل رحمَتِه لنا . فكيف تأمروني أن أوثرَ أنفسكم على نفسي ، وأُقدِّم عيالكم على عيالي وأن أعتقدَ الثناء بَدَلاً من الغنى ، وأن أكنز الريح ، واصطنع السراب ، بدلا من الذهب والفضة .

قال إسماعيل : وسمعته يقول لعياله وأصحابه :

إصبروا عن الرُّطب عند ابتدائه وأوائله ، وعن باكورات الفاكهة ، فان للنفس عند كل طارف نزوة ، وعند كلّ هاجم نزوة[2] ، وللقادم حلاوةٌ وفرحة ، وللجديد بشاشة وغِرّة ! فانك متى رَدَدْتها ارتدّت ، ومتى ردعتها ارتدعت . والنفسُ عزوف ، ونفور ألوف ! وما حمّلتها احتملتْ . وإن أهملتها فسدت ، فان لم تكفّ جميع دواعيها ، وتحسِمْ جميعَ خواطرها في أول ردّة ، صارت أقلّ عدداً ، وأضعف قوة ، فاذا أثرّ ذلك فيها ، فعظّمْها في تلك الباكورة بالغلاء والقلة . فان ذكْرَ الغلاء والقلّة حجة صحيحة ، وعلّة عاملة في الطبيعة . فاذا أجابتك

---

(١) رواه البخارى واحمد والنسائي .

(٢) كذا بالاصل ولعلها : بدوة .

في الباكورة ، قسمنها مثل ذلك في أوائل كثرتها ، واضرب نقصان الشهوة ، ونُقصان قوّة الغلبة ، بمقدار ما حدث لها من الرُّخْص والكثرة ، فلستَ تلق على هذا الحساب من معالجة الشهوة غدك . إلاّ مثل ما لقيتَ منها في يومك ، حتى تنقضيَ أيام الفاكهة ، وأنت على مثل ابتداء حالك ، وعلى أول مجاهدتك لشهوتك . ومتى لم تعُدّ أيضاً الشهوة فتنةً ، والهوى عدواً ، اغتررتَ بها ، وضعُفتَ عنها ، وأئتمنتها على نفسك ، وهما أحضَرُ عدوّ ، وشرّ دخيل .

فاضمَنوا ليَ النّزوة الأولى ، أضمنْ لكم تمام الصبر ، وعاقبة اليُسر ، وثباتَ العزّ في قلوبكم ، والغنى في أعقابكم ودوام تعظيم الناس لكم . فانه لو لم يكن من منفعة الغنى إلاّ أنك لاتزالُ معظَّماً عند من لم ينلْ منك قطّ درهماً ، لكان الفضلُ في ذلك بيّناً ، والربح ظاهراً . ولو لم يكن من بركة الثروة ، ومن منفعة اليُسر ، إلا أن ربّ المال الكثير ، لو اتصل بملك كبير ، وفي جلسائه من هو أوجبُ حُرمةً ، وأقدمُ صُحبةً ، وأصدقُ محبةً ، وأمتع إمتاعاً ، وأكثر فائدة وصواباً إلاّ أنه خفيفُ الحال ، قليلُ ذاتِ اليد ، ثم أراد ذلك الملك

أن يقسم مالاً ، أو يوزّع بينهم طرَفاً ، لجعل حظ الموسر أكثر ، وإن كان في كلّ شيء دون أصحابه ، وحظّ المخف أقلّ ، وإن كان في كلّ شيء فوق أصحابه .

* * *

قد ذكرنا رسالة سهل بن هارون ، ومذهب الحزامي ، وقصص الكنديّ ، وأحاديث الحارثي ، واحتجاجاتهم ، وطرائف بخلهم ، وبدائع حيلهم .

* * *

قصة محمد بن أبي المؤمل

قلت لمحمد بن أبي المؤمّل :

أراك تُطعم الطعام ، وتتخذه ، وتنفق المال وتجود به . وليس بين قلّة الخبز وكثرته كثيرُ ربح . والناس يبخّلون من قلَّ عدَدُ خبزه ، ورأوا أرضَ خِوانه . على أني أرى جماجم من يأكل معك أكثر من عدد خبزك . وأنت لو لم تتكلف ولم تحمِلْ على مالك باجادته ، والتكثير منه ، ثم أكلتَ وحدك لم يلُمْكَ الناس ، ولم يكترثوا لذلك منك ، ولم يقضُوا عليك بالبخل ولا بالسخاء ، وعشت سليماً موْفوراً ، وكنتَ كواحدٍ من عُرْض الناس . وأنت لو [1] لم تنفق الحرائب [2] وتبذُل المصون ، إلا وأنت راغبٌ في الذِّكر والشكر ، وإلا لتُحرز الأجر ! فقد صِرنا لقلة عدد خبزك من بين الأشياء ، نرضى

---

(١) لو : هنا زائدة ولعلها مقحمة .

(٢) الحرائب : جمع حريبة وهو المال الذي يدخر للانفاق .

لك من الغنيمة بالاياب ، ومن غُنم الحمد والشكر بالسلامة من الذم واللوم ؟ فزد في عدد خُبزك شيئاً ، فانَّ بتلك الزيادة القليلة ينقلب ذلك اللومُ شكراً ، وذلك الذمُّ حمداً . أعلمت أنك لستَ تخرُج من هذا الأمر بعد الكلفة العظيمة سالماً ، لالك ولا عليك ؟ فانظرْ في هذا الأمر رَحِمَك الله !

قال يا أبا عثمان ! أنت تخطئ ، وخطأ العاقل أبداً يكون عظيماً ، وإن كان في العُذر قليلاً ، لأنه إذا أخطأ أخطأ بنيقة[1] وإحكام . فعلى قَدْر التفكير والتكلّف ، يبعد من الرّشاد ، ويذهبُ عن سبيل الصّواب . وما أشكَ أنك قد نَصَحتَ بمبلغ الرأي منك ، ولكن خَفْ ماخوفتك ، فانه مخوف . بل الذي أصنعُ أدلَ على سخاء النفس بالمأكول ، وأدلّ على الاحتيال ، ليبالغوا ، لأن الخبزَ إذا كثر على الموائد ، ورّث ذلك النفسَ صُدوداً ، ولأن كل شيء من المأكول وغيرِ المأكول إذا ملأ العينَ ملأ الصدر . وفي ذلك موتُ الشهوة ، وتسكين الحركة . ولو أن رجلاً جلس على بيدر تمر فائق ، وعلى كدُس

(١) النيقة : التأنق : ويقال : تنوق في الامر : أي تأنق وفي المثل خرقاء ذات نيقة . لجاهل يدعى المعرفة .

كُمثري منعوت ، وعلى مائة قنو موز موصوف ، لم يكن أكلُه إلاّ على قدر استطرافه ولم يكن أكله إلا على قدر أكله إذا أُتيَ بذلك في طبق نظيف ، مع خادم نظيف ، عليه منديل نظيف .

وبعدُ ، فأصحابنا آنسون ، واثقون ، مُسترسلون ، يعلمون أنّ الطعام لهم أُتخِذ ، وأن أكلهم له أوفقُ من تمزيق الخدم والاتباع له . ولو احتاجوا لدعوا به ، ولم يحتشموا منه ولكان لا الأقلّ من أن يجربوا ذلك المرة والمرتين ، وأن لايقضوا علينا بالبخل ، دون أن يروه ! فان كانوا محتشمين ، وقد بسطناهم ، وساء ظنهم بنا ، مع ما يَرَون من الكُلفة لهم ، فهؤلاء أصحابُ تجنٍ وتسرع ، وليس في طاقتي إعتاب المتجني ولا رد المتسرع !

قلت له : إني قد رأيتُ أكلهم في منازلهم ، وعند إخوانهم ، وفي حالاتٍ كثيرة ، ومواضعَ مُختلفة ، ورأيتُ أكلهم عندكَ ، فرأيتُ شيئاً متفاوتاً ، وأمراً مُتفاقماً ، فاحسُب أن التجني عليهم غالِب ، وأنّ الضعفَ لهم شامِل ، وأنّ سوء الظن يُسرِع اليهم خاصة . كم لاتداوي هذا الأمر بما لامؤنة فيه

وبالشيء الذي لا قَدْر له ، أو تدعَ دُعاءهم ، والأرسال اليهم ، والحرصَ على إجابتهم ؛ والقومُ ليسَ يُلقونَ أنفسهم عليك ، وإنما يجيئونك بالاستِحباب منك . فان أحْبَبْتَ أن تمتحن ما أقول ، فدَعْ مُواترة الرسل والكتب ، والتغضب عليهم اذا أبطؤوا ، ثم انظر !

قال : فان الخبز إذا كثُر على الخوان ، فالفاضِل مما يأكلون ، لايسلم من التلطيخ ، والتَّغمير ، والجرذقةُ الغَمِرة ، والرقاقة المتلطِّخة ، لاأقدرُ أن أنظُرَ اليها ، واستحيي أيضاً من إعادتها ، فيذهب ذلك الفضلُ باطلاً ، والله لايحبُّ الباطل

قلت فان ناساً يأمرون بمَسْحه ، ويجعلون الثريدة منه ، فلو أخذتَ بزيهم ، وسلكتَ سبيلهم ، أتى ذلك لك على ما تريد ونريد .

قال : أفلستُ أعلم كيف الثريدة ، ومن أي شيء هي ؟ وكيف أمنع نفسي التوهم ، وأحول بينها وبين التذكير ؟ ولعل القومَ أن يعرِفوا ذلك على طول الأيام ، فيكونَ هذا قبيحاً !

قلت : فتأمر به للعِيال ، فيقوم الحُوّاري المتلطخ ، مَقام

الخُشكار [1] النظيف . وعلى أن المسحَ والدَّلك يأْتي على ماتعلق به (من) [2] الدسم !

قال : عيالي — يرحمُك الله — عيالان : واحدٌ أُعظِّمُه عن هذا ، وأرفعه عنه ، وآخرُ لم يبلغ عندي أن يُترف بالحُوَّارى .

قلت : فاجعلْ إذن جميع خُبزك الخُشكار ؛ فانَّ فضلَ مابينه وبين الحوارى في الحُسن والطيب ، لايقوم بفضل ما بين الحمد والذم .

قال : فها هنا رأيٌ هو أعدلُ الأمور وأقصدُها : وهو أنّا نُحضِر هـذه الزيادة من الخبز على طبق ، ويكونُ قريباً حيث تناله اليد ، فلا يحتاج أحدٌ مع قربه منه إلى أن يدعوَ به ويكونُ قربهُ من يده كثرةً على مائدته .

قلتُ : فالمانع من طلبه ، هو المانع من تحويله . فأطِعْني وأخرجْ هذه الزيادةَ من مالكَ كيف شئت . واعلم أنَّ هذه

---

(١) الخشكار : كلة فارسية يعنى بها النخالة . وفسرهـا استينجاس في معجمه ٤٦٢ بأنها الدقيق الخشن الذي لم ينخل . وعدها صاحب العقد من الأغذية التي غذاؤها قليل ص ٣٢١ ج ٦ ط اللجنة .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

المقايسة ، وطول هذه المذاكرة ، أضرَّ علينا مما نهيتك عنه ، وأردتك على خلافه .

فلما حضر وقت الغداء صوّت بغلامه — وكان ضَخْماً جهير الصوت ، صاحب تقعير ، وتفخيم ، وتشديق ، وهمْز ، وجزم — يامبشِّر ! هاتِ من الخبز تمام عدد الرؤوس !

قلت : ومن فرض لهم هذه الفريضة ؟ ومن جزم عليهم هذا الجزْم ؟ أرأيتَ إن لم يُشْبِع أحدَهم رغيفُه أليس لا بدّ له من أن يُعَوِّل على رغيف صاحبه . أو يتنحّى وعليه بقيّة ، ويعلّق يده منتظراً للعادة ؟ فقد عاد الأمرُ . وبَطلُ ماتناظرنا فيه .

قال لا أعلمُ إلا ترك الطعام ألبتة ، أهونُ علينا من هذه الخصومة .

قلت : هذا مالا شكّ فيه ، وقد علمت عندي بالصواب وأخذتَ لنفسكَ بالثقة إن وفيت بهذا القول .

وكان أكثر مايقول : ياغلام ! هاتِ شيئاً من قلية وأقلّ منها ، وأعدّ لنا ماء بارداً وأكثر منه .

وكان يقول : قد تغيّر كلُّ شيء من أمر الدنيا ، وحال عن أمره وتبدّل ، حتى المؤاكلة . قاتل الله رجالاً كنا

تؤا كلهم ، مارأيتُ قصعةً قط رُفِعَتْ من بين أيديهم ، إلا وفيها فَضْل . وكانوا يعلمون إنّ إحضار الجَدي إنما هو شيْ من آيين[1] الموائد الرفيعة ، وإنما جُعل كالعاقِبة والخاتِمة ، وكالعلامة لليسر وللفراغ ، وأنه لم يُحضر للتمزيق والتخريب ، وأن أهله ولو أرادوا به السُّوء لقدَّموه قبل كلِّ شيْ ، اتقع الحِدّة به ! بل ماياً كلُ منه إذا جيْ به إلا العابث ، وإلاّ الذي لولم يره لقد كان رفع يده ، ولم ينتظر غيره . ولذلك قال أبو الحارث جُمَيْن ، حين رآه لايُمَسْ « هذا المدفوع عنه » . ولولا أنه على ذلك شاهد الناس لما قال ماقال . ولقد كانوا يتحامَوْن بيضةَ البُقَيلة[2] ، ويدعُها كل واحد منهم لِصاحبه[3] ، حتى إن القصعة لقد كانت ترفَعُ ، وإن البيضَ خاصَّةً لعلى حاله .

---

(١) الآيين : كلمة فارسية تعني العادة والقانون .

(٢) بيضة البقيلة : تذكر في عيون الاطعمة ، ولا يستحسن المبادرة اليها . ويقال : ثلاثة ينتهي الحمق اليها وهي : ان يستظل الرجل بمظلته وهو في الظل ، وان يسابق إلى بيضة البقيلة ، وان يحتجم في غير داره .

(٣) ورد هذا النص في ثمار القلوب للثعالبي ص ٣٩٢ ط الظاهر كما يلي : وحكي عن محمد ابن أبي المؤمل انه قال في كلام : ولقد كانوا متحامين بيضة البقيلة ، ويدفعها كل امرء لصاحبه ، وانت اليوم ان أردت أن تمتع عينيك بنظرة واحدة اليها لم تقدر عليها .

وانتَ اليومَ اذا أردت أن تمتّع عينيك بنظرة واحدة منها ، ومن بيض السُّلافة ، لم تقدر على ذلك . لاجرَمَ لقد كان تَرْكُهُ ناسٌ كثير ، مابهم إلا أن يكونوا شركاء من ساءت رِعته.

وكان يقول الآدام أعداء للخبز ، وأعداها له المالح . فلولا أنّ الله انتقم منه ، وأعان عليه بطلب صاحبه الماء وإكثاره منه ، لظننتُ أنه سيأتي من الحرْث والنسل .

وكان مع هذا يقول : لو شرب الناسُ الماءَ على الطعام ، ما أتخموا ، وأقلّهم عليه شرباً ، أكثرُهم عنه تَخماً : وذلك أنّ الرجل لايعرف مقدارَ ما أكل حتى ينال من الماء ، وربما كان شبعان وهو لا يدري . فاذا ازداد على مقدار الحاجة بشم ، وإذا نال من الماء شيئاً بعد شيء ، عرّفه ذلك مقدارَ الحاجات ، فلم يزِد إلا بقَدْر المصلحة . والاطباء يعلمون ما أقول حقاً ، ولكنّهم يعلَمون أنهم لو أخذوا بهذا الرأي ، لتعطّلوا ، ولذهب المكسَب ! وما حاجةُ الناس إلى المعالِجين إذا صحّت أبدانُهم ؟ وفي قول جميع الناس : إن ماء دجلة أمرأُ من الفرات ، وإن ماء مهران أمرأُ من ماء نهر بَلخ [1] . وفي قول العرب : هذا ماء نَمِير

(١) مدينة من مدن خراسان على شط نهر عظيم الذي يقال له جيحان ، وهو النهر المشار اليه هنا.

يصلُح عليه المال، دليلٌ على أن الماء يُمرئ، حتى قالوا : إنَّ الماء الذي يكون عليه النفاطات، أمرأ من الماء الذي يكون عليه القيّارات [١]. فعليكم بشرب الماء على الغداء فان ذلك أمرأ .

وكان يقول : مابالُ الرجُل إذا قال : ياغلام ! اسقِني ماء، أو أسقِ فلاناً ماء، أتاه بُقلّة على قدر الريّ، فاذا قال : أطعِمني شيئاً، أو قال : هات لفلان طعاماً، أتاه من الخُبز بما يفضُل عن الجماعة. والطعامُ والشرابُ أخَوان مُتحالفان ومتوازران .

وكان يقول : لولا رُخص الماء، وغلاء الخبز، لما كلبوا على الخبز، وزهِدوا في الماء. والناسُ أشدُّ شيءٍ تعظيماً للمأكول إذا كثر ثمنُه، أو كان قليلاً في أصل منبته، وموضع عنصره. هذا الجزرُ الصافي، وهذا الباقلّى الأخضري العباسي، أطيبُ من كمثرى خُراسان، ومن الموز البستاني، ولكنّهم لِقصرَ همّتهم، لايتشهّون إلاّ على قَدْر الثمن، ولا يحِنّون إلى الشيء إلاّ على قَدْر القِلّة، وهذه العوامُّ في شهوات الأطعمة، إنما تذهب مع التقليد، أو مع العادة، أو على قدْر مايعظم عندها

---

(١) النفاطات والقيارات : الأمكنة التي يكون فيها النفط والقير وراجع مسالك الأبصار للعمري ومعجم البلدان لياقوت .

من شأن الطعام . وأنا لست أطعَم الجزَر المسلوق بالخلِّ والزيت والمرّيّ ، دون الكمأة بالزُّبد والفلفل لمكان الرخص ، أو لموضع الاستفضال ، ولكن لمكان طيبه في الحقيقة ، ولأنه صالح للطبيعة ، علِمَ ذلك مَنْ علِم ، وجهل ذلك من جهل .

* * *

وكان إذا كان في منزله ، فربما دخل عليه الصديقُ له ، وقد كان تقدّمه الزائر أو الزائران . وكان يستعمِل على خِوانه من الخُدَع والمكائد والتدبير ، مالم يبلغ بعضَه قيسُ بن زهير (١) والمُهلّبُ بن أبي صُفْرة ، وخازم بن أبي خزيمة (٢) ، وهرثمة

(١) هو قيس بن زهير بن جذيمة العبسي . وكان والده أمير عبس وكان هوازن بن منصور لاترى زهير بن جذيمة إلا ربا . وقيس هذا صاحب يوم داحس والغبراء المشهور . ويقول ابن الأثير : أنه في آخر حياته : تاب إلى ربه ، فتنصر وساح في الارض حتى انتهى الى عمان ، فترهب بها زمانا ،

(٢) خازم بن خزيمة : احد القواد الذين شاركوا في تأسيس الدولة العباسية وقضو على الفتن والثورات في الاقاليم . ويقول الخطيب البغدادي عنه في تاريخ بغداد : انه أحد الجبابرة ، قتل في وقعة سبعين الفاً ، وأسر بضعة عشر الفا ، فضرب أعناقهم وذلك بخراسان . ج ١ ص ٨٩ . وينسب الى نهشل .

بن أعين [1] ! وكان عنده فيه من الاحتيال مالا يعرفُه عمرو ابن العاص، ولا المغيرة بن شعبة [2] ! وكان كثيراً ما يُمسك الخِلال بيده، ليؤيس الداخل عليه من غدائه ـ فاذا دخل عليه الصديقُ له، وقد عزمَ على إطعام الزائر والزائرَين قبله، وضاق صدره بالثالث ـ وإن كان قد دعاه وطلب اليه، أراد أن يحتال له، أو الرابع إن ابتُلِيَ كلٌّ واحد منهما بصاحبه، فيقول عند أول دُخوله، وخَلْع نعله ـ وهو رافعٌ صوتهُ بالتنويه وبالتشنيع « هاتِ يا مبشِر لفلان شيئاً يطعَم منه، هات له شيئاً ينال منه، هات له شيئاً ! » اتـِّكالاً على خَجله أو غَضبه أو انقتهِ وطمعاً في أن يقول: « قد فعلت » .

فان أخطأ ذلك الشقيّ، وضَعُف قلبه، وحُصِر، وقال: « قد فعلت »، وعَلِمَ أنه قد أحرزه، وحصَّله والقاه وراء

---

(١) هرثمة بن اعين: احد قواد الرشيد ومن بعده الامين، وكان عاملا للرشيد في فلسطين ثم ولي بعدها مصر وافريقيا. وهو خراساني الاصل وقد انضم فيما بعد إلى المأمون ضد أخيه الامين ومات مقتولا في السجن سنة ٢٠٠ هـ بعد ان دس عليه الفضل بن سهل .

(٢) المغيرة بن شعبة: أحد الدهاة الاربعة في عهد معاوية وهو أشهر من أن يعرف .

ظهره، ولم يرضَ أيضاً بذلك حتى يقول: «بأي شيءٍ تغدَّيت؟» فلا بد له من أن يكذِب، أو ينتحل المعاريض. فاذا استَوْثق منه رِباطاً، وتركه لايستطيعُ أن يترمرم، لم يرضَ بذلك حتى يقول في حديث له: «كنَّا عند فلانٍ، فدخل عليه فلانٌ، فدعاه إلى غَدائه، فامتنع. ثم بدا له، فقال: في طعامكم بُقَيلة أنتم تجيدونها، ثم تناوله». فلا يزالُ يزيدُ في وَثاقه، وفي سدّ الأبواب عليه، وفي منعه البدَوات، حتى إذا بلغ الغاية قال: «يا مبشر: أما اذا تغدَّى فلان واكتفى، فهات لنا شيئاً نعبثُ به».

فاذا وضعوا الطعام، أقبل على أشدِّهم حياء، أو على أشدِّهم أكلاً، فسأله عن حديث حسن، أو عن خبر طويل. ولا يسأله إلا عن حَديث يُحتاجُ فيه إلى الأشارة باليد، أو الرأس كلّ ذلك ليَشغَلهُ، فاذا هم أكلوا صَدْراً، أظهر الفتورَ، والتشاغُل، والتنقّر، كالشبعان الممتلئ، وهو في ذلك غيرُ رافع يده، ولا قاطع أكله، إنما هو النَّتْف بعد النتف، وتعليق اليد في خلل ذلك. فلا بدَّ من أن ينقبِضَ بعضُهم، ويرفع يده، وربما شَمِل ذلك جماعتهم. فاذا عَلِم أنه قد أحرزهم

واحتال لهم، حتى يقلعَهم من مواضِعهم من حول الخِوان، ويعيدَهم الى مواضعهم، ومن مجالسهم، ابتدأ الأكل، فأكلَ أكل الجائع المقرور، وقال: إنما الأكلُ تاراتٌ، والشُرب تاراتٌ.

* * *

وكان كثيراً ما يقول لأصحابه إذا بكَروا عليه: لم لا نشرب أقداحاً على الريق؟ فانها تقتلُ الديدان، ونحفش لأنفسنا قليلاً، فانها تأتي على جميع الفضول، وتُشَهّي الطعام بعد ساعة وسُكرُه أطيبُ من سُكر الكظّة، والشرابُ على الملأة[1] بلاء، وهو بعد ذلك دليل على أن نبيذي خالص، ومن لم يشربْ على الريق فهو نِكْس[2] في الفتوة، ودَعِيٌ في أصحاب النبيذ وإنما يخافُ على كبدِه من سَوْرة الشراب على الريق، مَنْ بعدُ عهدُه باللحم، وهذه الصبحة تغسل عنكم الأوضار، وتنفي التخم، وليس دواء الخمار إلا الشربَ بالكِبار، والأعشى كان أعلم به حيث يقول:

---

(١) في الاصل: المليلة وقد صححناها ملأة.

(٢) يقال: سهم نكس: انكسر فوقه فجعل اعلاه اسفله. ومن المجاز: رجل نكسي، وانه لنكس من الانكاس: للرذل وهو المقصود هنا.

وكأسٍ شربتُ على لذّةٍ   وأخرى تداويتُ منها بها

وهذا – حفظك الله – هو اليومُ الذي كانوا لا يعاينون فيه لُقمة واحدة، ولا يدخل أجوافهم من النّقل مازنُ خردلة وهو يوم سروره التام، لأنه قد ربح المرزءة، وتمتع بالمنادمة.

***

واشترى مرّةً شبّوطة (١) وهو ببغداد، وأخذها فائقة عظيمة. وغالى بها، وارتفع في ثمنها، وكان قد بعُد عهدُه بأكل السّمك – وهو بَصْريٌ لا يصبر عنه – فكان قد أكبر أمرَ هذه السمكة، لكثرة ثمنها، ولسمَنها وعظمها، ولشدّة شهوته لها، فحينَ ظنّ عند نفسه أنه قد خلا بها، وتفرّد بأطيبها، وحسر عن ذراعيه، وصمَد صمْدَها، هجمتُ عليه ومعي السّدري (٢)، فلما رآه رأى الموتَ الأحمر، والطاعون

(١) الشبوط: نوع من السمك، دقيق الذنب، عريض الوسط، لين المس، صغير الرأس كأنه ربط، وجنسه كثير الذكور، قليل الاناث. وراجع الحيوان للجاحظ ففيه شرح واف عن صفة الشبوط.

(٢) السدري: هو ابو نبقه محمد بن هشام بن أبي حميضه شاعر مقل مغمور ترجم له المرزباني فقال « .. مولى لبني عوال اشترى المتوكل ولاءه بثلاثين الف درهم. وكان يصحب الجماز، وعبد الصمد بن المعذل، والجاحظ، وادباء البصرة » وبعض اخباره منثورة في الاغاني، وهو بصري من اصحاب الأصمعي على ماروى أبي علي القالي في النوادر.

الجارف ، ورأى الحتمَ المقضيَّ ، ورأى قاصمةَ الظهر وأيقن بالشرِّ وعلم أنه قد ابتلي بالتنين .

فلم يلبثه السدريَّ حتى قوَّر السرَّة بالمبال ، فأقبلَ عليَّ فقال لي : « يا أبا عثمان ! السدري يعجبه السرر » . فما فصلت الكلمة من فيه ، حتى قبض على القفا ، فانتزع الجانبين جميعاً . فأقبل عليَّ فقال : « والسدري يعجبه الاقفاء » ، فما فرغ من كلامه إلا والسدري قد اجترف المتن كله ، فقال : « يا أبا عثمان! والسدريُّ يعجبه المتون » ! ولم يظنَّ أن السدري يعرف فضيلة ذنب الشبوط ، وعذوبة لحمه ، وظنَّ أنه سيسلم له ، وظن معرفة ذلك من الغامض ، فلم يدرِ إلا والسدريُّ قد اكتسح ما على الوجهين جميعاً . ولولا أن السدري أبطره ، وأثقله ، وأكمده ، وملأ صدره ، وملأه غيظاً ، لقد كان أدرك معه طرفاً ، لأنه كان من الأكلة ، ولكن الغيظ كان من أعوان السدري عليه .

فلما أكلَ السدري جميع أطايبها ، وبقي هو في النظارة ، ولم يبقَ في يده مما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل ، ظنَّ أن في سائر السمكة ما يشبعه ، ويشفي من قرمه ، فبذلك كان عزاؤه ، وذلك هو الذي كان يمسكُ

بأرماقه ، وحشاشات نفسه . فلما رأى السدريَّ يفرى الفريَّ ، ويلتهم التهاماً ، قال « يا أبا عثمان ! السدريُّ يعجبه كلَّ شيء » فتولَّد الغيظُ في جَوْفه ، وأقلقته الرِّعدة فخبُثَت نفسه ، فما زال يقيء ويسلح ، ثم ركبته الحمى .

وصحت توبته ، وتم عزمه في أن (لا) [1] يؤاكل رغيباً أبداً ، ولا زهيداً ، ولا يشتري سمكة أبداً ، رخيصةً ولا غالية وإن أهدوها اليه أن لا يقبلها ، وإن وجدها مطروحة لا يمسها .

* * *

فهذا ما كان حَضَرني من حديث ابن أبي المؤمل ، وقد ماتَ عفا الله عنا وعنه .

* * *

(١) مزيدة .

قصة أسد بن جاني

فأما أسدُ بن جاني ، فكان يجعلُ سريره في الشتاء من قَصَب مقشّر ، لأن البراغيث تزلَق عن ليط [1] القصب ، لفَرط لينه وملاسته !

وكان إذا دخل الصيف ، وحرّ عليه بيته . أثاره [2] حتى يغرّق المسحاة ، ثم يصبُّ عليه جراراً كثيرة من ماء البئر ، ويتوطأه حتى يستوي . فلا يزال ذلك البيتُ بارداً ، مادام ندّياً فاذا امتدَّ به النَدى ، ودام برده بدوامه ، اكتفى بذلك التبريد صَيفته . وإن جفّ قبلَ انقضاء الصيف ، ودعا عليه الحرّ ، عاد عليه بالاثارة والصبِّ . وكان يقول : « خَيْشتي [3] أرض ، وماء

(١) الليط جمع ليطة وهي قشرة القصبة الملازمة لها .

(٢) أثاره : نكشه ورفع ترابه .

(٣) الخيش مروحة عبارة عن نسج خشن من الكتان كشراع السفينة يعلقها أهل العراق في سقف البيت ويعملون لها حبلا تجربه مبلولة بالماء ، فاذا أراد الرجل أن ينام جذب حبلها فيهب منها نسيم بارد يذهب أذى الحر ، ويستطاب معه النوم ، راجع محيط المحيط وشرح مقامات الحريري ج ٢ ص ٢٨٨ .

خَيْشتي من بئري، وبيتي أبرد، ومؤنتي أخفّ . وأنا أفضلُهم أيضاً بفَضْل الحِكمة، وجَودة الآلة .

وكان طبيباً فأكسدَ مرةً، فقال له قائل: «السنة وبئة [(١)] والأمراضُ فاشية، وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة. فمن أين تُؤتى في هذا الكساد؟» قال: «أما واحدة، فأني عندهم مسلم، وقد اعتقد القومُ قبل أن اتطبّب، لا بل قبل أن أخلق، أن المسلمين لايفلحون في الطبّ! وأسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليباً، ومُرايل [(٢)]، ويوحنا، وبيرا [(٣)]، وكنيتي أبو الحارث، وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى، وأبو زكرّيا، وأبو ابراهيم [(٤)]. وعليّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون رداء حرير أسود، ولفظي لفظٌ عربيّ، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جُنْدي يسابور [(٥)]» .

---

(١) أي كثيرة الوباء .

(٢) مرايل وموراثيل بمعنى واحد: اسم من اسماء الملائكة .

(٣) لعله محرف عن بترا: أي بطرس .

(٤) رفع «ابو» على الحكاية .

(٥) جند يسابور: مدرسة انشأها كسرى انوشروان، وانشأ بجانبها بمارستان. وكان علماء النساطرة يدرسون فيها علوم اليونان باللغة السريانية وفيها تخرج أشهر أطباء العرب ولا سيما أيام بني العباس إذ تخرج منها أبناء بختيشوع.

قال الخليل السلوليّ :

أقبل عليّ يوماً الثوريّ (١) ـ وكان يملك خمسمائة جريب مابين كرسيّ الصدقة إلى نهر مرة (٢)، ولا يشتري إلاّ كل غرَّة، وكلّ أرض مشهورة بكريم التُربة، وشرف الموضع والغلّة الكثيرة ـ قال :

فأقبل عليّ يوماً، فقال لي « هل اصطبغتَ بماء الزيتون قط ؟ » . قال : قلت : « لا والله » قال : « أما والله لو فعلته ما نسيته » . قال قلت « أجل ! إني والله لو فعلته لما نسيتُه » .

وكان يقول لعياله : لاتُلقوا نوى التمر والرطب ،

---

(١) هو ابو عبد الرحمن الثوري . وأرجح على انه لقب لاسد ابن جاني . اذ أن هذا الفصل معقود على اخبار بخله على نسق الفصول الماضية عن سهل بن هارون ، وزبيدة بن حميد ، وليلى الناعطية .. وغيرهم مما ذكر اخبارهم في البخلاء . ويدلنا على هذا أن الاخبار التي ترد عن الثوري اكثرها يتعلق بالطب والصحة والمرض . واسد بن جاني كما مر معنا طبيب بدليل قول الجاحظ : . وكان طبيبا فأكسد مرة .. إلى اخر الخبر .

(٢) نهر مرة : هو نهر بالبصرة الى ناحية نهر الأبله ، منسوب إلى مرة بن أبي عثمان ، مولى عبد الرحمن بن أبي بكر ، إما لانه ولي حفره، فنسب اليه ، وأما لأن الأرض التي كانت عليه ، كانت قطيعة له . راجع معجم البلدان ج ٨ ص ٣٤٥ والبلاذري ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥

وتعوَّدوا ابتلاعه ، وخذوا حلوقكم بتسويغه ، فانَّ النوى يعقد الشحم في البطن ، ويُدفيء الكُليتين بذلك الشحم . واعتبروا ذلك ببُطون الصفايا [1] ، وجميع ما يعتلفُ النوى . والله لو حملتُم أنفُسكم على البزر والنوى . وعلى قضْم الشعير ، واعتلاف القت ، لوجدتموها سريعة القبول ! وقد يأكل الناسُ القتَّ قدَّاحاً ، والشعير فريكاً ، ونوى البُسر [2] الأخضر ، ونوى العجْوة . فانما بقيت الآن عليكم عقبة واحدة لو رغبتم في الدفء لاتمستم الشحم ، وكيف لا تطلبون شيئاً يغنيكم عن دُخان الوقود ، وعن شناعة السكر [3] ، وعن ثقل الغُرم ؟ والشحم يُفرّج القلب ، ويبيض الوجه . والنارُ تسوّد الوجه . أنا أقدر أن أبتلع النوى ، واعلفه الشاء ، ولكني أقول ذلك بالنظر مني لكم.

وكان يقول : كلوا الباقلى بقشوره . فان الباقلى يقول : من أكلني بقشوري ، فقد أكلَني ، ومن أكلني بغير قشوري

---

(١) الصفايا : جمع صفيه وهي الناقة المكتنزة بالشحم . قال الحطيئة
هو الواهب الكوم الصفايا لغيره   يروح بها العبدان في عازب ندي

(٢) البسر : التمر . وأوله طلع ثم خلال بالفتح ثم بلح ثم بسر ثم رطب ثم تمر . الواحدة بسرة بالضم .

(٣) في الاصل العسكر وقد أصلحناها بما يتناسب مع السياق والمعنى.

فأنا الذي آكله ، فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم وأكلاً لما جعل أكلاً لكم ؟

وكان يعين [1] مالا عظيماً ، ولم يكن له وارث ، فكان يسخر ببعضهم ، فيقولُ عند الاشهاد : « قد علمتم أنه لاوارث لي ، فاذا متّ فهذا المال لفلان » . فكان قومٌ كثير يحرصون على مبايعته لهذا .

وقد رأيتُه أنا زماناً من الدهر ، مارأيتُه قط إلاّ ونعله في يده ، أو يمشي طول نهاره في نعل مقطوعة العقَب ، شديدة على صاحبها ، قال : فهؤلاء المجوسُ يرتعون البصرةَ وبغدادَ وفارسَ والأهواز ، والدنيا كلها بنعالِ سِندية [2] ، فقيل له :

(١) كذا في الاصل وقد أصلحها مارسيه بيقتني .

(٢) نعال سندية : يتضح من ظاهر المعنى انها نعال منسوبة للسند وقد جاء وصفها برسالة التربيع والتدوير للجاحظ ص ٢٣٠ بعناية السندوبي ما يلي :

... وقد اختلفوا علينا في النعال السندية ، فزعم قوم ان صاحب كتاب الباه ، كان قصيراً منكراً ، وكان بالنساء مستهترا ، وانه احتال بها لجسمه ، حتى وصلها برجله ، ليكون مخها زائداً في طوله . فلما طالت الايام ومضت الدهور ، ظن من لا علم له أنها اتخذت للزينة أو لضرب من المرفق . وقال آخرون : بل اتخذت للعقارب ليلا ، وللطين نهاراً . فلما طال

إن المجوسيّ لا يستحلّ في دينه المشركة ، فأنت لا تجده أبداً إلا حافياً ، أو لابساً نعلا سندية ، وأنت مسلم ، ومالك كثير قال : فمن كان ماله كثيراً . فلا بدّ له من أن يفتحَ كيسَه للنفقات ، وللسّراق . قالوا : فليس بين هاتين منزلة .

* * *

قال الخليل : جلس الثوريّ إلى حلقة المصلحين [١] في المسجد ، فسمِع رجُلاً من مياسيرهم يقول : بطِّنوا كلّ شيء لكم ، فانه أبقى ! ولأمرٍ جعل الله دار الآخرة باقيةً ، ودار الدنيا فانية ! ثم قال : ربما رأيتُ المبطّنة الواحدة تُقطع أربعة أقمصة ، والعمامة الواحدة تُقطع أربعة أزر ، ليس ذلك إلا لتعاون الطيّ ، وترافُد الأثناء ، فبطنوا البواريّ ، وبطّنوا الحُصر ، وبطِّنو البسط ، وبطنوا الغداء بشربة باردة . قال :

- عليها الدهر ، نسي السبب ، وذلك أن أكثر الرداغ لاتستغرق محنها ، وأبرة العقرب لاتكاد تجاوزها . وقال آخرون : بل إنما اتخذها ملوكها لمكان أصواتها وصريرها ، استئذاناً على أزواجها وأمهات أولادها ، وعلى جميع محارمها ، لحالات تكن عليها ، وأمور تكن فيها . فصار صريرها تدنياً واستئذاناً .

(١) المراد بالمصلحين : الذين يصلحون اموالهم بعدم انفاقها وهم البخلاء

فقال له الثوري : لم أفهم مما قلت إلا هذا الحرفَ وحده .

* * *

قال الخليل : حُمَّ الثوريُّ ، وحمَّ عياله وخادمه ، فلم يقدِر روامع شدّة الحمى على أكل الخبز ، فربح كيلةً تلك الأيام من الدقيق ، ففرح بذلك ، وقال لو كان منزلي سوق الأهواز أو نطاة خيبر ، أو وادي الجحفة [١] ، لرجوت أن أستفْضل كلَّ سنة مائة دينار . فكان لايبالي أن يُحمّ هو وأهله أبداً ، بعد أن يستفضل كفايتهم من الدقيق .

وكان يقول إذا رأيتُ الرجل يشتري الجدْيَ رحمتُه فان رأيتُه يشتري الدجاج حقرته ، فان رأيتُه يشتري الدرّاج لم أبايعه ولم أكلمه .

وأنه قال : أولُ الأصلاح – وهو من الواجب – خصفُ النعل ، واستجادة الطِراق ، وتشحيمُها في كلّ الأيام ، وعقد ذُؤابة الشِراك ، ومن زيّ النساك ، لكيلا يطأ عليه إنسانٌ

---

(٢) سوق الاهواز ، ونطاة خيبر ، ووادي الجحفة : أماكن تكثر فيها الحمى . وسوق الاهواز هي قصبة بلاد خوزستان وهي تقع على نهر قارون ونطاة خيبر حصن فيها . ووادي الجحفة يقع في غور تهامه قريباً من البحر على الطريق بين مكة والمدينة .

فيقطعه . ومن الأصلاح الواجب : قلبُ خِرقة القلنسُوة إذا اتسخت ، وغسلُها من اتساخها بعد القلب . واجعلها حِبرة فانها مما له مرجوع . ومن ذلك اتخاذ قميص الصيف جبّة في الشتاء ، واتخاذُ الشاة اللّبون إذا كان عندكَ حِمار ؛ واتخاذ الحمار الجامع [1] خيرٌ من غلّة الف دينار . لأنه لرحلك ، وبه يُدرك البعيد من حوائجك ، وعليه يُطحنُ فتستفضل عليه ما يربحه عليك الطّحان ، وينقل عليه حوائجه وحوائجك . حتى الحطب ، ويستقى عليه الماء ، وهذه كلّها مُؤن إذا اجتمعت كانت في السنة مالاً كثيراً .

ثم قال : أشهدُ أنّ الرفق يُمن ، وأن الخُرق شؤم . اشتريت ملاءةً مَذارية [2] فلبستها ـ ماشاء الله ـ رداء وملحفة ثم احتجتُ إلى طيلسان ، فقطعتها ـ يعلم الله ـ فلبسته ـ ماشاء الله ـ ثم احتجت الى جبّة فجعلته ـ يعلم الله ـ ظِهارة جبّة محشوّة ، فلبستها ما شاء الله . ثم أخرجتُ ما كان فيها من الصحيح ، فجعلتهُ مخادّ ، وجعلت قطنها للقناديل . ثم جعلتُ مادون خِرق المخادّ للقلانس ، ثم عمدت الى أصلح إلى ما بقي

---

(١) الحمار الجامع : الذي يصلح للركوب والنقل .

(٢) ملاءة مذارية : نسبة إلى مذار وهي بلدة بين واسط والبصرة .

فبعته من أصحاب الصينيّات والصلاحيات [1] ، وجعلتُ مالا رقعةَ له مِمْحاة لي وللجارية ، إذا نحن قضينا حاجة الرجال والنساء ، وجعلتُ السُقاطات وما قد صار كالخيوط وكالقُطن المندوف صِماماً لرؤوس القوارير .

وقد رأيتُه وسمعتُ منه في البخل كلاماً كثيراً . وكان من البَصريين ، ينزلُ في بغداد مسجد ابن رُغبان [2] ، ولم أر شيخاً ذا ثروة اجتمع عنده وإليه من البخلاء ما اجتمع له ، منهم : إسماعيلُ بنُ غَزوان ، وجعفرُ بن سَعيد ، وخاقان بنُ صبيح وأبو يعقوب الأعور [3] ، وعبد الله العروضي ، والحزامي عبدُ

---

(١) الصينيات : هي المعروفة الآن ببلاد الشام بالصحون الواردة من الصين ويطلق عليها الصيني . وأما الصلاحيات فهي الزبادي الكبيرة وهي معروفة ببلاد الشام ولا سيما في مدينة دمشق .

(٢) مسجد ابن رغبان : في الوزراء والكتاب ص ١٠٢ ط البابي جاء مايلي :

وكان حبيب بن عبد الله بن رغبان مولى حبيب بن سلمة الفهري يتقلد الاعطاء لأبي جعفر واليه ينسب مسجد ابن رغبان بمدينة السلام ومن ولده الشاعر المعروف بديك الجن . وفي المعارف لابن قتيبة ابن رعبان بالعين المهملة وبالطبري رغبان بالغين المنقوطة .

(٣) هو ابو يعقوب اسحاق بن حسان بن قوهي الخريمي . وكان جيد الشعر مقبولا عند الكتاب . نشأ في مجلس حماد الراويه وحماد

الله بن كاسب .

وابو عبد الرحمن هذا شديدُ البُخل ، شديد العارِضة ، عضبُ اللسان . وكان يحتجُّ للبخل ، ويوصي به ، ويدعوا إليه وما علمتُ أن أحداً جرّد في ذلك كتاباً إلا سهل بن هارون .

* * *

وأبو عبد الرحمن هذا هو الذي قال لابنه :

أيْ بني ! إنّ إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق وإنفاقَ الدوانيق يفتحُ عليك أبوابَ الدراهم ، وإنفاقَ الدراهم يفتحُ عليك أبواب الدنانير . والعشراتُ تفتح عليك أبواب المئين ، والمئونَ تفتحُ عليك أبوابَ الألوف ، حتى يأتي ذلك على الفرْع والأصل ، ويطْمِسَ على العين والأثَر ، ويحتملَ القليلَ والكثير أيْ بني ! إنما صار تأويلُ الدرهم « دار الهم » ، وتأويل الدينار « يدني إلى النار » ! الدرهمُ إذا خرج إلى غير خلَف ، وإلى غير بَدَل ، دارَ الهمّْ على دوانق مخرجة . وقيل : إن الدينار

— عجرد . واتصل بمطيع بن اياس ويحيى بن زياد وراجع زهر الآداب ج ٤ ص ٢٠١ والاغاني ٦ : ٨٤ ومختصر تاريخ ابن عساكر ج ٢ ص ٤٣٤ وهو صاحب القصيدة المشهورة في حريق بغداد وراجع الورقة لابن الجراح .

«يدني إلى النار» لأنه إذا أنفقته في غير خَلَف، وأُخرج إلى غير بَدَل بقي مُخفقاً مُعدِماً. وفقيراً مبلطاً، فيخرج الخارج [1]، ويدعوه الضرورةُ إلى المكاسب الرديئة، والطُعَم الخبيثة. والخبيثُ من الكَسْب يسقط من العدالة، ويذهَبُ بالمروءة ويوجب الحدّ، ويُدخِلُ النار.

وهـذا التأويلُ الذي تأوّله للدرهم والدينار، ليس له، إنما هذا شيء كان يتكلّم به عبد الأعلى القاصّ. فكان عبد الأعلى إذا قيل له: لِم سُمِّي الكلب قلطياً؟ قال: لأنه قل ولطي [2]! وإذا قيل له: لم سُمي الكلب سلوقياً؟ قال: لأنه يستلُّ ويلق! وإذا قيل له: لم سمي العُصفور عصفوراً؟ قال: لأنه عَصَي وفرّ.

وعبدُ الأعلى هـذا هو الذي كان يقول في قَصَصه: الفقيرُ رداؤه علقة، ومرفقتة سَلَبة [3]، وجَرْدَقته فلقة [4]،

(١) كذا بالاصل: وفي نسخة الحاجري: فتحرج المخارج. وقد أصلحها مرسيه: فيحرج الحارج.

(٢) أي لصق بالأرض.

(٣) ليف شجر باليمن يعمل منه الحبال.

(٤) أي رغيفه كسره.

وسمكتُه شلِقة [1] ، في طيب له كثير .

وبعضُ المفسرين يزعم أنَّ نوحاً النبيَّ عليه السلام إنما سمِّي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه ، وأنَّ آدم إنما سمِّي آدم لأنه حُذِي [2] من أديم الأرض . وقالوا : كان لونُه في أدمة لون الأرض . وأن المسيحَ إنما سميَّ المسيح لأنه مُسِحَ بدُهن البركة ، وقال بعضُهم : لأنه كان لا يقيم في البلد الواحد وكان كأنه ماسحٌ يمسَح الأرض .

* * *

ثم رجع الحديث إلى أعاجيب أبي عبد الرحمن :

وكان أبو عبد الرحمن يُعجب بالرؤوس ، ويحمَدُها ويصفُها . وكان لا يأكلُ اللحم إلا يوم أضحى ، أو من بقية أضحيته ، أو يكونُ في عُرسٍ ، أو دعوةٍ ، أو سُفْرةٍ . وكان « يقول » [3] : سمِّي الرأس رأساً لما يجتمعُ « فيه » من الألوان

---

(١) في المحاسن والمساوئ ورد النص : الفقير رداؤه علقه ومرقته سلقه ، وسمكته شلقه .

(٢) أي قطع وأخذ .

(٣) زيادة ليست بالاصل .

الطيِّبة . وكان يُسمّيه مرةً الجامع ، ومرةً الكامل [1] .

وكان يقول : الرأس شيءٌ واحد ، وهو ذو الوانٍ عجيبة وطُعوم مختلفة . وكلُّ قِدْرٍ ، وكل شِواء ، فانما هو شيءٌ واحد [2] . والرأس فيه الدماغ ، فطعمُ الدِّماغ على حِدَة ، وفيه العينان ، وطعمهما شيءٌ على حده . وفيه الشَّحْمة التي بين أصل الأُذن ومؤخر العين ، وطعمها على حدة . على أنَّ هذه الشَّحْمة خاصةً أطيبُ من المُخّ وأنعم الزُّبْد ، وأدسم من السِّلاء [3] . وفي الرأس اللسان ، وطعمُه شيءٌ على حِدَة ، وفيه الخَيْشوم ، والغُضروف [4] الذي في الخيشوم ، وطعمها شيءٌ على حِدَة ، وفيه لحم الخدَّين ، وطعمُه شيءٌ على حِدة . حتى يقسِّم أسقاطه [5] الباقية . ويقول : الرأسُ سيدُ البدَن ، وفيه الدماغ ، وهو مَعْدِن العقل ، ومنه يتفرَّق العصب

---

(١) في العقد ج ٦ ص ١٨٣ : كان ابو عبد الرحمن الثوري يعجبه الرؤوس ويصفها ، ويسميها العرس ، لما فيها من الالوان الطيبة ، وربما سماه الكامل والجامع .

(٢) وكل قدر ... واحد . ساقطة من العقد .

(٣) السلاء : السمن ذهب مافيه من أثر اللبن .

(٤) الغضروف : كل عظم رخص يؤكل .

(٥) الاسقاط : جمع سقط وهي الاشياء التافهة .

الذي فيه الحسّ ، وبه قِوام البدن . وإنما القلب باب العقل ، كما أنّ النفسَ هي المدركة ، والعينُ هي باب الالوان ، والنفسُ هي السامعة الذائقة ، وإنما الانف والأذن بابان، ولولا أن العقلَ في الرأس ، لما ذَهبَ العقل من الضربة تصيبه ، وفي الرأس الحواسّ الخمس . وكان ينشِد قول الشاعر :(١)

إذا ضرَبوا رأسي ، وفي الرأس أكثري

وغُودِرَ عند الملتقى ثمَّ ، سائري

وكان يقول : الناس لم يقولوا هذا رأس الأمر ،وفلانٌ رأسُ الكتيبة ، وهو رأسُ القوم ،وهم رؤوس الناس وخراطيمهم(٢) وأنفهم ، واشتقّوا من الرأس الرياسة والرئيس ، وقد رأس القوم فلانٌ ، إلاّ والرأس هو المثل ، وهو المقدم .

وكان إذا فرَغ من أكل الرأس عمد إلى القحف ، وإلى الجبين(٣) ، فوضعه(٤) بقرب بيوت النّمل والذّر ، فاذا اجتمعت

(١) ورد هذا البيت في الحيوان لتأبط شره . وفي الاغاني والحماسه لأبي تمام: للشنفري الأزدي .

(٢) الخراطيم : الأنوف ، وخراطيم الرجال : ساداتهم .

(٣) كذا بالاصل وفي عيون الاخبار : اللحيين .

(٤) فوضعه : ارجع ضمير المفعول المفرد الى شيء مذكور . وهو كثير في كلام العرب .

فيه ، أخذه فنفَضه في طست فيها ماء ، فلا يزال يعيد ذلك في تلك المواضيع ، حتى يقلع أصل النمل والذرّ من داره ، فاذا فرَغ من ذلك ألقاه في الحطب ، ليوقد به سائر الحطب (١)

وكان إذا كان يومُ الرؤوس أقعدَ ابنه معه على الخِوان إلاّ أنّ ذلك بعد تشرّط طويل ، وبعد أن يقفَ به على مايريده وكان فيما يقول له : إياك ونهم الصبيان ، وشره الزرّاع (٢) ، وأخلاق النوائح (٣) . ودع عنك خَبْطَ الملاّحين والفَعَلة ، ونهشَ الأعراب والمهنة (٤) ، وكل مابين يديك ، فانما حظّك الذي وقع (لك) (٥) ، وصار أقربَ اليك . واعلم أنّه إذا كان في الطعام شيءٌ طريفٌ ، ولقمةٌ كريمة ، ومُضغة شهيّة ، فانما ذلك للشيْخ المعظَّم ، والصبيِّ المُدلّل ، ولست واحداً منهما . فأنت قد تأتي الدَعوات ، وتجيب الولائم ، وتدخلُ منازلَ الأخوان ، وعهدُك باللحم قريب ، وإخوانك أشدُّ قرماً (٦)

(١) في عيون الاخبار : فاستوقده في التنور .
(٢) في العقد : وبغر السباع .
(٣) النوائح : المستأجرات للنوح والندب في المصائب وفي العقد : النوابح .
(٤) المهنة : جمع ماهن وهو العبد والخادم .
(٥) مزيدة .
(٦) القرم : شدة الشهوة الى اللحم .

اليه منك . وانما هو رأسٌ واحد . فلا عليك أن تتجافى عن بعضٍ ، وتُصيبَ بعضاً . وأنا بعدُ أكره لك الموالاة بين اللحم ، فان الله يُبغِضُ أهل البيت اللَّحمين .

وكان « عمر »[١] يقول : إياكم وهذه المجازر ، فان لها ضراوة كضَراوة الخمر .

وكان يقول : مُدْمِن اللحم كمدمن الخمر .

وقال الشيخ — ورأى رجلا يأكل اللحم — فقال : لحمٌ يأكل لحماً ! أفٍ لهذا عملاً .

وذكر هرم بن قُطبة[٢] اللحم فقال : وإنه ليقتلُ السباع

وقال المهلب : لحمٌ وارد على غير قارم ، هذا الموت الأحمر !

وقال الأول أهلك الرجالَ الاحمران : اللحمُ والخمرُ ،

---

(١) زيادة من عيون الاخبار . وقد ورد هذا القول منسوب إلى عمر في الحيوان . والاقوال السابقة وردت في النهاية لابن الاثير ج ٤ ص ٥٥ منسوبة أيضاً الى عمر .

(٢) هو هرم بن قطبة بن سنان بن عمر الفزاري . ذكره الجاحظ في البيان من الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء امثال اكثم بن صيفي وربيعة بن حذار وكان مع دمامته مقدما في العرب في الحكم وفي العلم . راجع البيان ج ١ ص ٢٠٠ و ٢٣٦ و ٢٣٨ ط السندوبي .

وأهلك النساء الأحمران : الذهبُ والزعفران .

أيْ بنيّ ! عوّدْ نفسك الأثَرة ومجاهدةَ الهوى والشهوة ولا تنْهش نهشَ الأفاعي ، ولا تخضِم خضم البراذين ، ولا تُدمِ الأكل ادامة النعاج [1] ، ولا تلقَم لقمَ الجمال .

قال أبو ذرّ لمن بدّل من أصحاب رسول الله ﷺ « تخضِمون ونقضِم ، والموعد الله » [2] إن الله قد فضّلك فجعلك إنسانًا ، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبُعًا ، واحذر سُرعة الكظّة ، وسرف البطنة . وقد قال بعضُ الحكماء : إذا كنتَ بطينًا فعد نفسك في الزْمنى . وقال الأعشى :

وَالبِطنَةُ يَوْمًا تُسَفِّهُ الأحلاما [3]

واعلم أنّ الشبَع داعيةُ البشَم ، وأنّ البشَم داعية السقْم ، وأنّ السقَم داعية الموت . ومن مات هذه المِيتة ، فقد مات مِيتة لئيمة ، وهو قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألوَمُ من قاتل غيره ، وأعجب إن أردتَ العجَب . وقد قال الله جلّ ذكره : « ولا تقتلوا

---

(١) في العقد : ولا تدمن الأكل إدمان النعاج .

(٢) وكذا في البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٢ ط السندوبي .

(٣) راجع لسان العرب مادة بطن ويروي « نما » بدلاً عن : يوما .

أنفُسَكُمْ » وسواء قتلنا أنفسنا ، أو قتل بعضُنا بعضاً ، كان ذلك للآية تأويلاً .

أيْ بنيّ ! إنَّ القاتلَ والمقتولَ في النار . ولو سألتَ حُذّاق الأطباء لأخبروك أن عامّة أهل القبور إنما ماتوا بالتخم واعرِف خطأ من قال : « أكلة ومَوْتة » وخذ بقول من قال : « ربّ أكلة تمنع أكلات . » وقد قال الحسنُ : « يا ابن آدم ! كُلْ في ثلث بطنك ، واشرَب في ثُلُث بطنك ، ودع الثُلُث للتفكُر والتنفس . » وقال بكرُ بن عبد الله المزني[1] : « ما وجدتُ طعم العيش ، حتى استبدلتُ الخمْص بالكظّة ، وحتى لم ألبس من ثيابي ما يستَخدمني ، وحتى لم آكل إلا ما (لا)[2] أغسل يديّ منه . »

يابنيّ ! والله ما أدّى حقّ الركوع ، ولا وظيفةَ السجود ذو كِظّة ، ولا خشَعَ لله ذو بِطنة ، والصَومَ مصحّته ،

(١) هو بكر بن عبد الله المزني ، من مزينة نضر ، وكان من أفاضل التابعين صالحاً تقياً ، مات سنة ١٠٨ ﻫ وذكره الجاحظ في البيان والتبيين ومما قاله عنه : وذكرت البصرة فقيل : شيخها الحسن ، وفتاها بكر بن عبد الله المزني ، وعده أيضاً من الخطباء ج ١ ص ٢٧٧ .

(٢) مزيدة .

والوَجَبات[1] عيش الصالحين .

ثم قال : لأمرٍ ما طالت أعمارُ الهند[2] ، وصحّت أبدان الأعراب ! ولله درّ الحارث بن كلدة حينَ زعم أن الدواء هو الأزْم[3] ، وأن الداء هو إدخال الطعام في أثر الطعام[4] .

أي بني ! لِمَ صفَتْ أذهان العرب ، ولِمَ صدقت أحساس الأعراب ، ولِمَ صحّت أبدان الرهبان ، مع طول الأقامة في الصوامع ، وحتى لم تعرِف النِقْرِس ، ولا وجع المفاصل ، ولا الأورام ، إلا لقلة الرزى[5] من الطعام ، وخفّة الزاد والتبلّغ باليسير ؟

أي بنيّ ! إن نسيمَ الدنيا ، ورَوْح الحياة ، أفضل من أن تبيتَ كظيظاً ، وأن تكون بِقصَر العُمر خليقاً ، وكيفَ لاترغبُ في تدبيرٍ يجمَعُ لك صِحّة البدَن ، وذكاء الذهن ، وصلاح المعاد[6] وكثرةَ المال ، والقربَ من عيْش الملائكة .

---

(١) الوجبات : جمع وجبة وهو الأكل مرة واحدة .

(٢) في العقد : الرهبان .

(٣) الأزم : ترك الأكل وألا تدخل طعاماً على طعام .

(٤) في العقد : وأن الداء كله هو من فضول الطعام .

(٥) الرزق : فان فلوتن .

(٦) في العقد : الدين . وعيون الاخبار : المعا . وفان فلوتن : المعي .

أي بني ! لِمَ صار الضبُّ أطول شيءٍ عمراً ، إلا لأنه إنما يعيشُ بالنسيم ؟ ولِمَ زعم [1] الرسول ﷺ أن الصومَ وِجاء إلا ليجعل الجوع حِجازاً دون الشهوات ؟ إفهم تأديبَ الله ، فانه لم يقصد به إلاَّ إلى مثلِك !

أي بني ، قد بلغتُ تسعين عاماً ما نقص لي سن ، ولا تحرَّك لي عظم ، ولا انتشر لي عَصب ، ولا عَرَفتُ دَنين أذن ، «ولا وكف أنف» [2] ، ولا سيلان عين ، ولا سلس بول ، «و» [2] ما لذلك علةٌ إلا التخفيف من الزاد . فان كنت تحبُّ الحياة ، فهذه سبيل الحياة ، وان كنت تحب الموت ، فلا يبعد الله إلا من ظلم [3] .

هـذه كانت وصيَّته في يوم الرؤوس وحده . فلم يكن لِعياله إلا التقمُّم ، ومصُّ العظم .

وكان لا يشتري الرأس إلا في زيادة الشهر ، لمكان زيادة الدماغ . وكان لا يشتري إلا رأسَ فتى لوفارة الدماغ ، لأنَّ

---

(١) في العقد : ومازعم . وهو الاصح والأنسب لسياق الكلام .

(٢) مزيدة من العقد

(٣) في العقد : فلا أبعد الله غيرك .

دماغ الفتى أوفر ، ويكون مخّه أنقص ، ومخّ المسن أوفر ، ودماغه أنقص .

ويزعمون أن للأهلة والمحاق في الادمغة والدماء عملاً معروفاً ، وبينها في الربيع والخريف فضلاً بيناً ، وتزعمُ الأعراب والعرب أن النطفة إذا وقعت في الرّحم في أول الهلال ، خرج الولد قويّاً ضخماً ، وإذا كان في المحاق خرج ضئيلاً شخْتاً وأنشد قول الشاعر :

لقِحتْ في الهلال عن قُبُل الطّهْـ
ـرِ وقد لاحَ للصّباح (١) بشيرُ
ثُمّ نمّى ولم تُرضِعْ فُلُوّاً
ورضاعُ المجيحِ عيبٌ كبير

* * *

وكان أبو عبد الرحمن يشتري ذلك الرأسَ من جميع رؤّاسي بغداد ، إلا من رؤّاسي مسجد ابن رغبان . وكان لا يشتريه إلا يومَ سبت . واختلطَ عليه الأمرُ فيما بين الشتاء

---

(١) عيون الاخبار : للضياء .

والصيف ، فكان مرةً يشتريه في هذا الزمان ، ومرةً يشتريه في هذا الزمان .

وأما زهده في رؤوس مسجد ابن رغبان ، فان البصريين يختارون لحم الماعز الخصيّ ، على الضأن كله ، ورؤوس الضأن أشحمُ وألحمُ وأرخصُ رُخصاً وأطيب . ورأس التيس أكثرُ لحماً من رأسي الخصيّ ، لأنّ الخصيّ من الماعز يعرق جلده ويقلّ لحمُ رأسه ، ولا يبلغُ جلده - وإن كان ماعزاً - في الثمن عُشرَ مايبلغ جلد التيس ، ولا يكون رأسه إلا دوناً . ولذلك تخطاه إلى غيره .

وأما اختياره شراء الرؤوس يومَ السبت ، فان القصّابين يذبحون يوم الجمعة أكثر ، فتكثر الرؤوس يوم السبت على قدر الفضل فيما يذبحون . ولأن العوامّ والتجارَ والصنّاع لا يقرمون إلى أكل الرؤوس يومَ السبت ، مع قرب عهدهم بأكل اللحم يومَ الجمعة ، ولأن عامّتهم قد بقيت عنده فضله ، فهي تمنعه من الشهوة ، ولأن الناس لايكادون يجمعون على خوان واحد بين الرؤوس واللحم .

وأمّا اختلاط التدبير عليه في فرق ما بين الشتاء والصيف

فوجهُ ذلك ان العِلَل كانت تتصوَّر له ، وتعرِض له الدواعي على قَدْر قرَمه ، وحركة شَهْوته ، صيفاً وافق ذلك أم شتاء . فان اشتراه في الصَيف ، فلأنَّ اللحمَ في الصيف أرخَص ، والرؤوس تابعة للحم ، ولأن الناس في الشتاء لها آكل ، وهم لها في القَيْظ أترك ، فكان يختار الرُخصَ على حسن الموقع . فاذا قويت دواعيها في الشتاء قال « رأسٌ واحد شَتَوي ، كرأسين صيفيين ، لأن المعلوفة غيرُ الراعية ، وما أكل الكُسب[1] في الحبْس موثقاً ، غير ما أكل الحَشيش في الصحراء مُطلقاً » . وكان على ثِقة أنه سيأتي عليه في الشتاء مع صحّته وبَدَنه ، وفي شكٍّ من استبقائه في الصيف ، لنُقصان شهَوات الناس للرؤوس في الصيف ، كان يخافُ جَريرةَ تلك البقيّة ، وجناية تلك الفضلة . وكان يقول : « إن أكلتُها بعد الشبع ، لم آمن العطب ، وإن تركتُها لهم في الصيف ، ولم يعرفوا العلّة ، طلبوا ذلك منّي في الشتاء » .

* * *

---

(١) الكسب : ثفل السمسم تعلفه الماشية .

قصة العنبري (١)

حدثني المكيّ قال :

كنتُ يوماً عند العنبريّ ، إذ جاءت جاريةُ أمّهِ ومعها كوز فارغ ، فقالت : « قالت أمك : بلغني أنّ عندكَ مزمّلة [٢] ويومُنا يومٌ حارّ ، فابعث إليّ بشربة منها في هذا الكوز » . قال : « كَذَبْتِ ! أمي أعقلُ من أن تبعثَ بكوز فارغ ، ونردّه ملآن ، إذهبي فاملئيه من ماء حُبّكم [٣] ، وفرّغيه في حُبّنا ثم املئيه من ماء مزمّلتنا ، حتى يكون شيءٌ بشيءٌ »

قال المكي : فاذا هو يريد أن تدفع جوهراً بجوهر ، وعرضاً بعرض ، حتى لاتربح أمه إلا صرف ما بين العَرَضين ، الذي

---

(١) هذا العنوان ليس بالاصل .

(٢) المزملة : كمقطمه : وهي التي يبرد فيها الماء . وفي شرح مقامات الحريري للشريشي ج ٢ ص ٢٩١ : آنية يبرد فيها الماء شبه الخابية ، تستعمل بأرض العراق ، وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة ، وتغشى بجد أو ثوب مزين حسن لنظر العين . . .

(٣) في المعرب للجواليقي : انها فارسية معربة وهي تعني الجرة .

هو البرد والحر ، فأما عدد الجواهر والأعراض فمثلاً بمثل .

وقال المكيّ : دخلتُ عليه يوماً ، وإذا عنده جُلّة تمر ، وإذا ظئره جالسةٌ قبالته ، فلما أكل تمرةً رمى بنواتها اليها فأخذتها ، فمصّتها ساعةً ، ثم عزلتها . فقلتُ للمكيّ أكان يدَعُ على النواة من جسم التمر شيئاً ؟ قال والله لقد رأيتها لاكت نواةً مرةً ، بعد أن مصّتها ، فصاح بها صَيْحةً لو كانت قتلت قتيلاً ما كان عنده اكثرُ من ذلك . وما كانت إلا في أن تُبادله الاعراض ، وتسلّم اليه الجوهر . وكانت تأخذُ حلاوة النواة ، وتودعها ندْوة الريق .

* * *

قصة أبي قطبة [1]

قال الخليل كان أبو قطبة يستغلّ ثلاثة آلاف دينار . وكان من البخل يؤخِّر تنقية بالوعته ، إلى يوم المطر الشديد ، وسَيْل المثاعب [2] ، ليكتري رجلاً واحدَ فقط ، يُخرجُ ما فيها ، ويصبُّه في الطريق ، فيجترِفُه السيلُ ، ويؤدِّيه إلى القناة . وكان (بين) [3] موضِع بئره والصبِّ قدر مئتي ذراع فكان لمكان زيادة دِرهمَين يحتَمِل الانتظار شهراً أو شهرين وإن هو جرى في الطريق وأُذِيَ به الناس !

وقال : ونَظر يوماً إلى الكسَّاحين ، وهو معنا جالس في رجال من قريش وهم يُخرجون ما في بالوعته ، ويرمون به في الطريق ، وسيْلُ المثاعب يحتمِله ، فقال : أليس البطُّ والجداء والدجاج والفِراخ والدرَّاج وخبزُ الشعير والصَّحْناء والكرَّاث

---

(١) هذا العنوان ليس بالأصل

(٢) المثاعب : جمع مثعب وهو مجرى ماء المطر

(٣) مزيدة .

والجُواف جميعاً يصيرُ الى ما ترون؟ فلم يُغالى بشيء يصير هو والرخيصُ في معنى واحد؟

قال الخليل: وسَمِعتُه يقولُ: إياكم والفَساء في ثيابكم التي تخرجون فيها، وفي لُحُفُكم التي تنامون فيها، فانّ الفساء يدرّ القمل. إني والله ما أقول إلا بعلم. ثم قال علمتم أنّ الصوتَ يدبغ؟ قلنا. وكيفَ صار الصوتُ يدبغ؟ قال: الفسوة هي الضرطةُ بلا صوت، وإنما تخرجان جميعاً من قارورة[1] واحدة، فكيفَ تكون واحدةٌ طيبة، وأخرى مُنتنة؟ فهذا الذي يدلكم أن الصوتَ هو الذي يدبغُها.

قال: وهم ثلاثة إخوة: أبو قطبة، والطيل، ويابى، من ولد عتّاب بن أسيد[2] واحدٌ منهم كان يحجُّ عن حمزة، ويقول: استشهد قبلَ أن يحجّ. والآخر كان يضحّي عن أبي بكر وعمر، ويقولُ: أخطأ السنّة في ترك الضَحية. وكان الآخرُ يُفطِر عن عائشة أيام التشريق، ويقول: غلطت — رحمها الله — في صَوْمها أيام العيد، فمن صام عن أبيه وأمه

(١) قاذورة: دي جوبه. وما أثبتناه هو الصحيح. وراجع الحيوان ج ٧ ص ٥٧.

(٢) هو عتاب بن أبي العيص بن أميه صحابي، اسلم يوم فتح مكة واستعمله الرسول ﷺ على مكة وأقره عليها ابو بكر

فأنا أفطر عن عائشة [1] .

* * *

حدثتني امرأة تعرفُ الأمورَ قالت :

كان في الحيِّ مأتم اجتَمَعَ فيه عجائز الحي ، فلما رأين أن أهلَ المأتمَ قد أقمن المناحة ، اعتزلنَ وتحدَّثن . فبيناهنَّ في حديثهن ، إذ ذكرن برَّ الأبناء بالأمهات وإنفاقهم عليهنَّ . وذكرت كلُّ واحدةٍ منهنَّ مايوليها ابنُها . فقالتْ واحدةٌ منهن ، وأم فيلويه ساكتة ، وكانت امرأة صالحة ، وابنها يظهر النُسك ، ويدين بالبخل ، وله حانوت في مقبرة بني حِصن ، يبيع فيها الأسقاط .

قالت : فأقبلت على أمّ فيلويه ، قالت لها : مالكِ لاتحدّثين معنا عن ابنِك كما يتحدثن ؛ وكيفَ صنع فيلويه فيما بينَكَ وبينه ؛ قالت : كان يُجْري عليَّ في كلّ أضحى دِرْهماً ؛ ثم قالت : وقد قطعه أيضاً . فقالت لها المرأة : وما كان يجري عليك إلا دِرهماً ؛ قالت : ماكان يُجري عليَّ إلا ذاك ، ولقد ربما أدخل

---

(١) راجع القصة في العقد الفريد ج ٦ ص ١٥٨ ط لجنة التأليف فقد رويت باختلاف بعض الالفاظ .

أضحى في أضحى . فقالت : فقلت : يا أمّ فيلويه ! وكيف يدخل أضحى في أضحى ؟ قد يقولُ الناس : إن فلاناً أدخل شهراً في شهر ، ويوماً في يوم ، فأما أضحى في أضحى ، فهذا شيء لابنك لايشركه فيه أحد !

* * *

قصة تمام بن جعفر

كان تمّام بنُ جعفر بخيلاً على الطعام، مفرط البخل. وكان يُقبِلَ على كلِّ من أكل خبزه بكلِّ علّة، ويُطالبهُ بكلّ طائلة. وحتى ربما استخرَج عليه أنه كان حلال الدم.

وكان أن قال له نديم له «ما في الأرض أحدٌ أمشَى منيّ، ولا على ظَهرها أحدٌ أقوى على الحُضر مني». قال: «وما يمنعُك من ذلك، وأنت تأكل أكلَ عشرة؟ وهل يحملُ الرجلَ إلا البطنُ؟ لاحمدَ لله من يحمَدك». فأن قال: «لا والله! إن [1] أقدر أن أمشي، لأني أضعفُ الخلق عنه، وإني لأنبهر مِن مَشْي ثلاثين خطوة» قال: «وكيف تمشي وقد جعلتَ في بطنك ما يحملهُ عِشرون حمالاً؟ وهل ينطلقُ الناس إلا مع خفة الأكل؟ وأيْ بطين يقدرُ على الحركة؟ وإنّ الكظيظ ليعجزُ عن الركوع والسجود، فكيفَ بالمشي الكثير؟»

(١) إن هنا نافية.

فان شكا ضِرسَه وقال : « ما نمتُ البارحةَ مع وجعه وضَربانه » قال : « عجبتُ كيف اشتكيْتَ واحداً ، وكيف لم تشتَكِ الجميع ؟ وكيفَ بقيتْ إلى اليوم في فيك حاكّة ؟ وأي ضرس يقوى على الدرس والطحن ؟ والله إن الأرحاء السورية لتكل ، وان المنحاز الغليظ ليتعبُه الدقّ . ولقد استبطأتُ لك هذه العلة . إرفقْ ، فان الرفق يُمنٌ ، ولا تخرَقْ بنفسك فانّ الخرْق شؤم » وإن قال : « لا والله ، إن اشتكيت ضرساً لي قطّ ، ولا تحلحلَ لي سنٌ عن موضعه ، منذ عرفتُ نفسي » قال : « يامجنون ! لأن كثرة المضغ تسدّ العمور ، وتقوّي الأسنان ، وتدبغُ اللثة ، وتغذو أصولها ، وإعفاء الأضراس مع التمضّغ يُريحها ، وإنما الفمُ جزء من الانسان . وكما أن الانسانَ نفسَه إذا تحرّك وعمِل قوي ، وإذا طال سكونه تفتّح [1] واسترخى ، فكذلك الأضراس . ولكن رفقاً ، فان الأتعاب ينقص القوّة ، ولكلِّ شيء مقدارٌ ونهاية . فهذا ضرسُك لا تشتكيه ، بطنُك أيضاً لا تشتكيه » ؟

فان قال : « والله ! إن أروى من الماء ، وما أظنّ أنّ

---

(١) تفتح : لان .

في الدنيا أحداً أشرب مني للماء » . قال « لا بدَّ للتراب من ماء ولا بدَّ للطين من ماء يبلّه ويَرويه . أو ليست الحاجة على قدر كثرته وقلته . والله لو شربتَ ماءَ الفرات ما استكثرتُه لك، مع ما أرى من شدة أكلك ، وعِظم لقمتك . تدري ماقد تصنع ؟ أنت والله تلعب . أنت لست ترى نفسك ، فسلْ عنك من يصدّقك ، حتى تعلَم أنَّ ماء دجلة يقصُر عما في جَوْفك » . فان قال : « ما شربتُ اليومَ ماءً ألبتة ، وما شربتُ أمس بمقدار نصف رطل ، وما في الأرض إنسانٌ أقلَّ شرباً مني للماء » قال : « لأنّك لاتدعُ لشُرب الماء مَوْضعاً ، ولأنك تكنزُ في جوفك كنزاً لا يجدُ الماء معه مدخلاً . والعجبُ لاتتخم ! لأنَّ من لايشرب الماء على الخِوان ، لايدري مقدار ما أكل ومن جاوز مِقدار الكفاية ، كان حرياً بالتخمة » .

فان قال : « ما أنامُ الليل كلّه ، وقد أهلكني الأرَق » قال : « وتدعُك الكظّة والنَفخة والقرقرة أن تنام ؟ والله لو لم يكن إلا العَطش الذي ينبّه الناس لما نمت ، ومن شرب كثيراً، بال كثيراً ، ومن كان الليلَ كلّه . بين شُرب و بول ، كيف يأخذه النوم ؟ » فان قال : « ما هو إلا أن أضعَ رأسي ، فانما

أنا حجر ملق إلى الصبح » . قال « ذلك لأن الطعام يسكر ويخدِّر ويختر ، ويبلُّ الدماغَ ، ويبلّ العروق ، ويسترخي عليه جميعُ البدَن . ولو كان في الحقِّ ، لكان ينبغي أن تنامَ الليل والنهار » .

فان قال : أصبحتُ وأنا لا أشتهي شيئاً . قال « إياك أن تأكل قليلاً ولا كثيراً ، فان أكلَ القليل على غير شهوة أضرُّ من الكثير مع الشهوة ، قال الخوانُ : وبلْ لي ممن قال لا أريد . وبعدُ ، فكيف تشتهي الطعامَ اليوم ، وأنت قد أكلت بالأمس طعام عشرة ؟ »

وكان كثيراً ما يقولُ لندمائه « إياكم والأكل على الخُمار ، فانَّ دواء الخمار الشرابُ ، الخمار تخمَة ، والمتخم إذا أكل مات لامحالة . وإياكم والإكثارَ في عقِب الحِجامة ، والفصد والحمّام . وعليكم بالتخفيف في الصيف كلّه واجتنبوا اللحم خاصّةً . »

وكان يقول : ليسَ يفسدُ الناسَ إلا الناسُ ! هذا الذي يضرُط ، ويتكلم بالكلام البارد ، وبالطُرَف المستنكرة ، لو لم يُصبْ من يضحك له ، وبعضَ من يشكُره ، ويتضاحك

له ، أو ليس هو عنده إلا أن يظهر العجب به ، لما ضرط الضارط ، ولا تكلف النوادر إلا أهله ، قولُ الناس للأكول النَّهِم ، وللرَّغيبِ الشَّرِه : (فلانٌ حسنُ الأكل) هو الذي أهلكه ، وزاد في رغبته ، حتى جعلَ ذلك صناعةً ، وحتى ربما أكل — لمكان قولهم وتقريبهم وتعجُّبهم — مالا يطيقُه فيقتله . فلا يزالُ قد هجم على قومٍ ، فأكل زادهم ، وتركهم بلا زاد . فلو قالوا — بدل قولِهم فلانٌ حسَنُ الأكل — : فلانٌ أقبحُ الناس أكلاً ، كان ذلك صلاحاً للفريقَين .

ولا يزال البخيلُ على الطعام ، قد دعا الرغيبَ البطنِ ، واتخذ له الطعام الطيِّب ، لينفي عن نفسه المقالة ، وليكذِّب عن نفسه تلك الظنون . ولو كان شدَّة الضرس يُعَدُّ في المناقب ، ويمدحُ صاحبهُ به في المجالس ، لكانت الانبياء آكل الخلق ، ولخصَّهمُ الله جلَّ ذكره من الرُّغبة بما لم يُعطه أحداً من العالمين . وكيف ، وفي مأثور الحديث أن : « المُؤمنُ يأكلَ في معىٍ واحدٍ ، وأن المُنافِقَ يأكُلُ في سبْعَةِ أمْعَاء » ؟ أولسنا قد نراهم يشتمون بالنَّهَم وبالرُّغبة ، وبكثرة الأكل ، ويمدحون بالزهادة وبقلّة الطعام ؟ أوليس قد قال

النبي ﷺ : « مَنْ أَدُلُّهُ من الحَسْناء القَتِين [1] ؟ » وقد سابَّ رجلٌ أيوبَ بن سليمان بن عبد الملك فقال في بعض ما يسبه : ماتت أمك بَغَراً [2] ، وأبوك بشماً .

وبعدُ ، فهل سمعتم بأحدٍ قطْ فخر بشدّة أكل أبيه. فقال : أنا ابنُ آكل العرب ؛ بل قد رأينا أصحابَ النبيذ والفتيانَ يمتدحون بكثرة الشرب ، كما يمتدحون بقلّة الرزء ، ولذلك قالت العربُ [3] ، قال الشاعر :

تَكْفيه فِلْذَةُ [4] كَبْدٍ إنْ أَلَمَّ بِهَا
مِنَ الشِّوَاءِ وَيُرْوِي شُرْبَهُ الغُمَرُ [5]

وقال :

---

(١) القتين : القليل الاكل .

(٢) البغر : الشرب بلا روي . وعن الاصمعي : البغر داء يأخذ الابل فتشرب فلا تروى ، وتمرض عنه فتموت .

(٣) قالت العرب : كذا بالأصل وهي زائدة .

(٤) الفلذة بالكسر : القطعة من الكبد .

(٥) الغمر بالضم : كصود : القدح الصغير .

لايتأرّى [1] لما في القدْرِ يَطْلُبُهُ [2]

وَلاَ تراهُ أمام القَوْمِ يقتَفِرُ [3]

وقال :

لا يغمِزُ السَّاقَ من أينٍ [4] ولا وَصَمٍ

ولا يعضُّ على شُرْسُوفِهِ [5] الصَّفَرُ [6]

(والصفر : هي حيات البطون ، إنما تكون من الفُضول والتخم ، ومن الفساد والبَشَم [7] .

---

(١) تأريت بالمكان : إذا أقمت به . وتقدير أرى، من الفعل فاعول وقوله لايتأرى لما في القدر : أي لايتحراه لعفته وطيب نفسه . وفي الامالي ج ٢ ص ٢٠١ : أرى بالمكان وتأرى : إذا احتبس .

(٢) في الكامل والأمالي وأدب الكاتب : يرقبه .

(٣) يقتفر : أي يتقدم أصحابه فينظر لهم الآثار .

(٤) الأين : الاعياء والتعب .

(٥) الشرسوف وجمعها شراسيف : اطراف الاضلاع .

(٦) الصفر : حية تكون في الجوف ، إذا جاع الانسان عضت على شراسيفه . وهذا من مزاعم الجاهلية .

(٧) هذه الأبيات الثلاثة من قصيدة لأعشى باهلة وهو ابو قحفان ويقال ابو قحافه ، عامر بن الحارث مطلعها :

إني أتتني لسان لا أسر بها … بن عل لا عجب منها ولا سخر

وقد وهم محقق الأمالي إذ اعتبر مطلع هذه القصيدة البيت : —

وشَرِب تمرَّةً النبيذ ، وغنّاه المغنّي ، فشقّ قميصه من الطرَب ، فقال لمولى له يقال له (المحلول)[1] وهو إلى جنبه : « شُقَّ أيضاً أنتَ — ويلك — قميصك — ! » والمحلول هذا من الآيات — قال : « لا والله ! لاأشقّه . وليسَ لي غيره » . قال : «فشقّه ، وأنا اكسوك غداً » . قال : «فأنا أشقّه غداً » ، قال : « أنا ما أصنع بشقّك له غداً » ؟ قال « وأنا ما أرجو من شقه الساعة» .

فلم أسمع بانسان قطُّ يقايسُ ويناظِر في الوقت الذي إنما

— وجاشت النفس لما جاء جمعهم ورا كب جاء من تثليث معتمر

إذ ورد قبل هذا البيت بيتان من القصيدة ومطلعها إني اتني . . . ولا سخر وبيت آخر . والقصيدة في رثاء اخ الشاعر لأمه المنتشر بن وهب الباهلي ويقال أن هذه القصيدة لاخت المنتشر . والقصيدة في ديوان الأعشيين : ٢٦٦ والأصمعيات : ٣٢ . واليزيدي في آماليه : ١٣ . وشرحها المبرد في الكامل ج ٣ : ٢٧٣ ط صبيح . وورد منها ابيات على غير سياقة الرواية في طبقات فحول الشعراء : ١٧٥ وفي الأمالي ج ٢ ص ٢٠١ دار الكتب وفي ادب الكاتب ص ٤٠ ط مصطفى محمد : اخذ صدر البيت الثاني وجمعه مع عجز البيت الثالث بحيث أصبح يقرأ :

لايتأرى لما في القدر يرقبه ولا يعض على شرسوفه الصفر

وقال الصاغاني : هكذا وقعت الرواية في أكثر كتب اللغة ، واخذ بعضهم عن بعض . وفي هامش لسان العرب روى البيتان كما هو بالاصل .

(١) لعله رجل يمتهن الصيرفة . وراجع البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٣٧ ط السندوبي .

يشقّ فيه القميصَ من غلبة الطرب، غيرَه وغير مولاه محلول.

* * *

دخل عليٌّ الأعمى على (يُوسف بن كلّ خير)، وقد تغدّى، فقال: «ياجارية هاتي لأبي الحَسن غداء». قالت: «لم يبق عندنا شيء». قال: «هاتي — ويلك — ما كان، فليس من أبي الحسن حشمة». ولم يشكّ عليٌّ أنه سيؤتى برغيف ملطّخ، وبرقاقة ملطخّة، وبسكّر، وبقيّة مرق، وبعَرْق، وبفضلة شواء، وببقايا ما يفضُل في الجامات، والسكرّجات. فجاءت بطبق ليس عليه إلا رغيف أرز قاحل، لاشيء غيره، فلما وضعوا الخِوان بين يديه، فأجال يده فيه — وهو أعمى — فلم يقع إلا على ذلك الرغيف. وقد علم أن قوله (ليس منه حِشمة) لا يكون إلا مع القليل. فلم يظن أنّ الأمر بلغ ذلك. فلما لم يجدْ غيره، قال: «ويلكم! ولا كل هذا بمرّة، رفعتم الحشمة كلها. والكلامُ لم يقعْ إلا على هذا».

* * *

حدّثني محمد بن حسّان الأسود قال: أخبرني زكريّا القطّان، قال: كان للغزّال قطعة أرض قُدام حانوتي فأكرى

نصفها من سمّاكٍ يسقط عنه ما استطاعَ من مؤنة الكِراء .

قال : وكان الغزّال أعجوبةً في البُخل ، وكان يجيء من منزله ومعه رغيف في كمه ، فكان أكثر دهره يأكله بلا أدم ، فاذا أعيى عليه الأمر ، أخذ من ساكنه جُوافة [١] بحبة ، واثبتَ عليها فلساً في حسابه ، فاذا أراد أن يتغدّى أخذ الجُوافة فمسحها على وجه الرغيف ، ثم عضّ عليه . وربما فتح بطن الجوافة ، فيطر جنبيها وبطنها باللقمة بعد اللقمة ، فاذا خاف أن يُنهكها ذلك ، وينضمّ بطنها . طلب من ذلك السمّاك شيئاً من ملح السمك فحشا جَوْفها لينفُخها ، وليوهِمَ أن هذا هو مِلحها الذي ملّحت به ، ولربما غلبته شهوته فكدَمَ [٢] طَرْف أنفها ، وأخذ من طرف الأرنبة مايُسيغ به لقمته ، وكان ذلك منه لايكون إلا في آخر لقمة ، ليطيّب فمه بها ، ثم يضعُها في ناحية . فاذا

---

(١) جوافة جمع جواف بالضم والتخفيف : ضرب من السمك وليس من جيده . الحيوان للدميري ج ١ ص ٢٢٤ ط مصطفى محمد . وذكره الجاحظ في الحيوان وقال انه من الانواع تجيء دجلة البصرة من أقصى البحار ، تستعذب الماء في ذلك الأبان . كأنما تحمض بحلاوة الماء وعذوبته بعد ملوحة البر .

(٢) كدم : عضها بأدني الفم . وحمار مكدم : معضض .

اشترى من امرأة غزْلاً ، أدخل تلك الجُوافة في ثمن الغزل من طريق إدخال العُروض ، وحسبها عليها بفلس ، فيسترجعُ رأس المال ويفضل الأدم .

* * *

وروى أصحابنا عن عبد الله بن المقفع ، قال :

(كان) [1] ابنُ جذام الشبي يجلس إليَّ . وكان ربما انصرف معي إلى المنزل ، فيتغدى معنا ، ويقيمُ إلى أن يُبرد . وكنت أعرفه بشدّة البخل ، وكثرةِ المال ، فألحَّ عليَّ في الاستزارة ، وصمّمت عليه في الامتناع ، فقال : جُعلت فداك ! أنت تظنُّ أني ممن يتكلف ، وأنت تُشفِق عليَّ ؟ لا والله ! إن هي إلا كُسَيْرات يابسة ، وملح ، وماء الحب ! فظننتُ أنه يريد اختلابي بتهوين الأمر عليه . وقلتُ : إن هذا كقولِ الرجل : ياغلام ! أطعِمنا كِسرةً ، وأطعم السائلَ خمس تمرات . ومعناه أضعافُ ما وقع اللفظُ عليه ، وما أظنُّ أن أحداً يدعو مثلي الى الحربية [2]

---

(١) مزيدة وساقطة في الاصل .

(٢) الحربية : موضع ببغداد . ولعل ما جاء في الاصل وهم من النساخ إذ أن بغداد أسست أيام أبي جعفر المنصور وابن المقفع قتل عام ١٤٢ هـ -

من الباطنة [1] . ثم يأتيه بكِسرات وملح . فلما صرت عنده وقرّبه إليّ ، إذ وقف سائل بالباب ، فقال : أطعمونا مما تأكلون أطعمكم الله من طعام الجنة . قال : بورِكَ فيك ! فأعاد الكلام فأعاد عليه مثل ذلك القَوْل ، فأعاد عليه السائلُ ، فقال إذهب ويلك ! فقد ردّوا عليك . فقال السائل : سبحان الله ! مارأيت كاليوم أحداً يردّ من لقمة ، والطعامُ بين يديه . قال إذهب – ويلك – وإلا خرجتُ إليك – والله – فدققتُ ساقيك . قال السائل : سبحان الله ! ينهى الله أن يُنهر السائل ، وأنت تدُق ساقيه ؟ فقلت للسائل : إذهبْ وأرِح نفسك فانك لو تعرف من صدق وعيده مثل الذي أعرفُ ، لما وَقفْت طَرفة عين بعد ردّه إياك [2] .

* * *

– والصحيح انها الخريبة « بلفظ التصغير » : موضع بالبصرة وعنده كانت وقعة الجمل بين علي وعائشة . (انظر معجم البلدان والعقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٠) .

(١) الباطنة من البصرة والكوفة مجتمع الدور والاسواق في قصبتها (انظر لسان العرب) .

(٢) راجع القصة في البيان والتبيين ج ٢ ص ١٦٠ فقد وردت مختصرة . وراجع أيضاً العقد الفريد والمحاسن والمساوى للبيهقي ج ١ ص ١٩٨ ط الخانجي .

وكان أبو يعقوب الذقنان يقول : ما فاتني اللحمُ منذ ملكتُ المال . وكان إذا كان يومُ الجمعة اشترى لحمَ بقر بدرهم واشترى بصلاً بدانق ، وباذنجاناً بدانق ، وقرعة بدانق . فإذا كان أيام الجزر فجزراً بدانق ، وطبخه كلّه سكباجاً ، فأكل وعياله يومئذ خبزهم بشيء من رأس القدر ، وما ينقطعُ في القدر من البصل والباذنجان والجزر والقرع والشحم واللحم . فإذا كان يومُ السبت ثرَّدوا خبزهم في المرق ، فإذا كان يومُ الأحد ، أكلوا البصل ، فإذا كان يوم الاثنين ، أكلوا الجزر فإذا كان يوم الثلاثاء ، أكلوا القرع ، فإذا كان يوم الأربعاء أكلوا الباذنجان ، فإذا كان يومُ الخميس ، أكلوا اللحم. فلهذا كان يقول : ما فاتني اللحم منذ ملكتُ المال .

قال أصحابنا نزلنا بناس من أهل الجزيرة ، وإذا هم في بلاد باردة ، وإذا حطبهم شرُّ حطب ، وإذا الأرض كلّها غابة واحدة طَرفاء ، فقلنا : « ما في الأرض أكرم من الطرفاء » قالوا : « هو كريم ، ومن كرمه نفرُّ » . فقلنا « وما الذي تفرُّون منه ؟ » قالوا : « دخانُ الطرفاء يهضم الطعام ، وعيالنا كثير » .

وقد عاب ناسٌ أهل المازح والمدبر[1] بأمور ، منها : ان خشكنانهم[2] من دقيق شعير ، وحشوه — الذي فيه من الجوز والسكر — من دقيق خشكار . وأهلُ المازح لايعرفون بالبخل ، ولكنهم أسوأ الناس حالاً ، فتقديرُهم على قدْر عيشهم .

وإنما نحكي عن البُخلاء الذين جمعوا بين البُخل واليسر وبينَ خصْب البلاد وعيش أهل الجدْب . فأما من يضيّق على نفسه لأنه لايعرفُ إلا الضيق ، فليس سبيله سبيل القوم .

* * *

قال المكي : كان لأبي عم يقال له سليمان الكثريّ ، سمّي بذلك لكثرة ماله . وكان يقرّبني وأنا صبي ، إلى أن بلغت . ولم يهبْ لي مع ذلك التقريب شيئاً قطّ . وكان قد جاوز في ذلك حدّ البخلاء . فدخلتُ عليه يوماً ، وإذا قُدّامه قطع دار صيني لاتسْوى قيراطاً ، فلما نال حاجته منها ، مددتُ يدي لآخُذَ

---

(١) المازح والمدبر : موضعان قرب الرقة . اسكن فيها معاوية اخلاطا من قيس وأسد . وفي معجم البلدان المازحين لا المازح .

(٢) في المعرب ص ١٣٤ : إن العرب قد تكلمت بها قال الراجز:

يا حبذا الكعك بلحم مثرود   وخشكنان وسويق مقنود

ولعله كما يدل سياق البحث انه نوع من الكعك محشو بالجوز والسكر .

منها قطعة ، فلما نظر إليّ قبضتُ يدي . فقال « لا تنقبض وانبسط واسترسل ، وليَحْسُنْ ظنّك ، فان حالك عندي على ما تحب ، فخذه كلّه ، فهو لك بزَوبره وبحذافيره ، وهو لك جميعاً . نفسي بذلك سخيّة ، والله يعلمُ أني مسرور بما وصل اليك من الخير » . فتركتهُ بين يديه ، وقمتُ من عنده ، وجعلته وجهي — كما أنا — إلى العراق . فما رأيته وما رآني حتى مات

وقال المكي : سمعني سليمان ، وأنا أُنشد شعر امرئ القيس :

الا غَنَمٌ نسوّقُها غزارُ ... كأنّ قُرونَ جلّتها العصِيْ
فتملأُ بيتنا أقطاً وسمناً ... وحسبُك من غنى شبعٌ وريْ[(1)]

قال : لو كان ذكر مع هذا شيئاً من الكُسوة ، لكان جيداً .

وهو الذي قال ليحيى بن خالد — حين نقب في أبي قُبيس، وزاد في داره — : عَمدت إلى شيخ الجبال فزعزعته ، وثلمتَ فيه .

---

(1) من أبيات لامرئ القيس قالها حين ذهبت إبله وبقيت غنمه وكانت معزى . وفي الديوان نسومها بدلاً عن نسوقها . ويروى بدلاً عن فتملأُ بيتنا أقطاً ... فتوسع اهلها اقطا ... وراجع الابيات في الديوان ص ١٤٩ ط السندوبي وشعراء النصرانية ص ٢٢ و ٦٨ وامثال الميداني ص ١٣٢ والامالي ج ١ ص ١٨ وسمط اللآلي ج١ ص٥٨ والحيوان ج ٥ ص ٤٩٥ ط الحلبي ، وعيون الاخبار ج ٢ ص ٧٦ .

وقال حينَ عوتب في قلّة الضَحك وشدَّة القطوب : إن الذي يمنعُني من الضحك أنَّ الانسان أقربُ ما يكون من البذل إذا ضَحِك وطابتْ نفسه .

* * *

صحبني محفوظ النقّاش من مسجد الجامع ليلاً ، فلما صرت قرب منزله — وكان منزلهُ أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي — سألني أن أبيت عنده ، وقال « أين تذهبُ في هذا المطر والبرد ، ومنزلي منزلُك ، وأنتَ في ظُلمة ، وليس معك نار ، وعندي لِبأٌ [1] لم ير الناسُ مثله ، وتمرٌ ناهيك به جَوْدة لاتصلح إلا له » . فملتُ معه ، فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر ، فلما مددتُ [2] قال : « يا أبا عثمان ! انه لبأ وغِلَظة وهو الليلُ وركودُه ، ثم ليلةُ مطرٍ ورطوبة ، وانتَ رجلٌ قد طعَنْتَ في السنّ ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً ، وما زال الغليل يُسرع اليك . وانت في الأصل لستَ بصاحب عَشاء ،

(١) يقال التبأت الشاة ولبأتها : احتلبت لبأها . قال ابن هرمة :

لست بذي ثلة مؤبلة   أخذ البانها وألباءها

ولبأت القوم : سقيتهم اللبأ .

(٢) أي مددت يدي .

فان أكلتَ اللبأ ولم تبالغ ، كنت لا آكلاً ولا تاركاً ، وحرشت طباعك ثم قطعتَ الأكل أشهى ما كان اليك . وإن بالغت بتنا في ليلة سوء ، من الاهتمام بأمرك . ولم نعدّ لك نبيذاً ، ولا عسلاً . وإنما قلتُ هذا الكلام ، لئلا تقول غداً : كانَ وكان . والله قد وقعتُ بين نابي أسد . لأني لولم أجئك به ، وقد ذكرته لك ، قلت : بَخِيل به ، وبدا له فيه . وإن جئت به ولم أحذّرك منه ، ولم اذكرك كل ماعليك فيه قلتَ لم يُشفِق علي ولم ينصح فقد برئتُ إليك من الأمرين جميعاً ، فان (١) شئتَ فأكلة وموتة ، وإن شئتَ فبعضُ الاحتمال ، ونوم على سلامة » .

فما ضحكتُ قط كضَحِكي تلك الليلة ، ولقد أكلتهُ جميعاً ، فما هضَمه إلا الضَحِك والنشاط والسرور فيما أظنّ . ولو كان معي من يفهمُ طيب ما تكلّم به ، لأتى عليّ الضحك أو لقضى عليّ ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر (٢) مشاركة الأصحاب .

* * *

(١) فان فلوتن : وإن .

(٢) كذا بالاصل . ولعلها : إلا على شكل .

(و)[1] قال ابو القماقم أول الاصلاح ألا يرد ما صار في يدي لك . فان كان ما صار في يدي لي ، فهو لي ، وإن لم يكن لي ، فأنا أحق به ممن صيّره في يدي . ومن أخرج من يده شيئاً إلى يد غيره من غير ضرورة ، فقد أباحه لمن صيَّره اليه . وتعريفك[2] إياه ، مثل إباحته .

وقالت له امرأة : ويحك يا أبا القماقم ! إني قد تزوجت زوجاً نهارياً ، والساعة وقته ، وليست علي هيئة ، فاشتر لي بهذا الرغيف آساً ، وبهذا الفلس دهناً ، فانك تؤجر . فعسى الله ان يلقيَ محبتي في قلبه ، فيرزقني على يدك شيئاً أعيش به ، فقد والله ساءت حالي ، وبلغ المجهودُ مني . فأخذهما ، وجعله وجهه . فرأته بعدَ أيام ، فقالت : سبحان الله ! أما رحمتني مما صنعتَ بي ؟ قال : ويحك ! سقط والله مني الفلس ، فمن الغم أكلتُ الرغيف .

وتعشق واحدةً ، فلم يزل يتبعها ، ويبكي بين يديها ، حتى رحمته ، وكانت مكثرة ، وكان مقلاً . فاستهداها هريسة ،

---

(١) و : مزيدة عن فان فلوتن .

(٢) كذا بالاصل : وتقريبك : مارسيه ، وفي نسخة : وتفريقك .

وقال : أنتم أحذقُ بها . فلما كان بعدَ أيام ، تشهّى عليها رؤوساً ، فلما كان بعد قليل طلب منها جيْسة . فلما كان بعد ذلك ، تشهى عليها طفيشلة [١] ، قالت المرأة : رأيت عشق الناس يكونُ في القلب ، وفي الكبد ، وفي الاحشاء ، وعشقك أنت ليس يجاوزُ معِدتك .

وقال أبو الاصبغ ألحّ أبو القاقم على قوم عند الخِطبة اليهم ، يسأل عن مال المرأة ، ويحصيه ، ويسأل عنه ، فقالوا : قد أخبرناك بمالها ، فأنت أيّ شيءْ مالك ؟ قال : وما سؤالكم عن مالي ؟ الذي لها يكفيني ويكفيها .

* * *

سمعت شيخاً من مشايخ الأُبُلّة [٢] يزعم أنّ فقراء أهل البصرة ، أفضلُ من فقراء أهل الأبُلّة ، قلت : بأي شيءْ فضلتهم قال : هم أشد تعظيماً للأغنياء ، وأعرف بالواجب .

ووقع بين رجلين أُبُلّيين كلام ، فأسمع أحدهما صاحبَه

---

(١) الطفيشل : نوع من المرق .

(٢) الأبلة : مدينة تقع على شاطئ دجلة البصرة في زاوية الخليج ويخرج منها نهر يسمى نهر الابلة يضرب الى البصرة .

كلاماً غليظاً ، فردَّ عليه مثل كلامه ، فرأيتهم قد أنكروا ذلك إنكاراً شديداً ، ولم أر لذلك سبباً فقلت : لم أنكرتم أن يقولَ له مثلَ ما قال ؟ قالوا : لأنه أكثرُ منه مالاً ، وإذا جوّزنا هذا له ، جوّزنا لفقرائِنا ان يكافئوا اغنياءنا ، في هذا الفساد كلّه.

وقال حَمْدان بن صباح : كيف صار رِياحٌ يسمعُني ، ولا أسمعه ، (أفهو) [1] أكثرُ مالاً مني ؟ ثم سكت !

قال : ويكونُ الزائر من أهل البَصرة عند الأبلّي مقيماً مطمئناً ، فاذا جاء المدُّ قالوا : ما رأينا مدّاً قطُّ ارتفع ارتفاعه وما أطيبَ السيرَ في المدِّ ، والسيرُ في المدِّ إلى البصرة أطيبُ من السيْر في الجزر إلى الأبلّة ، فلا يزالون به حتى يرى أنَّ من الرأي أن يغتنم ذلك المدَّ بعينه .

كان أحمد بنُ الخاركي [2] بخيلاً ، وكان نفّاجاً ، وهذا

---

(١) مزيدة .

(٢) الخاركي بالخاء المعجمة كما جاء في معجم الشعراء للمرزباني ص ٤٣١ وهو احمد بن اسحاق الخاركي ، شاعر من العصر العباسي عاش أيام المأمون ينسب إلى خارك وهي جزيرة من جزر البحر الفارسي . وترجم له ابن الجراح في الورقة ص ٥٦ و ٥٨ بعناية عبد الوهاب عزام وقال عنه : شاعر خبيث سفيه ماجن . وذكر في الاغاني ج ١٨ ترجمة دعبل . وقال ابن النديم : ان شعره خمسون ورقة .

أغيظُ ما يكون ، وكان يتّخذ لكلّ جُبّة أربعةَ أزرار ، ليُري الناس أن عليه جُبّتين ، ويشتري الأعذاقَ والعراجين والسَّعف من الكلاء ، فاذا جاء الحمّال الى بابه ، تركه ساعةً يوهم الناس أنّ له من الارضين مايحتمل أن يكون ذلك كلّه منها ، وكان يكتري قُدور الخمّارين التي تكون للنبيذ ، ثم يتحرّى أعظمها ، ويهربُ من الحمّالين بالكِراء ، كي يُصيحوا بالباب : يشترون الذاذي [1] والسُّكّر ، ويحبسون الحمالين بالكِراء ؛ وليس له في منزله رطل دِبس ، وسمع قول الشاعر :

رأيتُ الخبز عزّ لديك حتى حسبت الخبز في جوّ السحابِ
وما روّحتنا لتذُبّ عنا ولكن خفت مرزئة الذُّباب

فقال : ولم ذبّ عنهم — لعنه الله ! — (والله) [2] ما أعلم إلاّ أنه شهّى اليهم الطعام ، ونظف لهم القصاع ، وفرّغهم له ، وسخرهم عليه . ثم ألا تركها تقعُ في قِصاعهم . وتسقُط على

---

(١) الذاذي : نبت له عنقود مستطيل ، وحبه على شكل حب الشعير يوضع منه مقدار رطل في الفرق فتعبق رائحته ويجود إسكاره قال :

شربنا من الذاذي حتى كأننا ملوك لنا برُّ العراقين والبحر

راجع تاج العروس .

(٢) مزيدة عن فان فلوتن .

آنافهم وعُيونهم ؟ هو والله أهل لما هو أعظم من هـذا [1] !
كم ترون من مرَّة ، قد أمرتُ الجارية أن تلقي في القَصْعة
الذبابةَ والذبابتين والثلاثة ، حتى يتقزَّز بعضُهم ويكفي الله شرَّه .

قال : وأما قوله :

« رأيت الخبز عزَّ لديك حتى »

قال : فان لم أعزَّ هذا الشيءَ الذي هو قِوام أهل الأرض ،
وأصلُ الأقوات ، وأمير الأغذية . فأيَّ شيءٍ أعِزّ ؟ أي والله
إني أعزُّه وأعزّه وأعزّه وأعزّه مدى النفس ، ما حملتْ عيني الماء .

وبلغ من نفْجِهِ مع ذلك ما خبَّرني به إبراهيم بنُ
هانيءٍ [2] قال :

كنتُ عندَه يوماً ، إذ مرَّ به بعضُ الباعة ، فصاح :

---

(١) في الأصل : (أنت أيضاً دون) بعد : من هذا . ولعلها مقحمة خطأً إذ ان المعنى بدونها يكمل وبها يضرب المعنى .

(٢) لم أعثر على ترجمة له سوى أن الجاحظ قال عنه في البيان والتبيين ج ١ ص ٩١ السندوبي : كان ماجناً خليعاً ، كثير العبث متمرداً. واستشهد له بكلام عما يجب ان يكون عليه القصاص والمغني وآلته . وفي العقد الفريد ج ٦ ص ٢٨٨ وصف له بمنافع التفاح . ويظهر من كل هذا أنه عاش في العصر العباسي أيام المأمون .

« الخوْخ ! الخوْخ » فقلتُ : «وقد جاء الخوْخ بعد ؟ » قال : « نعم ! قد جاء ، وقد اكثرنا منه » . فدعاني الغيظُ عليه إلى أن دعَوْت البيّاع ، وأقبلتُ على ابن الخاركي ، فقلتُ : « ويحَك ! نحنُ لم نسمع به بعدُ ، وأنت قد أكثرت منه ؟ وقد تعلمُ أن أصحابنا أترفُ منك ؟ ثم أقبلتُ على البيّاع ، فقلت : « كيف تبيع الخوخ ؟ » فقال « ستة بدرهم » . قلت : « أنت ممن يشتري ستّ خَوْخات بدرهم ، وأنت تعلم أنه يباع بعد أيام مائتين بدرهم ؟ ثم تقول : وقد أكثرنا منه ، وهذا يقول : ستّة بدرهم » قال : « وأي شيء أرخصُ من ستة أشياء بشيْء ؟ »

كان غلام صالح بنِ عفان يطلبْ منه نفطاً لبيت الحمار بالليل ، فكان يُعطيه كلّ ليلة ثلاثة أفلس ، والفلوس أربعة طسُّوج (١) ، ويقول : طسُّوج يفضلُ ، وحبة تنقص وبينهما يرمي الرامي .

وكان يقول لابنه : تعطي صاحبَ الحمّام ، وصاحب المعْبَر لكلِّ واحد منهما طسُّوجاً ، وهو إذا لم يرَ معك إلا ثلاثة أفلس لم يردّك ؟

---

(١) العبارة تؤدي معنى عكس المقصود إذ ان الطسوج مركبة من أربع فلوس والطسوج مقدار من الوزن . معرب .

قال أبو كعب : دعا موسى بنُ جناح جَماعة من جيرانه ليفطروا عنده في شهر رمضان ، وكنتُ فيهم . فلما صلّينا المغرب ، ونجز ابنُ جناح ، أقبل علينا ، ثم قال : لاتعجلوا فان العَجَلة من الشيطان . وكيف (لا) [1] تعجلون وقد قال الله جل ذكره « وكان الانسانُ عَجُولاً » . وقال : (خُلق الانسانُ مِنْ عَجَلٍ) . اسمعوا ما أقول ! فان فيما أقولُ حسنَ المواكلة ، والبعدَ من الأثرة ، والعاقبةَ الرشيدة ، والسيرة المحمودة ، وإذا مدّ أحدُكم يده إلى الماء فاستَسْقى ، وقد أُتيتم بهطّة ، أو بجوذابة ، أو بعصيدة ، أو ببعض مايجري في الحلق ولا يُساغُ في الماء ، ولا يُحتاج فيه إلى مَضْغ ، وهو طعامُ يد ، لاطعام يدين ، وليستْ على أهل اليد منه مؤنة ، وهو مما يذهبُ سريعاً ، فأمسكوا حتى يفرَغ صاحبُكم . فانكم تجمعون عليه خصالاً ، منها : أنكم تنغِصون عليه تلك الشربة ، إذا علِمَ أنه لايفرَغ إلا مع فراغكم ، ومنها أنكم تخنقونه ، ولا يجد بداً من مكافئتكم ، فلعلّه أن يتسرّع إلى لقمة حارّة ، فيموت ، وأنتم ترونه . وأدنى ذلك أن تبعثوه على الحِرص ، وعلى عِظَم

(١) ساقطة في الاصل . واثبتناها عن عيون الاخبار .

اللّقم . ولهذا ما قال الاعرابيُّ حين قيل لهُ (لِمَ تبدأ بأكل اللحم الذي فوق الثريد ؟) قال : (لأن اللحمَ ظاعن والثريدَ مقيم) . وأنا وإن كان الطعام طعامي ، فاني كذلك أفعل ، فاذا رأيتم فِعلي يخالفُ قولي ، فلا طاعة لي عليكم .

قال أبو كعب : فربما نسِي بعضنا فمدَّ يده إلى القصعة ، وقد مد يدَه صاحبه إلى الماء . فيقول له موسى : يدَك يا ناسي ، ولولا شيء لقلتُ لكَ : يامتغافل .

قال وأتانا بأرزّ ، ولو شاء إنسانٌ أن يعدَّ حبها لعدَّه ، لتفرقه ولقلّته . قال : فنثروا عليها لَبكَةً من دبس مقدار نصف سكرجـة ، فوقعتْ ليلتذ في فمي قطعةٌ - وكنت إلى جنبه - فسمع صوتها حين مضغتها ، فضربَ يده على جنبي ، ثم قال . (أجرُش يا أبا كعب ، أجرش) قلت : (ويلك ! أما تتّقي الله ! كيف أجرُشُ جزءاً لايتجزأ ؟) .

* * *

قصة ابن المقدي

كان ابنُ المقَدى ربما استزارَ أصحابه إلى البُستان . وكنتُ لاأظنُّه ممَّن يحتمل قلبهُ ذلك على حال ، فسألتُ ذات يومٍ بعض زُوّاره ،فقلت: «أحكِ لي أمركم؟»قال: «وتستُر عليّ؟» قلت :«نعم ، مادمتُ بالبصرة». قال :«يشتري لنا أرُزاً بقشره، ويحمله معه ، ليس معه شيء مما خلقَ الله إلا ذلك الأرز ، فاذا صرنا إلى أرضه ، كلّف أكّاره أن يجشّه في مجشّة له ، ثم ذرّاه ، ثم غربله . ثم جشَّ الواش منه [1] . فاذا فرَغ من الشِراء والحمل ، ثم من الجشَ ،ثم من التذرية ،ثم من الادارة والغَرْبلة ، ثم من جشَ الواش . ثم من تذريته ، ثم من إدارته وغَرْبلته ، كلّف الأكّار أن يطحنه على ثوْره،وفي رحاه ، فاذا طحنه كلّفه أن يغليَ له الماء ، وأن يحتطِب له ،

(١) الواش : الأرز الصحاح الذي ينقلب من أن تصيبه الرحا ، ويخرج سليما فيعاد عليه الجش ثم يذرى ثانية ويغربل .

ثم يكلّفه العجنَ ، لأنه بالماء الحارّ أكثر نزلاً ، ثم كلف الأكّار أن يخبزه ، وقبل ذلك ما قد كلّفهم أن ينصبوا له الشُصوص للسمك ، ويسكِروا الدرياجة [1] على صغار السمك ، لايدخلوا في السواقي ، فيدخلوا أيديهم في حِجْرة الشلابي [2] والرمان [3] ، فان أصبنا من السمك شيئاً ، جعله كباباً على نار الخبز ، تحت الطابق ، حتى لا يحتاجَ من الحطب (إلى) [4] كثير . فلا نزال منذُ غُدوةٍ إلى الليل في كدٍ وجوع وانتظار ثم لايكونُ عشاؤنا إلا خبزَ أرُزٍ أسودَ ، غيرَ منخول بالشلابي ولو قدرَ على غير ذلك فعل » . قلتُ له : «فلم لايتّخذُ موضعَ مذار من بعضِ رَقاق أرضه فيذري لكم الأرز ، ثم يكون الخيارُ في يدهِ ، ان أرادَ أن يُعجّل عليكم الطعامَ أطعمكم الفرد ، وإن أحبّ أن يتأنى ليطعمكم الجوهري ...؟» قال : والله لئن سمع هذا وعرفه ، ليتكلّفنه ، اللهَ اللهَ فينا ، فانا قومٌ مساكين ،

---

(١) ربما المقصور بالدرياجة : ماينفصل الماء عن بعضه لحصر السمك في منطقة معينة من الماء .

(٢) الشلابي : نوع من السمك وذكرت في أحسن التقاسيم للمقدسي ص ١٣١ الشلأني .

(٣) الرمان : في المقدسي الرماني وهو أيضاً نوع من السمك الدجلية في البصرة.

(٤) مزيدة .

ولو قدرنا على شيء لم نحتمل هذا البلاء .

* * *

حدثني المكيّ قال : بتّ عند اسماعيلَ بن غزوان - وإنما بيّتني عندَه حين علِم أني تعشّيتُ عند مُويس ، وحملت معي قربة نبيذ - فلما مضى من الليل أكثره ، وركبني النوم ، جعلتُ فراشي البساط ، ومِرفقتي يدي ، وليس في البيتِ إلاَّ مُصلّى له ، ومِرْفقة ، ومخدة . فأخذ المخدّة فرمى بها إليَّ ، فأبيتُها ورددْتُها عليه ، وأبى وأبيت ، فقال : سُبحان الله ! يكون أن تتوسّد مِرفقك ، وعندي فضْل مخدّة ؟ فأخذْتُها فوضعتها تحت خدي . فمنعني من النوم إنكاري الموضع ، ويبسُ فِراشي وظن أني قد نمتُ ، فجاء قليلاً قليلاً ، حتى سلّ المخدة من تحت رأسي . فلما رأيتُه قد مضى بها ، ضحكتُ وقلتُ : « قد كنتَ عن هذا غنياً ! » قال : « إنما جئتُ لأسوّيَ رأسك » قلتُ « إني لم أكلمكَ حتى ولّيْتَ بها ! قال كنتُ لهذا جئت . فلما صارت المخدة في يدي ، نسيتُ ما جئت له ، والنبيذ - ما علمت والله - يذهب بالحفظِ أجمع . »

وحدثني الحزاميّ والمكيّ والعَروضيّ قالوا سمعنا

إسماعيلَ يقول أوليسَ قد اجمعوا على أنّ البخلاء في الجملة ، أعقلُ من الاسخياء في الجملة ؟ ها نحنُ اولاء عندكَ جماعة فينا من يزُعم الناسُ أنه سخيٌ ، وفينا من يزعُم الناس أنه بخيل فانظر أيْ الفريقين أعقل ؟ ها أنا ذا وسهل بن هارون ، وخاقان ابن صبيح ، وجعفر بن سعيد ، والحزامي ، والعروضيّ ، وأبو يعقوب الخريمي ، فهل معك إلا أبو الاسحاق ؟

وحدثني المكي قال : قلتُ لاسماعيلَ مرة : «لم أر أحداً قط أنفق على الناس من ماله ، فلما احتاج إليهم آسوه ». قال: «لو كان ما يصنعون لله رضى ، وللحق موافقاً ، لما جمع اللهُ لهم الغدْر واللؤمَ من أقطار الأرض . ولو كان هذا الانفاقُ في حقِه ، لما ابتلاهم الله جلّ ذكره من جميع خلقه » .

حدثني تمّام بن أبي نعيم قال : كان لنا جار ، وكان له عُرس ، فجعلَ طعامــه كلّه فالوذق ، فقيل له : إن المؤونة تعظُم ، قال : احتمِلُ ثقل الغُرم ، بتعجيل الراحة ، لعن الله النساء ، ما أشُكّ أنّ من اطاعهنّ شرْ منهنَ .

وحديث سمِعناه على وجهِ الدهر : زَعموا أن رجلاً قد بلغ في البخل غايته ، وصار إماماً ، وانه كان إذا صار في يده

الدرهم ، خاطبه وناجاه وفدّاه [1] واستبطنه [2] ، وكان مما يقول له : « كم من أرض قد قطعت ، وكم من كيس قد فارقت ، وكم (من) [3] خامل رفعت ، ومن رفيع قد أخملت . لك عندي أن لا تعرى ولا تضحى » ثم يلقيه في كيسه ويقول : « أسكن على اسم الله في مكان لا تُهان ولا تذلّ ولا تُزعج منه » . وإنّه لم يُدْخِلْ فيه درهماً قطّ فأخرجه [4] .

وأن اهله ألحّوا عليه في شهوة ، وأكثروا عليه في إنفاق درهم ، فدافعهم ما أمكنَ ذلك . ثم حمل درهماً فقط ، فبينا هو ذاهبٌ إذ رأى حوّاء قد أرسلَ على نفسه افعى لدرهم يأخذه ، فقال في نفسه : أتلفُ شيئاً تُبْذَل فيه النفسُ ، بأكلة أو شربة ؟ والله ماهذا إلا موعظةٌ لي من الله . فرجع إلى أهله وردّ الدرهم إلى كيسه . فكان أهله منه في بلاء ، وكانوا يتمنّون

---

(١) أي قال له : جعلت فداك .

(٢) كذا في الأصل ولعلها : استبطأه .

(٣) مزيدة .

(٤) (وأنه ... منه) ورد هذا النص في نهاية الارب ج ٣ ص ٣١٢ ط دار الكتب المصرية .

موته ، والخلاصَ (منه)[1] بالموت ، والحياة (بدونه)[2] .

فلما مات ، وظنّوا أنهم قد استراحوا منه ، قدمَ ابنه فاستولى على ماله وداره ، ثم قال : « ما كان أُدْمُ أبي ؟ فإنّ أكثر الفساد إنما يكون في الأُدام » . قالوا : « كان يتأدّم بجبنة عنده » . قال : « أرونيها » . فاذا فيها حزٌّ كالجدول ، من أثر مَسْح اللقمة قال : « ما هذه الحفرة » ؟ قالوا : « كان لايقطَع الجبن ، وانما كان يمسَحُ على ظهره ، فيحفُر كما ترى . » قال : « بهذا[3] أهلكني ، وبهذا أقعَدني هـذا المقعَد ، لو علمتُ ذلك ما صلّيت عليه » . قالوا : « فأنت كيف تريد أن تصنع ؟ » قال « أضعُها من بعيد ، فأشير عليها باللقمة » .

* * *

ولا يعجِبُني هـذا الحرفُ الأخير ، لأن الافراط لا غاية له ، وإنما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوزُ أن يكون فيهم مثلُه ، أو حجة ، أو طريقة . فأمّا مثلُ هـذا الحرف ،

---

(١) مزيدة .

(٢) مزيدة .

(٣) في بعض النسخ : فهذا .

فليس مما نذكره ، وأما سائر حديث هـذا الرجل فانه من (هذه) [1] البابة [2] .

* * *

قال ابن جُهانة الثقفيّة : عجبتُ ممن يمنعُ النبيذَ طالبه، لأن النبيذَ إنما يُطلب ليوم فصدٍ ، أو يوم حجامةٍ أو يوم زيارة زائرٍ ، أو يوم أكل سمكٍ طريٍ ، أو يوم شربة دواء ، ولم نر أحداً طلبه وعنده نبيذ ، ولا ليدّخره ويحتكره ، ولا ليبيعه ويعتقد منه . وهو شيء يحسُن طلبه ، وتحسُن هبته ، ويحسُن موقعه . وهو في الأصل كثير رخيص ، فما وجهُ منعه ؟ مايمنعهُ عندي إلا من لا حظّ له في أخلاق الكرام . وعلى أني لستُ أوجل — بما أهبُ منه — على نبيذي النقصان لأني إذا احتجبت عن ندمائي ، بقدر ما أخرجت من نبيذي ، رجع إليّ نبيذي على حاله ، وكنت قد تحمّدت بما لا يضرّني فمن ترك التحمّد بما لا يضره، كان من التحمّد بما يضره أبعد . فذكر ابن جهانة ماله من الكرم بهبة نبيذه ، وما يذكر ما

(١) مزيدة .
(٢) أي من هذا النوع .

عليه (من اللؤم)[1] بحجب ندمائه .

قال الأصمعيُّ أو غيره : حمل بعض الناس مدينياً[2] على برذون ، فأقامه على الأريّ ، فانتبه من نَوْمه ، فوجده يعتلف ثم نام فانتبه ، فوجده يعتلف ، فصاح بغلامه : يا ابن أم ! بعْهُ ، وإلا فهَبْهُ ، وإلا فردّه ، وإلا فاذبحه ، أنام ولا ينام ، يذهب بحُرِّ مالي ، ما أراد إلا استئصالي !

قال أبو الحسن المدائني : كان بالمدائن تمّار ، وكان غُلامه إذا دخل الحانوتَ يحتال[3] ، فربما احتبَس ، فاتّهمه بأكل التمر ، فسأله يوماً فأنكر ، فدعا بقُطنة بيضاء ، ثم قال : امضغها فضَغها ، فلمّا أخرجها ، وجد فيها حلاوةً وصُفرةً . قال : هذا دأبُك كلَّ يوم ، وأنا لا أعلم ؟ أُخرجْ من داري .

وكان عندنا رجل من بني أسَد ، إذا صعد ابنُ الأكار الى نخلة له ليلقط له رُطباً ، ملأ فاه ماء ، فسخروا به وقالوا له : إنه يشربه ، ويأكلُ شيئاً على النخلة ، فاذا أراد أن ينزل ، بال

---

(١) مزيدة عن فان فلوتن .
(٢) من أهل المدن .
(٣) وفي بعض النسخ : يحتار .

في يده ثم أمسكه في فيه. والرُّطب أهونُ على أولاد الأكرة وعلى أولاد غير الأكرة، من أن يحتمل فيه أحدٌ شطر هذا المكروه، ولا بعضَه. قال: فكان بعدها يملأ فاه من ماء أصفرَ، أو أحمر، أو أخضرَ، لكيلا يقدر على مِثله في رؤوس النخل.

* * *

وحدثني المصري — وكان جارَ الداردريشي وماله لا يحصي — قال: فانتهر سائلاً ذات يوم، وأنا عنده، ثمَّ وقفَ عليه آخر فانتهره، إلا أن ذلك بغَيظ وحنق. قال: فاقبلتُ عليه، فقلتُ له: «ما أبغض إليك السؤال؟» قال: «أجل! عامّةُ مَنْ ترى منهم أيسرُ مني.» قال: فقلتُ: «ما أظنك أبغضتهم إلاّ لهذا» قال: «كلُّ هؤلاءِ لو قدَروا على داري لهدموها، وعلى حياتي لنزعوها. أنا لو طاوعتهم، فأعطيتُهم كما سألوني، كنت قد صِرتُ مثلهم منذ زمان. فكيف تظنُّ بغضي يكون لمن أرادني على هذا؟»

وكان أخوه شريكه في كل شيء، وكان في البخل مثله. فوضع أخوه في يوم جُمعة بين أيدينا — ونحن على بابه — طبق

رُطَب ، يُساوي بالبصرة دانقين ، فبينا نحن نأكل ، إذ جاء أخوه ، فلم يسلِّم ولم يتكلّم ، حتى دخل الدار . فأنكرنا ذلك وكان يفرط في إظهار البشر ، ويجعل البشرَ وقايةً دون ماله . وكان يعلم أنه إن جمع بين المنع والكبر ، قُتِل . قال : ولم نعرف علته ، ولم يعرِفْها أخوه . فلما كان الجمعة الأخرى ، دعا أيضاً أخوه بطبق رُطَب ، فبينا نحن نأكل ، إذ خرج من الدار ، ولم يسلِّمْ ، ولم يقفْ ، فأنكرنا ذلك ، ولم ندرِ أيضاً ما قصّته فلما أن كان في الجمعة الثالثة ، ورأى [1] مثل ذلك ، كتب إلى أخيه : يا أخي ! كانت الشركة بيني وبينك حين لم يكثر الولد ومع الكَثرة يقعُ الاختِلاف ، ولست آمنُ أن يخرج ولدي وولدُك إلى مكروه . وها هنا أموالٌ باسمي ، ولك شطرُها، وأموال باسمك ولي شطرها ، وصامتٌ في منزلي ، وصامتٌ في منزلك، لا نعرفُ فضلَ بعض ذلك على بعض . وإن طرقنا أمرُ الله ، (ما) [2] ركدَت الحرب بين هؤلاء الفتية ، وطال الصخب بين هؤلاء النسوة . فالرأيُ أن نتقدَّم اليومَ فيما يحسِم منهم هذا السبب .

---

(١) الواو زائدة .

(٢) ساقطة في الاصل .

فلمّا قرأ أخوه كتابه ، تعاظمَه ذلك وهاله ، وقلب الرأى ظهراً لبطن ، فلم يزده التقليبُ إلا جهلاً . فجمع ولده . وغلّظ عليهم ، وقال : عسى أن يكون أحدٌ منكم قد أخطأ بكلمة واحدة ، أو يكون هذا البلاء من جرائر النساء . فلما عرف براءة ساحة القوم ، تمشى اليه حافياً ، راجلاً ، فقال : مايدعُوك إلى القسمة والتميز ؟ أدعُ صُلحاء أهل المسجد الساعة ، حتى أشهدهم بأني وكيلٌ لك في هذه الضياع . وحوّل كلَّ شيء في منزلي إلى منزلك . وجرّب ذلك مني الساعة فان وجدتني أروغ واعتلّ ، فدونك . فحاجتي الآن أن تخبرني بذنبي . قال : مالك من ذنب ، وما من القِسمة من بدّ . فأقام عنده يناشده إلى نصف النهار ، ثم أقام يومه ذلك إلى نصف الليل ، يناشده ويطلب اليه . فلما طال عليه الأمر ، وبلغ منه الجهد ، قال له : حدثني عن وضعك أطباقَ الرُطب ، وبسطك الحُصر في السكك ، وإحضارك الماء البارد ، وجمعك الناسَ على بابي في كل جمعة ، كأنك ظننت أنا كنا عن هذه المكرمة عُميًا . إنك إذ أطعمتهم اليوم البرني [1] ، أطعمتهم غداً السكر

---

(١) نوع من أنواع التمر الجيد ، وهو فارسي معرب .

وبعد غدٍ الهليـاثا [1] . ثم يصيرُ بعد أيام الجمع في سائر أيام الأسبوع ، ثم يتحول الرَطب إلى الغَداء ، ثم يؤدي الغداء إلى العشاء . ثم تصير إلى الكساء ، ثم الأجداء ، ثم الحملان ، ثم اصطناع الصنائع . والله إني لأرثي لبيوت الأموال ، ولخراج المملكة من هذا ، فكيف بمال تاجرٍ جمعه من الحبّات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف » ؛ قال : « جُعلتُ فداك ! تريد أن لا آكلَ رطبةً أبداً فضلاً على غير ذلك ؛ وأخرى فلا والله لا كلّمتُهم أبداً » . قال « إياك أن تخطئ مرتين مرة في إطماعهم فيك ، ومرةً في اكتساب عداوتهم . أخرج من هذا الأمر على حساب ما دخلت فيه وسلّم تسلمْ [2] » .

* * *

كان أبو الهُذَيل أهدى إلى مُوَيس دَجاجةً [3] ، وكانت

---

(١) وردت هذه الكلمة بالنسخ : هلياثا ، هلباثا ، هليانا ، ولعله أيضاً نوع من التمر .

(٢) في نسخة : وتسلم بسلام . وما أثبت بالأصل أصح وقد جاء في كتاب الرسول ﷺ الى هرقل : أسلم تسلم .

(٣) دجاجة أبي هزيل : يضرب مثلا للشيء اليسير يستعظمه مهديه ، فيكثر ذكره .

دَجاجتُه التي أهداها دون ما كان يتّخذ لمويس ، ولكنه بكرَمه وبحُسْن خُلُقه ، أظهر التعجُّب من سِمَنِها ، وطِيبِ لحمِها ، وكان يعرفه بالامساك الشديد . فقال : وكيف رأيت يا أبا عِمران تلك الدجاجة ؟ قال : كانت عَجَباً من العجب . فيقول : وتدري ما جنسُها ؟ وتدري ما سِنّها ؟ فان الدجاجةَ إنما تطيبُ بالجنس والسنّ ، وتدري بأيِّ شيء كنّا نسمنها ؟ (وفي أي مكان كنا نعلفها) ؟ [1] فلا نزال في هذا ، والآخر يضحَك ضَحِكاً نعرفه نحن ، ولا يعرفه أبو الهُذَيل .

وكان أبو الهُذَيل أسلم الناس صدراً ، وأوسعهم خُلُقاً ، وأسهلهم سهولةً ، فان ذكروا دَجاجةً ، قال : أين كانت يا أبا عِمران من تلك الدجاجة ؟ فان ذكروا بطةً أو عَناقاً أو جزوراً ، أو بقرةً قال : فأين كانت هذه الجزورُ في الجزر من تلك الدجاجة في الدجاج ؟ وإن استسمَن أبو الهذيل شيئاً من الطير والبهائم ، قال : لا والله ! ولا تلك الدجاجة . وإن ذكروا عُذوبةَ الشحم ، قال : عذوبة الشحم في البقر والبطّ وبطون السَمك والدجاج ، ولا سيما ذلك الجنسَ من الدجاج . وإن

---

(١) زيادة من المضاف والمنسوب للثعالبي ص ٣٧٥ ط الظاهر .

ذكروا ميلادَ شيء ، أو قدومَ إنسان ، قال : كان ذلك بعد أن أهديتُها لك بسنة ، وما كان بين قدوم فلان ، وبين البعثة بتلك الدجاجة إلا يوم . وكانت مثلاً في كل شيء ، وتاريخاً في كل شيء . [1]

وأقبل مرةً على محمد بن الجهم [2] ، وأنا وأصحابنا عنده ، فقال إني رجلٌ منخرق الكفين ، لا أليق شيئاً ، ويدي هذه صَناع في الكَسب ، ولكنها في الانفاق خرقاء ، كم تظنُّ من مائة ألف درهم قسمتها على الاخوان في مجلس ؟ أبو عثمان يعلم ذلك . أسألك بالله يا أبا عثمان هل تعلم ذلك ؟ فقلت : يا أبا هذيل ! مانشك فيما تقول . فلم يرض باحضاري هذا الكلام ، حتى استشهدني ، ولم يرض باستشهادي ، حتى استحلفني .

* * *

(١) راجع المضاف والمنسوب للثعالبي ص ٣٧٥ – ٣٧٦ ط الظاهر . وقد ذكر اسم يونس بدلا عن مويس .

(٢) محمد بن الجهم : الأخ الأكبر للشاعر علي بن الجهم وكان محمد بن الجهم هذا أديباً ، راوية للاشعار ، علامة يذكره الجاحظ كثيراً في كتبه ويروي عنه ويستشهد بكلامه . وكان مقرباً للمأمون ولاه عدة ولايات في بلاد فارس وولاه المعتصم دمشق سنة ٢٢٥ واشتهر بالبخل والحرص على المال واورد ابن قتيبة والحصري حكايات عن حرصه وبخله .

وكان أبو سعيد المدائني إماماً في البُخل عندنا في البصرة، وكان من كبار المغتنين ومياسيرهم ، وكان شديد العقل ، شديد العارضة ، حاضر الحجّة ، بعيد الروية .

وكنت أتعجّبُ من تفسير أصحابِنا لقولِ العرب في لؤم اللئيم الراضع ، قال أصحابُنا : كلُّ لئيم بخيل ، وليسَ كلُّ بخيل لئيم . لأن اسم اللئيم يقعُ على البُخل، وعلى قلّة الشكر وعلى مهانة النفس، وعلى أنّ له في ذلك عرقاً متقدماً . قال أبو زيد : هو لئيم ، ومَلأم . فاللئيم ما فسّرت ، والملأم الذي يقوم بعذر اللئيم . فأما اللئيم الراضع ، فالذي لايحلب في الأناء ويرضع في الخلف ، مخافة أن يضيع من اللبن شيءٌ .

قال ثوب بنِ شحمة [1] العنبريّ في امرأته الهمدانية :

---

(١) ثوب بن شحمة : وفي المضاف والمنسوب للثعالبي : ثور . وفي معجم الشعراء للمرزباني : ابن صحمة بدلاً عن شحمة . ويلقب بمجير الطير . قال الثعالبي : كان ثور بن شحمة سيداً شريفاً قد أجار الطير فكان لايثار ولا يصاد بأرضه ، فسمي مجير الطير .

وفي معجم الشعراء : زعموا أنه اسر حاتم بن عبد الله الطائي فقال حاتم :

كنا بأرض ما يغب غداؤها — إن الغداء بأرض ثوب عاتم

وبذكر هذا الخبر الجاحظ بما لا يختلف عن ذلك فيما بعد من هذا الكتاب . ولم نعثر على هذا الخبر ولا البيت في ديوان حاتم . وراجع معجم الشعراء ص ٧٠ ط القدسي .

وَحَدِيثُ لا مِجَةَ التي حَدَّثْتَنِي

تَدَعُ الأَنَاءَ تَشَرُّبًا للقادِمِ

(القادمان : الخلفان المقدمان) . فلما بلغه ذلك عنها طلّقها ، فلما طلّقها قيل له : إن البخلَ إنما يعيبُ الرجال ، ومتى سمعت بامرأة هُجِيَتْ في البخل ؟ قال : ليسَ ذلك بي ، أخافُ أن تلِدَ لي مثلها .

قال رافع بن هريم [1] :

... ... تحلب قاعداً وتلمج أحياناً وقعبك حاضر

يدُعو الله عليه أن يجعله صاحبَ شاء ، ولا يجعلَه صاحبَ إبل ، وأن يرتَضِع من الخلِف ، وإن كان معه اناء .

والعربيْ يماري على صاحبه فيقول : (إن كنت كاذباً ، فاحتلبتَ قاعداً) . أي أبدلك الله بكرم الابل ، لؤم الغنم . فكيف تتعجب من لؤم الراضع ؟

وصنع أبو سعيد المدائني أعظمَ من ذلك : اصطبغ من

(١) شاعر جاهلي روى له القالي عدة أبيات من شعره . وترجم له البكري في اللآلي ص ٨٠٠ ط لجنة التأليف بما يلي : هو رافع ابن هريم بن سعد يربوعي . شاعر قديم ، قال أبو زيد في نوادره: أدرك الاسلام .

دَنّ خلٍّ ، وهو قائم حتى فني ، ولم يُخرج منه قليلاً ولا كثيراً

وكانت له حلقة يقعد فيها أصحابُ العِينَة [1] . والبُخلاء الذين يتذاكرون الاصلاح . فبلغهم أن أبا سعيد يأتي الحربية [2] في كلّ يوم ، ليقتضيَ رجلاً هناك خمسةَ دراهم فضلت عليه ، قالوا : وهذا خطأ عظيم ، وتضييع كثير . وإنما الحزمُ أن يتشدَّد في غير تضْييع . وصاحبُنا هذا قد رجَع على نفسه بضُروب من البَلاء .

فاجتمعوا عليه على طريق التفرّغ له ، والاستفادة منه . قالوا نراك تصنَعُ شيئاً لانعرفه ، والخطأ منك أعظمُ منه من غيرك . قد أشكل علينا هذا الأمر ، فاخبرنا عنه ، فقد ضاقت صدورُنا به . خبِّرنا عن مُضيِّك إلى الحربية [3] ، لتقتضِيَ خمسةَ

---

(١) في النهاية لابن الاثير ، ج ٣ ص ١٦٤ : « العينة : هو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به . وسميت عينة لحصول النقد لصاحب العينة ، لأن العين هو المال الحاضر من النقد ، والمشتري انما يشتريها بعين حاضرة لتصل اليه معجلة » .

وفي اللسان : « وعين التاجر أخذ بالعينة أو أعطى بها » .

(٢) كذا بالاصل : ولعلها الحربية ، وقد مر شرحها .

(٣) صححنا : الحربية .

دراهم . فواحدةٌ أنا لا نأمنُ عليك انتقاض بدنك ، وقد خلا (ما خلا [١]) من سنِّك ، وأن تعتلّ فتدع التقاضي الكثير، بسبب القليل . وثانيةٌ أنك (إن [٢]) تنصب هذا النصب ، فلا بدّ لك من أن تزداد في العَشاء ، إن كنتَ ممن يتعشّى أو تتعشى إن كنتَ ممن لايتعشّى . وهذا إذا اجتمع كان أكثرَ من خمسةِ دراهم . وبعدُ فإنك تحتاج أن تشقّ وسط السوق ، وعليك ثيابُك ، والحمولة تستقبلُك ، فمن ههنا نتْرة ، ومن ههنا جَذبة، فاذا الثوبُ قد أودى . ومن ذلك أنّ نعلك تَنقب وترقّ ، وساقَ سراويلك تتّسخ وتبلى . ولعلك أن تعثَر في نعلك فتقدّها قَدّاً ، ولعلك تهرِّتها هرتاً . وبعدُ ، فاقتضاء القليل أدّى [٣] بك إلى هذا (وما [٤]) بلغت منه شيئاً . وإنك أفضل . [٥] إلا أن نحب أنك تحكي عن الأمر بشيء ، فليس كلنا يثق لك بالصواب في كلّ شيء .

---

(١) مزيدة : فان فلوتن .

(٢) مزيدة .

(٣) في نسخة : اولا وهو تصحيف من الناسخ .

(٤) زيادة يقتضيها السياق .

(٥) كذا بالاصل .

قال أبو سعيد : أما ما ذكرتم من انتقاص البَدَن فانَّ الذى أخافُ على بَدَني من الدعة ، ومن قلة الحركة أكثر وما رأيتُ أصحَّ أبداناً من الحمالين والطوافين ، والقوم قبلي إن يموتوا لم يكن لهم تلك عادة . وليس يقولَ الناسُ : والله لفُلانٌ أصحُّ من الجلاوِزة ؟ يعني اختلاف الجلاوِزة في العَدْو ، ولربما أقمتُ في المنزل لبعض الأمر ، فأكثرُ الصعودَ والنزول خوفاً من قلّة الحركة ، وأما التشاغل بالبعيد عن القريب ، فاني لا أعرض للبعيد حتى أفرغ من القريب . وأما ما ذكرتم من الزيادة في الطعام ، فقد أيقنتْ نفسي ، واطمأنَّ قلبي ، على أنّه ليس لنفسي عندي إلاَّ مالها ، وأنها إن حاسَبَتْني أيام النَصب ، حاسبتُها أيامَ الراحة . فستعلمُ حينئذ أينَ أيامُ الحربة[1] ، من أيام ثقيف . وأما ما ذكرتم من تلقي الحمولة ، ومن مزاحمة أهل السوق ، ومن النَتْر والجذْب ، فأنا أقطعُ عرضَ السوق من قبل أن يقومَ أهلُ السوق لصلاتهم ، ثم يكونُ رجوعي على ظَهر السوق . وأما ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل ، فاني من لدُن خُروجي من منزلي ، إلى أن أقرُب من باب صاحبي ،

(١) اصلحنا الحربة .

فانما نعلي في يديَّ وسراويلي في كمّي . فاذا صرتُ اليه ، لبستُها فاذا فصلْتُ من عنده خلعتُها . فهما في ذلك اليوم أودَعُ أبداناً ، وأحسنُ حالاً . بقي الآن لكم مما ذكرتم شيء ؟ قالوا : لا . قال : فها هنا واحدةٌ تفي بجميع ما ذكرتم . قالوا : وما هي ؟ قال : إذا علِم القريبُ الدار ، ومن لي عليه ألوفُ الدنانير ، شدَّة مُطالبتي للبعيد الدار ، ومن ليسَ لي عليه إلا الفلوس ، أتى بحقِّي ، ولم يُطمع نفسَه في مالي ، وهذا تدبيرٌ يجمعُ لي إلى رجوع مالي ، طولَ راحة بدني . ثم أنا بالخيار في تَرك الراحة ، لأني أقسمها على الأشغال حينئذ كيف شئت . وأخرى : أنَّ هذا القليل لو لم يكنْ فضلةً من كثير ، وموصولاً بدين لي مشهور ، لجاز أن أتجافى عنه ، فأما أن أدع شيئاً يُطمِع في فضولٍ ما يبقى على الغرماء ، فهذا ما لا يجوز . فقاموا وقالوا بأجمعهم : لا والله ! لا سألناك عن مُشكِلة .

حدَّثني أحمد المكي – أخو محمد المكي – وكان متصلاً بأبي سعيد – بسبب العينة ، وبسبب صنعة المال ، لأعاجيب أبي سعيد وحديثه .

قال أحمد : قلت له مرة : والله إنك لكثيرُ المال ،

وإنك لتعرفُ ما نجهل ، وإن قميصَك وسخٌ ، فلم لا تأمرُ بغسله ؟ قال : فلو كنتُ قليلَ المال ، وأجهل ما تعرف ، كيف كان قولُك لي ؟ إني قد فكّرتُ في هذا منذ ستةِ أشهر ، فما وضحَ لي بعدُ وجهُ الأمرِ فيه .

أقول مرة : الثوبُ إذا اتسخ أكل البدن ، كما يأكل الصدأُ الحديد . والثوبُ إذا ترادفَه العرق ، وجفّ ، وتراكم عليه الوسخ ، ولبد ، أكل السلك ، وأحرق الغزل ، هذا مع نتن ريحه ، وقبح منظره . وبعدُ ، فاني رجل آتي أبواب الغُرماء ، وغلمانُ غُرمائي جبابرة ، فما ظنّك بهم إذا رأوني في اطمار وسخة ، واسمال درنة ، وحال حداد ؟ جبَهوا مرّة ، وحجَبوا مرة ، فيرجعُ ذلك علينا بمضرّة من إصلاح المال ، وإن ينفي كل ما أعان على حبسه ، مع ما يدخلُ من الغيظ ، ويلقى من كان كذلك من المكروه .

فاذا اجتمعتْ هذه الخواطر ، هممتُ بغسلها . فاذا هممتُ به عارضني معارض يوهمني أنه أتاني من جهة الحزم ، ومن قبَل العقل ، فقال : أول ذلك الغُرم الذي يكون في الماء والصابون . والجاريةُ إذا ازدادت عناء ، ازدادتْ أكلاً . والصابون

نورة ، والنورة تأكل الثوب وتبلي الخزّ ، ولا يزال الثوب على خطر ، حتى يسلم إلى العصر والدّق ، ثم إذا ألقي على الرسن ، فهو بعرض الجذبة والنترة والعلق . ولا بد من الجلوس يومئذ في البيت . ومتى جلستُ في البيت ، فتحوا علينا أبواباً من النفقة ، وأبواباً من الشهوات . والثياب لابد لها من دقّ ، فان نحن دققناها في المنزل ، قطّعناها . وإن نحن أسلمناها إلى القصّار ، فغُرم على غُرم ، وعلى أنه ربما أنزل بها من المكروه ماهو أشد. وما جلستُ في المنزل قطّ إلا أرجف بي الغُرماء ، وادّعوا عليّ الأمراضَ والأحداث ، وفي ذلك لهم فساد والتواء وطمع ، لم يكن عندهم . فاذا أنا لبستها وقد ابيضّت ، وحسُنت ، وجفّت وطابت ، تبيّنت عند ذلك وَسَخ جسدي ، وكثرة شعري ، وقد كان بعضُ ذلك موصولاً ببعض ، ففرّقته ، فاستبان لي ما لم يكن يستبين ، وأكترثت لما لم أكن اكترثت له ، فيصيرُ ذلك مدعاة إلى دُخول الحمام . فان دخلته فغُرم ثقيل ، مع المخاطرة بالثياب . ولي امرأةٌ جميلة شابة ، إذا رأتني قد اطّليت ، وغسلت رأسي ، وبيّضت ثوبي ، عارضتني بالتطيّب وبلبس أحسن ثيابها ، وتعرّضت لي ، وأنا فحل . والفحلُ إذا

هاج لم يردَّ رأسه شيء . فاذا أردتُ مواقعتَها ، ورأت حِرصي نثرت عليَّ الحوائج نثراً . ثم احتجنا إلى تسخين الماء ! وأشدّ من هذا كله أن تعلَق ، فتحتاج إلى ظئر ، فتقع في مالا غاية له .

مع أمور كثيرة نسيَ بعضها أحمد ، وبعضها أنا .

وكان أبو سعيد هذا ، مع بخله ، أشدَّ الناس نفساً ، وأحماهم أنفاً . بلغ من أمره في ذلك ، ومن بلوغه فيه ، أنه أتى رجلاً من ثقيف يقتضيه ألف دينار ، وقد حلّ عليه المال . فكان ربما أطال عنده الجلوس ، ويحضرُ عنده الغداءَ فيتغدّى معه ، وهو في ذلك يقتضيه . فلما طال عليه المطل ، قال له يوماً وهو على خِوانه : « إنَّ لهذا المال زكاةً مؤدّاة ، وقد علِمنا أنا حين أخرجنا هذا المالَ من أيدينا ، أنه معرّض للذهاب ، وللمُنازعة الطويلة ، ولأن يقعَ في الميراث . ثم رَضينا منكَ بالربْح اليسير ، بالذي ظنناه بك من حُسن القضاء ، ولولا ذلك لم نرضَ بهذا المال . وهذا المال إذا كان شرطُه أن يرجع بعد سنة ، فرفَّهت عنك بحسن المطالبة شهراً أو شهرين ، ثم مكث عندي — إلى أن أصبتُ له مثلك — شهراً أو شهرين ، سُحق فضله ، وخرج علينا فضل . ومثلك يكتفي بالقليل . وقد طال

اقتضائي ، وطال تغافلك » . يقول هذا الكلام ، وهو في ذلك لا يقطع الأكل .

فأقبل عليه رجلٌ من ثقيف ، فعرّض له بأنه لو أراد التقاضيَ محضاً ، لكان ذلك في المسجد ، ولم يكن في الموضع الذي يحضرُ فيه الغداء . فقطعَ الأكلَ ، ثم نزا في وجهه الدم ونظر إليه نَظر الجمل الصؤول ، ثم كاد يطير ، ثم أقبل عليه ، فقال : « لا أمّ لك ! أنا إنما اصطبغتُ من دنّ خلٍّ حتى فني من حسن العقل ، وأحببت الغنى بفضل بُغضي للفقر ، وأبغضتُ الفقر بفضل أنفتي من احتمال الذلّ ! تُعرِّضُ لي — لا أمّ لك — بأني أرغبُ في غدائه ؟ ! والله ما أكلتُ معه إلا ليستحييَ من حُرمة المؤاكلة ، وليصيرَ كرمُه سبباً لتعجيل الحاجة » . ثم نهض بالصك ، وعليه طينته ، فاعترضَ بها الحائطَ حتى كسرها ثم تفلَ في الكتاب ، وحكّ بعضه ببعض ، ثم مزّقه ، ورمى به . ثم قال لكلّ من شهد المجلس : هذه ألف دينار كانت لي على أبي فلان ، إشهَدوا جميعاً أني قد قبضتُ منه ، وأنه بريء من كل شيء أطالبه ! ثم نهض .

فلما صنع ماصنَع ، أقبل الغريمُ على صاحبه فقال : « ما

دعاك إلى هذا الكلام ؟ لم تقوله لهذا الرجل على مائدتي ، وتقدم بهذا الكلام على من لا تعرفُ كيف موقعُ الأمور منه ؟ وبعدُ فقد والله أردتُ مطالَه إلى أن أبيع الثمر ، ورجونا حلاوته ، فقد أحسنت إليه ، وأسأت الينا ، وعجّلت عليه ماله، إذهب ياغلام ، فاضربْ بذلك الثمر السُوق ، فبِعْه بما بلغ ! فيأخذ ماله كَلاً » . ثم ركبَ إليه ، فأبى أن يأخذه ، فلما كثُر الأمرُ في ذلك ، قال : « أظنّ الذي دعا صاحبكَ إلى ما قال ، أنه عربيٌ ، وأنا مولىً ! فان جعلتَ شُفعاءك من الموالي ، أخذتُ هذا المال ، وإن لم تفعل ، فاني لا آخذه » . فجمع الثقفيُ كل شُعوبيّ بالبصرة حتى طلبوا اليه ، حتى أخذ المال .

وكان أبو سعيد ينهى خادمه أن تخرج الكُساحة من الدار . وأمرها أن تجمعَها من دور السكّان ، وتلقيَها على كُساحتها ، فاذا كان في الحين (بعد الحين [1]) جلس ، وجاءت الخادمُ ، ومعها زبِيل ، فعزلتْ بين يديه من الكساحة زبِيلا ، ثم فتّشت واحداً واحداً ، فان أصاب قطَع دراهم ، وصرةً فيها نفقة أو دينار ، أو قِطعة حلي ، فسبيلُ ذلك معروف ، وأما ما

(١) مزيدة عن الحاجري .

وجِد فيه من الصوف ، فكان وجهُه أن يُباع إذا اجتمع من أصحاب البراذِع ، وكذلك قطع الأكسية ، وما كان من خِرَق الثياب ، فمن أصحاب الصينيّات والصلاحيات ، وما كان من قشور الرمان ، فمن الصبّاغين والدبّاغين ، وما كان من القوارير ، فمن أصحاب الزُجاج ، وما كان من نوى التمر ، فمن أصحاب الخشوف [1] ، وما كان من نوى الخوْخ ، فمن أصحاب الغرس ، وما كان من المسامير وقطع الحديد ، فللحدّادين ، وما كان من القراطيس ، فللطراز ، وما كان من الصُحُف ، فلرؤوس الجِرار ، وما كان من قطع الخشب . فللأكافين وما كان من قطَع العِظام ، فللوَقود ، وما كان من قِطَع الخزف ، فللتنانير الجُدد ، وما كان من أشكنج [2] ، فهو مجموع للبناء ، ثم يحرّك ويُثار ويخلّل ، حتى يجتمعَ قماشه ، ثم يعزل للتنّور ، وما كان من قِطع القار . بيع من القيّار وإذا بقيَ التراب خالصاً ، وأراد أن يضرب منه اللبِن للبيع ،

(١) بالاصل الحشوف بالحاء . و الخشوف : جمع خشف وهو ولد الغزال .

(٢) يعرف في بغداد « اشكنك » والمراد به : دبش الحجارة وكسارتها التي توضع في الاساس .

وللحاجَة اليه ، لم يتكلَّف الماءَ ، ولكن يأمرُ جميعَ من في الدار أن لا يتوضّؤا ، ولا يغتَسلوا إلاّ عليه ، فاذا ابتلّ ضربه لبناً .

وكان يقول من لم يتعرّف الاقتصاد تعرفي فلا يتعرّض له .

وذهب من ساكن له شيء كبعض ما يسرق من البيوت ، فقال لهم إطرَحوا الليله تراباً ، فعسى أن يندم من أخذه فيُلقيَه في التراب ، ولا ينكَر مجيئه إلى ذلك المكان ، لكثرة من يَجيىء لذلك . فاتفق أن طُرِح ذلك الشيءُ المسروقُ في التراب وكانوا يطرَحونه على كناسَتِه ، فرآه قبل أن يراهُ المسروقَ منه ، فأخذَ منه كِراء الكُساحة .

فهذا حديث أبي سعيد .

* * *

قصة الأصمعي

تمشّى قومٌ إلى الأصمعيّ مع تاجرٍ كان اشترى ثمرة ، لخُسرانٍ كان ناله ، وسأله حُسنَ النظر والحطيطة . فقال الأصمعي : « أسمِعتم بالقسمة الضيزى ؟ هي والله ما تُريدونَ شيخكم عليه . إشترى مني على أن يكون الخسرانُ عليّ ، والربحُ له ! هذا وأبيكم تجارة أبي العنبس . إذهبوا فاشتروا عليّ طعامَ العِراق على هذا الشرط . على أني والله ما أدري أصادقٌ هو أم كاذب ؟ ! وها هنا واحدةٌ ، وهي لكم دوني ، ولا بدَّ من أن أحتمِلَ لكم إذ لم تحتملوا لي . والله ما مشيتم معه إلا وأنتم توجبون حقه ، وتوجبون رِفدَه . لو كنتُ أوجبُ له مثلَ ما توجبون ، لقد كنتُ أغنيتهُ عنكم ، وأنا لا أعرفه ، ولا يضر بُني بحقٍّ ، فهلمُّوا نتوزَّع هذه الفضلة بيننا بالسويَّة ! هذا أحسن ممن احتمل حقاً لا يجب عليه ، في رضى من يجب ذلك عليه » .

فقاموا ولم يعودوا . فخرج إليه التاجرُ من حقّه ، وأيس مما قِبَله .

حدثني جعفرُ ابن أخت واصل ، قال :

قلتُ لأبي عُيَينة : قد أحسَن الذي سأل امرأته عن اللحم ، فقالت : أكله السنور ، فوزن السنور ، ثم قال : « هذا اللحمُ ، فأين السنور ؟ » قال : « كأنكَ تعرِضُ بي ؟ » قال : قلت « إنك والله أهلُ ذلك . شيخٌ قد قاربَ المائة ، وغلته فاضلة ، وعياله قليل ، ويعطي الأموالَ على مذاكرة العلم ، والعلمُ لذته وصناعته ، ثم يرق إلى جوف منزله . وأنت رجلٌ لك في البستان ، ورجل في أصحاب الفسيل ، ورجل في السُوق ، ورجلُ في الكلاء (١) ، تطلب من هذا وِقْرَ (٢) جصَ ، ومن هذا وقر آجرّ ، ومن هذا قطعة ساج ، ومن هذا هكذا ، ما هذا الحرص ؟ وما هذا الكدّ ؟ وما هذا الشغل ؟ لو كنتَ شاباً بعيد الأمل ، كيف كنت تكون ؟ ولو كنتَ مديناً كثيرَ العيال كيف كنت تكون ؟ وقد رأيتك فيما حدث تلبس الأطمار ، وتمشي حافياً نصفَ النهار » .

قال : « كم أجمجم : بلغني أنك فقدتَ قطعة بطّيخ ، فألححت

---

(١) اسم محلة مشهورة وسوق بالبصرة أيضاً .

(٢) الوقر : الحمل .

في المسألة عنها ، فقيل لك : أكلها السنور ، فرميتَ باقي القطعة قدّام السنور ، لتمتحنَ صِدقهم من كذبهم ، فلمّا لم يأكله[1] ، غرّمتهم ثمن البطيخة كما هي . قالوا لك : كان الليل ! فان لم تكن التي أكلته من سنانير الجيران ، وكان الذي أكله سنّورنا هذا ، فانك رميت إليه بالقطعة وهو شبعان منه . فأنظِرْنا ، ولا تغرمنا ، نمتحنه في حال غير هذه ! فأبيت إلاّ إغرامهم » .

قال : « ويلك ؛ إني واللهِ ما أصل إلى منعهم من الفساد ، إلا ببعض الفساد . وقد قال زيادٌ في خطبته[2] : « والله إني ما أصلُ منكم إلى أخذ الحقّ ، حتى أخوضَ الباطل إليكم خوضاً » وأما ما لمتني عليه آنفاً[3] ، فانما[4] ذهبتُ الى قوله : « لو أن في يدي فسيلة ، ثم قيلَ لي : إنّ القيامة تقوم الساعة ، لبادرتُها فغرستها » . وقد قال أبو الدرداء في وجعه الذي مات فيه : « زوّجوني ، فاني أكره أن ألقى الله عَزَباً » . والعرب تقول : « من غلى دِماغه في الصيف ، غلت قدُره في الشتاء » .

---

(١) في الاصل : تأكله .

(٢) من خطبته المعروفة بالبتراء .

(٣) كذا مرسيه : وفي بعض النسخ : اتفاقاً .

(٤) فان فلوتن : وانما

قال مُكرَز «العجز فِراش وطيء، لا يستوطِئه إلا الفَشِل الدّثُور (١)».

وقال عبدُ الله بن وهب «حبّ الهُوَينا يكسب النّصَب»

وقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: «إياكم والراحة، فانها عُقلة». وقال «لو أن الصبرَ والشكرَ بعيران، ما باليتُ أيهما أركب». وقال: «تمعددوا واخشوشنوا، واقطعوا الركب، واركبوا الخيل نزواً». وقال لعمرو بن معدي كرب حين شكا إليه الجفا[٢] «كذبتْ عليك الظهائر». وقال: «إحتفوا فانكم لا تدرون متى تكون الجفلة». وقال: «إن يكن الشغل مَجهدةً، فان الفراغَ مفسَدةٌ». وقال لسعيد ابن حاتم: «إحذرِ النعمة كحذرك من المعصِية، ولهيَ أخوفُهما عليك عندي». وقال: «أُحذِّركم عاقبةَ الفَراغ، فانه أجمعُ لأبواب المكروه من الشُغل».

وقال أكثمُ بن صيفي «ما أحبُّ أني مكفيٌّ كلَّ أمرِ الدنيا». قالوا «وإن أسمنتَ وألبنتَ؟». قال: «نعم!

---

(١) الدثور: الرجل الخامل.

(٢) كذا بالاصل ولعلها الحفاء بكسر الحاء: وهو وجع في البطن من أكل اللحم.

أكره عادةَ العجز » . أفتراني أدعُ وصايا الأنبياء ، وقول الخلفاء ، وتأديب العرب ، وآخذ بقولك ؟ »

* * *

وتغدى محمد بن الأشعث عند يحيي بن خالد ، فتذاكروا الزيتَ وفضلَ ما بينَه وبين السمن ، وفضلَ ما بين الإنفاق وزيتِ الماء (١) ، فقال محمد : « عندي زيتٌ لم يرَ الناس مثله » قال يحيى : « لا تؤتى منه بشيء ؟ » فدعا محمد غلامه ، فقال : « إذا دخلتَ الخزانة ، فانظر الجرّة الرابعة عن يمينك إذا دخلت . فجئنا منه بشيء » قال يحيى : « ما يُعجبني السيّد يعرف موضِعَ زيته وزيتونه »

* * *

وقرَّب خباز أسدِ بن عبد الله (٢) إليه ـ وهو على خراسان ـ شِواءً قد نضجه نضجاً ، وكان يُعجبه ما رُطب من الشِواء

---

(١) الانفاق : نوع من الزيت . قال ابن البيطار ج ١ ص ٦٦ : الزيت المعتصر من الزيتون الفج الذي لم يكمل نضجه . واما زيت الماء فهو : زيت يخلط بالماء . وفي عيون الاخبار ج ٣ ص ٢٩٩ عن عمر ابن الخطاب : عليكم بالزيت ، فان خفتم ضرره فامخنوه بالماء ، فانه يصير كالسمن .

(٢) هو اسد بن عبد الله القسري أخو خالد بن عبد الله القسري ولي خراسان في عهد ولاية اخيه خالد على العراق . وتوفي في بلخ سنة ١٢٠هـ.

فقال لخبّازه : «أتظنّ أن صنيعك يخفى عليّ ؟ إنك لستَ تبالغ في إنضاجه لتطييبه ، ولكن تستحلب جميعَ دَسمه ، فتنتفع بذلك منه» . فبلغَتْ أخاه ، فقال رُبَّ جهل خيرٌ من عِلم

وكان رجل يغشى طعامَ الجوهريَّ ، وكان يتحرّى وقته ، ولا يُخطئ . فاذا دخل والقومُ يأكلون وحين وضع الخوان ، قال : «لعن الله القدريّة ! من كان يستطيعُ أن يصرفني عن أكل هذا الطعام ، وقد كان في اللّوح المحفوظ أني سآكله ؟» فلما أكثر من ذلك ، قال له رياح : «تعالَ بالعشيّ أو بالغداة ، فان وجدتَ شيئاً ، فالعن القدريّة ، والعن آباءهم وأمهاتهم» .

* * *

وجاء غلامٌ إلى خالد بن صفوان (١) بطبق خوخ ، إما أن يكون هديةً ، وإما أن غلامه جاء به من البُستان ، فلمّا وضعه بينَ يديه ، قال : «لولا أني أعلم أنك قد أكلت منه ، لأطعمتُك واحدة» .

---

(١) هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم من الخطباء المشهورين ، وكان على بلاغته يلحن . وقد ذكره الجاحظ في البيان بين الخطباء المشهورين وممن يتدارسون الاخبار والآثار والاشعار وفي اللحانين البلغاء .

وقال رمضان : كنتُ مع شيخٍ أهوازيٍّ في جَعْفَرية [1] وكنتُ في الذنب ، وكان في الصدر . فلما جاء وقتُ الغداء أخرج من سلّةٍ له دَجاجةً وَفرْخاً واحداً مبرَّداً ، وأقبلَ يأكلُ ويتحدّث ، ولا يعرِضُ عليَّ ، وليس في السفينة غيري وغيرُه ، فرآني أنظرُ إليه مرةً ، وإلى ما بين يديه مرة ، فتوهّم أني أشتهيه وأستبطئه ، فقال لي : لِمَ تُحدّق النظر ؛ من كانَ عندَه أكلٌ مثلي ، ومن لم يكنْ عنده نظرٌ مثلك . قال : ثم نظر إليَّ ، وأنا أنظر اليه ، فقال : يا هناهُ ! أنا رجلٌ حسنُ الأكل ، لا آكل إلاّ طيّب الطعام . وأنا أخاف أن تكونَ عينُك مالحة ، وعينُ مثلك سريعة ، فاصرِفْ عنّي وجهكَ . قال : فوثبتُ عليه ، فقبضت على لحيته بيدي اليسرى ، ثم تناولتُ الدجاجة بيدي اليمنى ، فما زلتُ أضربُ بها رأسَه ، حتى تقطّعت في يدي . ثم تحوّل إلى مكاني ، فمسح وجهه ولحيته ، ثم أقبل عليَّ فقال : قد أخبرتك أن عينك مالحة ، وأنّك ستُصيبني بعين . قلتُ : وما شبهُ هذا من العين ؛ قال : إنما العينُ مكروهٌ يحدثُ . فقد أنزلتْ بنا عينُك أعظمَ المكروه . فضحكتُ ضحكاً ما ضحكتُ مثله ،

---

(١) نوع من السفن .

ونكالمنا حتى كأنه لم يقلْ قبيحاً ، وحتى كأني لم أُفرط عليه .

* * *

هذه مُلتَقطات أحاديث أصحابنا ، وأحاديثنا ، وما رأينا بعيوننا .

فأما أحاديثُ الأصمعي ، وأبي عُبيدة ، وأبي الحسَن ، فاني لم أجدْ منها ما يصلُح لهذا الموْضع إلا ما قد كتبتُه في هذا الكتاب ، وهي بضعة عشر حديثاً .

قالوا : [1] كان للمُغيرة بن عَبد الله بن أبي عقيل الثقفي - وهو على الكوفة - جَدي يوضع على مائدته بعدَ الطعام . ولم يكن أحدٌ يمسُّه ، إذ كان هو لا يمسُّه ، فأقدَم عليه أعرابيٌ يوماً - ولم يعرف سيرة أصحابنا فيه - فلم يرض بأكل لحمه ، حتى تعرّق عظمه ، فقال له المغيرة : يا هذا ! تطالب عظام هذا الجدي بذَحْلٍ [2] ؟ هل نطحتكَ أمه ؟ وكان الاصمعي يقول

---

(١) روي هذا الخبر في العقد الفريد عن طريق المدائني .

(٢) الذحل : الحقد والعداوة والثأر . والجمع ذحول . قال عبد قيس ابن خفاف البرجمي :

ولا سابقي كاشح نازح　　　بذحل إذا ماطلبت الذحولا

إنما قال : ياهذا ! تطالب عظامَ هذا البائس بذحل ، هل نطحتك أُمه ؟ (١) .

قال : وكان على شرطته عبدُ الرحمن بنُ طارق ، فقال لرجل من الشرط : إن أقدمتَ على جَدي الأمير أسقطتُ عنك نوبة سنة . فبلغه ذلك ، فشكاه إلى الحجّاج ، فعزله ، وولّي مكانه زياد بن جديد (٢) . فكان أثقلَ عليه من عبد الرحمن ، ولم يقدر على عزله ، إذ كان من قِبل الحجاج . فكان المغيرةُ إذا خطب ، قال : ياأهل الكوفة ! من بغاكم الغوائل ؟ وسعى بكم إلى أميركم ، فلعنه الله ، ولعن أُمه العوراء . وكانت أمُّ

---

(١) في العقد ج ٦ ص ١٨٢ : ... فحضر مائدته اعرابي ، فبسط يده وأسرع في الاكل . فقال : باأعرابي : انك لتأكل الجدي بحرد وكأن أمه نطحتك . فقال له الاعرابي : أصلحك الله ، وأنت تشفق عليه كأن أمه أرضعتك . ثم بسط الاعرابي يده الى بيضة بين يديه فقال : خذها فانها بيضة العقر . فلم يحضر طعامه بعد ذلك .

(٢) في الاصل : جدين وقد أصلحها فان فلوتن جديد . ولم اعثر على ترجمة زياد هذا الا ان الطبري يذكر في حوادث سنه ٨٧ و ٨٩ و ٩٠ زياد بن جرير ابن عبد الله البجلي ولعله هذا . بدليل ماجاء هنا في الاصل « وامن امه العوراء » إذ ان زياد بن جرير هذا كان أعوراً .

زيادٍ عوراء ، فكان الناس يقولون : ما رأينا تعريضاً قطُّ أطيبَ من تعريضه .

* * *

قالوا : وكان لزياد الحارثي [1] جديٌ لا يمسُّه ، ولا يمسُّه أحد . فعشّى في شهر رمضانَ قوماً فيهم أشعبُ . فعرض أشعب للجَدي من بينهم . فقال زياد : أما لأهل السجن إمامٌ يصلي بهم ؟ قالوا : لا ! قال : فليُصلِّ بهم أشعب . فقال أشعب : أو غير هذا ، أصلح الله الأمير ؟ قال : وما هو ؟ قال : أحلفُ بالمحرَّجات أن لا آكل لحم جديٍ أبداً .

قالوا : دعا عبد الملك بن قيس الذئبي رجلاً من أشراف أهل البصرة ، وكان عبد الملك بخيلاً على الطعام ، جواداً بالدراهم فاستصحبَ الرجلُ ساكناً [2] . فلما رآه عبدُ الملك ضاق به زرعاً ، فأقبل عليه ، فقال له : ألف درهم خيرٌ لك من احتباسك

---

(١) هو زياد بن عبيد الله الحارثي ، ولي على المدينة ومكة والطائف واليمامة من قبل ابي العباس . وقد بقي والياً الى سنة ١٤١ حيث عزله أبو جعفر المنصور . وقد روى الخبر في العقد ج ٦ ص ١٨٢ على ان اشعب دخل على والي المدينة دون ذكر اسم زياد هذا .

(٢) كذا بالأصل .

علينا . واحتمل غُرْمَ ألف درهم ، ولم يحتمل أكل رغيف .

وتناول أعرابيّ من بين يدي سُليمان بن عبد الملك دَجاجة فقال له : يكفيكَ ما بين يدَيك وما يليكَ . قال الأعرابي : ومنها شيء حمىً ؟ قال : فخذها لا بُورك لك فيها .

قالوا : وكان معاوية تُعجبه القبَّةُ ، وتغدى معه ذات يوم صَعْصعة بنُ صوحان [1] ، فتناولها صعصعة من بين يديْ معاوية . قال معاوية : إنك لبعيدُ النجعة [2] . قال صعصعة : من أجدبَ انتجع .

* * *

وقالوا : دَخل هشام بن عبد الملك حائطاً له ، فيه فاكهة وأشجارٌ وثمار ، ومعه أصحابه ، فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة فقال هشامُ : ياغلام ! إقلعْ هذا ، واغرسْ مكانه الزيتون !

* * *

(١) صعصعة بن صوحان من بني عبد القيس ومن خطبائهم المشهورين واخباره منثورة في البيان والتبيين . وذكر الخبر هذا في ج ٢ ص ١٤٧ بعناية السندوبي .

(٢) في البيان : لقد انتجعت من بعيد .

قالوا : وكان المغيرةُ بنُ عبد الله بن أبي عقيل الثقفي يأكل تمراً هو وأصحابه ، فانطفأ السراج ، وكانوا يُلقون النوى في طست ، فسمع صوتَ نواتين ، فقال : من هذا الذي يلعبُ بكعبين ؟

* * *

وقالوا باع حُويطب بنُ عبد العزّى [1] داراً من معاوية بخمسة وأربعين ألف دينار . فقيل له : أصبحت كثير المال ! قال : وما منفعة خمسة وأربعين ألفاً مع ستة من العيال ؟

وقالوا سأل خالد بنَ صفوان رجلٌ ،فأعطاه درهماً ، فاستقلّه السائل ، فقال : يا أحمقُ ! إن الدرهمَ عُشر العَشرة ، وإن العشرة عُشر المائة ، وإنّ المائة عُشر الألف ، وإن الألف عُشر العشرة آلاف . أماترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم [2]

* * *

(١) هو حويطب بن عبد العزى بن ابي قبيس ، من بني عامر ابن لؤي . مات في آخر خلافة معاوية وهو ابن مائة وعشرين سنة . وكان من سراة قريش ومن المؤلفة قلوبهم .

(٢) في البيان والتبيين ص ١٦٣ ط التجارية : وقال رجل لرجل وقد علق عليها الاستاذ حسن السندوبي بما يلي : « هذا الرجل هو خالد ابن صفوان ، ذكر ذلك الجاحظ في كتاب البخلاء .

قالوا : كان بلال بن أبي بُردة قد خاف الجُذام ، وهو والي البصرة ، فوصفوا له الاستنقاع في السمن ، فكان إذا فرغ من الجلوس فيه ، أمر ببيعه ، فاجتنب الناسُ في تلك السنة أكل السمن . وكان يُفطِرَ الناس في شهر رمضان ، فكانوا يجلِسون حِلَقاً ، وتوضَع لهم الموائد ، فاذا قام المؤذن ، نهضَ بلال إلى الصلاة ، ويستحي الآخرون ، فاذا قاموا إلى الصلاة ، جاء الخبّازون فرفعوا الطعام .

* * *

قالوا : واحتقن عمر بن يزيد الأسدي (١) بحقنة فيها أدهان فلما حرّكته بطنُه ، كره أن يأتيَ الخلاء ، فتذهب تلك الأدهان ، فكان يجلس في الطست ، ويقول صفّوا هذا ! فانه يصلح للسراج (٢) .

قالوا : وخبّرنا جارٌ له قال : رأيته يتخلل من الطعام

---

(١) عمر بن يزيد الاسدى وكان على شرطة الحجاج وكان بخيلاً جداً . وقد ذكر صاحب الاغاني طرائف من بخله . وهجاه على بخله الحكم بن عبدل الشاعر ،

(٢) روي هذا الخبر باختلاف الالفاظ فيالأغانيج٢ ص ٤٢٣ ترجمة الحكم ابن عبدل الشاعر

بخلال واحد شهراً ، كلما تغدّى حذف من رأسه شيئاً ، ثم تخلل به ، ثم وضعه في مجرى دواته .

* * *

وقالوا : كان ذراع الذرّاع مع خالد بن صفوان ، فوضعوا بين يديه دَجاجة — وبين يديه شيء من زيتون — فجعل يلحظ الدجاجة ، فقال : كأنك تهُمّ بها ؟ قال : ومن يمنعني ؟ قال : إذن أصير أنا وأنت في مالي سواء .

* * *

قالوا : ومدّ يدَه أبو الأشهب إلى شيء بين يديْ نميلة ابن مرّة السعدي ، فقال : إذا أُفردتَ بشيء ، فلا تعترضْ لغيره .

قالوا : ومات عليه للدّقاق (١) وحدَه ثمانون ألف درهم ، لكثرة طعامه .

* * *

وقالوا : كان الحكم بن أيوب الثقفي عاملاً للحجاج على البصرة ، واستعمل على العراق جرير بن بَيْهس المازني ـ ولقب جرير العطرّق (٢) ـ فخرج الحكم يتنزه ، وهو باليمامة ، فدعا

---

(١) الدقاق : بائع الدقيق

(٢) في التاج: هو كجعفر، وقيل هو كمملس، ويؤيد الأخير الشعر الآتي في الاصل

المطرّق إلى غدائه ، فأكل معه ، فتناول دُراجةً كانت بين يديه ، فعزله ، وولى مكانه نوَيرة المازني ، فقال نويرة — وهو ابنُ عم العطّرق — :

قد كان في العرْق[1] صَيْدٌ لو قنعت به
فيه غنىً لك عن دُرّاجة الحكم
وفي عوارضِ[2] لا تنفكّ تأكلُها
لو كان يشفيك لحمُ الجُزر[3] من قرَم
وفي وطابٍ مملاّةٍ متممّة
فيها الصَريحُ الذي يشفي من القرَم[4]

ولما ولى مكانه نويره ، بلغه أنه ابن عمّ له ، فعزله، فقال نويرة :

أبا يوسفٍ لو كنت تعرف طاعتي ونصحي إذن ما بعتني بالمحلقِ

(١) في المضاف والمنسوب : بالعرض .

(٢) العوارض من الابل : التي تعرض لها الآفات فتخر من اجلها

(٣) في المضاف والمنسوب : الابل

(٤) يوجد في البيتين الاخيرين مايسمى بعلم العروض بالايطا. . وهو عيب قبيح بالشعر وهو تكرر كلة القرم ولعل القرم الثانية محرفة عن النهم أو العيم . والبيت الاخير ساقط في المضاف والمنسوب للثعالبي مع نسبة البيتين الأولين الى الفرزدق بدلاً من نويرة .

ولا انحلّ سراق العراقة صالح　　عليّ ولا كلّفت ذنب العطرّق[1]

فذهبت مثلاً[2].

* * *

وتناول رجلٌ من قدّام أميرٍ كان لنا ضخمٍ بيضةً، فقال: خُذها فانها بيضة العُقر. فلم يزل محجوباً حتى مات.

وأتى ضَيعةً له يتنزه إليها[3] ومعه خمسةُ رجال من خاصته، وقد حملوا معه طعام خمسمائة. وثقل عليه أن يأكلوا معه، واشتدّ جوعه، فجلس على مَشارةَ[4] بقلٍ، فأقبل ينتزع الفحلة، فيطوي جزرتها بعرقها، ثم يأكلها من غير أن

(١) ورد البيتان في الحيوان ج ١ ص ١٠ ط ساسي: وقال ابو نويرة ابن الحصين حين أخذه الحكم بن أيوب بذنب العطرف (كذا):

أبا يوسف لو كنت تعلم طاعتي　　ونصحي إذن هاديتني بالمحلق

ولا ساق سراف العرافة صالح　　بنى ولا سفت ذئب المطرّق

وسراف هذا محرفة مطبعياً والصحيح سراق وكذا المطرق وصحتها العطرق كما هو وارد في البخلاء.

( ) قوله: فذهبت مثلاً. يقول الثعالبي في المضاف والمنسوب ص ٣٧٦ ط الظاهر: ... هذه الدراجة مثل في النفع القليل يجلب الضرر العظيم.

(٣) كذا بالاصل ولعلها: فيها.

(٤) المشارة: القطعة التي تزرع.

تُغسل من كَلَب الجوع . ويقول لواحدٍ منهم ، كان أقربَ الخمسة إليه مجلساً : لو قد ذهبَ هؤلاء الثُقلاء ، لقد أكلنا .

قالوا : وأكل عبدُ الرحمن بن أبي بكرة على خوان معاوية ، فرأى لقْم عبد الرحمن . فلما كان بالعشيّ ، وراح اليه أبو بكرة ، قال : مافعل ابنُك التلقامة ؟ قال : اعتل . قال : مثله لا يعدم العلة .

وأكل أعرابيٌ مع أبي الأسود الدؤلي ، فرأى له لقْماً منكراً ، وهاله ما يصنع ، قال له ما اسمُك ؟ قال : لقمان . قال : صدق أهلك ، أنت لقمان .

قالوا : وكان له دكان لايسعُ إلا مقعدَه ، وطُبيقاً يوضع بين يديه . وجعله مُرتفعاً ، ولم يجعل (له[1]) عتَباً ، كي لا يرتقي إليه أحد . قالوا : فكان أعرابيّ يتحيّن وقته ، ويأتيه على فرس ، فيصير كأنه معه على الدكان . فأخذ دبةً ، وجعل فيها حصى ، واتكأ عليها . فاذا رأى الأعرابيَّ قد أقبل ، أراه كأنه يُحوّل متكأه ، فاذا قعْقعت الدّبة بالحصى ، نفر الفرس . قالوا : فلم يزل الأعرابيُّ يدنّيه ، ويُقعقع هو به ، حتى نفر منه ، فصرعه . فكان لايعودُ بعد ذلك اليه .

(١) مزيدة عن فان فلوتن .

رسالة أبي العاص

ابن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي ، إلى الثقفي

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعدُ ، فان جلوسَك إلى الأصمعي ، وعجبَك بسهل ابن هارون ، واسترجاحك إسماعيلَ بن غزْوان ، وطعنَك على موَيْس بنِ عمران ، وخُلطتك بابن مُشارك ، واختلافَك إلى ابن التوْأم ، وإكثارَك من ذكر المال ، وإصلاحِه ، والقيامِ عليه ، واصطناعه ، وإطنابك في وصف الترْويج والتثْمير ، وحُسن التعهّد والتوفير ، دليلٌ على خبيْ سوء ، وشاهدٌ على عيب ودَبر . بعد أن كنت تستثْقِل ذكرَهم ، وتستَشْنع فعلَهم وتعجّب من مذْهَبهم ، وتسرِف في ذمهم . وليس يلهج بذكر الجمع إلاّ من قد عزم على الجمع ، ولا يأنس بالبُخلاء ، إلا المستَوْحِش من الأسخياء .

وفي تحفظك قول سَهْل بن هارون في الاستِمْداد في حال

المهلة ، وفي الأخذ بالثقة ، وأنّ أقبح التفريط ماجاء مع طول المدّة ، وأنّ الحزْم كلّ الحزم ، والصوابَ كلّ الصواب ، أن يستظهر على الحِدْثان ، وأن يجعلَ ما فضل عن قوام الأبدان رِدْءاً ، دون صُروف الزمان ، فانا لا نُنتسب إلى الحِكمة حتى نحوطَ أصلَ النعمة ، بأن نجعلَ دون فضولها جُنة ، شاهدٌ على عَجَبك بمذهبه ، وبرهانٌ على ميْلك إلى سبيله .

وفي استحْسانك روايةَ الأصمعيّ في أنّ أكثرَ أهل النار النساء والفقراء ، وأن أكثر أهل الجنة البُله والاغنياء ، وأن أرباب الدُّثور هم الذين ذهبوا بالأجور ، برهانٌ على صِحّة حُكمنا عليك ، ودليلٌ على صواب رأينا فيك .

وفي تفضيلك كلامَ ابنِ غزوان ، حين قال : تنعَّمتم بالطعام الطيِّب ، وبالثياب الفاخِرة ، وبالشراب الرقيق ، وبالغناء المطرب ، وتنعّمنا بعزّ الثروة ، وبصواب النظر في العاقبة ، وبكثرة المال . والأمن من سُوء الحال ، ومن ذُلّ الرغبة إلى الرجال ، والعجز عن مصلحة العيال ، فتلك لذّتكم ، وهذه لذّتنا وهذا رأْينا في التسلُّم من الذم ، وذاك رأيكم[1] في التعريض[2] للحمد .

---

(١) رأيهم : فان فلوتن .

(٢) كذا في الاصل . وفي النسخة المصرية : التعرض .

وإنما ينتفع بالحمد السليمُ الفارغُ البال ، ويسرُّ باللذّات الصحيحُ الصادق الحس . فأما الفقيرُ فما أغناه عن الحمد، وأفقره إلى ما به يجدُ طعْم الحمد [1] . والطعام الذي آثرتموه يعود رَجيعاً ، والشرابُ يصير بَوْلاً ، والبناء يعود نِقضاً ، والثناء [2] ريحٌ هابَّةٌ ، ومُسقِط للمروءة ، وسخافة تفسد ، ورِنّة تسير فلذَّتُكم فيما حوى لكم الفقر ، ونقض المروءة ، ولذتنا فيما حوى لكم الغنى ، وبنى المروءة . فنحن في بناء ، وأنتم في هدم ونحن في إبرام ، وأنتم في نقض ، ونحن في التماس الغناء الدائم مع فَوْت بعض اللذة ، وأنتم في التعرض للذلّ الدائم ، مع فوت كل مروءة .

وقد فهِمنا معنى حكايتك ، وما لهجت به من روايتك . والدليلُ على انتقاض طِباعك ، وإدبار أمرك ، استحسانك ضدّ ما كنتَ تستحسِن ، وعشقُك لما لم تَزَل تمقُت ، فبُعداً وسُحقاً ، ولا يُبعِد الله إلا من ظلم . والشاعرُ أبصرُ بكم حيث يقول :

---

(١) في عيون الاخبار ج ٢ ص ٢١٦ : ماأغنى الفقير عن الحمد ، وأحوجه إلى مايجد به طعم الحمد .

(٢) في الاصل : والغناء . وما أثبتناه عن فان فلوتن .

فان سمعت بَهُلْكِ للبخيل فقل: بُعداً وسُحقاً له من هالك مودي
تُراثه جَنَّة للوارثين إذا أودى، وجُثمانه للتُرب والدود [1]

وقال آخر:

تَبلى محاسن وجهه في قبره والمالُ بين عَدوّه مقسومُ

والحمدُ لله الذي لم يُعِنّي حتى أرانيكَ وكيلاً في مالِك، وأجيراً لوارثك. وأما أنت فقد تعجّلتَ الفقر قبلَ أوانه، وصرتَ كالمجلودِ في غير لذّة. وهل تزيدُ حالُ من أنفق جميعَ ماله، ورأى المكروه في عِياله، وظهر فقرهُ، وشَمِتَ به عدوّه، على أكثر من انصراف المؤنسين عنه، على بغض عياله وعلى خُشونة الملبس، وخشونة [2] المأكل. وهذا كلّه مجتمعٌ في مَسْكِ البخيل، ومصبوب على هامة الشحيح، ومعجّل للئيم، وملازِم للممنوُع، إلاّ أن المنفِقَ قد ربح المَحْمدة، وتَمتّع بالنعمة، ولم يعطِّل المقدرة، ووفى كلَّ خصلة من هذه حقّها

---

(١) في الحيوان ج ٣ ص ٥٠ ط الحلبي: وردت الأبيات التالية كما يلي:

لم أعطها بيدي إذ بت أرشفها إلا تطاول غصن الجيد للجيد
كما تطاعم في خضراء ناعمة مطوقان أصاخا بعد تغريد
فان سمعت بهلك للبخيل فقل بعداً وسحقاً له من هالك مُودي

(٢) كذا في الاصل ولعلها محرفة عن جشوبة. وجشب الطعام: غلظ

ووفّر عليها نصيبها ، والممسك معذَّب بحَصْر نفسه ، وبالكدِّ لغيره ، مع لزوم الحجَّة ، وسُقوط الهمَّة ، والتعرُّض للذّمّ والاهانة ، ومع تحكيم المرَّة السَّوْداء في نفسه ، وتسليطها على عِرضه ، وتمكينها من عيشه ، وسرور قلبه .

ولقد سرى إليك عِرق ، ولقد دخل أعْراقك خوَر ، ولقد عمِل فيها قادح ، ولقد غالها غُول . وما هذا المذهبُ من أخلاق صميم ثقيف ، ولا من شِيَمٍ أعرَقت فيها قريش . ولقد عرَض لك أقراف ، ولقد أفسَدَتك (هُجْنة [1]) . ولقد قال معاوية « من لم يكن من بني عبد المطّلب جَواداً فهو دخيل ، ومن لم يكُن من آل الزبير شُجاعاً فهو لزيق ، ومن لم يكن من بني المُغيرة تياهاً فهو سنيد » [2] .

---

(١) مزيدة عن فان فلوتن .

(٢) في البيان والتبيين ص ٢٥٨ ج ٣ ط مصطفى محمد :
المدائني قال : قال معاوية : إذا لم يكن الهاشمي جواداً لم يشبه قومه وإذا لم يكن المخزومي تياهاً لم يشبه قومه ، وإذا لم يكن الاموي حليماً لم يشبه قومه . فبلغ قوله الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما فقال : ماأحسن ما نظر لنفسه ! أراد أن تجود بنو هاشم بأموالها فتفتقر الى ما في يديه ، وتزهو بنو مخزوم على الناس فتبغض وتشنأ ، وتحلم بنو أمية فتحب . وهذه جملة مشهورة عن معاوية رويت بألفاظ مختلفة والسنيد : الدعي

وقال سلم بن قتيبة : إذا رأيت الثقفي يعزّ من غير طعام ويكسب لغير إنفاق ، فبهرجْهُ ، ثم بَهرجه ثم بهرجه .

وقال بلال بنُ أبي بردة : لولا شبابُ ثقيف وسُفهاؤهم ما كان لأهل البصرة مال .

إن الله جَواد لايبخل ، وصَدوق لايكذب ، ووَفيّ لا يغدر ، وحليم لايعْجَل ، وعَدْل لايظلم ، وقد أمرنا بالجود ، ونهانا عن البخل ، وأمرنا بالصدق ، ونهانا عن الكذِب ، وأمرنا بالحلم ، ونهانا عن العَجَلة . وأمرنا بالعدل ، ونهانا عن الظُلم ، وأمرنا بالوفاء ، ونهانا عن الغَدْر ، فلم يأمرْنا إلا بما اختارَه لنفسه ، ولم يزجُرْنا إلا عمّا لم يرضه لنفسه . وقد قالوا بأجمعهم : إن الله أجود الأجْودين ، وأمجد الأمجدين . كما قالوا : أرحم الراحمين ، وأحْسَن الخالِقين . وقالوا في التأديب لسائلهم ، والتعْليم لأجْوادهم : « لاتجاوِدوا الله ، فان الله جلّ ذكره أجْود وأمجد » . وذكر نفسه — جلّ جلاله ، وتقدّست أسماؤه — فقال « ذو الفَضْل العَظيم » « وذي الطَّوْل لا إله إلاّ هُو [1] » . وقال : « ذُو الجلال والاكرام [2] » .

---

(١) سورة غافر : ٣

(٢) سورة الرحمن : ٢٧

وذكروا النبي ﷺ فقالوا : لم يضع درهماً على درهم ، ولا لَبِنَةً على لبنة ، وملك جزيرة العرب ، فقبضَ الصدقات وجُبيت له الأموال مابين عِذار العراق ، إلى شِحْر عُمان ، إلى أقصى مخاليف اليمن ، ثم توفي وعليه دين ، ودِرعُه مرهونة ولم يُسألْ حاجة قط فقال لا ! وكان إذا سئل أعطى ، واذا وعد أو أطمَع كان وعدُه كالعيان ، وإطماعُه كالانجاز ، ومدحته الشعراء بالجود ، وذكرته الخُطباء بالسماح . ولقد كان يهبُ للرجُل الواحِد الضاجعة [1] من الشاء ، والعَرَج [2] من الابل ، وكان أكثرُ ما يهب الملِك من العرب مائة بعير ، فيقال : وهب هُنيدة . وإنما يقالُ ذلك إذا أُريدَ غاية المدح . ولقد وَهَب لرجلٍ ألفَ بعير ، فلما رآها تزدَحِم في البوادي ، قال : أشهدُ أنك نبي ، وما هذا مما تجود به الأنفس [3] .

وفخرت هاشم على سائرِ قريش ، فقالوا : نحن أطعم للطعام وأضرب للهام . وذكرها بعضُ العلماء فقالوا : أجواد أمجاد ، ذَوُو

(١) الضاجعة : الغنم الكثيرة .

(٢) القطيع من الابل نحو الثمانين .

(٣) روي الخبر بالمحاسن والمساوي ص ١٦ ج ١ ط الخانجي سنة ١٩٠٦

ألسنة حداد . وأجمعت الأمم كلها ، بخيلها وسخيها وممزوجها على ذمّ البخل ، وحمد الجود ، كما أجمعوا على ذمِّ الكذب وحمد الصدق . وقالوا : أفضل الجُود الجودُ بالمجْهود . وحتى قالوا في جُهد المقلِّ ، وفيمن أخرج الجهد ، وأعطى الكلّ ، وحتى جعلوا لمن جاد بنفسه فضيلة على من جاد بماله ، فقال الفرزدق [1]

على ساعةٍ لو كان في القوم حاتمٌ — على جوده — ضنّت به نفس حاتمِ

ولم يكن الفرزدقُ ليضرب المثل في هذا الموضع بكعب ابن مامة [2] وقد جاد بحوبائه عند المصافنة ؛ فما رأينا عربياً سفّه

---

(٢) راجع ديوان الفرزدق ج ٢ ص ٨٤٢ ط الصاوي .

(٣) كعب بن مامه الايادي من أجواد أهل الجاهلية . يقول صاحب العقد الفريد ج ١ ص ٣٣٢ ط اللجنة سنة ١٩٤٠ : الذين انتهى اليهم الجود في الجاهلية ثلاثة نفر : حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي ، وهرم بن سنان المري ، وكعب بن مامة الايادي . وقصته التي ينوه عنها الجاحظ مشهورة أشار إليها صاحب العقد ج ١ ص ٣٣٩ وذكرها الثعالبي في المضاف والمنسوب ص ٩٨ و ٩٩ ط الظاهر بمايلي :

جود كعب : قال الجاحظ : العامة تحكم بأن حاتماً الطائي أجود العرب ، ولو قدمته على هرم في الجود لما اعترض عليهم ، ولكن الذي يحدث به عن حاتم لايبلغ مقدار ما رووه عن كعب . لأن كعباً بذل النفس حتى أعطبه الكرم ، وبذل المجهود في المال فساوى حاتماً من هذا الوجه ، وباينه ببذل المهجة ، ومن حديثه : انه خرج في ركب

حلم حاتم لجوده ، بجميع ماله ، ولا رأينا أحداً منهم سفّه حِلم كَعب على جُوده بنفسه بل جعَلوا ذلك من كعْب لاياد مَفخَراً ، وجعلوا ذلك من حاتِم طيْ ، مأثرة لعدنان على قحطان ، ثم للعرب على العجم ، ثم لسكّان جزيرة العرب ، ولأهل تلك التربة على سائر الجزائر والترب .

فمن أراد أن يُخالِف ما وصف الله جلّ ذكره به نفسه وما منح من ذلك نبيّه ﷺ ، وما فُطِر على تفضيله العربُ قاطِبة ، والأمم كافّة ، لم يكُن عندنا فيه إلا إكفارُه واستسقاطه. ولم نر الأمة أبغضت جَواداً قطْ ، ولا حقَّرته ، بل أحبّته

ـــ فيهم رجل من النمر بن قاسط في شهر ناجر ، فضلوا وعطشوا فتصافنوا ماءهم – والتصافن ان تطرح حصاة في العقب – والتفت كعب فأبصر النمريّ يحدق النظر إليه فآثره بمائه وقال للساق : اسق أخاك النمري ، فشرب النمريْ نصيب كعب ذلك اليوم ، ثم نزلوا المنزل الآخر ، فتصافنوا بقية مائهم ، ونظر النمري الى كعب كنظر أمسه . فقال كعب كقول أمسه ، وارتحل القوم ، وقالوا : ارتحل يا كعب ! فلم يكن به قوة للنهوض . وكانوا قد قربوا من الماء فقيل له : رد يا كعب انك وارد . فعجز عن الجواب ، ثم فاضت نفسه النفيسة . وقد أكثر الناس التمثل به ، ومن أبدعه قول الصاحب :

وما نال كعب في السماحة كعبه

ووردت القصة مختصرة في المحاسن والاضداد ص ٢ طوطفى محمد سنة ١٩٣٠

وأعظَمته ، بل أحبّت عَقبه ، وأعظَمت ـ من أجله ـ رهَطه . ولا وَجَدناهم أبغضوا جواداً لمجاوزته حدَّ الجود الى السَرَف ، ولا حقَرته ، بل وَجَدناهم يتعلّمون مناقبه ، ويتدارسون محاسنه ؛ وحتى أضافوا اليه من نوادر الجميل مالم يفعلْه ، ونحلوه من غَرائب الكَرَم مالم يكنْ يبلغُه . ولذلك زَعموا أنَّ الثناء في الدنيا يُضاعف كما تضاعف الحسنات في الآخرة . نعم ! وحتى أضافوا اليه كلَّ مَديح شاردٍ ، وكلَّ معروف مجهولِ الصاحب . ثمْ وجَدنا هؤلاء بانعاتهم للبخيل على ضدّ هذه الصفة ، وعلى خِلاف هذا المذهب . وجدناهم يبغضونه مرّة ، ويحقرّونه مرة ، ويبغضون ـ بفضل بغضه ـ ولده ، ويحتقرون ـ بفضل احتقارهم له ـ رهَطه ، ويُضيفون إليه من نَوادر اللؤم مالم يبلغْه ، ومن غَرائب البُخل مالم يفعَلْه ؛ وحتى ضاعفوا عليه من سُوء الثناء ، بقدْر ماضاعفوا للجواد من حُسن الثناء .

وعلى أنّا لانجدُ الجوائح الى أموال الاسخياء ، أسرعَ منها الى اموال البُخَلاء ، ولا رأينا عددَ من افتقرَ من البخلاء ، أقلّ .

والبخيلُ عند الناس ليسَ هو الذي يبخَل على نفسه فقط ، فقد يستحقّ عندهم اسمَ البخيل ، ويستوجبُ الذمّ ،

ولا يدع لنفسه هوى إلا ركبه ، ولا حاجة إلا قضاها ، ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته . وإنما يقعُ عليه اسمُ البخيل إذا كان زاهِداً في كلّ ما أوجب الشكر ، ونوّه بالذكر ، وأذخر الأجر .

وقد يعلّق البخيلُ على نفسِه من المؤَن ، ويُلزمها من الكُلَف ، ويتّخِذ من الجواري والخدم ، ومن الدوابّ والحشم ومن الآنية العَجيبة ، ومن البزّة الفاخرة ، والشارة الحسنة . ما يربو على نفقة السخيِّ المثرِي ، ويُضعِف على جُود الجواد الكريم ، فيذهب ماله ، وهو مذموم ، ويتغير حاله وهو ملوم ، وربما غلب عليه حُب القيان ، واستهتر بالخِصيان ، وربما أفرط في حبّ الصيد ، واستولى عليه حب المراكب . وربما كان إتلافه في العُرس والخُرس والوليمة ، وإسرافه في الأعذار وفي العقيقة والوكيرة [1] . وربما ذهبتْ أمواله في الوضائع والودائع وربما كان شديدَ البخل ، شديد الحبّ للذكر ، ويكونُ بخله

(١) الخرس : طعام الولادة . والاعذار : طعام الختان . والعقيقة : الشاة التي تذبح عن المولود يوم أسبوعه . والوكيرة : الطعام المتخذ عند بناء أو شراء وكر الرجل . قال الشاعر :

كل الطعام تشتهي عميره   الخرس والاعذار والوكيره

أوسخ ، ولؤمه أقبح ، فينفق أمواله ، ويتلف خزائنه ، ولم يخرج كَفافاً ، ولم ينج سليماً .

كأنك لم تر بخيلاً مخدوعاً ، وبخيلاً مفتوناً[1] ، وبخيلاً مِضياعاً ، وبخيلاً نفّاجاً ، وبخيلاً ذهب ماله في البناء ، وبخيلاً ذهب ماله في الكيمياء ، وبخيلاً أنفق ماله في طمع كاذب ، وعلى أمل خائب ، وفي طلب الولايات ، والدخول في القَبالات ، وكانت فتنتُه بما يؤمّل من الإمرة ، فوقَ فتنتِه بما قد حواه من الذهب والفضّة . قد رأيناه ينفِقُ على مائدته وفاكهته ألف درهم في كل يوم ، وعنده في كلِّ يوم عُرس ، ولأن يطعن طاعنٌ في الأسلام أهون عليه من أن يطعن في الرغيف الثاني ولشقُّ عصا الدين أشد عليه من شقِّ رغيف ، لايعدُّ الثلمة في عِرضه ثلمة ، ويعدُّها في ثريدته من أعظم الثلم .

وإنما صارت الآفاتُ إلى أموال البخلاء أسرع ، والجوائح عليهم أكلب ، لأنهم أقلُّ توكلاً ، وأسوأ بالله ظناً . والجوادُ إما أن يكون متوكلاً ، وإما أن يكون أحسنَ بالله ظناً . وهو على كل حال بالمتوكل أشبه ، وإلى ما أشبهَه أنزع . وكيف ما

(٢) مضعوفاً : فان فلوتن . مغبوناً : مرسيه .

دار أمره ، ورجعت الحال به ، فليس ممن يتّـكل على حَزمه ويلجأ إلى كيسه ، ويرجع إلى جَوْدة احتياطه ، وشدّة احتراسه واعتلالُ البَخيل بالحِدثان ، وسوء الظن بتقلب الزمان إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الحدثان وبالذي يُحدث الأزمان وأهلَ الزمان . وهل تجري الأحداثُ إلا على تقدير المحدِث لها ؛ وهل تختلف الأزمنة إلا على تصريف من دبّرها ؛ أولسنا وإن جهلنا أسبابها ، فقد أيقنّا بأنها تجري إلى غاياتها ؟

والدليل على أنه ليس بهم خوفُ الفقر ، وأن الجمعَ والمنع إما أن يكونَ عادةً منهم ، أو طبيعة فيهم : أنك قد تجدُ الملك بخيلاً ، ومملكتُه أوسعُ ، وخرجُه أدرّ ، وعدوّه أسكن وتجد أحزَم منه جواداً ، وإن كانت مملكته أضيق ، وخرجُه أقل ، وعدوّه أشدّ حركة .

وقد علمنا أن الزنج أقصر الناس مدة وروية ، وأذهلهم عن معرفة العاقبة ، فلو كان سخاؤهم إنما هو لكلال حدّهم ، ونقص عقولهم ، وقلة معرفتهم ، لكان ينبغي لفارسَ أن تكون أبخل من الروم ، وتكون الرومُ أبخل من الصقالبة ، وكان ينبغي في الرجال في الجملة أن يكونوا أبخلَ من النساء في الجملة ، وكان

ينبغي للصبيان أن يكونوا أسخى من النساء ، وكان ينبغي أن يكونَ أقلُّ البُخَلاء عقلاً أعقلَ من أسدِّ الأجواد عقلاً ، وكان ينبغي للكلب – وهو المضروب به المثلُ في اللؤم – أن يكون أعرفُ بالأمور من الديك ، المضروب به المثل في الجود

وقالوا : هو أسخى [1] من لافِظة ، والأم [2] من كلب على جيفة ، وألأم من كلب على عَرْق [3] . وقالو : أَجِعْ كلبَك يتبعك ، ونَعِمَ كلبٌ في بؤس أهله [4] ، وأسمنْ كلبك يأكلك ، وأحرص من كلبٍ على عِقي صبي [5] وأجوعَ من كلبة حَومل ، وألهُوَ أبذأ من كلب ، وجلس فلان مَزْجَر الكلب [6] ، وأخسأ – كما يقال للكلب – ، وكالكلب في

---

(١) في الأمالي : اسمح .

(٢) في الحيوان ج ٢ ص ٢٢٧ : أبخل .

(٣) في عيون الاخبار : قال ابو نواس في جعفر بن يحيى البرمكي :

وأعظم من ذباب على خرء وابخل من كلب عقور على عرق

وراجع البيت في الحيوان ج ١ ص ٢٣٨ والبيان والتبيين ج ٣ ص ٢١١

(٤) في عيون الاخبـار ج ٢ ص ٨١ : نعيم كلب في بؤس اهله . بدلاً عن نعم .

(٥) العقي بالكسر : مايخرج من بطن الولد حين يولد .

(٦) في الاصل : وحسن فلان من خرء الكلب ، وما أثبتناه عن عيون الاخبار ج ٢ ص ٨١ .

الآرِيّ ، لاهو يعتلِف ، ولا هو يترك الدابة تعتلف . وقال الشاعر :

سَرَتْ ما سَرَتْ مِنْ لَيْلِها ثُمَّ عَرَّسَتْ
عَلى رَجُلٍ بالعَرْجِ ألأمَ مِنْ كَلْبِ [1]

وقال الله جل ذكره : « فمثلُه كمثلِ الكلبِ إن تَحملْ عليه يلهثْ أو تتركْهُ يلهثْ » [2] وكان ينبغي في هذا القياس أن يكون المراوزة أعقلَ البريّة ، وأهلَ خرسان أدرى البرية .

ونحن لانجد الجواد يفرّ من اسم السرَف إلى الجود ، كما نجد البخيلَ يفرّ من اسم البخل إلي الاقتصاد ، ونجد الشجاعَ يفرّ من اسم المتهوِّر ، والمستحي يفرّ من اسم الخجل . ولو قيل لخطيبٍ ثابتِ الجنان : « وقاح » لجزع ، فلو لم يكنْ من فضيلة الجود ، إلا أن جميع المتجاوزين لحدود أصناف الخير يكرهون اسم تلك الفَضلة إلا الجواد ، لقد كان في ذلك ما يبين قدره ويظهر فضله .

المالُ فاتنٌ ، والنفس راغبة ، والأموال ممنوعة ، وهي على

---

(١) هذا البيت يقال فيمن جعل الكلب مثلاً في اللؤم . واسم الشاعر مجهول .

(٢) سورة الاعراف : ١٧٦ .

مامُنِعت حَرِيصة ، وللنفوس في المُكاثرة علةٌ معروفة ، لأنْ من لا فكرة له ، ولا رويَّة ، موكلٌ بتعظيم ذي الثروة ، وإن لم يكنْ منه منَاله .

وقد قال الأوَّل :

وزادها [1] كلفاً بالحبِّ أن مُنِعت

أحبُّ [2] شيء إلى الانسان مامُنِعا [3]

وفي بعض كتب الفرس : « كلّ عزيز تحت القُدرة فهو ذليل [4] » وقالت مُعاذة العَدَوية : « كل مقدور عليه مَقلوٌّ أو محقور [5] » .

---

(١) في اللسان مادة : حبب : وزادها . وكذا في الحيوان ج ١ ص ١٦٨ وفي عيون الاخبار ج ٢ ص ٣ : وزاده . وصحت الرواية : وزادني كما في الأغاني ج ١١ ص ٢٢ .

(٢) في اللسان : وحب شيئاً الى الانسان مامنعا . « انشاد الفراء » وفي الحيوان : وحب شيء الى الانسان مامنعا . وفي عيون الاخبار : أحب . وأصله حبب (بضم الباء) ثم اسكنت وأدغمت في الثانية . وفي قوله : مامنعا . في موضع الرفع بحب .

(٣) البيت كما في الأغاني للأحوص ، وقبله :

كم من دنى لها قد صرت أتبعه ولوصحا القلب عنها كان لى تبعا

(٤) في عيون الاخبار ج ٢ ص٣ : كل عز دخل تحت القدرة فهو ذليل .

(٥) هذا القول منسوب في عيون الاخبار للعجم ونصه : كل مقدور عليه مملول محقور .

ولو كانوا لأولادهم يجمعون ، ولهم يكدّون ، ومن أجلهم يحرصون ، لجعلوا لهم كثيراً مما يطلبون ، ولتركوا محاسبتهم في كثير ممّا يشتهون ، وهذا بعضُ ما بغّض بعض المورّثين إلى الوارثين ، وزهّد الأخلاف في طول عمر الأسلاف . ولو كانوا لأولادهم يمهدون ، ولهم يجْمَعون ، لما جمع الخِصيان الأموال . ولما كنز الرُهبان الكنوز ، ولاستراحَ العاقِر من ذلّ الرَغبة ، ولسَلم العقيمُ من كدّ الحرص . وكيف ، ونحن نجدُه — بعد أن يموتَ ابنُه الذي كان يعتلّ به ، والذي من أجله كان يجمع — على حالِه في الطلب والحرص ، وعلى مثل ما كان عليه من الجمع والمنع ؟

والعامة لم تقصر في مطلب ، والحكَرة[1] والبخلاء لم يحدّوا شيئاً من جُهدهم ، ولا أعفوا بعدُ قدرتهم ، ولا قصّروا في شيء من الحِرص والحَصْر ، لأنهم في دار قُلعة[2] ، وبعرَض نقلة ، حتى لو كانوا بالخلود موقِنين ، لاغفلوا تلك الفُضول ،

---

(١) الحكرة : الذين يحبسون الطعام أيام الغلاء .

(٢) دار قلعة : اذا لم تكن وطيئة . ويقال شر المجالس مجلس قلعة : وهو الذي يقلع عنه الجالس اذا جاء من هو أعز منه .

فالبخيلُ مجتهدٌ ، والعاميُّ غيرُ مقصر . فمن لم يستَمِن على ما وَصفنا بطبيعة قويّة ، وبشَهوة شديدة ، وبنظر شافي ، كان إمّا عاميًا ، وإمّا بخيلاً شقيًا ، فيقيمُ اعتِلالهم بأولادِهم ، واحتجاجَهم بِخوف التلوُّن من أزمنتهم .

قال رسولُ الله ﷺ لوافدٍ كذَب عندَه كذبة — وكان جواداً — « لولا خصلة ومَقَكَ الله عليها لشرَّدتُ بك من وافد قوم »[(١)] وقيل للنبيّ ﷺ : « هل لك في بيض النساء ، وأدْم الأبل ؟ » قال « ومن هم » ؟ قال : « بنو مُدلِج » . قال : « يمنعُني من ذاك قِراهُمُ الضيْف ، وصِلتُهم الرحم » . وقال لهم أيضاً : « إذا نحروا نجّوا ، وإذا لبوا عجّوا ![(٢)] » وقال للأنصار[(٣)] « من سيّدكم ؟ » قالوا : « جَدْ بن قيس[(٤)] ،

(١) ومقك : أحبك . والحديث في النهاية لابن الاثير ج ٤ ص ٢٧٤ ط الخيرية .

(٢) الحديث كما في النهاية لابن الأثير : افضل الحج العج والثج .

(٣) في العقد الفريد : وقال النبي ﷺ لقوم من العرب .

(٤) هو جد بن قيس بن صخر سيد بنى سلمه ، صحابي انصاري ، ترجم له في اسد الغابة ج ١ ص ٧٤ والاصابة ج ١ ص ٢٢٨ .

على أنه يُزَنُ [1] فينا ببخل ». فقال : « وأيُّ داء أدوى [2] من البُخل ؟ » فجعله داء [3] ، ثم جعلَه من ادوى الداء . وقال للأنصار : « أما والله ما علمتكم إلاّ لتكثرون عند الفراغ ، وتقلون عندَ الطمع [4] » . وقال : « كفى بالمرء حرصاً ركوبُه البحر » وقال : « لو أنّ لابن آدم واديين من مال ، لابتغى ثالثاً ، ولا يُشبع ابن آدم إلا التراب ، ويتوبُ الله على من تاب [5] » وقال : « السخاء من الحياء ، والحياء من الايمان » .

---

(١) يزن : متهم .

(٢) كذا في اللسان والنهاية لابن الاثير والعقد الفريد . وقيل في التعقيب عليه : والصواب أدواء بالهمز ، ولكن هكذا أي بالقصر — روى ، إلا أن يجعل من دوى يدوى دوى فهو دو ، اذا هلك بمرض باطن .

(٣) ليست في الاصل وأثبتناها عن طبعة الاستاذ الحاجري .

(٤) في البيان والتبيين ج ٢ ص ١٦ : أما والله ماعلمتكم إلا لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع .

(٥) رواه احمد والشيخان والترمذي عن أنس ، واحمد والشيخان عن ابن عباس ، والبخاري عن ابن الزبير ، وابن ماجة عن ابي هريرة واحمد عن أبي واقد ، والبخاري في التاريخ ، والبزار عن بريده .

وفي البيان ج ٢ ص ١٨ : لو أن لابن آدم واديين من ذهب لسأل إليها ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب .

وقال : « إنَ اللهَ جواد يحبُّ الجود [1] » وقال : « أنفِق يابلال ولا تَخْشَ من ذي العَرْش إقلالاً [2] » . وقال : « لاتوكِ فيوكى عليك [3] » . وقال : « لاتحص فيُحصى عليك » . وقالوا : « لاينفعُكَ من زاد (ما [4]) تبقّى » ولم يُسَمِّ الذهبَ والفضة بالحجرَين ، إلا وهو يريد أن يضع من أقدارهما ، ومن فِتنة الناس بهما . وقال لقيس بنِ عاصم [5] : « إنما لك من مالك ما

وفي سمط اللآلي ج ٢ ص ٥ : ...روى حماد بن سلمه عن داود ابن أبي هند عن أبي حرب ابن أبي الاسود عن أبي موسى الأشعري قال : نزلت سورة كنا نشبهها في الطول ببراءة فرفعت وحفظ منها : لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى إليهما ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب .

(١) أخرجه البيهقي عن طلحة بن عبد الله ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس كما في الجامع الصغير .

(٢) في العقد ج ١ ص ٢٦٣ : وقال النبي ﷺ : أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا .

(٣) أخرجه أحمد والشيخان من حديث أسماء بنت أبي بكر . يقال اوكى مافي سقائه : إذا شده بالوكاء ، وهو الخيط الذي يشد به رأس القربة .

(٤) مزيدة ليست بالأصل .

(٣) هو قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر ، قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد منهم عمرو بن الاهتم والزبرقان بن بدر ـ

أكلت فأفنَيْت ، وما لَبِست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت ، وما سِوى ذلك فللوارث [1] » . وقال النَمِرُ بنُ تولب : [2]

وحَثّت على جَمعٍ ومنعٍ ونفسُها   لها في صُروف الدهر حقٌ كذوبُ
وكائنْ رأينا من كَريمٍ مرزّأً   أخي ثقةٍ طلْقِ اليدَين وهوبِ
شهدتُ وفاتوني وكنتَ حسبتني   فقيراً إلى أن يشهدوا وتغيبي
أعاذلُ إنْ يصبحْ صَداي [3] بقفرةٍ   بعيداً نآني [4] صاحِبي وقريبي

ـ وكان جواداً كريماً ، وشاعراً معروفاً . ورثاه لفضله عبدة بن الطبيب بشعر قال فيه :

عليك سلام الله قيس بن عاصم   ورحمته ماشاء أن يترحما
تحية من غادرته غرض الردى   إذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد   ولكنه بنيان قوم تهدما

وراجع الابيات بحماسة أبي تمام ج ٢ ص ٢٨٥ و ٢٨٦ ط التجارية .

(١) راجع البيان ج ٢ ص ١٨ وعيون الاخبار ج ٣ ص ١٧٩ والاغاني ج ٤ ص ١٦٢ والامالي ج ٢ ص ٣٠٥ فقد ورد الحديث باختلاف الالفاظ مع المحافظة على المعنى .

(٢) النمر بن تولب من عكل ، وكان شاعراً جواداً ، ويسمى الكيس ، لحسن شعره ، وهو جاهلي ، وأدرك الاسلام فأسلم . ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وحسن اسلامه . ويعد من المخضرمين . وقال السجستاني : عاش النمر بن تولب مائتي سنة وخرف .

(٣) قال الجاحظ : الصدى طائر يخرج من قبر الميت فينعي اليه ضعف وليه وعجزه :وهذا كانت العرب تقوله في الجاهلية ، وهوهنا مستعار أي إن أصبحت أنا

(٤) في البيان والتبيين ج ١ ص ٢٣٢ : فأني .

تَرَى أنَّ ما أبْقَيْتُ لم أكُ ربَّه وأنَّ الذي أمضيتُ[1] كان نصيبي
وذي إبل يسعى ويحسبها له أخي نَصَبٍ في سقيها[2] ودؤوب
غدَت وغدا ربٌّ سواه يَسُوقها وبُدِّلَ أحجاراً وجالَ قليب

وقال أيضاً :[3]

قامتْ تَباكي[4] أنْ سَبَأت لفتنة زِقّاً وخابيةً بعُودٍ مُقْطَعِ
وقَرَيْتُ في مَقرى قلائص أربعاً وقَرَيْتُ بعدَ قِرَى قلائص أربع
أتَبكِيَا من كلِّ شيءٍ هيِّنٍ سفَهٌ[5] بكاءُ العين مالم تَدْمَعِ
فاذا أتاني إخْوَتي فَدَعيهمُ يتعلّلوا في العَيْش أويلهوا معي
لا تَطْرُديهم عن فراشي، إنهم لا بُدَّ يوماً أن سيَخلو مضجعي
هلا سألتِ بعادِيَاء وبَيْتِه والخيلِ[6] والخمرِ التي لم تُمْنَعِ

---

(١) في البيان والتبيين : أنفقت .

(٢) في الكامل : عيبها

(٣) هذه القصيدة قالها النمر يصف نفسه فيها بالكرم ويعاتب زوجته على لومها فيه ، وكان أضافه قوم في الجاهلية فعقر لهم أربع قلائص واشترى لهم زق خمر ، فلامته على ذلك .

(٤) في خزانة الأدب : تبكي . وكذا في اللآلي .

(٥) في اللآلي : سفهاً .

(٦) في الخزانة : والخل .

وقال الحارث بن حلزه [1] :

بينا الفتى يسعى ويُسعى له تاح له من أمره خالجُ

يترك ما رقّحَ من عيشه يبعثُ فيه هَمَجٌ هامجُ [2]

لاتكسع الشَّوْلَ بأغبارها [3] إنك لا تدري مَن الناتجُ

وقال الهذلي [4] :

إنّ الكرامَ مَناهِبُو كَ المجدَ كلُّهُمُ فناهِب

أخلِفْ وأتلِفْ ، كلُّ شيءٍ ذرّعته [5] الريحُ ذاهب

وقالت امرأة :

أنتَ وَهبْتَ الفتيةَ السلاهب [6] وإبلاً [7] يحارُ فيها الحالِبْ

---

(۱) هو أبو ظليم الحارث بن حلزه ، شاعر مشهور من شعراء الطبقة الاولى . وكان به وضح وهو يعد من المقلين . ويعد من المعمرين ومات وله نحو مائة وخمسون سنة .

(۲) الترقيع : الاصلاح . والهمج : الرعاع والاخلاط. والهامج توكيد له كقولهم ليل لائل . وفي البيان والتبيين : مارفح ، والمعنى واحد .

(۳) الكسع : ضرب الماء على الضرع ليرتفع اللبن ، فتحن الناقة . والغبر . بقية اللبن .

(٤) في البيان والتبيين ج ۳ ص ۱۰۰ و ۱۵۹ : وقال المسعودي .

(٥) في البيان والتبيين : زحزحته ص ۱۰۹ وزعزعته ص ۱۲٦ .

(٦) الفتية السلاهب : الخيل الفتية الطوال .

(۷) في البيان : وهجمة ، والهجمة : القطعة من الابل من ٤٠ الى ١٠٠

وَغماً مِثل الجرادِ الهارِب[1]   متاعَ أيامٍ وكلٌ ذاهِبْ

وقال تميم بنُ مُقبل[2] .

فأخلِفْ وأتلفْ ، إنما المالُ عارةٌ   وكلْهُ مع الدَهر الذي هو آكله

وقال أبو ذرّ : لك في مالِك شريكان: الوارثُ ،والحِدثان[3]

وقال الحطيئة :

من يفعلِ الخيرَ لايعدَمْ جوازيَهُ[4]   لايذهب العُرف بين الله والناس

---

(١) في البيان والتبيين : السارب

(٢) هو تميم بن أبيّ بن مقبل من بني العجلان ، وكان جاهلياً اسلاميا ورثى عثمان بن عفان وهو من أوصف العرب اقدح . ولذلك يقال : قدح ابن مقبل . وكان ابن أبيّ بن مقبل جافيا في الدين ، وكان في الاسلام يبكي أهل الجاهلية ويذكرها ، ووقع بينه وبين النجاشي مهاجاة ، وقد قهره النجاشي في الهجاء ، وبلغ مائة وعشرين سنة وتوفي أيام عمر بن الخطاب .

(٣) في عيون الاخبار ج ٣ ص ١٨٠ : وقال أبو ذر : لك في مالك شريكان اذا جاء أخذا ولم يؤامراك : في الحدثان والقدر ، كلاهما يمر على الغث والسمين ، والورثة ينتظرون متى تموت فيأخذون ما تحت يديك وانت تقدم لنفسك ، فان استطعت ألا تكون اخس الثلاثة نصيباً فافعل .

(٤) قال ابن جنى : ظاهر هذا أن تكون جوازيه جمع جاز أي لايعدم جزاء عليه ، جزاء على جواز لمشابهة اسم الفاعل للمصدر ، فكما جمع سيل على سوائل ، كذلك يجوز أن يكون جوازيه جمع جزاء (انظر اللسان مادة جزى) .

وجاء (في [1]) الأثر : أن أهلَ المعروف في الدنيا أهلُ المعروفِ في الآخرة [2] وفي المثل : اصنع الخير ولو إلى كلْب وقال في الحثِّ على القليل ، فضلاً على الكثير ، قال الله جلَّ ذكره : « فَمَنْ يَعْمَلْ مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يَرَهُ ومن يَعْمَلْ مِثقالَ ذرَّةٍ شرّاً يَرِهُ [3] . » وقالتْ عائشة في حَبَّة عِنَب : « إنَّ فيها لمثاقيل ذَرٍّ » ولذلك قالوا في المثل : من حَقَرَ حَرَمَ [4] . وقال سَلم بن قُتيبة : يستحي أحدُهم من تقريب القليل من الطعام ، ويأتي أعظم منه . وقال : جهد المرء أكثرُ من عفوه . وقدَّم رسول الله ﷺ جَهْدَ المُقِلِّ على عَفْو المكثر وإن كانَ مبلغُ جهده قليلاً ، ومبلغُ عَفْو المكثر كثيراً . وقالوا : لا يمنعَنْك من معروف صِغَره . وقال النبي ﷺ : « إتقوا النار ولو بشِقِ تمرة » . وقال « لا تردوا السائل ، ولو بظِلف مُحْرق » .

---

(٣) مزيدة .

(٢) تتمة الحديث كما في الحلية : وأهل المنكر في الدنيا ، أهل المنكر في الآخرة .

(٣) سورة الزلزلة : ٧ و ٨

(٤) هذا مثل ذكره الميداني ٢ ص ٢٦٨ وشرحه بقوله : حقرته واحتقرته اذا عددته حقيراً ، أي من حقر يسيرا ما يقدر عليه ، ولم يقدر على الكثير ، ضاعت لديه الحقوق .

وقال : « لاتردُّوه ولو بفرسن [1] شاة » . وقال : لاتحقروا اللقمة . فإنها تعودُ كالجبل العظيم ، لقول الله جل ذكره : « يَمحقُ اللهُ الربا ويُربي الصَّدَقات [2] » . وقال : « لا تردُّوه ، ولو بصلة حبل » . وقالت العرب : أتاكم أخوكم يستتمّكم ، فأتمّوا [3] له . وقالوا : مانع الاتمام ألأم . وقالوا : البخيلُ إنْ سأل ألحف ، وان سُئِل سوّف . وقالوا إن سُئِل جحد ، وإن أعطى حقد . وقالوا : يَرُدُّ قبل أن يسمع ، ويغضب قبل أن يفهم . وقالوا : البخيل إذا سئل ارتزّ [4] ، وإذا سُئِل الجوادُ اهتز . وقال النبي ﷺ « ينادي كلَّ يوم مناديان من السماء ، يقول أحدُهما : اللهم عجّل لمنفق خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم عجّل لممسك تلفاً » . وقالوا : شرّ الثلاثة المليم ، يمنع درّه ودرّ غيره . وقال الله جلّ ذكرُه : « الذين يَبخلونَ ويأمرُونَ النّاسَ بالبُخْل [5] » وقالوا في المثل . إن ألجأك [6]

(١) الفرسن للبعير كالحافر للدابة .
(٢) سورة البقرة : ٢٧٦
(٣) أتمه : أعطاه التم ، وهو الفأس والمسحاة .
(٤) ارتز البخيل : أي أمسك .
(٥) سورة النساء : ٣٧
(٦) ان لجأ : فان فلوتن .

الدهر إلى بخيل : « شرٌ مَا أَلجأك إلى مخة عرقوب » . وقال النبيُّ ﷺ : « قل العدل وأعط الفضل» . وقال صلى الله عليه وسلم : « انهاكم عن عقوق الامهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات »[(١)] وقال الله عز وجل : « وَيُطْعِمونَ الطَّعامَ على حُبِّه مِسكيناً ويَتيماً وأسيراً »[(٢)] وقال « لنْ تَنالوا البرَّ حتّى تُنْفِقوا مِما تُحبّون . »[(٣)] وقال « ويُؤثِرونَ على أنفسِهمْ ولو كان بِهم خَصَاصةٌ . ومَنْ يُوق شُحَّ نفسِهِ فأولئكَ هُمُ المُفلِحون »[(٤)] . وقالوا في الصبر على النائبة وفي عاقبة الصبر

عِندَ الصَّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرى

وقالوا : الغَمَراتُ ثم يَنْجلين . وقال الخُرَيمي[(٥)] :

ودون الندى في كلِ قلبٍ ثَنِيَّةٌ لها مصعدٌ حزْنٌ ومُنْحَدرٌ سهلُ
وودَّ الفتى في كلِّ نَيْلٍ يُنيلُه إذا ما انقضى لو أنَّ نائله جزْلُ

وقالوا : خير الناس ، خيْرُ الناس للناس ، وشرُّ الناس ،

---

(١) وفي رواية : ان الله تعالى حرم عليكم عقوق ... وتكملته : وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال .

(٢) سورة الدهر : ٨

(٣) سورة آل عمران : ٩٢

(٤) سورة الحشر : ٩

(٥) راجع هامش الصفحة ٢٠٠ و ٢٠١ رقم ٣

شرُّ الناس للناس . وقالوا : خيرُ مالك ما نفعك . وقالوا : عجباً لفرط الكِبْرة ، مع شباب الرغبة . وقال الزاجر :

كلّنا يأمُلُ مَدّاً في الأجَلْ   والمنايا هي آفاتُ الأمل

وقال عُبيد الله بنُ عِكْراش : زَمنٌ خَؤون ووارثٌ شفون ، وكاسب حزون . فلا تأمن الخؤون وكن وارث الشفون[1] وقال : « يهرم ابن آدم ، ويشبُّ معه خصلتان : الحِرص والأمل » . وكانوا يعيبون من يأكل وحده . وقالوا : ما أكل ابنُ عمر وحدَه قط . وقالوا : ما أكل الحسن وحدَه قط . وسمع مجاشع الرَبعى قولهم : الشحيح أعذر من الظالم ، فقال : أخزى الله أمرين خيرهما الشح[2] . وقال بكر بن عبد الله المزني : لو كان هذا المسجد مفعماً بالرجال ، ثم قيل لي من خيرُهم ؟ لقلتُ : خيرُهم لهم . وقال النبي ﷺ « ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسولَ الله ! قال من نزل وحده ، ومنع رِفده ، وجلد عبده » وقالت امرأة عند جِنازة رجُل : أما والله ما كان مالك لبطنك ، ولا أمرك لعرسك .

---

(١) الشفون : الذي ينظر إليك كالكاره والمبغض .

(٢) راجع البيان والتبيين ج ٣ ص١٧٢

فلما بلغت الرسالة ابن التوأم، كَرِه أن يجيب أبا العاص لما في ذلك من المنافسة والمباينة ، وخاف أن يترقى الأمر إلى أكثر من ذلك .

فكتب هذه وبعث بها إلى الثقفي :

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد ، فقد بلغني ما كان من ذكر أبي العاص لنا ، وتنويهه بأسمائنا ، وتشنيعه علينا . وليس يمنعنا من جوابه إلا أنه إن أجابنا ، لم يكنْ جوابُنا إياه على قوله الثاني أحقّ بالترك من جوابنا على قوله الأوّل . فان نحن جعلنا لابتدائه جواباً ، وجعلنا لجوابه الثاني جواباً، خرجنا إلى التهاتر ، وصرنا إلى التخاير . ومن خرج إلى ذلك فقد رضي باللجاج حظاً ، وبالسُّخْف نصيباً .

وليس يحترسُ من أسباب اللَجاج إلا من عَرف أسباب البلوى . ومن وقاه الله سوءَ التكَلفي وسُخْفَه ، وعصمه من سُوء التصميم ونكده ، فقد اعتدلت طبائعه ، وتساوت خواطره . ومن قامت أخلاطه على الاعتدال ، وتكافأت خواطره في الوَزن

لم يعرف من الاعمال (إلا [1]) الاقتصاد ، ولم يجد أفعاله أبداً إلاّ بين التقصير والافراط . لأن الموزونَ لايولد إلا موزوناً ، كما أن المختلِفَ لايولد إلا مختلفاً . فالمتتابع لا يثنيه زَجْر ، وليست له غايةٌ دون التلف . والمكتفي ليس له مأتى ولا جهة ، ولا له رُقية ، ولا فيه حِيلة . وكلُّ متلوّن في الأرض فنحلُّ العَقد، ميسَّر لكل ريح .

فدَع عنكَ خلطة الأمَّعة ، فانه حارِص لا خيرَ فيه . واجتنب ركوبَ الجموح ، فانَّ غايته قبل الذواق ، (ولا خير في المتلوّن [2]) ذي البدوات ولا في الحرون ذي التصميم والمتلوِّن شرٌّ من المصمِّم ، إذ كنتَ لاتعرفُ له حالاً يقصد اليها ، ولا جهة يعمل عليها . ولذلك صار العاقل يخدع العاقل ، ولا يخدع الأحمق ، لأن أبواب تدبير العاقل وحِيَله معروفة، وطرقَ خواطِره مسلوكة ، ومذاهبَه محصورة معدودة ، وليس التدبير الاحمق وحيَلِه جهةٌ واحدة ، ومن أخطأها كذَب . والخبرُ الصادقُ عن الشيء الواحِد واحد ، والخبرُ الكاذبُ

---

(١) مزيدة ليست بالأصل .

(٢) مزيدة عن طبعة الاستاذ الحاجري .

عن الشيء الواحد لا يُحصي له عدد ، ولا يوقَف منه على حدّ. والمصمّم قتله بالاجهاز، والمتلوّن قتلُهُ بالتعذيب . فان قلنا : فليس إليه نقصد ، وإن احتجنا فليس عليه نرد ولكنا إليك نقصد بالقول، واليك نريدُ بالمشورة . وقد قالوا : إحفَظ سرك ، فان سرّك من دمك .

وسواء ذهابُ نفسِك ، وذهابُ مابه يكون قوام نفسِك .

قال المُنجاب العنبريّ : ليس بكبيرٍ ما أصلحه المال . وفقدُ الشيء الذي به تصلح الأمور ، أعظم من الأمور . ولهذا قالوا في الابل : لو لم يكن فيها إلا أنها رقوء الدم . فالشيء الذى الذي هو ثمن الابل أحق بالصَون . وقد قضَوا بأن حفظ المال أشدّ من جمعه . ولذلك قال الشاعر :

وحفظك مالاً قد عُنيتَ بجمعه　　　أشدّ من الجمع الذي أنتَ طالبه

ولذلك قال مُشتري الأرضِ لبائعها ـ حين قال له البائع ـ : « دفعتُها اليك بطيئة الاجابة ، عظيمة المؤونة » ، قال : « دفعتها اليك بطيئة الاجتماع ، سريعة التفرّق » .

والدرهمُ هو القطب الذي تدور عليه رَحا الدنيا . واعلم أنّ التخلّص من نزوات الدرهم ، فتقلبه من سكر الغنى ، وتفلته شديد . فلو كان إذا تفلّت كان حارسُه صحيحَ العقل ، سليم

الجوارح ، لردّه في عقاله ، ولشده بوثاقه . ولكنا وجدنا ضعفه عن ضبطه ، بقدر قلقه في يده . ولا تغترَّ بقولهم : مال صامت . فانه أنطقُ من كل خطيب ، وأنمُّ من كل نمّام . فلا تكترث بقولهم : هذين الحجرين ، فتتوهّم جمودهما وسكونهما وقلة ظعنهما . وطول إقامتهما ، فان عملهما وهما ساكنان ، ونقضهما للطبائع وهما ثابتان ، أكثرُ من صنيع السمّ الناقع ، والسبعِ العادي . فان كنت لا تكتفي بصنيعه حتى تمده ولا تحتال فيه حتى يحتال له ، فالقبرُ خيرٌ لك من الفقر ، والسجنُ خيرٌ لك من الذل .

وقولي هذا (مر[1]) يعقب حلاوة الأبد . وقول أبي العاص : حلوٌ يعقب مرارة الأبد . نخذ لنفسك بالثقة ولا ترض أن يكون الحرباء الراكبُ العودِ ، أحزمَ منك ، فان الشاعرَ يقول :

أنّى أتيح لها حرباءُ تنضبةٍ   لا يرسلُ الساقَ إلا ممسكاً ساقا[2]

واحذر أن تخرج من مالك درهماً حتى ترى مكانه خيراً

---

(١) مزيده : فان فلوتن .

(٢) في لسان العرب مادة حرب : أن قائله ابو دؤاد الأيادي . والتنضبة : واحدة التنضب وهو شجر عيدانه بيض ضخمة وورقه متقبض ولا تراه إلا كأنه يابس مغبر .

منه ، ولا تنظُر إلى كثرته ، فانّ رمل عالج [1] ، لو أُخِذ منه ولم يردَّ عليه ، لذَهَب عن آخره .

انّ القومَ قد أكثروا في ذِكر الجود وتفضيله ، وفي ذِكر الكَرم وتشريفه ، وسمّوا السرفَ جوداً ، وجعلوه كرماً . وكيف يكونُ كذلك هو نِتاج ما بينَ الضَعْف والنفج ؟ وكيف والعطاء لايكون سرَفاً ، إلاّ بعد مجاوَزة الحقِّ ، وليس وراء الحقّ إلى الباطل كرم ؛ وإذا كان الباطلُ كرماً كان الحقُّ لؤماً . والسَرفُ — حفظك الله — مَعْصية . وإذا كانت معصيةُ الله كرَماً ، كانت طاعتُه لؤماً . ولئن جمعها اسمٌ واحد ، وشمِلَها حكمٌ واحد ـ ومضادّة الحقِّ للباطل ، كمضادّة الصدق للكذب ، والوفاء للغدر ، والجور للعدل ، والعلم للجهل ـ ليجمعن هذه الخصال اسمٌ واحد ، وليشملنّها حكم واحد .

وقد وجدنا الله عاب السرف ، وعاب الحمية ، وعاب العصبيّة ، ووجدناه قد خصّ السرف بما لم يخصَّ به الحميّة . لأنّه ليس حبَّ المرء لرهطِه من العصبيّة . ولا أنفته من الضيم من

(١) في اللسان : عالج : رمال معروفة بالبادية ... وفي حديث الدعاء : وما تحويه عوالج الرمال ، هي جمع عالج وهو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض .

حميّة الجاهلية ، وإنما العصبيةُ ما جاوزَ الحقّ ، والحمية المعيبة ما تعدّى القصد . فوجدنا اسمَ الانفة قد يقعُ محموداً ومذموماً ، ولا وجدنا اسم العصبية ، ولا اسم السرَف ، يقع أبداً إلا مذموماً . وإنما يُسرّ باسم السرف جاهلٌ لا علمَ له ، أو رجل إنما يسرّ به لأن أحداً لا يسمّيه مسرفاً حتى يكون عنده قد جاوَز حدّ الجود ، وحكم له بالحقِ ، ثم أردفه بالباطل . فان سُرّ من غير هذا الوجه ، فقد شارك المادِح في الخطاء ، وشاكله في وضع الشيء في غير موضعه

وقد أكثروا في ذكر الكرم ، وما الكرمُ إلا كبعض الخصال المحمودة ، التي لم يعدَمْها بعضُ الذمَ . وليس شيء يخلو من بعضِ النقص والوَهن . وقد زعم الأوّلون أنّ الكرمَ يسبب الغنى ، وأن الغنى يسبب البله ، وأنه ليس وراء الأبله إلا المعتوه . وقد حكَوا عن كسرى أنه قال : إحذروا صوْلةَ الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شَبع . وسواء جاع فظلم وأحفظ وعَسف ، أم جاع وكذب وضرع وأسفّ ، وسواء جاع فظلم غيره ، أم جاع فَظلم نفسَه . والظلمُ لؤم ، وإن كان الظلم ليسَ بلؤم ، فالانصاف ليسَ بكرَم . وإن كان الجودُ على مَن

لايستحقْ الجودَ كرَماً ، فالجودُ لمن وجب له ذلك ليسَ بكرم . فالجودُ إذا كان لله كان شكراً له ، والشكرُ كرم ، فكيف يكون الجود ، إذا كان معصية ، كرماً ، وكيف يتكرّم من يتوصّل بأياديك إلى معصيتك ، وبنعمك إلى سُخطك ؟ فليسَ الكرمُ إلا الطاعة ، (أوليس اللؤم إلا المعصية ، وليس بجود ما جاوز الحق [1]) ، وليس بكرم ما خالفَ الشكر . ولئن كان مجاوزُ الحق كريماً ، ليكوننّ المقصّر دونه كريماً .

فان قضيتم بقولِ العامة ، فالعامّة ليست بقُدوة ، وكيف يكون قُدوةً من لاينظر ، ولا يحصّل ، ولا يفكّر ، ولا يمثل ؟ فان قضيتم بأقاويل الشعراء ، وما كان عليه أهل الجاهلية الجهلاء ، فما قبّحوه مما لايُشكّ في حسنه أكثرُ من أن نقفَ عليه ، أو نتشاغل باستقصائه . على أنه ليسَ بجُود إلا ما أوجبَ الشكر ، كما أنه ليسَ ببُخل إلا من أوجب اللؤم . ولن تكون العطيّة نعمةً على المعطي حتى تراود بها نفس ذلك المعطي . ولن يجبُ عليه الشكرُ إلا مع شريطة القَصد . وكل من كان جُوده يرجعُ إليه ، ولولا رجوعه إليه لما جاد عليك ولو تهيّأ له ذلك المغنى في سواك ، لما قصد إليك ، فانما

(١) مزيدة : فان فلوتن

جعلك مَعْبَراً لدَرْك حاجته ، ومَركباً لبُلوغ محبته ، ولولا أن بعض القول أوجب لك عليه حقاً يجب به الشكر ، فليس يجب لمن كان كذلك شكر ، وإن انتفعت بذلك منه ، إذ كان لنفسه عمل ، لأنه لو تهيأ له ذلك النفع في غيرك ، لما تخطاه إليك [1] .

وإنما يوصَف بالجُود في الحقيقة ، ويُشكَر على النفع في حُجَّة العقل ، الذي إن جاد عليك ، فلك جادَ ، ونَفْعَك أراد ، من غير أن يرجع إليه جودُه بشيء من المنافع على جهةٍ من الجهات ، وهو الله وحدَه لا شريكَ له . فان شكرْنا للناس [2] على بعض ما قد [3] جرَى لنا على أيديهم ، فانما هو لأمرين [4] : أحدُهما التَعبُّد ، وقد تعبَّد الله [5] بتعظيم الوالدَين وإنْ كانا شَيْطانين ، وتعظيمُ مَن هو شرٌ منا [6] ، وإن كنّا أفضلَ منهم . والآخر : لأنَّ النفْس ما لم تحصِّل الأمورَ

(١) فانما ... إليك في عيون الاخبار ج٣ص ١٧٠ :فليس يجب عليك شكر.

(٢) في عيون الاخبار : الناس .

(٣) قد :ساقطة من عيون الاخبار

(٤) في عيون الاخبار : فلأمرين

(٥) في عيون الاخبار :وقد امر الله تعالى .

(٦) كذا في الاصل . وفي عيون الاخبار : أسن .

وتميّز المعاني ، فالسابق إليها حُبٌ مَن جرى لها على يدِه خيرٌ وإن كان لم يُرِدها ، ولم يقصد إليها .

وَوجدنا عطيّة الرجُل لصاحبِه لا تخلو أن تكونَ لله،أو لغيرالله ، فان كانت لله ، فثوابه على الله . وكيفَ يجبُ عليَّ في حُجّة العقل شكرُه ، وهو لو صادفَ ابنَ سبيلٍ غيري ، لما حمّلني ، ولا أعطاني ؛ وإما أن يكونَ إعطاؤه إياي للذِكر ؛ فاذا كان الأمر كذلك ، فانما جعلني سُلّماً إلى تجارته ، وسبباً إلى بُغيته . أو يكونَ إعطاؤه إياي من طريق الرحمة والرقة ، ولما يجد في فؤاده من الغُصّة والألم ، فان كان لذلك أعطى ، فانما داوى نفسَه من دائه ، وكان كالذي رَفّه من خِناقه . وإن كان إنما أعطاني على طلب المجازاة ، وحب المكافأة ، فأمر هذا معروف وإن كان إنما أعطاني من خَوف يدي أو لساني ، أو اجترار معونتي ونصرتي فسبيله سبيلُ جميع ما وَصَفنا وفصّلنا (١) .

فلاسم الجُود موضِعان : أحدُهما حقيقة ، والآخر مجاز . فالحقيقةُ : ما كان مِن الله ، والمجاز : المشتقّ له من هذا الاسم .

---

(١) راجع النص في عيون الاخبار ج ٣ ص ١٠١ فقد ورد باختلاف بعض الالفاظ

وما كان لله كان ممدوحاً ، وكان لله طاعة . فاذا لم تكن العطيّة من الله ، ولا لله ، فليس يجوُز هذا فيما سمّوه جُوداً ، فما ظنّك بما سمّوه سَرفاً ؟

إفهم ما أنا مُوردُه عليك ، وواصفه لك : إن التربح ، والتكسّب ، والاستِئكال بالخديعة ، والطُعَم الخبيثة فاشيةٌ غالبة ، ومستفيضة ظاهرة على أنّ كثيراً ممّن يضاف اليومَ إلى النزاهة والتكرّم ، وإلى الصيانة والتوقي ، ليأخذ من ذلك بنصيب وافر ، وبعدّ واف . فما ظنّك بدَهماء الناس وجمهورهم بل ما ظنّك بالشُعَراء والخُطَباء الذين إنما تعلموا المنطِق لصناعة التكسّب ؟ وهؤلاء قومٌ بودّهم أن أرباب الاموال قد جاوزوا حدّ السلامة إلى الغفلة ، حتى لايكونَ للأموال حارس ، ولا دونها مانِع . فاحذرهم ، ولا تنظُر إلى بزّة أحدِهم ، فان المسكين أقنع منه ، ولا تنظر إلى مركبه ، فانّ السائل أعفُ منه . واعلم أنه في مَسك مِسكين ، وإن كان في ثِياب جياد ، وروُحه رُوح نذل ، وإن كان في جِرم مَلك ، وكلّهم ، وإن اختلفت وجوه مسألتهم ، واختلفت أقدار مطالبهم ، فهو مسكين. إلا أنّ واحداً يطلُب العلق ، وآخرُ يطلب الخِرق ، وآخرُ

يطلب الدَّوانيق ، وآخر يطلب الألوف . فجِهةُ هذا هي جهة هذا ، وطعمةُ هذا هي طُعمة هذا . وإنما يختلفون في أقدار ما يطلبون ، على قَدْر الحِذق والسبب ، فاحذرْ رُقامِ ، وما نصبوا لك من الشُرك ، واحرُس نِعمتك وما دسّوا لها من الدواهي. واعمَل على أنَّ سِحرهم يسترق الذهن ، ويختَطِف البصر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ من البيانِ لسحراً [1] » وسمِع عمر بنُ عبد العزيز رَجُلاً يتكلّم في حاجة فقال « هذا والله السحر الحلال » . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاخِلابة [2]) . واحْذَر احتمالَ مديحهم ، فانَّ محتمل المديح في وَجْهه ، كمادح نفسه .

إن مالك لايسَع مُريديه ، ولا يبلغ رِضا طالبيه ، ولو أرْضيتهم باسخاط مثلهم ، لكان ذلك خُسراناً مبيناً . فكيف وَمن يسخَط أضعافُ من يَرضى . وهِجاء الساخط أضرُّ من فقد مَديح الراضي ؛ وعلى أنَّهم إذا اعتَوروك بمشاقِصهم ،

---

(١) قاله رسول الله ﷺ لعمرو بن الأهتم حين وفد عليه مع وفد بني تميم . وراجع البيان والتبيين ج ١ ص ٦٠ - ٦١ . وفي عيون الاخبار ج ٢ ص ١٨ : إن من الشعر حكما ، وإن من البيان سحرا .

(٢) الحديث في مفتاح كنوز السنة ص ٨٦ بلفظ : إذا بايعت فقل لاخلابة.

وتداولوك بسهامهم ، لم تر ممّن أرضيته باسخاطهم أحداً يناضل عنك ، ولا يُهاجي شاعراً دونك ، بل يخليك غرضاً لسهامهم ودريئة لنبالهم ، ثم يقول وما كان عليه لو أرضاهم ؟ فكيف يُرضيهم ورضى الجميع شيءٌ لا يُنال ؟ وقد قال الأوّل : وكيف يتّفق لك رضى المختلفين ؟ وقالوا : منعُ الجميع أرضى للجميع .

إني أحذّرك مصارع المخدوعين ، وأرفعُك عن مضاجع المغبونين . إنّك كمن لم يزلْ يقاسي تعذّر الأمور ، ويتجرع مرارة العَيْش ، ويتحمّل ثقلَ الكدّ ، ويشرَب بكأس الذل ، حتى يكاد يمرَن على ذلك جلدُه ، ويسكنُ عليه قلبه . وفقرُ مثلِك مُضاعف الألم ، وجزَع من لم يعرف الألم أشدّ . ومن لم يزل فقيراً فهو لا يعرفُ الشامتِين ، ولا يدخُله المكروه من سُرور[1] الحاسدين ، ولا يلام على فقْره ، ولا يصيرُ مَوْعِظة لغيره ، وحديثاً يبقى ذكرُه ، ويلعنهُ بعد الممات ولده .

ودعني من حكايات المستأكلين ، ورُقى الخادعين ، فما زال الناسَ يحفظون أموالهم من مواقع السَرف ويجتنبونها وُجوه التبذير . ودعْني ممّا لا نراه إلا في الأشعار المتكلّفة ،

(١) في نسخة : من شرور .

والأخبار المولّدة ، والكتب الموضوعة . فقد قال بعضُ أهلِ زمانِنا : « ذهبت المكارم إلا من الكتب » . فخذ فيما تعلم ، ودَع نفسَك مما لا تعلم .

هل رأيتَ أحداً قطّ أنفقَ ماله على قومٍ كان غِنَاهم سبَبَ فقره ، أنه سلم عليهم حين افتقر (فردوا عليه[1]) ، فضلا على غير ذلك ، أولست قد رأيتهم بين محمِّق ، ومحتجب عنه وبين من يقول : فهلاّ أنزل حاجته بفلانٍ الذي كان يفضّله ويقدّمه ويؤثره ويخصّه ؟ ثم لعلّ بعضهم أن يتجنّى عليه ذنوباً ليجعلها عُذراً في منعه ، وسبباً إلى حرمانه .

قال الله جلّ ذكرُه : « يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ ويُدْعَوْنَ إلى السُّجُود فلا يستَطيعُون خاشعةً أبصارُهم ترهَقُهُم ذِلَّة وقد كانُوا يُدعَوْنَ إلى السُّجُود وهُم سالمون[2] » فأنا القائمُ عليك بالموعظة والزجر ، والأمر والنهي ، وأنت سالم العقل والعِرض ، وافر المال ، حسن الحال . فاتّق أن أقوم غداً على رأسك بالتقريع ، والتعيير ، وبالتوبيخ

---

(١) مزيدة : فان فلوتن .

(٢) سورة القلم : ٤٢ و ٤٣

والتأنيب ، وأنتَ عليلُ القلب ، مختلُ العرض ، عَـديم من المال ، سيء الحال .

ليس جَهْدُ البلاء مدَّ الأعناق ، وانتظارَ وقع السيوف لأنَّ الوقتَ قصيرٌ ، والحسّ مغمور ، ولكنّ جهد البلاء أن تظهر الخلة ، وتطول المدة ، وتعجز الحيلة ، ثم لا تعدَم صديقاً مؤنِّباً ، وابن عمّ شامتاً ، وجاراً حاسداً ، ووليّاً قد تحول عدواً وزوجة مختلِعة ، وجارية مستَبيعة ، وعبداً يحقِرك ، وولداً ينتهرُك. فانظُر أين موقع فوْت الثناء ، من مَوقع ما عددنا عليك من هذا البلاء . على أنَّ الثناء طَعْم ، ولعلك ألا تطعَمه ، والحمدَ أرزاق ولعلك ألا تحرمه ، وما تُضَيِّعُ من إحسان الناس أكثر وعلى أن الحفظَ قد ذهبَ بموت أهله ! ألا ترى أنَّ الشعر لما كسَد أفحم أهله ؟ ولما دخل النقصُ على كلِّ شيء أخذ الشعر منه بنصيبه ؟ ولما تحوّلت الدولة في العَجَم ، والعجَمُ لاتحوط الأنسابَ ، ولا تتحفّظ المقامات ، لأنَّ من كان في الريف والكِفاية ، وكان مغمُوراً بسُكر الغنى ، كثر نِسيانه ، وقلّت خواطره ، ومن احتاج تحرّكت همته ، وكثر تنقيره . وعيب الغنى أنه يُورث البلادة ، وفَضيلة الفقر أنه يبعَثُ الفِكر . وإن

أنتَ صحبتَ الغنى باهمال النفس، أسكرك الغنى، وسُكر الغنى سبة المُستأكلين، وتهمة الخدّاعين. وإن كنتَ لا ترضى بحظّ النائم، وبعيش البهائم، وأحببْتَ أن تجمَع مع تمام نفس المثري، ومع عزّ الغِنى، وسرور القدرة، فِطنةَ المخِفّ، وخواطر المقل، ومعرفة الهارب، واستِدْلال الطالب، اقتصدْتَ في الانفاق، وكنتَ مُعِداً للحِدثان، ومحترِساً من كلّ خدّاع ليْست تبلغُ حيل لصوص النهار، وحِيلُ سرّاق الليل، وحيل طرّاق البلدان، وحيلُ أصحاب الكيمياء، وحِيَلُ التجار في الأسواق، والصناع في جميع الصِناعات، وحيلُ أصحاب الحروب حيلَ المستأكلين والمتكسّبين، ولو جمعت الجفر [1] والسحر، والتمائم والسمّ، لكانت حِيَلهم في الناس أشدّ تغلغلا، وأعرضَ وأسرى في عُمق البدن. وأدخل إلى سُوَيداء القلب، وإلى أمّ الدماغ، وإلى صميم الكبد، ولهيَ أدقّ مسلكاً، وأبعدُ غاية من العِرق الساري، والشبه النازع، ولو اتخذتَ الحِيطان الرفيعة الثخينة، والأقفال المحكَمة الوثيقة، ولو اتخذت المارق والجواسق

---

(١) في الاصل: الحمر. وفي فان فلوتن: الخبر. وما أثبتناه عن طبعة الاستاذ الحاجري.

والابوابَ الشداد ، والحَرَس المتناوبين ، بأغلظ المؤن ، وأشدّ الكُلَف ، وتركتَ التقدم فيما هو أحضر ضرراً ، وأدوم شراً ، ولا غرمَ عليكَ في الحِراسة فيه ، ولا مشقّة عليكَ في التحفظ منه .

إنّك إن فتحتَ لهم على نفسك مثل سُمّ الخياط ، جعلوا فيه طريقاً نهجا ، ولقماً رحباً ، فأحكم بابك ، ثم أدم إصفاقه ، بل أدم إغلاقه ، فهو أولى بك . بل إن قدرت على مُصْمَت لاحيلةَ فيه ، فذلك أشبَهُ بحزمك ، ولو جعلتَ الباب مُبْهماً ، والقفل مُصْمَتاً ، لتسوّروا عليك مِن فوقك . ولو رفعت سَمْكه إلى العيّوق ، لنقبوا عليكَ من تحتك . قال أبو الدرداء : « نِعْم صومعة المؤمن بيته » . قال ابن سيرين [1] « العزلة عِبادة » .

وحلاوة حديثهم تدعوا إلى الاستكثار منهم ، وتدعوا إلى إحضار غرائبِ شهواتِهم . فمن ذلك قولُ بعضهم لبعضٍ

(١) هو محمد بن سيرين . ويقال أن سيرين أمه كما في معجم البلدان وفي فتوح البلدان : أن سيرين هو اسم أبيه . وكان محمد بن سيرين هذا كاتباً لأنس بن مالك ، وروى الحديث عن أنس ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن عمر وكان يضرب المثل بورعه فيقال : فقه الحسن وورع ابن سيرين . وتوفي سنة ١١٠ هـ .

أصحابه : أكلَ رِخلة وشَرِبَ مشعلاً ، ثم تجشأ واحدة لو أن عليها رحا لطَحَنت . ومن ذلك قولُ الآخر ، حينَ دَخل على قوْم وهم يَشربون ، وعندَهم قيان فقالوا : اقترح أيّ صَوت شئت ؛ قال : أقترح نشيشَ مقلى . ومن ذلكَ قولُ المديني : من تصبَّح بسَبْع مَوزات ، وبقدَح من لبن الأوراك (١) ، تجشأ بخورَ الكعبة . ومن ذلك قولهم لبعض هؤلاء ، وقدّامهم خبيص : أيما أطيب ، هذا أو الفالوذج ؛ قال : لاأقضي على غائب . ومن ذلك قولُ أبي الحارث جُمّين لبعض الملوك : جُعلتُ فداك أيْ شيء في تلك السلّة ؛ قال بظر أمِّك . قال : فأعضّني به . ومن ذلك كلامُ الجارود بن أبي سبرة ، لبلال بن أبي بردة حين قال له : صِفْ لي عبدَ الأعلى وطعامه ، قال : يأتيه الخبّاز فيمثل بين يديه ، فيقول : ما عندك ؛ فيقول عِندي جَدْي كذا ، وعناق كذا ، وبطّة كذا . حتى يأتي على جميع ماعنده . قال : وما يدعوه إلى هذا ؛ قال : ليقتصِرَ كلُّ امرئ في الأكل ، حتى إذا أتى بالذي يَشتَهي ، بلغ منه حاجتَه . قال : ثمّ ماذا قال : ثمّ يؤتى بالمائدة فيتسعون ويتضايق ، ويجدّون ويعذِر حتى

---

(١) الاوراك : النوق التي تأكل الأراك .

إذا فتروا خوّى تخوية الظليم وأكلَ أكْلَ الجائع المقرور [١]

وقال آخر : أشتهي ثريدة دكناء [٢] من الفُلفُل ، ورقطاء [٣] من الحِمِّص ، ذات حفافين من اللحم لها جَناحان من العُراق ، أضربُ فيها ضَرْبَ اليتيم ، عند وصيِّ السوء [٤] . وسُئل بعضُهم عن حُظوظ البلدان في الطعام ، وما قُسِم لكلِّ قومٍ منه ، فقال : ذهبتْ الروم بالجشم والحشو [٥] ، وذهبت فارس بالبارد والحلو وقال عمر لفارس : الشَفارق والحمُوض ، وقال دَوْسر المديني : لنا الهرائس والقَلايا ، ولأهل البَدْو اللبأ ، والسِلاء ، والجراد والكَمْأة . والخبزة في الرائب ، والتمرْ بالزبد . وقد قال الشاعر :

ألا ليتَ خُبزاً قد تسَرْبَل رائباً

وخَيْلاً من البُرْنيّ فرسانها الزُبد

ولهم البرمة ، والخلاصة ، والحَيْس ، والوطيئة . وقال أعرابيّ :

---

(١) راجع البيان والتبيين ط مصطفى محمد ج ١ ص ٢٧٢

(٢) ثريدة دكناء : كثيرة الابازير .

(٣) الرقطاء : السوداء تشوبها نقط بيضاء .

(٤) راجع عيون الاخبار ج٣ص ٩٨ . فقد روي الخبر عن طريق الاصمعي .

(٥) في عيون الاخبار ج ٣ ص ٢٠٤ : بالحشو والأحشاء .

أتينا ببُرٍّ كأفواه النغران، فخبزنا منه خبزة زيت في النار، فجعل الجمرُ يتحدَّر عنها تحدر الحشو عن البطنان، ثم ثردها، فجعل الثريدُ يجول في الاهالة، جولان الضبعان في الضفرة. ثم أتانا بتمر كأعناق الورلان، يوحل فيه الضرس. وعيبَ السويق عند امرأة من بكر بن وائل فقالت: لاتعبه[1] فانه من عدد المسافر وطعام العجلان وغِذاء المبكر، وبُلْغَةُ المريض، ويشد فؤادَ الحزين، ويردّ من نفس المحدود، وجيّد في التسمين، ومنعوتٌ في الطيب. قفاره يجلو البلغم، ومسمونه[2] يُصفِّي الدم. إن شئت كان ثريداً، وإن شئت كان خبيصاً، وإن شئت كان طعاماً، وإن شئت كان شراباً[3]. وقيل لبعض هؤلاء اللعامظة[4] والمستأكلين والسفافيف المتفننين — ورُئي سميناً —: ما أسمنك؟ قال: أكلي الحارَ، وشربي القارَ، والاتكاء على شمالي، وأكلي من غير مالي. وقد قال الشاعر:

---

(١) مزيدة. وقد اثبتناها بصورة توافق ما ورد في عيون الاخبار ص ٢٠٦ ج ٣

(٢) سمن الطعام: عمله بالسمن ولته به.

(٣) راجع النص في عيون الاخبار ج ٧ ص ٢٠٦

(٤) اللعموظ: الطفيلي والشهواني.

قال أكلي الحارّ، وشربي القارّ، والاتكاء على شمالي، وأكلي من غير مالي. وقد قال الشاعر:

وان امتلاء البطن في حسب الفتى قليلُ الغناء وهو في الجسم صالح

وقيل لآخر: ما أسمنك؟ قال: قلّةُ الفِكْرة، وطول الدّعة، والنوم على الكِظّة. وقال الحجّاج للغضبان ابن القبعثري[1]: ما أسمنك؟ قال القيد والرَّتعة، ومن كان في ضيافة الأمير سمِن! وقيل لآخر: إنك لحسَنُ السحنة! قال: آكل لُبابَ البرّ، وصغار المعز، وأدّهِنَ بخام البنفسج وألبس الكتّان[2].

والله لو كان من يسأل يعطي، لما قام كرَمُ العطيّة بلؤم المسألة. ومدار الصّواب على طِيب المكسبة، والاقتصاد في النفقة. وقد قال بعضُ العرَب: اللهمّ إني أعوذُ بكَ من بعض الرزق — حين رأى نافِجة من ماله من صداق أمّه.

وأيّ سائلٍ كان ألحفَ مسألةً من الحطيئة، وألأم؟ ومن

---

(١) الغضبان بن القبعثرى الشيباني عده الجاحظ من الخطباء، وكان فارساً شجاعاً وسيد قومه، والظاهر من عبارة الجاحظ في البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٩ انه كان من الخارجين على الدولة فأسره الحجاج وسجنه

(٢) في عيون الاخبار ج ٣ ص ٢٢٥: وقيل لآخر: إنك لحسن الشحمة لين البشرة فقال: اكل لباب البر بصغار المعز، وأدهن بدهن البنفسج، وألبس الكتان.

ألأم من جرير بن الخطفى وأبخل؟ ومن أمنعُ من كُثيّر، وأشحّ من ابن هرمة؟ ومن كان يشقّ غبار (مروان[1]) ابن أبي حفصة؟ ومن كان يَصْطَلي بنار أبي العتاهية؟ ومن كأبي نُواس في بُخله، أو كأبي يعقوب الخُرَيمي في دقة نظره، وكثرة كَسبه؟ ومن كان أكثرَ نحراً لجزْرة لم تخلق من ابن هرمة، وأطعنَ برُمحٍ لم ينبُتْ، وأطعَم لطعام لم يُزرع من الخريمي؟ فأين أنت عن ابن يسير، وأين تذهب عن ابن أبي كريمة؟ ولم تقصّر في ذكر الرقاشي، ومن لم تذكر شره؟

إن الأعرابيّ شرٌ من الحاضر: سائلٌ جبّار، وثابة ملاق إن مدح كذَب، وإن هجا كذب، وإن سب كذب، وإن طمِع كذب، لايقربه إلا نَطِف أوأحمق، ولا يعطيه إلا من يحبّه ولا يحبّه إلا من هو في طِباعه. ما أبطأكم عن البَذل في الحق، وأسرَعكم إلى البذل في الباطل. فان كنتم الشعراء تفضّلون، وإلى قولهم ترجعون، فقد قال الشاعر:

قليلُ المال تُصْلِحُه فيبقى ولا يَبْقَى الكثيرُ على الفساد

وقد قال الشمّاخ بنُ ضِرار:

لَمالُ المرء يصلحه فيُغْني مَفاقِرَه أعفّ من القنوع

---

(1) مزيدة.

وقال أُحَيْحَةُ بنُ الجُلاح [1] :

إسْتَغْنِ أو مُتْ ولا يغرُرْكَ ذو نشَبٍ
من ابنِ عمٍّ ولا عمٍّ ولا خالِ
إني أكِبُّ على الزَّوْراء أعمُرُها
إنَّ الكريمَ على الأقوام ذو المالِ [2]

وقال أيضاً :

إسْتَغْنِ عن كلِّ ذي قربى وذي رَحِمٍ
إنَّ الغنيَّ من استغنى عن النّاسِ
والبَسْ عدوَّكَ في رفقٍ وفي دعةٍ
لباسَ ذي إرْبةٍ للدَّهْرِ لبّاسِ
ولا يغرَّنكَ أضغانٌ مُزمَّلةٌ
قد يُضْرَبُ الدَّبِرُ الدّامي بأحلاسِ [3]

---

(١) احيحة بن الجلاح ويكنى أبو عمرو ، وكان سيد الاوس ، وكان فارسا إلا أنه اشتهر بالبخل يتبع بيع الربا بالمدينة ، وكان له أحداث وخطوب مع أبي كرب الحميري آخر تبابعة اليمن وترجم له صاحب الاغاني والبيتان من قصيدته التي عدها أبو زيد القرشي من المذهبات .

(٢) ورد البيت في عيون الاخبار ج ١ ص ٢٤٠ :

ولا أزال عن الزوراء أعمرها إن الكريم على الاخوان ذو مال

والزوراء مال لأحيحة .

(٣) راجع البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٨٦ ط مصطفى محمد .

وقال سهل بن هارون :

اذا امرؤ ضاق عني لم يضق خُلقي … من أن يراني غنياً عنه باليأسِ
فلا يراني إذا لم يرع آصرتي … مُستَمْرِياً دُرَّ أمنه بإبساسِ
لا أطلب المال كي أغنى بفضلته … ما كان مطلبه فقراً إلى الناسِ

وقال أبو العتاهية :

أنتَ ما استغنيت عن صا … حبك الدهرَ أخُوهُ
فاذا احتجْتَ إليه … ساعةً مجَّكَ فوهُ

وقال أُحيحة بن الجلاح

فلو أني أشاءُ نعمتُ بالاً … وباكرني صبوحٌ أو نشيل
ولاعبني على الأنماط لعسٌ … على أفيائهن الزنجبيلُ
ولكني خُلِقْتُ إذن لمالٍ … فأبخلُ بعد ذلك أو أُنيلُ

وقال آخر :

أبا مصلحٍ أصلحْ ولا تكُ مفسداً … فانَّ صلاح المال خيرٌ من الفقرِ
ألم ترَ أنَّ المرء يزدادُ عِزَّةً … على قومهِ أن يعلموا أنه مُثري

وقال عُرْوة بن الوَرْد :

ذَريني (١) للغنى أسعى فاني … رأيتُ النَّاسَ شرُّهم الفقيرُ

---

(١) ويروى : دعيني .

وأبعدُهم وأهونُهم عليهم ... وإن أمسى له حسبٌ وخيرُ
ويُقْصِمه النَّدِيُّ وتزدريه ... حليلتُه ويَنْهَرُهُ الصغيرُ
وتُلقي ذا الغنى وله جلالٌ ... يكاد فؤاد صاحبه يطيرُ
قليلٌ ذنبُه، والذنب جمٌّ ... ولكنَّ للغنيِّ ربٌّ غفورُ

وقال سعيدُ بنَ زيدِ بن عمرو بن نفيل [1]:

تلك عرساي تنطقان على عمْـ ... ـدٍ لي اليومَ قولَ زورٍ وهتْرِ
سالتاني الطلاقَ أنْ رأتا ما ... لي قليلاً قد جئتماني بنكْرِ
فلعلِّي أن يكثُرَ المالُ عندي ... ويُعرَّى مِن المغارمِ ظهري
وتُرى أعبُدٌ لنا وأواقٌ ... ومناصيفُ من خوادمِ عشْرِ
وتجُرُّ الأذيالَ في نعمةٍ زَوْ ... لٍ [2] تقولانِ ضعْ عصاكَ لدهرِ
وَيْكأنْ مَن يكنْ له نشبٌ يُحـ ... ـبَبْ ومن يفتقرْ يعشْ عيشَ ضُرِّ
ويُجنَّبْ سرَّ النَّجيِّ ولكـ ... ـنَّ أخا المالِ محضَرٌ كلَّ سرِّ

وقال الآخر:

وللمال منِّي جانبٌ لا أضيعُهُ ... وللهوِ مني والبطالة جانبُ

---

(١) زوج أخت عمر بن الخطاب. وفي بيته اسلم عمر. وهو احد العشرة المبشرين في الجنة ولقبه: أبو الأعور.

(٢) نعمة زول: حسنة. والزول: الخفيف الظريف جمعه ازوال.

وقال الأخنَس بن شهاب [1]

وقدعشتُ دهراً والغواة صَحابتي أولائك إخواني [2] الذين أُصاحبُ
فأدّيتُ عني مااستعرتُ من الصبى وللمال مّني [3] اليومَ راعٍ وكاسب

وقال ابن أذينة الثقفي [4] :

أطمت النفس [5] في الشهوات حتى أعادتني عسيفاً عبدَ عبدِ
إذا ما جئتها قد بعتُ عذقاً تُعانِق أو تُقبّلُ أو تُفدّي
فمن وَجد الغنى فلْيصطنعْهُ ذخيرتَه ويَجْهد كلّ جَهْدِ

وقال [6] :

---

(١) الاخنس بن شهاب : شاعر جاهلي من بني تغلب ، والابيات من قصيدة ذكرها الضبي في المفضليات وأولها :

لابنة قحطان بن عوف منازل كما رقش العنوان في الرق كاتب

والاخنس : من الخنس وهو ارتفاع أرنبة الأنف .

(٢) في الحماسة ج ص٢٤٣ ط مصطفى محمد : خلصائي بدلاً عن: إخواني.

(٣) في الحماسه : عندي .

(٤) في عيون الاخبار : ابن الدمينة ، وابن الدمينة ليس ثقفياً وكذا ابن أذنيه الوارد بالاصل ليس ثقفياً بل ليثياً ولعل المقصود ابن الذئبة وهو ربيعة بن عبد ياليل والذئبة أمه .وترجم له الآمدي في المؤتلف والمختلف ص٢٧

(٥) في عيون الاخبار : العرس .

(٦) الشاعر هو : ابن الذئبة كما في الحيوان ج ١ ص ٢٥٤ ط البابي

من يجمع المالَ ولا يُثبْ به [1]   ويترك العامَ لعام جد به
يَهُنْ على النَّاس هوانَ كلبه

وقد قيل في المثل : الكدُّ قبل المدّ . وقال لقيط الغزو أدرُّ للِّقاح، وأحدُّ للسلاح . وقال أبو المعافى :

وأنَّ التواني أنكحَ العجزَ بنته   وساق إليها حين زَوَّجَها مهرا
فراشاً وطيئاً، ثم قال لها اتكي !   فقصركما عندي لأنْ تلد الفقرا [2]

وقال عثمانُ بن أبي العاص : ساعةٌ لدنياك ، وساعة لآخرتك . وقال رسول الله ﷺ : « أنهاكم عن قيلٍ وقال ، وكثرة السُّؤال ، وإضاعة المال . » وقال : « خيرُ الصدقة ما أبقى غنىً ، واليدُ العليا خيرٌ من اليد السُّفلى . وابدأ بمن تعول » وقال النبي ﷺ : « الثلث ؛ والثلث كثير ! إنّك إنْ تدَع وَلدك أغنياء ، خيرٌ من أن يتكففوا الناس . » وقال ابنُ عباس : ودِدتُ أنَّ الناس غضّوا من الثُلُث شيئاً ، لقول النبي ﷺ : الثلُث والثلث كثير . وقال النبي ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يُضيع من يَقوت . »

---

(٢) في الاصل يثبته ، وقد صححناها من عيون الاخبار والحيوان .
(٣) راجع عيون الاخبار ج ١ ص ٢٤٤

وأنتم ترون أنّ المجد والكرم أن أُفقر نفسي باغناء غيري، وأن أحوطَ عِيال غيري باضاعة عِيالي. وقال في ذلك ابنُ هرمة :

كتاركة بيضها بالعراء ومُلبِسة بيض أُخرى جناحا

وقال آخر :

كمُفسد أدناه ومصلح غيره ولم يأتمر في ذاك أمرَ صلاح

وقال الآخر :

كمرضعة أولاد أُخرى وضيّعت بنيها ولم ترقع بذلك مرقعا

وقال الله تبارك وتعالى : « ولا تُبذّر تبذيراً . إنّ المُبذّرين كانوا إخوانَ الشّياطين [1] » . وقال : « ويسألونك ماذا يُنفقون ؟ قل العفو [2] » . فأذن في العفو ، ولم يأذن في الجهد ، وأذن في الفُضول ، ولم يأذن في الأصول ، وأراد كعب بنُ مالك أن يتصدّق بماله ، فقال له النبي ﷺ : « أمسِك عليكَ مالك » . فالنبيّ ﷺ يمنعه من إخراج ماله في الصدقة ! وأنتم تأمرونه باخراجه في السرف والتبذير . وخرج غيلان ابن

---

(١) سورة الاسراء : ٢٦ و ٢٧

(٢) سورة البقره : ٢١٩

سلمة [1] من جميع ماله ، فأكرهه عمر على الرجوع فيه ، وقال : لو متّ لرجمتُ قبرك ، كما يُرجم قبرُ أبي رغال . وقال الله جلّ وعزّ : « لِيُنفقْ ذُو سعةٍ من سعتِهِ ، ومن قُدِرَ عليه رزْقُهُ فليُنفقْ ممّا آتاهُ اللهُ [2] » . وقال النبيْ ﷺ : « يكفيك ما بلّغك المحَلَ . » وقال « ما قلّ وكفى خيرٌ ممّا كَثُر وألهى . » وقال الله تبارك وتعالى : « والّذينَ إذا أنفقُوا لمْ يُسرِفُوا ولمْ يقترُوا ، وكانَ بَين ذلكَ قوامًا » [3] . وقال النبيْ ﷺ : « إن المُنبتّ لا أرضًا قطع ، ولا ظهرًا أبقى وقال الله جل ذكره : « ولا تجعَلْ يدكَ مغلولَةً إلى عُنُقِكَ

---

(١) هو غلان بن سلمه ، وينسب الى ثقيف . أدرك الاسلام فأسلم بعد فتح الطائف ولم يهاجر ومات بالشام في طاعون عمواس . وغيلان شاعر مقل ، ليس بمعروف في الفحول . وكان فارساً شجاعا ، ذكر صاحب الأغاني قال : جمعت خثعم جموعا من اليمن وغزت ثقيفا بالطائف ؛ فخرج إليهم غيلان بن سلمة ثقيف ، فقاتلهم قتالا شديداً فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، واسر عدة منهم ثم من عليهم . وكان ابيض طويلا جعدا ضخما ، وفد على كسرى ودخل عليه فأكرمه كسرى على قوة جرءته وحسن حديثه . وراجع ترجمته في الاغاني ج ١١ ص ٢٠٠ - ٢٠٨ ط دار الكتب .

(٢) سورة الطلاق : ٧

(٣) الفرقان : ٧٦

ولا تبسُطها كلّ البَسطِ ، فتَقعُدَ ملُوماً مَحسُوراً [1] » .

ولذلك قالوا : خَيرُ مالك ما نفعَك ، وخير (الأمور [2]) أوساطها ، وشرُّ السير الحَقْحقةُ ، والحسنة بين السيئتين . وقالوا: دينُ الله بين المقصِّر والغالي . وقالوا في المثل : بينهما يرمي الرامي . وقالوا : عليكَ بالسداد والاقتصاد ، ولا وَكس [3] ولا شطط . وقالوا : بين المُمخّة [4] والعَجْفاء . وقالوا لا تكن حلواً فتبتلع [5] ولا مرّاً فتُلفظ . وقالوا في المثل : ليسَ الرّيُّ عن التشافّ [6] وقالوا يا عاقد ! اذكر حلاً . وقالوا الرشيف أنقع للظمآن . وقالوا :القليل الدائم ، أكثرُ من الكثير المنقطِع . وقال أبو الدرداء : إني لأستجمّ نفسي ببعض الباطل ، كراهةَ أن أحمل عليها من

(١) سورة الأسراء : ٢٩

(٢) ساقطة في الاصل

(٣) وردت في بعض الاصول : كثير .

(٤) في الاصل النمه وما اثبتناه من عيون الاخبار ج ١ ص ٣٣١

(٥) في عيون الاخبار ج ١ ص ٣٢٨ : فتسترط بدلاً عن : فتبتلع والمعنى واحد.

(٦) في الاصل : النشاف . في امثال الميداني ج ١ ص ٩٢ : يضرب هذا المثل في قناعة الرجل ببعض ما ينال من حاجته . والتشاف : أن تشرب جميع مافي الاناء مأخوذ من الشفافه ، وهي البقية .

الحقَّ ما يُملِّها . وقال الشاعر :

وإني لحُلْوٌ تعتريني مرارةٌ وإني لصعبُ الرأس غيرُ جموحِ

وقالوا في عذل المُصلح ، ولائمة المقتصد : الشحيح إعذرُ من الظالم . وقالوا : ليسَ من العدل ، سُرعة العذل . وقالوا : لعلّ له عذراً وأنتَ تلوم [1] . وقالوا رُبَّ لائم مُليم [2] . وقال الأحنف : ربَّ ملوم لاذنبَ له . وقال : إعطاء السائل تَضْرِية ، وإعطاء الملحِف مُشاركة . وقال النبيُّ ﷺ «لاتصلح المسألةُ إلا في ثلاث : فقر مُدقع ، وغُرْم مفظِع ، ودم موجِع .» وقال الشاعر [3] :

الحُرُّ يُلْحى والعصا للعبد وليسَ للمُلْحِف غيرُ الرَّدِّ

وقالوا : إذا جدَّ السؤال ، جدَّ المنع . وقالوا : إحذَرْ إعطاء المخدوعين ، وبذلَ المغبُونين ، فإنَّ المغبونَ لا محمود ولا مأجور . ولذلك قالوا : لا تكن أدنى العَيْرَين إلى السهم يقول : إذا أعطيتَ السائلين مالك ، صارتْ مقاتلُكَ أظهر لأعدائك من مقاتِلهم . وقالوا : الفِرار بقراب أكيسَ . وقال

---

(١) بيت وصدره : تأن ولاتعجل بلوم لصاحب .

(٢) في الحيوان : وكم لائم قد لام وهو مليم .

(٣) الشاعر : بشار بن برد

أبو الأسود : ليس من العزّ أن تتعرّض للذل ، ولا من الكرم أن تستدعي اللؤمَ ، ومن أخرَج ماله من يده افتقَر ، ومن افتقر فلا بدّ له من أن يضرع ، والضرَع لؤم . وإن كان الجود شقيق الكرم ، فالأنفة أولى بالكرم . وقد قال الأول : اللهم لا تثرْ لي ماءَ سوء ، فأكون امرأ سوء . وقد قال الشاعر [1] :

واخْطُ مع الدهر إذا ما خطا   واجْرِ مع الدهر كما يجري

وقد قال الآخر :

ياليت لي نعلين من جلد الضَّبُع   وشُركاً من أستها لا تنقطعْ [2]

كلَّ الحذاء يحتذي الحافي الوقعْ

وقد صدق قول (القائل [3]) من احتاج اغتفر ، ومن اقتضى تجوز . وقيل لريسموس [4] : تأكل في السوق ؟ قال : إن

---

(١) الشاعر :هو أبو العتاهية كما في الاغاني .

(٢) مزيدة عن البيان والتبيين ج ٣ ص ٧٤ ط ١٩٣٢

(٣) مزيده عن فلان فلوتن .

(٤) ذكر الجاحظ ريسموس في البيان ج ٢ ص ١٧٨ وعده من اصحاب النوادر وانه يوناني ممرور له نوادر عجيبة . وذكره الاستاذ احمد امين في ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٨٢ وعد نوادره فيما كان لليونان من أثر في الأدب العربي .

جاع (ريسموس [(١)]) في السوق ، أكل في السوق . وقال: من أجدبَ انتجع ، ومن جاع خشع [(٢)] . وقال : احذروا نفار النعمة ، فانها نوار ، وليس كلُّ شاردٍ بمردود ، ولا كل نادٍّ بمصروف . وقال عليُّ بنُ أبي طالب قلَّ ما أدبرَ شيءٌ فأقبل . وقالوا ربَّ أكلة تمنع أكلات ، وربُّ عجلة تهب ريثاً . وعابوا من قال: أكلة وموتة . وقالوا : لا تطلب أثراً بعد عين . وقالوا : لا تكن كمن تغلبه نفسُه على ما يظن ، ولا يغلبها على ما يستيقن . فانظر كيف تخرجُ الدرهم ، ولِمَ تخرجُهُ ؟ وقالوا : أشدُّ [(٣)] من المرزئة سوء الخلف . وقال الشاعر :

إن يكن ما به أُصيب جليلاً فذهابُ العزاء فيه أجلّْ

ولأن تفتقر بجائحةٍ نازلةٍ ، خيرٌ لك من أن تفتقر بجناية مكتسبة . ومن كان سبباً لذهاب وفره ، ولم تعدمهُ الحسرةُ من نفسه ، واللائمة من غيره ، وقلة الرحمة ، وكثرة الشماتة مع الاثم الموبق ، والهوان على الصاحب .

---

(١) مزيدة عن الحيوان .

(٢) جشع : فان فلوتن

(٣) في طبعة الاستاذ الحاجري : شر ، بدلاً عن : أشد .

وذكر عمر بنُ الخطاب فِتيانَ قريش ، وسَرفهم في الانفاق ، ومُسابقتهم في التبذير فقال : لحرفة أحدِهم أشدّ عليَّ من عيْلته . يقول : إن إغناء الفقير أهوَن عليّ من إصلاح الفاسد . ولا تكنْ على نفسِك أشأمَ من خوتعة [1] ، وعلى أهلِك أشأم من البسوس [2] ، وعلى قومك أشأم من عِطر منشم . ومن سلّط الشَهوات على ماله ، وحكّم الهوى في ذات يده ، فبقي حَسيراً ، فلا يلومنّ إلا نفسه . وطوبى لك يومَ تقدِر على قدم تنتفع به . وقال بعضُ الشعراء .

---

(٢) اشأم من خوتعه : وهو رجل من بني غفيلة دل كثيف ابن عمرو التغلبي وأصحابه على بني الزبان الذهلي لترة كانت عند عمرو ابن الزبان ، فأتوهم وقد جلسوا على الغداء فقال . عمرو : لاتشب الحرب بيننا وبينك ! قال : كلا ! بل اقتلك واقتل اخوتك . قال : فان كنت فاعلاً فاطلق هؤلاء الذين لم يتلبسوا بالحروب فان وراءهم طالباً اطلب مني — يعني أباهم   فقتلهم وجعل رؤوسهم في مخلاة وعلقها في عنق ناقة لهم يقال لهاالدهم ، فجاءت الناقة والزبان جالس امام بيته ، فبركت ، فقامت الجارية فجست المخلاة فقالت : قد أصاب بنوك بيض النعام . فأدخلت يدها فأخرجت رأس عمرو ثم رؤوس اخوته ، فغسلها الزبان ووضعها على ترس وقال : أخر البز على القلوص . فذهب مثلاً . أى هذا آخر عهدي بهم ، لاأراهم بعده . وشبت الحرب بينه وبين بني غفيلة حتى أبادهم .

(٣) قصتها اشهر من ان تعرف . وليراجع بهذا الشأن العقد الفريد وعيون الاخبار ، ومجمع الامثال للميداني وغيرها من كتب الادب .

أرى كلَّ قومٍ يمنعونَ حريمهم وليسَ لأصحابِ النبيذ حريمُ
أخوهم إذا مادارتِ الكأسُ بينهم وكلهم رثٌّ الوصالِ سؤومُ
فهذا بياني لم أقلْ بجهالة ولكنّني بالفاسقين عليم

وقد كان هذا المعنى في أصحاب النبيذ أوجد، فأمّا اليوم فقد استوى الناس. قال الأضبط بن قريع [1] — لما انتقل في القبائل فأساؤا جواره، بعدَ أن تأذّى ببني سعد —: بكلِّ وادٍ بنو سعد.

خذْ بقولي، ودعْ قولَ أبي العاص وخُذ بقولِ من قال: عش ولا تغترَّ. وبقولِ مَن قال: املأْ حُبَّك من أول مَطرة، ودَع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك. أخوكَ من صَدَقك، ومن أتاكَ من جِهة عقلك، ولم يأتِك من جهة شَهْوتك، وأخوك من احتَمل ثِقلَ نصيحتك في حظِّك، ولم تأمن من لائمته إياك في غدِك.

---

(١) الاضبط بن قريع السعدي من بني عوف بن كعب بن سعد، رهط الزبرقان بن بدر ورهط ابن انف الناقه. شاعر قديم، وكان قومه اساؤوا مجاورته، فانتقل عنهم الى أخرين، فأساؤوا مجاورته، فأنتقل منهم الى آخرين، فأساؤوا مجاورته فرجع الى قومه وقال: بكل واد بنو سعد. ويقال أنه قال: اينما أوجه ألقى سعدا. ترجم له ابن قتيبه في الشعر والشعراء، والسجستاني في المعمرين وغيرهما.

وقال الآخر :

إن أخاك الصدْق من لم يخدَعك　　ومن يضير نفسَه لينفعك [1]

وقد قال عَبيد بن الأبرص :

واعلمَنْ علماً يقيناً أنه　　ليس يُرجى لكَ من ليس معك

ولا تزالُ بخير ما كان لك واعظ من نفسك ، وعين من عقلك على طباعك ، أو من كان لك أخٌ نَصيح ، ووزير شفيق . والزوْجة الصالحة عوْن صدق . والسعيدُ من وعظ بغيره . فان أنت لم ترزق من هذه الخصال خَصلة واحدة ، فلا بدّ لك من نكبة موجعة ، يبقى أثرُها ، ويلوح لك ذكرها. ولذلك قالوا : خيرُ مالك ما نفعك . ولذلك قالوا لم يَذْهب من مالك ما وَعظك .

إنّ المالَ محْروص عليه . ومطلوب في قعر البحار ، وفي رؤوس الجبال ، وفي دَغل الغياض ، ومطلوب في الوعورة كما يُطلب في السهولة ، وسواء فيها بطون الأودية ، وظهور الطرق ، ومشارق الأرض ومغاربها ، فطُلبتْ بالعزّ ، وطلبت بالذلّ ، وطلبت بالوفاء ، وطلبت بالغدر ، وطلبت بالنسك ، كما

---

(١) راجع عيون الاخبار ص ٤ ج ٣ فان للبيت تكملة .

طلبت بالفتك ، وطلبت بالصِدق ، كما طلبت بالكذِب ، وطلبت بالبذاء ، وطلبت بالملق ، فلم تترك فيها حيلة ولا رُقْيِة ، حتى طُلبت بالكفر بالله ، كما طُلبت بالايمان ، وطُلبت بالسُخف ، كما طُلبت بالنُبل . فقد نصبوا الفخاخ بكلّ موضع ، ونصبوا الشراك بكل ربع . وقد طلبك من لا يقصِّر دون الظفَر ، وحسَدك من لاينام دُونَ الشِفاء ، وقد يهدأ الطالبُ الطوائلَ والمطلوبُ بذات نفسه ، ولا يهدأ الحريص .

يقال : أنه ليس في الأرض بلدة واسِطة ، ولا بادية شاسعة ، ولا طرَف من الأطراف ، إلا وأنتَ واجِد بها المديني والبصري والحيري وقد ترى شَنَفَ[1] الفقراء للأغنياء ، وتسرُّع الرغبة إلى الملوك ، وبغض الماشي للراكب ، وعمومَ الحسَدَ في المتفاوِتين . وإن لم تستعمِل الحذَر ، وتأخذ بنصيبك من المداراة ، وتعلم الحزم ، وتجالسَ أصحابَ الاقتِصاد ، وتعرف الدهور ، ودهرَك خاصّة ، وتمثّل لنفسك الغيَر ، حتى تتوهّم نفسَك فقيراً ضائعاً ، وحتى تتّهم شمالك على يمينك ، وسمعَك على بَصرِك ، ولا يكون أحدٌ أتهم عند نفسِك من ثقتك ،

(١) الشنف : النظر بكره وحسد

ولا أولى بأخذ الحَذرِ منه من أمينك ، اختطفت اختطافاً ، واستلبت استلاباً ، وذَوَّبُوا مالك وتحيَّفوه [1] ، وألزموه السلَّ ولم يداووه .

وقد قالوا : أبى المالَ ربُّه وإنْ كان أحمق ، فلا تكوننَّ دونَ ذلك الأحمق . وقالوا : لاتعدم صَنَاعٌ ثلة ، فلا تكوننَّ دون تلك المرأة .

وقد قال الأول في المال المضيَّع ، المسلط عليه شهوات العيال : ليس لها راعٍ ، ولكن خليَّة ، وليس مالكَ المالَ المغنى من الأضراص ، فيقال فيه : مَرعىً ولا أكولة ، وعُشب ولا بعير ، فقصاراك مع الاصلاح أن يقومْ بملء بطنك وبحقائقك ، وبما ينوبك . ولا بقاء للمال على قلّة الرعي ، وكثرة الحلب ، فكِسْ في أمرك ، وتقدَّم في حفظ مالك ، فانَّ من حَفِظ ماله فقد حَفِظ الأكرَمَين . والأكرمان : الدين والعِرض . وقد قيل للرَمْي يُراش السهم ، وعند النِطاح تغلِبُ القَرناء . وإذا رأت العرب مستأكِلاً وافق غمراً قالت : ليسَ عليك نسجُه ، فاسحب

---

(١) أي انقصوه .

وجر [1] . وقد قال رسولُ الله ﷺ : « الناسُ كلّهم سَواء كأسنان المُشط ، والمرء كثير بأخيه ، ولا خير لك في صُحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه » .

فتعرّفْ شأنَ أصحابك ، ومعنى جلسائك . فانْ كانوا في هذه الصِفة ، فاستعمل الحزم ، وإنْ كانوا في خِلاف ذلك ، عملتَ على حسَب ذلك .

إني لستُ آمركَ إلا بما أمركَ به القرآن ، ولستُ أوصيك إلا بما أوصاك به الرسولُ ، ولا أعظُك إلا بما وَعظ به الصالحون بعضُهم بعضاً . قال رسول الله ﷺ : « اعقلها وتوكل [2] . » وقال مطرّف بن الشخّير [3] : من نام تحتَ صَدَفٍ مائل ،

(١) في الاصل : فاسحب وحرق . وفي طبعة الاستاذ الحاجري : فاسحق وخرّق . وكذا مرسيه . وما اثبتناه عن الميداني .

(٢) قاله رسول الله لرجل جاءه فقال : يارسول الله ! ارسل ناقتي واتوكل ؟ قال : اعقلها وتوكل .

(٣) هو ابو عبد الله مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري وكان مضرب المثل في العقل ، قاصا . ولد في حياة الرسول ﷺ . وكان أول امره يحضر مجالس زين بن صوحان الخطيب . ترجم له ابو نعيم في حلية الأولياء ج ٢ ص ١٩٨ – ٢١٢ وابن قتيبة في المعارف ص ٢٣ ؛ وذكر له المرزباني في معجم الشعراء بيتين من الشعر ص ٣٨٩

وهو ينوي التوكل، فليرمِ بنفسه من طمار وهو ينوي التوكل.
فأينَ التوقّي الذي أمر الله به؟ وأين التغريرُ الذي نهى عنه؟
ومن طمع في السلامة من غير تسلم. فقد وضع الطمَع في موضِع الأمانيّ. وإنما ينجز الله الطمعَ إذا كان فيما أمر به، وإنما يحقِقُ من الأملِ ما كانَ هو المسبّب له. وفرّ عمر من الطاعون، فقال له أبو عبيدة: أتفرّ من قدر الله؟ قال: نعم! إلى قدر الله.
وقيل له: هل ينفعَ الحذر من القدَر؟ فقال لو كان الحذَر لا ينفعَ لكان الأمرُ به لغواً! فابلاء العُذر من التوكل. وقال رسولُ الله ﷺ — لرجل قال في خُصومةٍ: حسبي الله — «أبلِ الله عُذراً، فاذا أعجزك أمر فقل حَسْبيَ الله» وقال الشاعر: (١)

ومن يكُ مِثلي ذا عيالٍ ومُقْتراً ... من المال يطرح نفسه كلّ مَطرح
ليُبلِي عذراً، أو ليبلغ حاجةً (٢) ... ومُبلغُ نفسٍ عُذرها مثل مُنجحِ

وقال الآخر:

فان يكن القاضي قضَى غير عادلٍ ... فبعدَ أمور لا ألوم لها نَفْسي

(١) في عيون الاخبار ج ١ ص ٣٨، نسبت الأبيات لأوس بن حجر. وفي الأمالي ج ٢ ص ٢٣٤ لعروة بن الورد. والبيتان في ديوان عروة ص ٢١ ط مكتبة صادر بيروت.

(٢) في الديوان: ليبلغ عذرا، او يصيب رغيبة.

وقال زُهير البابي : « إن كان التوكُّل أن أكونَ متى أخرجتُ مالي ، أيقنتُ بالخلَف ، وجعلتُ الخلَف مالاً يرجع في كيسي ، ومتى مالم أحفظ [1] ، أيقنتُ بأنه محفوظ ، فاني أشهدكم أني لم أتوكل قط . إنما التوكل أن تعلم أنك متى أخذتَ بأدَب الله ، تتقلّب في الخيرة مجْزى نيتك [2] ، إمّا عاجلاً ، وإمّا آجلاً » . ثم قال : فلِمَ تجرَ [3] أبو بكر ، ولمَ تجرَ عمر ، ولِمَ تجرَ عثمان ، ولِمَ تجرَ الزبير [4] ، ولمَ تجر عبد الرحمن ؟ [5] ولِمَ علّمَ عمر الناسَ يتّجرون ، وكيف يشترون ويبيعون ؛ ولِمَ قال عمرُ : إذا اشتريتَ جملاً فاجعله ضَخماً ، فان لم يبعه الخُبزُ باعه المنظر ؛ ولِمَ قال عمر : فرّقوا بينَ المنايا ، واجعلوا الرأس رأسين [6] ؛ ولِمَ قال عثمان — حين سُئل عن كثرة أرباحه —

(١) كذا في الاصل .

(٢) كذا في الاصل وفي طبعة الاستاذ الحاجري : مجزى بذلك .

(٣) في الاصل : تجرا . وكذلك كلما وردت .

(٤) أي الزبير بن العوام وهو احد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة من اصحاب الشورى . وراجع ترجمته بالاصابه لابن حجر ج ١ ص ٥٤٦ .

(٥) هو عبد الرحمن بن عوف الزهري القرشي احد العشرة المبشرين بالجنه .

(٦) راجع البخلاء ص ٢٩ وعيون الاخبار ج ١ ص ٢٥٠ وفي اللسان : فرقوا عن المنية ، واجعلوا الرأس رأسين .

قال : لم أردْ من ربح قطّ ولِمَ قيلَ : لاتشترِ عيبًا ، ولا شيئًا؟ وهل حَجَرَ عليٌّ بنُ أبي طالب على ابنِ أخيه عبد الله ابنِ جعفر ، إلا في إخراج المال في غير حقِّه ، وإعطائه في هواه ؟ وهل كان ذلك إلا في طلَبِ الذكر ، والتماس الشكر ؟ وهل قال أحدٌ إن إنفاقه كان في الخمور والقمار ، وفي الفسولة والفُجور؟ وهل كان إلا فيما تسمُّونه جوداً ، وتعدُّونه كرماً ؟ ومن رأى أن يُحجَرَ على الكرام لكرَمِهم ، رأى أن يحجر على الحلماء لحِلمهم ! وأيُّ إمام بعدَ أبي بكر تريدون ؟ وبأيِّ سلفٍ بعد عليٍّ تقتدون ؟

وكيف نرجو الوفاء ، والقيامَ بالحقِّ ، والصبرَ على النائبة من عندِ لعموظ مُستأكل ، وملاّق مخادِع ، ومنهومٍ بالطعام شَرِه ، لا يُبالي بأيِّ شيءٍ أخذ الدرهمَ ، ومن أيِّ وجهٍ أصاب الدينار ، ولا يكترثُ للمنَّة ، ولا يبالي أن يكون أبداً منهوماً ، منقوماً عليه ، وليسَ يُبالي إذا أكل كيف كان ذلك الطعام ، وكيف كان سببه ، وما حكمُه ؟! فان كان مالُك قليلاً ، فانما هو قوام عِيالك ، وإن كان كثيراً فاجعَلْ الفاضِل عدة لنوائبك ولا يأمنُ الأيّام إلا المضلَّلُ . ولا يغترُّ بالسلامة إلا المغفَّل.

فاحذَر طوارق البلاء، وخـدع رجال الدهاء. سِمَنُكَ في أديمك [1]، وغثُّك خيرٌ من سَمين غيرك لو وجدته، فكيف ودونه أُسَلٌ حِداد، وأبواب شداد.

قالت امرأةٌ لبعض العرَب: إن تزَّوجتَني كفيتُك» فأنشأ يقول:

إذا لم يكن لي غيرُ مالك مسَّني ... خَصاص وبان الحمدُ مني والأجرُ
وما خيرُ مالٍ ليس نافعَ أهلِه ... وليس لشيخ الحيِّ في أمرِه أمرُ

وقال الملوط القريعي:

أباهاني ء لاتسألِ الناسَ والتمسْ ... بكَفَّيكَ ستر الله فالله واسعُ [2]
فلو تسألِ الناس التراب لأوشكوا ... إذا قلت: هاتوا، أن يملوا فيمنعوا

* * *

(١) في الاساس مادة أدم: سمنك هريق في اديمكم
(٢) في عيون الاخبار ج ٣ ص ١٨٨ ورد البيت كما يلي:
ابامالك لاتسأل الناس والتمس ... يكفيك سيب الله فالله أوسع

طرف مختلفة من أحاديث البخلاء (1)

ثم رجع الحديثُ إلى أحاديثِ البُخلاء ، وإلى طُرف معانيهم وكلامهم .

قال ابنُ حسّان : كان عندَنا رجلٌ مقلٌ ، وكان له أخٌ مكثِر ، وكان مُفرِط البخل ، شديد النَفج ، فقال له يوماً أخوه ويحك ! أنا فقيرٌ مُعيل ، وأنت غني خفيفُ الظهر ، لاتعينُني على الزمان ، ولا تواسيني بِبعض مالك ، ولا تفرّج لي عن شيء ! والله ما رأيت قطّ ولا سمعتُ بابخل منك . قال : ويحك ! ليس الأمرُ كما تظن ، ولا المالُ كما تحسب ، ولا أنا كما تقولُ في البُخل ، ولا في اليُسر . والله لو ملكتُ ألفَ ألفِ درهم لوهبتُ لك منها خمسَ مائة ألف درهم . ياهؤلاء ! فرجلٌ يهبُ (في (2)) ضربةٍ واحدةٍ خمسَ مائة ألف يقالُ له بخيل ؟

* * *

(1) هذا العنوان ليس بالاصل .

(2) مزيدة

وأما صاحبُ الثريدة البَلقاء ، فليس عجَبي من بُلقة ثريدته وسائرِ ما كان يظهرُ على خوانه ، كعَجَبي من شيء واحد ، وكيف ضبَطه وحصَره ، وقوي عليه ، مع كثرة أحاديثه ، وصُنوف مذاهبه . وذلك أني في كثرة ما جالستَه، وفي كثرة ما كان يفتنُّ فيه مِن الأحاديث ، لم أره خبَّر أنَّ رجُلاً وهب لرُجل دِرْهماً واحداً ، فقد كان يفتنّ في الحزم والعَزم ، وفي الحِلم والعِلم ، وفي جميع المعاني ، إلا ذكر الجود ، فإني لم أسمع هذا الاسم منه قط . خرَجَ هذا البابُ من لِسانه كما خرج من قلبه . ويؤكِّد ما قلتُ فيه ، ما حدثني به طاهرٌ الأسير فانه قال : ومِمّا يدلُّ على أن الروم أبخلُ الأمم ، أنك لا تجدُ للجُود في لغتهم اسماً . يقول : إنما سمى الناسُ ما يحتاجون إلى استعماله ، ومع الاستغناء يسقط التكلف .

وقد زعَم ناس أنّ مما يدلّ على غشِّ الفرس ، أنه ليس للنصيحة في لغتهم اسم واحد يجمع المعانيَ التي يقعُ عليها هذا الاسم . وقول القائل : « نصيحة » ، ليس يُراد به سلامة القلب ، فقد يكونُ أن يكون الرجل سليمَ الصدر ، ولم يحدُث سبَبٌ من أجله يقصد إلى المَشُورة عليك بالذي هو أردُّ عليك

– على حسب رأيه فيك – وجهاً لنفعك . ففي لُغتهم اسمٌ للسلامة ، واسمٌ لارادة الخير ، وحُسن المشورة ، وحملك بالرأي على الصواب . فللنصيحة عندهم اسماء مختلفة ، إذا اجتمعت دلَّت على ما يدلُّ عليه الأسم الواحد في لغة العَرب . فمن قضى عليهم بالغشِّ من هذا الوجه فقد ظلم .

* * *

وحدَّثني إبراهيم بنُ عبد العزيز ، قال : تغدَّيتُ مع راشد الأعور ، فأتونا بجامٍ فيه بياحَ سبخي [1] ، الذي يقال له الدَّراج . فجعلتُ آخُذ الواحدَة ، فأقطع رأسها ، ثم أعزله ، ثم أشقها باثنين من قِبَل بطنها . فآخذ شوْكة الصُلب والأضلاع فأعزلها ، وأرمي بما في بطنها ، وبطَرف الذَنب والجَناح ، ثم أجمعُها في لُقمة واحِدة ، وآكلها . وكان راشد يأخُذ البيّاحة فيقطعها قطعتين ، فجعل (كل [2]) قطعة في لُقمة ، لايُلقي رأساً ولا ذنباً ، فصبر لي على لقَم عدَّة ، فلما بلغتُ المجهودَ منه

(١) في اللسان : البياح بكسر الباء مخفف : ضرب من السمك . صغار امثال شبر ، وهو أطيب السمك .

(٢) مزيدة عن طبعة الاستاذ الحاجري .

قال : أي بنيّ ! إذا اكلتَ الطعام فكلْ خَيره بشرِه .

قال : وكان يقول : لم انتفع بأكل التمر قطّ ، إلا مع الزنج ، وأهل أصبهان . فأمّا الزنجيّ فانه لايتخيّر ، وأنا أتخيّر . وأما الأصبهاني ، فانّه يقبضُ القَبضةَ ، ولا يأكلُ من غيرها ، ولا ينظرُ إلى مابين يديه حتى يفرغ من القبضة . وهذا عدل ، والتخيّر قرفة وجَور . لاجَرَم أن الذي يبقي من التمر لا ينتفعُ به العيال ، إذا كان قدّام من يتخيّر . وكان يقول : ليسَ من الأدب أن تجُول يدُك في الطبَق ، وإنما هو تمر وما أصابت يدك (١) .

* * *

وزعم سريّ بنُ مكرم — وهو ابن أخي مُوسى ابن جنَاح — قال : كان موسى يأمرنا ألا نأكل ما دام أحد منّا مشغُولاً بشُرب الماء وطَلبه . فلما رآنا لانطاوعُه ، دعا ليلةً بالماء ، ثم خطّ باصبعه خطاً في أرُزّة كانت بين أيدينا ، فقال : هذا نصيبي ، لاتعرِضوا له ، حتى انتفعَ بشرب الماء .

وأحاديثه في صدر الكتاب وهذا منها .

---

(١) في الاصل : وما أصاب . والتصحيح لدى جويه .

وقال المكيُّ لبعضِ من كان يتعشّى ويُفطِر عند الباسياني[1]:

وَيحكم! كيفَ تُسيغون طعامَه، وأنتم تسمعونه يقول: «إنّما نُطْعِمُكُمْ لوجْه الله لا نُريدُ منْكُمْ جزَاءً ولاشُكُوراً[2]» ثم تَرَونه لا يقرؤها إلا وأنتم على العشاء، ولا يقرأ غيرَ هذه الآية! أنتم والله ضدُّ الذي قال:

ألبانُ إبل «ثعلبةَ بن مُساور» ما دام يملكُها عليَّ حرام
وطعامُ عِمران بنِ اوفى مثله مادام يسلك في البطونِ طعام
إنَّ الذين يسُوغ في أعناقهم زادٌ يمنُّ عليهم اللؤام

قال: فمتى تعجّب، فاعجب من خمسين رجلاً من العرب فيهم أبو رافع الكلابي – وهو شاعر بَذيّ – يفطِرون عند أبي عثمان الأعور. فافطاري من طعام نصراني أشدّ من إفطاري من طعام مُسلم، ويقرأ القرآن، ويقول الحق.

* * *

وحدثني أبو المنجوف السدوسي قال: كنتُ مع أبي، ومعنا شيخٌ من موالي الحيّ، فمررنا بناطور على نهر الأبُلّة[3]

(١) راجع الصحيفة رقم ٨٣ وهامشها من هذا الكتاب.

(٢) سورة الانسان: ٩

(٣) راجع الصفحة ٢٣٩ هامش رقم (٢)

ونحن تعبون ، فجلسنا اليه . فلم يلبث أن جاءنا بطَبق عليه رطب سكر و جيسُران [1] أسود فوضعه بين أيدينا . فأكل الشيخُ الذي كان معَنا . فلما رأيتُ أبي لا يأكلُ ، لم آكلُ وبي إلى ذلك حاجة ، فأقبل الناطورُ على أبي فقال : لِمَ لا تأكل ؟ فقال : والله إني لأشتهيه ، ولكن أظنّ صاحب الأرض أباح لكَ إطعامَ الناسِ من الغريب . فلو جئتنا بشيءٍ من السهريز [2] والبرنيّ ، لأكلنا . فقال مولانا — وهو شيخ كبيرُ السنّ — ولكنّي أنا لم أنظر في شيء من هذا قط .

* * *

قال المكيّ . دخل إسماعيلُ بنُ غزوان إلى بعض المساجد يصلّي ، فوجد الصفّ تاماً ، فلم يستطِع أن يقومَ وحده ، فجذب ثوبَ شيخ في الصفّ ليتأخر ، فيقوم معه . فلمّا تأخر الشيخُ ، ورأى إسماعيلُ الفرج ، تقدّم ، فقام في موضع الشيخ وترك الشيخَ قائماً خلفَه ينظر في قفاه ، ويدعو الله عليه !

* * *

---

(١) في الاصل : جيسوان وهو خطأ . والجيسران جنس من افخر النخل (فارسي معرب) .

(٢) لعله نوع من التمور مثل البرني .

وكان ثمامةُ يحتشم أن يقعدَ على خوانه من لا يأنَسُ به ، ومن رأيه أن يأكلَ بعضُ غلمانه معه . فحبس قاسمَ التمّار يوماً على غَدائه بعضَ من يحتشمه ، فاحتمل ذلك ثمامة في نفسه ثم عاد بعد ذلك إلى مثلها ، ففعل ذلك مراراً ، حتى ضجّ ثمامة ، واستفرغ صبره ، فأقبل عليه ، فقال : ما يدعوك إلى هذا ، لو أردتهم لكان لساني مطلقاً ، وكان رَسولي يؤدّي عني ، فلِمَ تحبسُ على طعامي من لا آنس به ؟ قال إنما أريد أن أسخّيك ، فانفي عنكَ التبخيل ، وسُوءَ الظنّ . فلما أن كان بعد ذلك ، أراد بعضُهم الانصراف ، فقال له قاسم : أين تريد ؟ قال : قد تحرّكَ بطني ، فأريد المنزل . قال : فلِمَ لاتتوضأ هاهنا فان الكنيفَ خالٍ نظيف ، والغلامَ فارغ نشيط ، وليسَ من أبي مَعْنٍ حِشمة ، ومنزله منزلُ إخوانه ؟ فدخل الرجلُ ، فتوضأ ، فلما كان بعد أيام ، حبس آخر . فلما كان بعد ذلك ، حبس آخر . فاغتاظ ثمامة ، وبلغ في الغيظ مبلغاً لم يكن على مثله قطّ . ثم قال : هذا يحبسُهم على غَدائي لأن يسخيني ، يحبسُهم على أن يخرؤوا عندي ! لِمَهُ ؟ لأن من لم يخرأ الناسُ عنده فهو بخيل على الطعام ؟ ! وقد سمعتُهم يقولون : فلان يكره أن يؤكل عنده ، ولم أسمع

احداً قط قال : فلان يكره أن يُخرأ عنده .

وكان قاسم شديدَ الأكل ، شديد الخبط ، قَذِر المؤاكلة وكان اسخى الناسِ على طعام غَيره ، وابخل الناس على طعام نفسه ، وكان يعملُ عمل رجُل لم يسمع بالحِشمة ولا بالتجمّل قط : فكان لايرضى بسُوء أدَبه على طَعام ثمامة ، حتى يجرّ معه ابنَه إبراهيم . وكان بينَه وبينَ ابراهيم ابنِه في القَذَر ، بقَدر مابينه وبينَ جميع العالمين . فكانا إذا تقابلا على خوان ثُمامة ، لم يكن لأحد — على إيمانهما وشمائلهما — حظ في الطيبات .

فأتوه يوماً بقصعة ضَخْمة ، فيها ثَريدة كهيئة الصَوْمعة مكلَّلة بأكليل من عراق ، بأكثر مايكونُ من العراق . فأخَذ قاسم الذي يستقبلُه ، ثم أخذ يمنة ، وأخذ مابين يدَيْ من كان بينَه وبين ثُمامة ، حتى لم يدَع إلا عَرَقاً قدّام ثمامة . ثم مال على جانبه الأيْسر ، فصنع مِثلَ ذلك الصنيع . وعارضه ابنُه وحاكاه . فلما أن نظر ثُمامة إلى الثريدة مكشوفة القناع ، مسلوبة ، عارية ، واللحمُ كلّه بين يديه وبين يدَيْ ابنه ، إلا قطعة واحدة بين يديه ، تناولها فوضعها قدّام إبراهيم ابنه ولم يدفعها ، واحتَسب بها في

الكرامة والبِرّ .

فقال قاسم — لما فرَغ من غذائه — :أما رأيتم إكرامَ ثمامه لابني ، وكيف خصَّه ؟ فلما حُكي هذا لي قلت : ويْلك ما أظنّ أن في الأرض عَرقاً أشأمَ على عيالك منه . هذا أخرجه الغيظُ ، وهذا الغيظُ لايتركُه حتى يتشفّى منك . فان قدَر لك على ذَنب ، فقد والله هلكتَ ، وإن لم يقدر عليه اقدَره لك الغيْظ . وابواب التجنّي كثيرة ، وليس أحد إلا وفيه ما إن شئت تجعله ذنباً جعلته ، فكيف وأنت ذنوب من قرْنك إلى قدَمك ؟

وكان ثُمامة (١) يُفطِر — أيامَ كان في أصحاب الفساطيط — ناساً ، فكثروا عليه ، وأتَوه بالرقاع والشفاعات . وفي حُشوة المتكلمين أخلاق قبيحة ، وفيهم على أهل الكلام ، وعلى أرباب الصِناعات محنة عظيمة . فلمَّا رأى ثُمامة ما قَد دهمه ، أقبل عليهم — وهم يتعشَّون — فقال : « إنّ الله عزّ وجلّ لايستحي مِن الحق ، كلّكم واجبُ الحقّ ، ومن لم تجئنا شفاعته فالحرمة كمن تقدَّمت شفاعته . كما أنا لو استطعنا أن نعمّكم بالبِرّ ، لم

---

(١) في عيون الاخبار ج ٣ ص ٢٥٤ : ابو ثمامه ،

يكن بعضُكم أحقّ بذلك من بعض ، فكذلك أنتم إذا أعجزنا أو بدا لنا ، فليس بعضُكم أحقّ بالحِرمان من بعض ، أو بالحمل عليه ، أو بالاعتِذار إليه من بعض . ومتى قرّبتكم ، وفتحتُ بابي لكم ، وباعدتُ من هو أكثرُ منكم عددًا ، وأغلقتُ بابي دونَهم ، لم يكن إدخالي إياكم عُذرًا لي ، ولا في منع الآخرين حجّة » . فانصَرفوا ولم يعودوا (١) .

* * *

قال ابو محمد العَروضي : وقعت بينَ قوم عربدة ، فقام المغنّي يحجِزُ بينهم — وكان شيخًا معيلاً بخيلاً — فمسك رجلٌ بحلقه ، فعَصره ، فصاح : مَعيشتي ! معيشتي ! فتبسم وتركه .

* * *

وحدثني ابن أبي كريعة قال : وهَبوا للكِناني المغنّي خابية فارغة ، فلما كان عندَ انصِرافه ، وضعوها له على الباب ، ولم يكنْ عنده كراء حمّالها ، وأدركه ما يُدرك المغنّين من التيه ، فلم يحملها ، فكان يركلها ركلة ، فتَدحرجُ وتدُور بمبلغ حميّة الركلة . ويقوم من ناحية كي لايراه إنسان ، ويرى ما

(١) راجع عيون الاخبار ج ٣ ص ٢٥٤

يصنع ثم يدنو منها ، ثم يركلها أخرى ، فتَدَحرَجُ وتدور ، ويقف من ناحية فلم يزل يفعلُ ذلك إلى أن بلَغ بها المنزل ،

* * *

قالوا : كان عبد النور – كاتب إبراهيمَ بنِ عبد الله ابن الحسن – قد استَخفى بالبصرة ، في عبد القيس ، من أمير المؤمنين أبي جعفر وعمّاله . وكان في غُرفة قدّامها جَناح ، وكان لايطلِع رأسه منها . فلما سكن الطلب شيئاً ، وثبَت عنده حُسن جوار القوم ، صار يجلس في الجناح ، يرضى بأن يسمع الصوتَ ولا يرى الشخص ، لما في ذلك من الأنس عند طول الوَحشة . فلما طالتْ به الأيام ، ومرّت أيام السلامة ، جعَل في الجَناح خَرقاً بقدر عينه . فلما طالت الأيام صار ينظر من شقِّ باب كان مَسْمُوراً . ثم مازال يفتحُه الأوّل فالأول ، إلى أن صار يُخرج رأسه ، ويبدي وجهَه ، فلما لم يرَ شيئاً يُريبه ، قعد في الدِهليز ، فلمّا ازداد في الأنس ، جلس على باب الدار ، ثم صلّى معَهم في مُصلاهم ، ودَخل ، ثم صلى بعد ذلك وجلس . والقومُ عَرب ، وكانوا يُفيضون في الحديث ويذكرون من الشعر الشاهدَ والمَثَلَ ، ومن الخبر الأيام

والمقامات . وهو في ذلك ساكت ، إذ أقبلَ عليه ذاتَ يوم فتى منهم ، خرج عن أدبهم ، وأغفلَ بعضَ ما راضوه به من سيرتهم ، فقال له : « يا شيخُ ! إنا قومٌ نخوض في ضروب ، فربما تكلمنا بالمثلَبة ، وأنشدنا الهِجاء ، فلو أعلمْتَنا ممن أنت ، تجنبنا كلَّ ما يسوؤك ، ولو اجتنبنا أشعار الهِجاء كلَّها ، وأخبار المثالب بأسرها ، لم [1] نأمن أن يَكونَ ثناؤنا ومديحُنا لبعض العرب ممّا يسوؤك ، فلو عرَّفتنا نسَبَك ، كفيناك سَماع ما يسوؤك من هِجاء قومِك ، ومن مديح عدوِّك » . فلطمه شيخٌ منهم وقال : « لا أمَّ لك ! محنة كمِحنَة الخوارج ، وتنقيرٌ كتنقير العيّابين ؛ ولم لا تَدَع ما يُريبك ، إلى ما لا يريبك ؟ فسكتَ إلا عمَّا توقن بأنه يسرّه ؟ » .

قال : وقال عبدُ النور : ثم إن مَوضعي نبا بي لبعض الأمر فتحوّلت إلى شقِّ بني تميم . فنزلتُ برجل ، فأخذته بالثِقة ، وأكمنتُ نفسي إلى أن أعرفَ سبيل القوم . وكان للرجل كَنيف إلى جانب داره ، يشرَع في طَريق لاينفُذ ، إلا أنَّ من مرَّ به ، في ذلك الشارع ، رأى مَسقِط الغائط

(١) ولم : فان فلوتن .

من خَلاء ذلك الجناح . وكان صاحبُ الدار ضيّق العَيْش ، فاتسع بنزولي عليه . فكان القوم إذا مرّوا به ، ينظرون إلى موضع الزبل والغائط ، فلا يذهبُ قلبي إلى شيء مما كانوا يذهبون اليه فبينا أنا جالسٌ ذاتَ يوم ، إذ أنا بأصوات ملتفة على الباب ، وإذا صاحبي ينتفي ويعتَذر ، وإذا الجيران قد اجتَمَعوا إليه ، وقالوا : « ما هذا الثلْط [١] الذي يسقُط من جَناحك ، بعد أن كنا لا نَرى إلا شيئاً كالبَعْر من يُبس الكعك ؛ وهذا ثلْط يعبّر عن أكل غضّ . ولولا أنك انتَجَعت على بعضٍ من تستُّر وتوارى ، لأظهرته . وقد قال الأوّل : [٢]

السِتْرُ دونَ الفاحشات ،ولا يلقاكَ دونَ الخير من سِتْر

ولولا أنّ هذا طِلبة السلطان لما توارى . فلسنا نأمَنُ من أن يجرّ على الحيِّ بليّة ؛ ولست تبالي إذا حسُنت حالك في عاجل أيامك ، إلى ما يفضي بك الحال ، وما تلقى عَشيرتك .

---

(١) ثلط البعير : إذا ألقى بعره رقيقا . وفي الحديث أنهم كانوا يبعرون بعراً وانتم تثلطون ثلطا .

(٢) هو زهير .

فأمّا أن تُخرِجَه إلينا ، وإمّا أن تُخرِجَه عنا » .

قال عبدُ النور : فقلتُ : هذه والله القيافة ، ولا قِيافَةَ بني مُدلج . إنّا لله ، خرجتُ من الجنة إلى النار . وقلت : هذا وَعيد ، وقد أعذَرَ من أنذَر ، فلم أظنّ أن اللؤم يبلُغ ما رأيتُ من هؤلاء ، ولا ظننتُ أن الكَرَم يبلغُ ما رأيتُ من أولئك .

* * *

شهِدتُ الأصمعيّ يوماً ، وأقبلَ على جُلَسائه يسألهم عَيْشهم ، وعمّا يأكلون ويشرَبون ، فأقبلَ على الذي عن يمينه فقال : أبا فلان ! ما إدامُك ؟ قال : اللحم ! قال . أكلّ يوم لحم ؟ قال : نعم ! قال : وفيه الصفراء والبيضاء والحمراء والكَدْراء والحامِضة والحُلوة والمرّة ؟ قال نعم ! قال : بئسَ العيشُ هذا (ليس هذا [1]) عيشَ آل الخطّاب . كان عُمر بنُ الخطاب رحمةُ الله عليه ورضوانه يضربُ على هذا ، وكان يقول : مُدمِنُ اللحم كمُدْمِن الخمر .

ثم سأل الذي يليه ، قال أبا فلان ! ما إدامُك ؟ قال :

---

(١) مزيدة .

الآدام الكثيرة ، والألوان الطيّبة ! قال : أفي إدامك سَمن ؟ قال نعم ! قال : فتجمعُ السَمن والسَمين على مائدة ؟ قال : نعم ! قال: ليسَ هذا عيشَ آل الخطّاب . كان ابنُ الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا . وكان إذا وجَد القُدور المختلفة الطعوم ، كدّرها في قِدر واحدة ، وقال : إن العَرب لو أكلَتْ هذا لقتل بعضُها بعضاً .

ثم يُقبِلُ على الآخر فيقول : أبا فلان ! ما إدامك ؟ قال : اللحمُ السمين ، والجدي الرضيع ! قال : فتأكلُه بالحُوّارى ؟ قال : نعم ! قال : ليس هذا عيش آل الخطاب ، كان ابن الخطاب يضرِبُ على هذا ، أوَ ما سمعتَه يقول أترَوني لا أعرف الطعام الطيِّب ؟ لبابُ البرّ ، بصِغار المعزى ؟ ألا تراه كيف ينتفي من أكله ، وينتَحِل معرفته؟

ثم يقبلُ على الذي يليه، فيقول: أبا فلان يا ما إدمك؟ فيقول: أكثر ما نأكل لحوم الجزور [1] ، ونتّخذ منها هذه القلايا، ونجعلُ بعضها شواء! قال : أفتأكل من أكبادها وأسنِمَتها ، وتتخذ لك الصباغ ؟ قال : نعم ! قال : ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابنُ الخطاب

(١) الجزر : فان فلوتن .

يضرب على هذا . أوَ ما سمعتَه يقول : أَرَوني لا أقدرُ أن أتخذ أكباداً وأفلاذاً ، وصلائق وصناباً ؟ ألا تراه كيف ينكَر أكله ويَستحسن معرفته ؟

ثم يقول للذي يليه : أبا فلان ! ما إدمك ؟ فيقول الشبارقات[1] والأخبصة والفالوذجات[2] . قال طعام العجَم ، وعيش كسرى ولُباب البُرّ ، بلُعاب النَحل ، بخالِص السمن . حتى أتى على

---

(١) الشبارقات جمع شبارق. وفي المعرب للجواليقي ص ٢٠٦ : الشبارق الذي تسميه الفرس پيشباره . ولهم شبارق يقطع صغارا ويطبخ . وزعموا أنه فارسي معرب .

(٢) الفالوذجات : جمع فالوذج : حلواء يسوى من لب الحنطة . فارسي معرب . وفي الصحاح : الفالوذ والفالوذق معربه ، قال يعقوب : ولا يقال : الفالوذج .

والعرب لاتعرفه حتى حكي أن عبد الله بن جدعان وفد على كسرى مرة وأكل عنده الفالوذج فتعجب منه ، وسأل عن حقيقته فقيل : هي لباب البر يلبك بالعسل ، فابتاع من عنده غلاما يصنعه وقدم به مكه فصنع بها الفالوذج ، فوضع موائده بالابطح الى باب المسجد ، ثم نادى : من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر ، فكان ممن حضر أميه بن أبي الصلت ، فقال مادحاً:

لكل قبيلة رأس وهادي   وأنت الرأس تقدم كل هادي
له راع بمكه مشمعل   وآخر فوق دارته ينادي
الى ردح من الشيزى ملاء   لباب البر يلبك بالشهاد

آخرم . كلٌّ ذلك يقول : بئسَ العيشُ هذا ، ليسَ هذا عيشَ آل الخطّاب كان ابنُ الخطاب يضرب على هذا .

فلما انقضى كلامُه ، أقبل عليه بعضُهم ، فقال : يا أبا سعيد ! أدمك ؛ قال : يوما لبن ، ويوماً زيت ، ويوماً سمن ، ويوماً تمر ، ويوماً جبن ويوماً قَفار ، ويوماً لحم . عيشُ آل خطاب .

ثم قال : قال أبو الأشهب : كان الحسَن يشتري لأهله كلَّ يوم بنصف درْهم لحماً ، فان غلا فبدرهم ، فلما حُبس عطاؤه ، كانت مَرَقَته بشحم .

* * *

ونبئت عن رجل من قريش أنه كان يقول : من لم يحسن يمنعُ من لم يُحسن يُعطي ! وأنه قال لابنه : أيْ بُني ! إنك إن أعطيتَ في غير موضع الاعطاء ، أوشك أن تستعطيَ الناس فلا تُعطى ! ثم أقبلَ علينا ، فقال : هل علمتم أن اليأس أقلُّ من القناعة وأعزّ ؟ إنّ الطمع لا يزال طمعاً . وصاحب الطمع لاينتظر الأسباب ، ولا يعرفُ الطمع الكاذب من الصادق ، والعيالُ عيالان : شهوة مفسِدة ، وضرس طحون . وأكل الشهوة أثقلُ من أكل الضرس . وقد زعموا أن العيالَ سوسُ

المال ، وأنه لامال لذي عيال . وأنا أقولُ : إنّ الشهوة تبلغ مالا يبلغ السُوس ، وتأتي على ما يقصّر دونَه العيال . وقد قال الحسن: ما عال أحد قطّ عن قَصْده . وقيل لشَيْخٍ من أهل البصرة : مالك لاينمى لك مال ؟ قال : لأني اتخذتُ العيالَ قبلَ المال ، واتخذ الناسُ المالَ قبلَ العيال ! وقد رأيتُ من تقدّم عِيالُه ماله ، فجبرَه الاصلاح ، ورَفده الاقتصاد ، وأعانه حُسنُ التدبير ، ولم أر لشهواتي تدبيراً ، ولا لشرهي صبراً .

وقال إياس بنُ معاوية (١) : إن الرجلَ يكونَ عليه ألفَ فيُصلح ، فتصلُح له الغلّة ، ويكون عليه ألفان ، فينفقُ ألفين فيُصلِح ، فتصلُح له الغلّة ، فيكون عليه ألفان فينفقُ ثلاثة آلاف ، فيبيعُ العقار في فَضل النفقة .

وذكر الحديثَ عن أبي لينة قال : كنتُ أرى زياداً وهو

(١) هو أبو واثلة إياس بن معاويه المزني من مزينة مضر وصفه الجاحظ فقال : القاضي الفائف وصاحب الزكن ، والمعروف بجودة الفراسة . وقال عنه ايضاً : وجملة القول في اياس أنه كان من مفاخر مضر ، ومن مقدمي القضاة ، وكان فقيه البدن ، دقيق المسلك في الفطن ، وكان صادق الحدس نقابا ، وعجيب الفراسة ملهماً وكان عفيف الطعم ، كريم الدخل والشيم ، وجيهاً عند الخلفاء مقدماً عند الأكفاء . ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة ومات سنة ١٢٢ هـ .

أمير ، يمرّ بنا على بغلة في عنقها حبل من ليف مُدرج على عنقها . وكان سَلم بن قُتيبة يركب بغلة وحده ، ومعه أربعة آلاف رابطة . ورآه الفضلُ بنُ عيسى على حِمار ، وهو أمير فقال بذلة نبي ، وقعود جبار [1] ! ولو شاء أبو سيّارة أن يدفع بالعَرب على جمل مهريّ ، أو فرَس عتيق لفعل ،ولكنه أراد هَدى الصالحين . وحُمل عمُرَ على برذون فهملَج تحته ، فنزل عنه ، فقال لأصحابه : جنّبوني هـذا الشيطان . ثم قال لأصحابه : لاتطلبوا العزّ بغير ما أعزكم الله به .

قد كنت أعجب من بعض السلَف حيثُ قال : ماأعرف شيئاً مما كان الناسُ عليه ، إلا الأذان ، وأنا أقول ذلك ، ولم يزَل الناسُ في هبوط ماترَفعوا بالاسراف ، وما رفَعوا البنيانَ المطاولة .

وإن من أعجَب مارأيتُ في هذا الزمان ، أو سمعت ، مفاخرةُ مُويَس بن عِمران لأبي عُبَيد الله بن سلمان ، في أيّهما كان أسبق إلى ركوب البراذين ، وما للتاجر وللبرذون؟ وما ركوبُ التجار للبراذين إلا كركوب العرَب للبقر . لو

(٢) في بعض النسخ : قعود نبي وبذلة جبار .

كانوا اذا جلسوا في الخُيوش ، واتخـذوا الحمامات في الدور ، وأقاموا وظائف الثَلج والرَّيحان ، واتخذوا القِيان والخِصيان ، استردَّ الناسُ ودائعهم ، واسترَجعت القضاةُ أموالَ الأيتام ، والحَشرية (١) منهم ، لعادوا إلى دِينهم وعَيْشهم واقتصادهم . وإذا رآهم أصحابُ الغلاّت ، وأهلُ الشَرف والبيوتات ، أَنفوا أن يكونوا دُونهم في البزّة والهيئة ، فهلكوا وأهلكوا .

* * *

زعم أبو يعقوب الخريمي : أنَّ جعفرَ بنَ يحيى (٢) أراد يوماً حاجة ، كان طريقهُ إليها على باب الأصمعي ، وأنه دفع

---

(١) الحشرية : فسرها القلقشندي في صبح الاعشى ج٣ص٤٦٤ بمايلي : المورايث الحشرية ، وهي مال من يموت وليس له وارث خاص بقرابة اونكاح أو ولاء . أوالباقي بعد القرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لايستغرق جميع المال ، ولا صاحب له . والحشري هو من يموت كذلك .

(٢) هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، ولاه الرشيد المغرب كله من الأنبار الى افريقية في سنة ست واربعين ومائة . وكان الرشيد يميل إليه ويقول ليحيى كثيراً : انت للفضل ، وانا لجعفر . وغلب جعفر على الرشيد غلبه شديدة ، حتى صار لايقدم عليه أحداً ، وانس به كلّ الانس ، وانزله بالخلد ، بالقرب من قصره . وسماه أخي ، وادخله معه في ثوبه ، وقلده بريد الآفاق ودور الضرب والطرز في جميع الكور . وكان جعفر بليغاً ـ

إلى خادم كيساً فيه ألفُ دينار، وقال له: «سأنزلُ في رُجعتي إلى الأصمعيّ، وسيحدّثني ويُضحِكني، فاذا رأيتني قد ضحِكتُ، فضع الكيس بين يديه». فلمّا دَخل فرأى حُبّاً مقطوعَ الرأس، وجرّةً مكسورةَ العُروة، (١) وقصعة مُشَعّبة، وجفنة أعشاراً، وزادهُ (٢) على مصلى بالٍ، وعليه برّكان (٣) أجرد،

ـ كاتبا، انطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة، وإفهاماً يغنيه عن الاعادة. إذا وقع نسخت توقيعاته، وتدورست بلاغاته. وفيه تقول عنان جارية الناطفي:

بديهته وفكرته سواء | إذا التبست على الناس الأمور
وصدر فيه للهم اتساع | إذا ضاقت من الهم الصدور
وأحزم مايكون الدهر رأياً | إذا عجز المشاور والمشير

وكان الأصمعي يألفه وله فيه مديح كثير، وحكايات لاتوصف، وتقريظ وتفضيل فمن شعره فيه:

إذا قيل: من للندى والعلى | من الناس؟ قيل: الفتى جعفرُ
وما إن مدحت فتى قبله | ولكن بنو برمك جوهر

وما زال جعفر الأمر الناهي إلى أن فسد الأمر بينه وبين الرشيد، فقتله الرشيد ونكب البرامكة وزالت سطوتهم وعزهم وذلك سنة ١٨٧ (ترجمة مختصرة من الوزراء والكتاب: أيام هارون الرشيد من الصفحة ١٧٧ ٢٧٨)

(١) في عيون الأخبار: العنق.
(٢) في عيون الأخبار: وراء.
(٣) البركان: كساء أسود. وفي الطبري: دراعة بدلاً من: بركان.

غمز غلامه بعينه ألاّ يضعَ الكيس بين يديه ، ولا يدفع إليه شيئاً . فلم يدع الأصمعيُّ شيئاً مما يُضحك الثكلان والغضبان ، إلا أورده عليه ، فما تبسم .

فقال له إنسان : « ما أدري من أيِّ أمرَيك أعجب : أمن صبرك على الضحك ، وقد اورد عليك مالا يُصبر على مثله ؛ أم من تركك إعطاءه ، وقد كنتَ عزمتَ على إعطائه؟ وهذا خلافُ ما أعرفُك به [1] » . قال : « ويلكَ ! من استرعى الذئبَ فقد ظَلم ، ومن زرع سَبِخة حَصَد الفقر . إني والله لو علمتُ أنه يكتُم المعروف بالفعل ، لما حفلتُ نشره له باللسان . وأينَ يقعُ مَديح اللسان ، من مديح آثار الغنى على الانسان ؟ فاللسانُ قد يكذِب ، والحالُ لا تكذِب . لله درُّ نصَيب حيثُ يقول : [2]

فعَاجُوا فأثْنَوْا بالّذي أنتَ أهْلُهُ
وَلَوْ سَكَتُوا أثْنَتْ عَلَيْكَ الحقائِبُ

أعلمتَ أن ناووس ابرويز أمدحُ له من شِعر زهير لآل

(١) « فقال له ... ماأعرفك به » ساقطة في عيون الأخبار .

(٢) من قصيدة له في مدح سليمان بن عبد الملك . وللشعر قصة تراجع في الاغاني ج ١ ص ٣٣٧ .

سنان ابن أبي حارثة ، لأنَّ الشاعر يكذبُ ويصدُق ، وبنيان المراتب لايكذبُ مرّة ، ويصدقُ مرّة[١] . فلستُ بعائدٍ إلى هذا بمعروف أبداً[٢] .

كان الأصمعيْ يتعوّذ بالله من الاستقراض والاستفراض فأنعم الله عليه ، حتى صار هو المستقرَض منه ، والمستفرَض ماعنده . فاتّفق أن أتاه في يوم واحد رَجُلان ، وكان أحدُهما يطلُب الفرَض ، والآخر يطلُب القرض ، هجما عليه معاً ، فأثقله ذلك وملأ صدْره ، ثم أقبلَ على صاحب السلَف ، فقال : تتبدّل الأفعال ، بتبدّل الحال ، ولكلّ زمان تدبير ، ولكل شيْ مقدار ، والله في كل يومٍ في شأن . كان الفقيه يمرّ باللقَطة فيتجاوزُها ولا يتناوَلها ، كي يُمتَحن بحفظها سواه ، إذ كان جُلّ الناس في ذلك الدهر يؤدون الأمانة ، ويحوطون اللقَطة ، فلما تبدّلوا وفسَدوا ، وَجب على الفقيه إحرازُها ، والحفظ لها ، وأن يصبرَ على مانابه من المحنة ،

---

(١) راجع الخبر في عيون الأخبار ج ١ ص ٢٩٩ .وفي الوزراء والكتاب ص٢٠٦ ط الحلبي . والطبري .

(٢) كذا في الاصل ولعلها : مرات

واختُبر به من الكلفة .

وقد بلغني أنّ رجلاً أتى صَديقاً له يستقرض منه مالاً ، فتركه بالباب ، ثم خرج إليه مؤتزراً ، فقال له : مالك ؟ قال : جئت للقتال واللطام والخُصومة والصخب . قال : ولِمَ ؟ قال لأنك في أخذ مالي بين حالَيْن : إما أن تَذهَب به ، وإما أن تَمطُلني به ، فلو أخذتَه على طريقِ البِرّ والصِلة ، لاعتددْتُ عليك بحقّ ، ولوجبَ عليك به شكر . وإذا أخذتَه من طريقِ السَّلَف ، كانت العادةُ في الديون ، والسيرةُ في الأسلاف الردّ أو التقاضي . وإذا تقاضيتك أغضبتك ، وإذا أغضبتك أسمعتني ما أكره ، فتجمع عليّ المطل ، وسوء اللفظ ، والوحشة ، وإفساد اليد في الأسلاف وأنت أظلم . فاغضب كما غضبتَ ، فاذا نقلتَني إلى حالك فعلتُ فِعلك ، وصرت أنا وأنت كما قال العربي : « أنا تئق ، وصاحبي مئق [1] » فما ظنّك بتئق من الغيظ ، مملوء من الغضب ، لأني متأق من الموق مملوء من

(١) يضرب هذا للمسافر الاحمق الرفيق والزميل . وقد استفرغه الضجر لطول السفر فقلبه ملآن ، فأول شيء يكون في ذلك المئق المكروه لم يحتمله بل يفيض ضجره عليه ، لامتلائه من طول ماقاسى من مكروه السفر . وراجع الحيوان ج ١ ص ٢٨٧ .

الكفران . ولكنّي أدخل إلى المنزل ، فأخرج اليك مؤتزراً ، فأعجّل لك اليوم ما أدخرته إلى غـد . وقد علمت أنّ ضرب الموعظة ، دون ضرب الحقد والسخيمة فتربحُ صرف ما بينَ الألمين ، وفضلَ ما بين الشتمين .

وبعد ، فأنا أضنّ بصداقتي لك ، وأشحّ على نصيبي منك ، من أن أعرّضه للفساد ، وأن أعينك على القطيعة ، فلا تلُمني على أن كنتَ عندي واحداً من أهلِ عصرك . فانْ كنتَ عندَ نفسك فوقهم ، وبعيداً من مَذهبهم ، فلا تكلّف الناس علمَ الغيبِ ، فتظلمهم .

ثم قال : وما زالت العاريَة مؤدّاةً ، والوديعةُ محفوظةً فلمّا قالوا : « أحقّ الخيل بالركضِ المُعار »[1] بعد أن كان يقال : « أحقّ الخيل بالصّون المعار[1] » . وبعد أن قيلَ لبعضهم:

---

(١) المعار : المنتوف الذنب وهو المهلوب . يريدون أنه أخف من الذيال الذنب يقال : أعرت الفرس إذا نتفته . وقيل . المعار : المسمن ، يقال : أعرت الفرس إذا سمنته ، وقيل المعار : المضمر ، من عار الفرس إذا أخذ يذهب ويجيء مرحا ونشاطا ، فالمعار : ماردد الذهاب به والمجيء حتى ضمر . ويروي المعار بكسر الميم — وهو الفرس الذي يحيد براكبه عن الطريق . وكذلك روى المغار ـ بالغين المعجمة ـ أي المضمر من أغرت اذافتلته .

وتمشّى رجل إلى الغاضري [1] ، (قال [2]) : إن صديقك القادمي قد قُطِع عليه الطريق ! قال : فأيَّ شيءٍ تريد ؟ قال : أن تحلف عليه . قال فليس عليه قُطِع الطريق ، بل عليَّ قُطِع .

* * *

وأتى ابن سحاب الصَيْرفيَّ صديقٌ له يستلفُ منه مالاً ، فقال : لو شئتُ أن أقولَ لقلتُ ، وأن اعتلَّ اعتللتُ ، وان استعير بعضَ كلام من يستلف منه إخوانه فعلتَ ، وليس أرى شيئاً خيراً من التصحيح ، وقَشْرِ العصا ، ليس أفعل . فان التمستَ لي عُذراً ، فهو أرْوَح لقلبك ، وإن لم تفعل فهو شرٌّ لك .

* * *

وضاقَ الفَيْضُ بنُ يَزيد ضيقاً شديداً ، فقال والله ماعندنا من شيءٍ نعوِّل عليه ، وقد بلغ السكينُ العظمَ . والبيعُ لايكون إلاّ مع طول المدّة ، والرأيُ أن نُنزلَ هذه النائبة بمحمّد بن عبّاد ، فانه يعرف الحال ، وصحّة المعاملة ، وحسنَ القضاء ، ومالنا من السبَب المنتظَر ، فلو كتبتُ اليه كتاباً

---

(١) رجل من الحمق . وعن الأصمعي عن نافع : إنه كان من أحمق الناس .

(٢) ساقطة في الأصل

لسرّه ذلك ، ولسدَّ منا هذه الخلّة القائمـةَ الساعة . فتناوَل القلمَ والقِرطاس ، ليكتبَ اليه كتابَ الواثق المُدلِ ، لايشك أنه سيتلَقى حاجتَه بِمثل ما كان هو المتلقِي لها منه . ومضى بعضُ من كان في المجلس إلى محمد بن عبّاد ليبشّره بسُرعة ورود حاجة الفيض إليه . فأتاه أمر لايقوم (له الا بأن يتقدم با[1])الكتابة ليشغله بحاجته إليه عن حاجته إليه . فكتب إليه : « مالي يضعف والدَخل قليل ، والعِيال كثير ، والسِعر غالٍ ، وأرزاقُنا من الديوان قد احتُبِست ، وقد تفتّحت علينا من أبواب النوَائب في هذه الأيام مالم يكن لنا في حساب ، فان رأيتَ أن تبعَث إليّ بما أمكنكَ ، فعجِّل به ، فان بنا اليه أعظمَ الحاجة » .

فورد الكتاب على الفيض قبل نفوذ كتابه إليه ، فلمّا قرأه استرْجَع ، وكتبَ اليه :

« يا أخي تضاعَفت عليَّ المصيبة ، حتى جُمِعت خلة عيالك إلى خَلّة عِيالي . وقد كنتُ على الاحتيال لهم ، وسأضطرب في وجوه الحيل غير هذا الاضطراب ، وسأتحرّك في بيع ماعندي

---

(١) زيادة من طبعة الاستاذ الحاجري زادها لتقويم السياق . وفي جميع الاصول يوجد سقط بين بالعبارة .

ولو ببعض الطرح » .

فلما رجع الكتاب إلى ابن عبّاد سكَن ، والقى صاحبه في أشدّ الحركة ، وأتعب التعب .

* * *

وكان رجل من أبناء الحربيّة ، له سخاء وأريحية ، وكان يُكثر من استزارة ابن عبّاد ، ويتلف عليه من الأموال من طريق الرغبة في الأدباء ، وفي مشايخ الظُرفاء ، وكان يظنُّ – بكرمه – أن زيارته ابن عباد في منزله زيادةٌ في المؤانسة. وقد كان بلغه إمساكه ، ولكنه لم يظنَّ أنه لا حيلة له في سببه فأتاه يوماً متطرِّثاً ، وقال :جئتك من غير دُعاء ، وقد رضيتُ بما حضر ، قال فليسَ يحضُر شيٌ . وقولك « بما حضر » لابدّ من أن يقعَ على شيء . قال فقطعة مالح . قال : وقطعةٌ مالح ليس هي شيء ؟ قال بلى ! فنحن نشربَ على الريق . قال لو كان عندنا نبيذ ، كنا في عُرس ! قال : فأنا أبعثُ إلى نبيذ! قال : فاذا صرت إلى تحويل النبيذ ، فحوّل أيضاً ما يصلُح للنبيذ . قال : ليس يمنعُني من ذلك ، ومن إحضار النقل والريحان ، إلا لأني أحتسب لك هذه الزَوْرة بدَعوة ، وليسَ

يجوزُ ذلك إلا بأن يكونَ لك فيها أثر . قال محمد : فقد انفتح لي بابٌ لكم فيه صَلاح ، وليسَ عليَّ فيه فساد . في هذه النَخلة زَوْج ورشان، ولهما فرخان مُدرِكان . فان نحن وجدنا إنساناً يصعدُها — فانها سحيقة منجردة — ولم يطيرا — فانهما قد صارا ناهِضين — جعلنا الواحد طُباهِجة، والآخر كردناجاً فانه يومُ كردناج .

فطلبوا في الجِيران إنساناً يصعد تلك النخلة، فلم يقدِروا عليه . فدلّوهم على أكّار لبعض أهل الحربية . فما زال الرسول يطلبُه حتى وقع عليه . فلما جاء به ونظر إلى النخلة ، قال : هذه لا تصعد ، ولا يُرتقى عليها إلا بالتبْليا والبرْبند ، فكيف أرومها أنا بلا سبَب . فسألوه أن يلتمِس لهم ذلك ،فذَهَب فغَبر ملياً ، ثم أتاهم به ، فلما صار في أعلاها ، طارَ أحدُهما وأنزل الآخر، فكان هو الطُباهج والكرْدناج ، وهو الغداء وهو العشاء .

* * *

وكتب إبراهيمُ بن سيّابة [1] إلى صديق له يُساويه في

(١) هو ابراهيم بن سيابة مولى بني هاشم، شاعر غير نابه اختص-

إرفُق به ! قال . إنه عارِية ! وقال الآخر : فاقتل فسَدت العارية ، واستدَّ هذا الباب . ولما قالوا

شمِّر قميصك واستعدَّ لنائل واحكُكْ جبينك للقضاء بثوم

واخفض جناحك إن مشيت تخشعاً حتّى تُصيب وديعةً ليتيم (١)

وحين أكلَت الأماناتِ الامناء والأوصياء ، ورتَع فيها المعدّلون والصرّافون ، وجب حفظُها ودفنُها ، وكان أكل الأرض لها خيراً من أكل الخؤون الفاجر ، واللئيم الغادِر . وهذا مع قول أكثم بن صيْفي في ذلك الدهر : « لو سُئلت العارية : أين تذهبين ؟ قالت أكسب أهلي ذماً » .

وأنا اليوم أنهى عن العارية والوديعة ، وعن القَرض والفَرض . وأكره أن يخالف قولي فعلي .

أما القرضُ ، فلا أباً لكم . وأما الفَرض ، فليس يَسَعُه إلا بيتُ المال . ولو وهبتُ لك درهماً واحداً لفتحتُ على مالي باباً لا يسدُّه الجبال والرمال . ولو استطعتُ أن أجعلَ دونه ردماً كردم يأجوج ومأجوج (لفعلت (٢)) . إن الناسَ فاغِرة أفواهُهم نحوَ من

---

(١) هذان البيتان لمساور بن سوار الوراق يقولها من ابيات لابنه وقد وردا في البيان ج ٣ ص ١١٥ والاغاني ج ١٦ ص ١٦٩ باختلاف الالفاظ

(٢) مزيدة .

عنده دراهم، فليس يمنعهم من النهس إلا اليأس. وإن طمعوا لم تبق راغية ولا ثاغية، ولا سبد ولا لبد، ولا صامت ولا ناطق، إلا ابتلعوه والتهموه. أتدري ماتريد بشيخك؟ إنما تريد أن تفقره، فاذا أفقرته فقد قتلته! وقد تعلم ما جاء في قتل النفس المؤمنة.

فلم أشبه قول الأصمعي لهذا الرجل حين قال: « أضن بك، وأشح على نصيبي منك، من أن أعرضه للفساد[1] » إلا بقول ثمامة حين قال لابن سافرى: « يا عاض بظر أمه، بالنظر مني أقول لك، وبالشفقة مني أسبك »، وذلك أنه ندم حين أعضه، فرأى أن هذا القول يجعل ذلك منه يداً ونعمة.

وشهدت ثمامة، وأتاه رجلان، قال أحدهما: إن[2] لي إليك حاجة. فقال ثمامة: ولي إليك أيضاً حاجة! قال: وما حاجتك؟ قال: لست أذكرها لك حتى تضمن لي قضاءها! (قال: قد فعلت؟[3]) قال: فحاجتي ألا تسألني هذه الحاجة!

---

(١) راجع الصفحة رقم ٣٨٣ - ٣٨٤ من هذا الكتاب.

(٢) في الاصل رجل وقد اصلحناها بما يناسب النص. راجع تصحيحات فان فلوتن.

(٣) مزيدة من عيون الاخبار.

قال : إنك لاتدري ماهي . قال : بلى ! قد دَرَيت . قال : فما هي ؟ قال : هي حاجة ، وليسَ يكونُ الشيْ حاجة ، إلا وهي تحْوج إلى شيْ من الكلفة ! قال : فقد رجعتُ عمّا أعطيتُك . قال : لكنّي لا أردُّ ما أخذتُ .

فأقبل عليه الآخر فقال : لي حاجة إلى منصور بنِ النعمان قال : قل : لي حاجة إلى ثُمامة بن أشرس . لأنّي أنا الذي أقضي لك الحاجة ، ومنصور يقضيها لي . فالحاجة أنا أقضيها لك ، وغيري يقضيها لي . ثم قال : فأنا لا أتكلم في الولايات ، ولا أتكلم في الدراهم من قلوب الناس ، لأن الحوائج تنقص [1] ، فمن سألته اليوم أن يعطيك ، سألني غداً أن أعطيَ غيرك ، فتعجلي تلك العطيّة لك ، أروح لي . ليسَ عندي دراهم ، ولو كان عندي دراهم ، لكانت نوائبي القائمةُ الساعةَ تستغرقُها . ولكني أؤنّبِ لكم من شئتم ، عليّ لكم من التأنيب كل ما تريدون قلت له : فاذا أتيتَ رجلاً في أمر لم تتقدم فيه بمسألة ، كيف يكونُ جوابُه لك ؟ فضحك حتّى استند إلى الحائط .

* * *

(١) يقترح دي جويه أن تكون هذه الجملة كما يلي : فأنا لا أتكلم في الولايات ، ولا أتكلم في الدراهم لأن الحوائج تنقص من قلوب الناس .

وجاء مرَّة أبو همام المسوط [(١)]، يكلِّمه في مرمَّة داره التي تطوَّع ببنائها في رباط عبّادان [(٢)]، فقال: ذكَّرتني الطعن وكنتُ ناسياً [(٣)]. قد كنتُ عزمتُ على هدمها. حين بلغني أن الجبريّة قد نزلتها. قال: سبحانَ الله! تهدم مكرُمة وداراً قد وقفتَها للسبيل؟ قال فتعجبُ من ذا؟ قد أردتُ أن أهدم المسجدَ الذي كنتُ بنيتُه ليزيدَ بن هاشم، حين ترك أن يبنيَه في الشارع، وبناه في الرائغ، وحين بلغني أنه يخلط في الكلام، ويعين الشمرية على المعتزلة. فلو أراده ابو همام، وجد من ثمامة مربدا جميع مساحة الارض. وكان حين يستوي له اللفظ، لاينظر في صلاح المعاني من فسادها.

* * *

(١) كذا في الاصل وفي الحيوان: السنوط

(٢) عبادان: يقول ياقوت في معجم البلدان ج ٦ ص ١٠٥: موضع رديء سبخ لاخير فيه، وماؤه ملح فيه قوم منقطعون عليهم وقف في تلك الجزيره يعطون بعضه. وفي نهاية الارب انها بلدة واقعة في زاوية الخليج الفارسي.

(٣) شطر بيت لرهم أو زهير بن حزم الهلالي، والشعر كما ورد في عيون الاخبار:

ردا على أخوها الأثاليا   إن لها بالمشرقي حاديا

ذكرتني الطعن وكنت ناسيا.

والإعذار : طعام الخِتان يقال : صبي مَعذُور ، وصبيّ مُعذَر جميعاً . وقال بعضُ أصحابِ النبيّ ﷺ — وهو يُريد تقارُبهم في الأسنان — : « كنا أعذارَ عام واحد » . وقال النابغة:

فَنُكِحن[1] أبكاراً وهنّ بأمّةٍ أعجَلنَهُنّ مَظنّةُ الاعذار

فزعموا أنّهم سمّوا طعام الاعذار بالاعذار للملابسة والمجاورة.

كان الأصمعيُّ يقول : قد كان للعرب كلامٌ على معان ، فاذا ابتدِلت تلكَ المعاني ، لم تتكلم بذلك الكلام . فمن ذلك قولُ الناس اليومَ : ساقَ إليها صَداقها . وإنما كان هذا يُقال ، حين كان الصّداق إبلاً وغنماً . وفي قياس قول الأصمعي[2] أن

---

(١) في شعراء النصرانية ص ٦٧٨ : فأصبن .

(٢) يقول مرسيه : لكي يكون النص متسق المعنى ، يجب أن تنزل كلمة « تزل » بين « لم » و « تتكلم » فتصبح الجملة : « لم تزل تتكلم » ولعل الجاحظ يخلط هنا بين نوعين من الالفاظ: نوع حفظته اللغة ، وتتضح معانيه في النصوص القديمة التي اهمل استعمالها ، ونوع فقد من المعاجم ببواعث الحضارة والمدنية . وهو مايسمى « المتروك » عندعلماء اللغه مثل : نوافج،مرباع ، نشيطة ، الخ ... راجع : المزهر للسيوطي ، ج ١ ، ص ١٤٢ . ومن هذا يظهر أن الغاء التعبيرات القديمة وابدالها بتعبيرات جديدة انما كان مذهب الاصمعي . والى هذا قصد الجاحظ هنا بقوله : كان الاصمعي يقول : قد كان للعرب كلام على معان ، فاذا ابتدلت تلك المعاني لم تتكلم بذلك الكلام . وراجع الحيوان ج ١ ص ٣٣٠ و ٣٣٣ و ٣٣٤ .

أصحاب التمر ، الذين كان التمر دياتهم ومهورهم ، كانوا لا يقولون: ساق فلانٌ صداقه . قال : ومن ذلك قولُ الناس اليومَ : قد بَنى فلانٌ البارحة على أهله ، وانما كان هـذا القولُ لمن كان يضرب على أهله في تلك الليلة قبّته وخيمته ، وذلك هو بناؤه ولذلك قال الأول :

لوْ نزلَ الغَيْثُ أبْنَيْنَ امرءا كانَتْ لهُ قَبَّةٌ سَحْقَ بِجاد

وكان الأصمعيُّ يعدّ من هذا أشياء ليس لذكرها ها هُنا وجه.

ومن طعامهم الوكيرة : وهو طعام البناء . كان الرجل يطعِم من يبنى له ، وإذا فرغ من بنائه ، تبرّك باطعام أصحابه ودُعائهم . ولذلك قال قائلهم .

خيرُ طعامٍ شهِدَ العَشيرَة العرْسُ والاعذار والوكيرَة (١)

ويسمّون ما ينحرون من الابل والجُزُر من عُرض المغنم : النقيعة . قال الشاعر (٢) :

إنا لَنضربُ بالسيُوف رُؤوسهم ضَربَ القِدارِ نَقيعةَ القُدّام

والعقيقة : دعوةٌ على لحم الكَبْش الذي يُعَقّ عن

---

(١) راجع الهامش رقم ١ من الصفحه رقم ٣٠٠ فقد ورد الشطر الاول من البيت : كل الطعام تشتهي عميره

(٢) هو المهلهل بن ربيعة . وراجع اساس البلاغه .

الصبيِّ . والعقيقةُ اسم للشَعر نفسه ، والأشعارُ هي العقائقُ . وقولهم : عُقّوا عَنه ، أي أحلِقوا عَقيقته . ويقولون : عقّ عنه ، وعقّ عليه ، فسمّي الكبشُ لقُرب الجِوار ، وسببِ الملتبس عقيقةً . ثم سمّوا ذلك الطعام باسمِ الكبش .

وكان الأصمعيُّ يقول : لايقولنّ أحدكم أكلت ملّةً ، بل يقولُ : أكلت خُبزة ، وإنما الملّة موضعُ الخبزة . وكذلك يقول في الراويَة وللزادة . يقول الراويَة هو الجمل ، وزعموا أنّهم اشتقوا الراوية للشعر من ذلك .

فأما الدعاء إلى هذه الأصناف ، فمنه المذمُوم . ومنه الممدوح . فالمذمُوم النَقرى ، والممدوح الجَفلى وذلك أن صاحبَ المأدُبة ، ووليّ الدعوة ، إذا جاء رسولُه ، والقومُ في أخوِيَتهم وأنديتهم ، فقال أجيبوا إلى طعام فلان ، فجعلهم جَفْلة واحدة ، وهي الجُفالة ، فذلك هو المحمود . وإذا انتقر فقال : قُم أنتَ يافلان ، وقم أنت يافلان ، فدعا بعضاً ، وترك بَعْضاً ، فقد انتَقَر قال الهذلي :

ولَيْلة يَصْطلي بالفَرْثِ جازِرُها
يَخصُّ بالنَّقَرى المُثْرينَ داعيها

يقول : لايدعُو فيها إلا أصحاب الثروة ، وأهل المكافأة وهذا قبيح . وقال في ذلك بعضُ ظرفائنا .

آثر بالجدْي وبالمائِدة　　من كان يرجُو عندَه الفائده
لو كانَ مكّوكان في كفِه　　مِن خردلٍ ما سقطت واحده

وقال طرفة بنُ العبد :

نحْنُ في المَشْتاة ندْعو الجفلى　　لا ترى الآدِبَ فينا يَنْتقِرْ[١]

ولما غزا بسطامُ بنُ قيس الشيباني مالِكَ بن المنتفق الضبي وأبتَه عاصِم بن خليفة الضبيّ ، شدّ عليه ، فطعنه وهو يقول

هذا وفي الحفْلةِ لا يدعوني

ويروى : « في الحفْلةِ لايدعوني » كأنه حَقد عليه حينَ يدْعو أهلَ المجلِس ويدَعه[٢] .

والطعام المذموم عندَهم ضربان : أحدُهما طعامُ المجاوِع ،

---

(١) راجع الهامش رقم ٢ ص ٣٩٤ و ص ٣٩٥

(٢) يشير هنا إلى يوم الشقيقة وهو يوم كان لضبة على شيبان قتل فيه بسطام بن قيس سيد شيبان . وراجع خبر يوم الشقيقة وقتل بسطام ابن قيس تاريخ ابن الأثير ج ١ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ طبعة سنة ١٣٠٣ هـ

الأدب ، ويرتفع عليه في الحال – وكان كثير المال ، كثير الصامت – يستسلف منه بعض ما يرتفق به ، إلى أن يأتيه بعض ما يؤمّل . فكتب إليه صديقه هذا يعتذر ، ويقول : إن المالَ مكذوبٌ له وعليه ، والناسُ يضيفون إلى الناس في هذا الباب ماليس عندهم . وانا اليومَ مُضيق ، وليست الحالُ كما تحبّ . وأحقّ من عذر ، الصديقُ العاقلُ . فلما وردَ كتابُه على ابنِ سيّابة ، (كتب اليه [1]) : إن كنتَ كاذباً فجعلك الله صادقاً ، وإن كنت ملوماً فجعلك الله معذوراً .

* * *

ـ عودته وبعدائحه الفضل بن الربيع ، وابراهيم الموصلي ، وابنه اسحاق . وغنى بشعره الموصلي وابنه وكانا يذكرانه للخلفاء والوزراء ويسببان له بذلك النفع . وكان خليعا ماجنا طيب النادرة وفي الوزراء والكتاب ٢٠٣ : شبابه بدلاً من سيابة .

(١) مزيدة

الأطعمة عند العرب وعلمهم فيها

وحديث القرى (١)

قال عمرو الجاحظُ : احتَجنا عند التطويل ، وحين صار الكتاب طويلاً وكبيراً ، إلى أن يكونَ قد دخلَ فيه مِن علم العرب ، وطعامهم ، وما يتمادحُون به ، وما يتهاجون به شيء ، وإن قلّ ، ليكونَ الكتاب قد انتظَم جُملَ هذا الباب . ولولا أن يخرُجَ من مقدار شَهْوة الناس ، لكان الخبرُ عن العرب والأعراب أكثرَ من جَميع هذا الكتاب .

* * *

الطعام ضُروب . والدعوة اسمٌ جامع ، وكذلك الزَّلة ثم منه : العُرس ، والخُرس ، والإعذار ، والوَكيرة ، والنقيعة . والمأدُبة اسمٌ لكلِّ طعام دُعيَتْ إليه الجماعات . قال الشاعر : (٢)

---

(١) هذ العنوان ليس من الاصل .

(٢) هو طرفه كما في العقد الفريد ج ٦ ص ٢٩٣ وكما سيرد بعد صفحات .

نحْنُ في المَشْتَاة ندْعو الجَفَلى

لا تَرَى الآدِبَ فينا ينْتَقِر [1]

وجاء في الحديث : « القرآن مأدُبة الله » [2] ، وقد زعم ناسٌ أن العُرس هو الوَليمة ، لقَول النبيّ ﷺ لعبد الرحمن [3] « أو لِمْ ولو بشاة » . وكان ابنُ عَوْن والأصمعيْ من بعدِه يذمان عمرو بن عُبَيْد [4] ويقولان : لايجيبُ الولائِم . يجعلان طعامَ الاملاك والاعراس ، والسُبوع ، والخِتان وليمةً . والعُرس مَعروفٌ ، إلا أن المُفضّل الضبيّ زعم أن هذا الاسْمَ مأخوذٌ من قولهم : « لاعطر بعدَ عروس » . وكان الأصمعي يجعل العروس رجلاً بعينه ، كان بنى على أهله ، فلم يتعطَّر له ، فسمِّي بعدُ

(١) الآدب : صاحب المأدبه . والجفلى : دعوة العامة . والنقرى : دعوة الخاصة

(٢) من حديث ابن مسعود بلفظ : « عليكم بهذا القرآن ، فانه مأدبة الله ، فمن استطاع منكم أن يأخذ مأدبة الله فليفعل ، فإنما العلم بالتعلم »

(٣) هو خطاب لعبد الرحمن بن عوف ، إذ قال : تزوجت أنصارية ، فقال عليه السلام : بارك الله لك ، أولم ولو بشاة ،

(٤) هو عمرو بن عبيد بن باب احد شيخي المعتزلة مات سنة ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٤ أيام المنصور . ترجم له الخطيب البغدادي ترجمة مطولة في تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٦٦ — ١٨٨ .

لذلك كلُّ بانٍ على أهله بذلك الاسم. ومثلُ هذا لايثبُت إلا بأن يستَفيض في الشعِر، ويظهر في الخبر

وأما الخُرْس: فالطعام الذي يتّخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء. وزعموا أن أصل ذلك مأخوذ من الخُرسة؛ والخُرسة طعام النُفَساء. قالت جارية وَلدت حين لم يكنْ لها من يخدُمها ويمارس لها ما يمارَس للنفساء: تَخَرّسِي، لامخرّسة لك. وفي الخرسة يقول مُساور الورّاق (١):

إذا أسَدِيّةٌ وَلَدَتْ غلاماً فَبَشّرها بلؤمٍ في الغلام
تُخرّسُها نساءُ بني دُبَير بأخبثَ ما يجِدْنَ من الطعام

وقال ابنُ القميئة (٢):

شَرْكُمُ حاضرٌ وخيرُكُمُ دَ رُّ خَرُوسٍ من الأرانب بِكْر

فالخَروس: هي صاحبة الخُرسة.

---

(١) في الحيوان ج ١ ص ٢٦٧ أنه مساور بن هند. وورد الاسم والشعر بعد صفحات من هذا الكتاب لمساور بن هند.

(٢) هو عمرو بن قميئه بن سعدبن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبه. شاعر جاهلي عده ابن سلام من شعراء الطبقة الثامنه. وفي معجم الشعراء للمرزباني: وتزعم بكر بن وائل أنه أول من قال الشعر وقصد القصائد. صحب امرأ القيس في رحلة إلى بلاد الروم. وإياه عناه امرؤ القيس بقوله: بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه.

والحطمات (١) ، والضرائك (٢) ، والسَباريت (٣) ، واللئام، والجبناء والفقراء ، والضعفاء . من ذلك : الفَثّ (٤) ، والدّعاع (٥) ، والهبيد (٦) ، والقُرامة (٧) ، والقرة (٨) ، والعُسُوم (٩) ، ومُنْقع البرَم (١٠) ، والقصيد (١١) ، والقِد (١٢) ، والحيّات . فأما الفَظّ فانه وإن كان شراباً كريهاً ، فليس يدخلُ في هذا الباب ، وكذلك المجدُوح . فأما الفظ فانه عُصارة الفرْث إذا أصابهم العَطش في المفاوِز . وأما المجدُوح ، فانهم إذا بلغ العَطش منهم

---

(١) الحطمة : الأزمة ، يقال . أصابتهم حطمة ، أي أزمة .

(٢) ج ضريك ، وهو الفقير السيء الحال . قال الكميت :

فغيث أنت للضركاء منا ... بسيبك حين تنجد أو تغور

(٣) ج سبروت : وهو القفر لانبات فيه ، والفقير .

(٤) في بعض الأصول : الفث . والفث : نبت يختبز حبه في الجدب .

(٥) حب شجرة برية أسود ، كالشينيز ، يختبز منه

(٦) الحنظل أو حبه

(٧) سيأتي شرحها بعد قليل في الأصل .

(٨) سيأتي شرحها بعد قليل في الأصل .

(٩) العسوم : كسر الخبز اليابس .

(١٠) ج . برمة : القدر من الحجارة .

(١١) اللحم اليابس .

(١٢) القد : جلد السخلة .

المجهود ، نحروا الابل وتلقوا ألبابها بالجِفان كَيلا يضيع من دمائها شيء . فاذا بردَ الدم ضربوه بأيديهم ، وجدَحوه بالعيدان جَدْعاً ، حتى ينقطع ، فيعتزل ماؤه من ثفله ، كما يخلُص الزبد بالمخض [1] ، والجبن بالأنفحة ، فيتصافنون ذلك الماء ، ويتبلّغون به ، حتى يخرجوا من المفازة ، وقال الشاعر [2] .

لَمْ تأكُلِ الفثّ والدُّعاعَ ولم ... تجْنِ هبيداً يجنيه مُهْتَبِدُهْ

وقال أُمية بنُ أبي الصلت :

وَلاَ يتنازعونَ عنانَ شِركٍ ... ولا أقْواتُ أهلِهِم العُسُومُ

ولاَ قرْنٌ يُقزِّز مِنْ طَعامٍ ... ولا نَصِبٌ ولا مَولىً عديمُ

وقال مُعاوية بنُ أبي معاوية [3] الجَرمي في القُرَّة ، وهو يعيِّر بني أسد وناساً من هوازن ، وهما ابنا القلمية [4] ،

ألم ترَ جَرْماً أنجدَت وأبوكم ... مع القمْل في حفر الأقيصر شارع [5]

إذا قرةٌ جاءت يقولُ أُصِبْ بها ... سوى القمْل إني من هوازن ضارعُ

---

(١) المخيض : فان فلوتن .

(٢) هو الطرماح كما في الحيوان ج ٥ ص ٤٤٣ .

(٣) في الاصل : ربيعة . واصلحناها من الحيوان ج ٥ ص ٣٧٨ ط الحلبي

(٤) في الحيوان : القمله .

(٥) في الحيوان ج ٥ ص ٣٧٨ : مع الشعر في قص الملبد شارع .

القُرامة : نُحاتة القرون والأظلاف والمناسم براداتها . والعَلهز القِردان ترضّ وتعجن بالدَم .

والقُرّة : الدقيق المختلِطُ بالشَعر ، كان الرجلُ منهم لا يحلق رأسَه إلا على رأسه قبضةٌ من دقيق ، ليكون صدقة على الضرائك ،وطُهوراً له. فمن أخذ ذلك الدقيقَ الآكل فهو معيب [1]

وفي أكل الحيّات يقول ابن مُناذِر : [2]

---

(١) في الحيوان : وقال ابن الكلبي : عيرت هوازن واسد بأكل القرة . وهما بنو القملة . وذلك أن أهل اليمن كانو إذا حلقوا رؤوسهم بمنى وضع كل رجل منهم على رأسه قبضة من دقيق . فاذا حلقوا رؤوسهم سقط ذلك الشعر مع ذلك الدقيق ، ويجعلون الدقيق صدقة . فكان ناس من الضركاء ... يأخذون ذلك الشعر بدقيقه ، فيرمون بالشعر ، وينتفعون بالدقيق

(٢) هو محمد بن مناذر - بضم الميم - مولى بني جبير بن يربوع . شاعر فصيح ، متقدم بالعلم باللغة . أخذ عنه كثير من اللغويين. وكان أول أمره ناسكاً يتأله . ثم ترك ذلك ، وهجا الناس ، وتهتك ، حتى نفي من البصرة الى الحجاز فمات هناك سنة ١٩٨ هـ . وقد ذكر ابو الفرج أنه ما كان يترك عدم المبالاة في شعره . وكان ابن مناذر ، إذا قيل له مناذر - بفتح الميم - يغضب ثم يقول : أمناذر الصغرى ، أم مناذر الكبرى ؟ وهما كورتان من كور الأهواز ، انما هو مناذر - بضم الميم - على وزن مفاعل من ناذر فهو مناذر . وكان يقول له أبان اللاحقي : انما أنت شاعر في المراثي ، فاذا مت فلا ترثني ! فهجاه ابن مناذر بشعر مقذع فاحش . وترجم له في معجم الادباء ج ١٩ ص ٥٧ - ٦٠ والاغاني ، وطبقات القراء ، والأوراق للصولي .

فإياكم والريفَ لا تقرَبُنَّهُ   فإن لديه الحَتْفَ والموتَ قاضيا
وَهُمْ طَرَدُوكُمْ عن بلاد أبيكم   وأنتم حُلولٌ تَشتُون الأفاعِيا

وقال القطامي [1] في أكلهم القِدّ [2].

تَضَيَّفْتُ [3] في طَلٍّ [4] وريحٍ تَلُفُّني
وفي طِرْمِساءَ غيرِ ذات كواكب
إلى حَيْزَبُونٍ توقِدُ النار بعدما   تَلَفَّعَتِ الظلماءُ من كلِّ جانبِ
فسلّمتُ والتسليمُ ليس يسرُّها   ولكنّه حقٌّ على كلِّ جانبِ [5]
فلمّا تنازَعنا الحديثَ سألتُها   من الحيُّ؟ قالت معشرٌ من محارب

---

(١) القطامي: هو عمير بن شييم بن عمرو، أحد بني بكر بن حبيب بن عمرو ابن غنم بن تغلب عده ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية من الاسلاميين، وكان شاعرا فحلا، رقيق الحواشي، حلو الشعر، والأخطل أبعد منه ذكرا، وأمتن شعرا.

(٢) هذه القصيدة قالها القطامي حين ضاف في ليلة ريح ممطرة الى عجوز من محارب، فلم تقره شيئا فرحل عنها. والقصيدة رائعة الوصف، تجدها في العقد الفريد ج ٦ ص ١٨٨ - ١٨٩ ط اللجنة. وفي الأغاني وزهر الآداب ج ٣ ص ٧١ ط الرحمانية. والقد: مايقد من الجلد غير المدبوغ، وكانوا إذا أزم القحط في الشتاء، اشتووا الجلد فأكلوه.

(٣) في الأغاني «تلفعت». وفي العقد: «تضيفت».

(٤) في العقد: في برد.

(٥) الجانب: الغريب.

مِنَ المَشْتَوِينَ القِدَّ في كُلِّ شَتْوَةٍ
وإنْ كانَ ريفُ (١) الناس ليس بناضب (٢)

وقال الراعي (٣) :

بكي معوزَ من أن يُضافَ (٤) وطارقُ
يَشُدُّ من الجوع الازارَ على الحَشا

---

(١) في العقد : عام الناس .

(٢) في العقد : بناصب . والرواية في الديوان للبيت :

من المشتوين القد مما ترام جياعا وريف الناس ليس بناضب

(٣) الراعي : هو عبيد بن حصين بن جندل النميري ، سمي راعي الأبل . لكثرة صفته للابل وحسن نعته لها ، فقالوا : ماهذا إلا راعي الأبل . فلزمته . وعده ابن سلام من شعراء الطبقة الاولى الاسلاميين . وكان من رجال العرب ووجوه قومه . وكان يقال له في شعره : كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل . أي انه لايحتذي شعر شاعر ولا يعارضه . وكان مع ذلك بذياً هجاء لعشيرته ، وكان الراعي من انصار الفرزدق على جرير ، فهجاه جرير بقصيدته التي يسميها الدماغه والدهقانه :

اقلي اللوم عاذل والعتابا وقولي ان أصبت لقد أصابا

وراجع خزانة الأدب للبغدادي حول هذه المهاجاة الشعرية وكذا ترجمة الراعي في طبقات الشعراء لابن سلام ص ٢٥ و٣٤٤ ومابعد ط ذخائر العرب . والاغاني ج ٢٠

(٤) في طبقات الشعراء : من أن يلام .

إلى ضَوْءِ نارٍ يَشْتَوي القِدَّ أهلُها

وقد يُكْرَمُ الأضيافُ والقِدُّ يشتوى

وقد يُضيقون في شراب غير المجدُوح والفظ في المغازي والأسفار ، فيمدَحون من آثَر صاحبَه ، ولا يذمّون من أخذ حقّه منه . وهو ماء المصافَنة — والمصافنة : مقاسمة هذا الماء بعينه ، وذلك أنّ الماء إذا نقص عن الرّي ، اقتسَموه بالسَواء ولم يكن للرئيس ، ولصاحب المِرباع ، والصَفِيّ ، وفضول المقاسم فضلٌ على أخسّ القوم . وهذا خُلُق عامّ ، ومكرمة عامّة في الرؤساء — قال الفرزدق :

فلمّا تصافنّا الاداوةَ أجهشَت إليّ غُضونُ العنبريّ الجُراضِم

على ساعةٍ لو أن في القوم حاتماً على جوده ضنّت به نفس حاتم[(١)]

وبذلك المذهب من الأثَرة ، مدَح الشاعر كعبَ ابنَ مامة ، حين آثَرَ بنصيبه رفيقَه النّمريّ فقال[(٢)] :

---

(١) راجع الصفحة رقم ٢٩٧ وهامشها رقم (٢) وهامش الصفحة رقم ٢٩٨ من هذا الكتاب .

(٢) هذا الشعر كما في اللآلي ص ٨٤٠ لأبي دؤاد ويقوله في كعب ابن مامه وفي الألفاظ وامثال الضبي والميداني وهامش الأمالي أنه لمامه ابن عمرو الايادي .

ماكانَ منْ سُوقةٍ أسْقي على ظماء … خمراً بماء[1] إذا ناجودها[2] بردا
من ابنِ مامة كعبٍ ثم عيَّ به … زوُّ[3] المنية إلا حِرَّةً وقَدا
أوفى على الماء كعبٌ ثُمَّ قيل له : … رِدْ كعبُ، إنك ورَّادٌ فما وَردا

وفي المصافَنة يقول الأسدي :

كأن أطيطاً يا ابنةَ القوم لم يُنِخْ … قلائصَ يحكيها الحنيُّ المُنقَّحُ
ولم يسقِ قوماً فارسيٌّ[4] على الحصا … صباب الأداوى والمطيات جُنَّحُ

ويزعمون أنَّ الحصاة التي إذا غمرها الماء في الاناء، كانت نصيبَ أحدهم، تُسمَّى المقلة. وهذا الحرفُ سمعتُه من البَغداديين ولم أسمعه من أصحابنا، وقد برئتُ إليك منه. وقال ابنُ جَحْوش في المصافَنة[5] :

ولما تعاوَرنا الاداوة أجهشَتْ … إلى الماء نفسُ العنبريِّ الجُراضمِ
وآثرْتُهُ لمّا رأيتُ الذي به … على النفس أخشى لاحقات الملاومِ

(١) في الامالي ج ٢ ص ٢٢١ : ماء بخمر .

(٢) الناجود : دن الخمر .

(٣) الزو : الهلاك .

(٤) كذا بالأصل .

(٥) هذه الأبيات للفرزدق وقد أغرب الجاحظ في نسبتها لابن جحوش سيما وانه نسبها في الصفحة السابقة للفرزدق وراجع اللآلي ص ٨٤٠ – ٨٤١ والكامل ج ١ ص ١٢ وديوان الفرزدق ص ٨٤١ و ٨٤٢ .

فجاء بجلمودٍ له مثلُ رأسِهِ ليشربَ حظَّ القومِ بين الصَّرائمِ

وقد يصيبُ القومَ في باديتهم ومواضعهم من الجَهدِ ما لم يُسمع به في أمة من الأمم، ولا في ناحية من النواحي. وإنَّ أحدهم ليجوعُ حتى يشدَّ على بطنهِ الحجارة، وحتى يعتصِمَ بشدَّةِ معاقد الازار، وينزعَ عمامته من رأسه، فيشدَّ بها بطنه. وإنما عمامتُه تاجُه، والأعرابيُّ يجد في رأسه من البرد -إذا كان حاسراً- مالا يجدُه أحد، لطول ملازمته العمامة، ولكثرة طيِّها، وتضاعُف أثنائها، ولربما اعتمَّ بعمامتين، ولرَّبما كانت على قلنسوة خدرية. وقال مُصعَب بن عُمير الليثي:

سيروا فقد جنَّ الظلامُ عليكُمُ

فبئسَ امرؤٌ يرجو القِرَى عند عاصم

دَفعنا إليه وهو كالذيخ حاظياً نشد على أكبادنا بالعمائم

وقال الراعي في ذلك:

يشبُّ لركبٍ منهم من ورائهم فكلُّهم أمسى إلى ضوئها سَرى
إلى ضوءِ نارٍ يشتوي القِدَّ أهلُها وقد يكرم الأضياف والقِدُّ يشتوي
فلمّا أتانا خو[1] واشتكينا إليهمُ بكوا وكلا الخصمين[2] مما به بكى

(١) في طبقات الشعراء: فلما أتونا.
(٢) في طبقات الشعراء: وكلا الحيين.

بكى معوزٌ من أن يضاف وطارق　　يشد من الجوع الازار على الحشا[1]

ومما يدلُّ على ما هم فيه من الجهْد ، وعلى امتداحهم بالأَثْرة قول الغَنَويّ[2]

لقد علمتْ قيسُ بنُ عَيلان أننا　　نُضار، وأنا حيثُ رُكِّبَ عودُها

إذا الماء بعدَ اليوم يمذق بعضُه　　ببعض، ويبلى شُحُّ وُجودُها

وأنا مَقارٍ حين يبتكر الغضا

إذا الأرض أمسَت وهي جدْبٌ جنودها

---

(٣) راجع الصفحة ٤٠٥ وهامشها .

(٤) لم اعثر على ترجمة لهذا الرجل يطمئن إليها . ويوجد شاعر جاهلي هو طفيل بن عوف المحبر الغنوي . ويقال له طفيل الخيل . وسمي المحبر لحسن شعره . ترجم له في المؤتلف والمختلف ص ١٤٧ و ١٨٤ والشعر والشعراء ص ٤٢٢ - ٤٢٤ . والاغاني . كما انه يوجد شاعر اسلامي باسم الغنوي وهو : كعب بن سعد الغنوي صاحب المرثية المشهورة في رثاء اخيه ،

تخبرني اني انما الموت بالقرى　　فكيف ، وهذا روضة وكثيب

وعده ابن سلام من أصحاب المراثي. وكذا يوجد آخر هو نافع بن خليفة الغنوي على أن الجاحظ يذكر في البيان والتبيين ج ٣ ص ١٧٦ دعاء الغنوي في حبسه وفي الصحيفة ٢٧٥ قصة يرويها الغنوي عند احتضار رجل ولعل المقصود بالغنوي هذا الرجل .

وقال في ذلك العجير السلولي [١] :

من المهديات الماءَ بالماء بعدما رمى بالمقادي كلُّ قادٍ ومعتمِ [٢]

وقال آخرُ في مثل هذا :

لنا إبلٌ يَروينَ يوماً عيالَنا ثلاثٌ فإن يكثُرْنَ يوماً فأربعُ

تَعدُّهمُ بالماء لا من هوانِهم ولكنْ إذا ما قلَّ شيءٌ يوسَّعُ

على أنها تُعشي أولئك بيتَها على اللحم حتى يذهب الشرُّ أجمعُ [٣]

وقال أبو سعيد الخُدري [٤] : أخذتُ حجراً فعصبتُه على بطني من الجوع ، وأتيتُ النبيَّ ﷺ أسألُه ، فلما سمعتُه وهو يخطب : « من يستَعفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ ، ومن يَستَغنِ يُغنِه اللهُ » رجعتُ ولم أسأله .

قال أعرابيٌّ : جعتُ حتى سمعتُ في مسامعي دويّاً ،

---

(١) هو ابو الفرزدق العجير بن عبد الله السلولي مولى بني هلال . استشهد بشعره باللسان كثيرا . وعده ابن سلام من شعراء الطبقة الخامسة الاسلاميين ، واسمه عمير . شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية . وكان فاجرا خبيثا .

(٢) القادي : القادم من السفر . والمعتمي : القاصد ، وحقه أن يكتب بياء بعد ميم .

(٣) هذا البيت ساقط في الحيوان ج ٥ ص ٥٩٧ ط الحلبي

(٤) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري ، من الخزرج ، صحابي ، عاش الى سنة ٧٤ هـ

فخرجتُ أريغ الصيد ، فاذا بمغارة ، وإذا هو جَرْوُ ذِئبٍ ، فذبحتُه ، وأكلتُه وادَّهنتُ واحتذَيت .

ولما قَدِمَ المغيرةُ القادسيَّةَ على سَعد [1] بسبعينَ من الظَّهر — وعندَ سعد ضيقٌ شديد من الحال — نحروها وأكلوا لحومَها وادَّهنوا بشُحومها ، واحتذَوا جلودَها .

وذكر الأصمعيْ عن عثمانَ الشحَّام [2] ، عن أبي رَجاء العطارديّ ، قال : لما بلغنا انَّ النبيَّ ﷺ قد أخذَ في القتل ، هربنا فاشتوينا فَخِذ أرنبٍ دفيناً ، وألقينا عليها جُمالتنا ، فلا أنسى تلك الأكلة . وكان الأصمعيْ إذا حدَّث بهذا الحديث قال : نعمَ الادامُ الجُوع ، ونِعمَ شِعارُ المسلمين التخفيف .

وذكروا عن عَبد الملِك بن عُمير [3] ، عن رَجُلٍ من بني عُذرة ، قال : خرجتُ زائراً لأخوالٍ لي بهَجَر ، فاذا هم

---

(١) سعد بن أبي وقاص .

(٢) ابو سلمة عثمان الشحام العدوي بصري ، روايه محدث

(٣) هو عبد الملك بن عمير ويكني ابو عمرو وهو يماني اصله من لخم ومع ذلك كان يلقب بالقفطي . وتولى قضاء الكوفه بعد الشعبي ثم استعفى فأعفاه الحجاج . وقد عرضه منصب القضاء الى مايكره حتى هجاه بعض الشعراء بقصيدة طويلة اوردها الجاحظ في البيان . وكان عبد الملك دميما جداً حتى لقب بعنفر الغيلان وولد سنة ٣٣ وتوفي سنة ١٣٦ ﻫ .

في برَث أحمر ، بأقصى هجر ، في طلوع القمر . فذكروا أن أتاناً تعتادُ نخلة ، فترفع يديها ، وتعطو بفيها ، وتأخُذ الحُلْقان، والمُنسبَتة ، والمنصِّفة ، والمعْوة . فتنكَّبتُ قوسي ، وتقلدت جَفيري . فاذا هي قد أقبلت ، فرميتها ، فخرَّت لفيها ، فأدركتُ فقوَّرت سرَّتها ومعرفتها ، فقدحتُ ناري ، وجمعتُ حطَبي ثم دفنتُها ، ثم أدركني مايدركُ الشبابَ من النوم ، فما استيقظتُ إلا بحرِّ الشمس في ظهري . ثم كشفتُ عنها ، فاذا لها غطيط من الوَدَك ، كتداعي طيْ وغطيفٍ وغطفان . ثم قمتُ إلى الرُطب — وقد ضربَه بردُ السحَر — فجنيتُ المعْوة والحُلقان، فجعلتُ أضع الشحمة بين الرُطبَتين ، والرطبةَ بين الشحْمتين ، فأظنّ الشحمة سَمْنة ثم سلاءَة . وأحسبَها من حلاوتها شُهدة أحدرها من الطَود .

وأنا أتّهم هذا الحديثَ ، لأن فيه مالايجوز أن يتكلّم به عربي يعرف مذاهب العرب . وهو من أحاديث الهيثم [1] .

---

(١) هو هيثم بن عدي الراوية المشهور ، روى عنه الاصبهاني في الاغاني ولدسنة ١٣٠ . وكان اخبارياً علامة راوية ، نقل من اخبار العرب وأشعارها ولغاتها شيئاً كثيراً . وتوفي سنة ٢٠٧ هـ . ترجم له ياقوت في معجم الادباء ج ١٩ ص ٣٠٤ - ٣١٠ .

وقال مَدَني لأعرابي : أيَّ شيءٍ تَدعون ، وأيَّ شيءٍ تأكلون ؟ قال : نأكلُ مادبَّ ودَرَجَ إلا أمَّ حُبَين ! فقال المدني : لِتَهْنَ أمَّ حُبَينِ العافيةُ .

وقال الأصمعيُّ : تعرَّق أعرابيٌّ عظماً ، فلما أراد أن يلقيه – وله بنونَ ثلاثة – قال له أحدُهم : أعطنيه ! قال : وما تصنعُ به ؟ قال : أتعرَّقه حتى لا تجدَ فيه ذرَّة مَقيلا ! قال : ما قلتَ شيئاً . قال الثاني أعطنيه ! قال : وما تصنعُ به ؟ قال أتعرَّقه حتى لاتدري ألِعامه ذلك هو أم للعام الذي قبله ! قال : ما قلتَ شيئاً . قال الثالث : أعطنيه ! قال وما تصنع به ؟ قال : أجعله مُخَّةً إدام . قال : أنت له [1] .

وقال الآخر :

فانّك لم تشبهِ لقيطاً وفعله
وإن كنت أطْعَمْتَ الأرزَّ مع التمر

وقال الآخر [2] :

---

(١) راجع عيون الاخبار ج ٣ ص ٢١٣ .

(٢) هو محمد بن يسير اليسيري

إذا أنقاص (١) منها بعضها لم تجدْها رؤباً لما قد كان منها مُدانيا
وإن حاولوا أن يشبعوها رأيتها (٢) على الشّعب لا تزدادُ إلا تداعيا
مُعوّذة الارجال (٣) لم توف مرقباً ولم تمتط الجون الثلاث الأثافيا
ولا اجترعت (٤) من نحو مكة شقةً إلينا ولا جازت بها العيسُ واديا
ولكنّها في أصلها موصليّةٌ مجاوزةٌ فيها من البحر جاريا
أتتنا تُزجّيها المجاذيفُ نحونا وتُعقبُ فيما بين ذاك المراديا (٥)
فقلت لمن هذي القدور التي أرى تهيل عليها الريح تُرْباً وسافيا؟
فقالوا: وهل يخفى على كل ناظر، قدور رقاش إن تأمّل رائيا؟
فقلت: متى باللحم عهدُ قدوركم؟ فقالوا إذا ما لم يكُنّ عواريا!
ألاضحى إلى الأضحى، وإلا فانها تكونُ كنسج العنكبوت كما هيا
فلما استبان الجهْدُ لي في وجوههم وشكواهُمُ، أدخلتهُمْ في عياليا
فكنت إذا ما استشرفوني مقبلاً أشاروا جميعاً لجةً وتداعيا

---

(١) أنقاص: انشق.
(٢) في عيون الاخبار: فانها.
(٣) في الاصل معودة الارجال: بالدال المهمله. وما أثبتناه عن عيون الاخبار. ومعوذة: ممنوعه. والارجال: مصدر أرجله إذا جعله يمشي
(٤) كذا بالاصل: ولعلها: اجتزعت بالزاي المعجمه. واجتزعت قطعت.
(٥) كذا في الاصل وفي عيون الاخبار المزاديا. والمزادي: جمع مزاده وهي الحفيرة يرمي فيها الصبيان النوى.

وممَّا قالوا في صِفة قدورهم وجفانهم وطعامهم مما أنا كاتبه لك . وهم وإن كانوا في بلاد جَدْب ، فإنهم أحسنُ الناس حالاً في الخِصْب ، فلا تظنَّن أنَّ كلَّ مايصفون به قدورَهم وجفانهم وثريدهم وحَيْسهم باطلٌ .

وحدَّثني الأصمعي ، قال : سألتُ المنتجِع بن نبهان عن خصب البادية فقال : ربما رأيت الكلب يتخطى الخلاصة — وهي له معرِضة — شبعاً .

وقال الأفوه الأودي [١] :

تهنا لثعلبة بن قيس جَفنةٌ ... يأوي إليها في الشتاء الجُوَّعُ
ومذانِبٌ لاتُستعارُ وخَيْمةٌ ... سوداء عيب نسيجها لا يرْقَع
وكأنما فيها المذانبُ حَلْقةً ... وذَم الدلاء على دُلوجٍ تنزَعُ

وقال معن بن أوس [٢] ، وهو يذكر قدر سعيد ابن

---

(١) هو صلات بن عمرو بن مالك . والأفوه لقبه . وهو من كبار الشعراء القدماء في الجاهليه . وكان سيد قومه وقائدهم في حروبهم . وكانوا يصدرون عن رأيه ، والعرب تعده من حكمائها وتعد كلمته :

معاشر ما بنوا مجداً لقومهم ... وان بنى غيرهم ماأفسدوا عادوا

من حكمة العرب وأدبها .

(٢) معن بن أوس شاعر مخضرم وهو مزني . اقام بالبصرة ولكنه لم —

العاص ، في بعض ما يمدحه :

أخو شَتَوات لا تزال قُدوره　　تُحَلُّ على أرجائها ثم يُرحَلُ
إذا ما امتطاها المو قدون رأيتَها　　لوشك قراها وهي بالجزل تشعلُ
سمعت لها لغطاً إذا ما تغطمطت　　كهدر الجمال رُزَّماً حين تجفل
ترى البازل الكوماء فيها بأسرها　　مقببضة في قعرها ما تحلحل
كأن الكهول الشُّط في حجراتها　　تغطرش في تيارها حين يحفل
إذا التطمت أمواجُها فكأنها　　غوائبُ دُهمٌ في المحلة قُبَّلُ
إذا احتدمت أمواجُها فكأنما　　يُزعزعها من شدة الغلي أفكل
تظلُّ رواسيها ركوداً مقيمةً　　لمن نابه فيها معاشٌ ومأكلُ

وضاف الفرزدقُ أبا السَّمحاء سُحيم ابن عامر ، حد بني عمرو ابن مرثد ، فأحمده ، وذكر إحماده قدره ، فقال :

سألنا عن أبي السَّمحاءِ حتى　　أتينا خيرَ مطروق لساري
فقلنا : يا أبا السَّمحاء ! إنّا　　وجدنا الأزد أبعدَ من نزار
فقام يجرُّ من عجلٍ إلينا　　أسابيَّ النُّعاس مع الازار
وقام إلى سُلافة مسلحبٍ　　رثيم الانف مربوبٍ بقار

- يلبث حتى رجع الى قومه الذين كانوا يقطنون بين مكة والمدينة . والقطعة من قصيدة له يمدح بها سعيد بن العاص ومطلعها :

إليك سعيد الخير جابت مطيتي　　فروج الفيافي وهي عوجاء عيهل

تدور عليهم والقِدْرُ تغلي ... بأبيضَ من سَديف الكوم وارى

كأنّ نَطائِعَ الترغيب[1] منهم ... عذارى يطّلِعْنَ إلى عذارى

وقال الكميت[2] في صِفة القِدر :

إوَزٌّ تُغَمِّسُ في لُجَّةٍ ... تغيبُ مِراراً وتَطْفُو مِرارا

كأن الغُطَامِطَ من غَليِها ... أراجيزُ أسلَمَ تهجو غِفارا[3]

وأما ماذكروا من صِفات القدور ، ومن تعيير بعضهم بعضاً ، فهو كما أنشدني محمد بن يسير قال : لما قال الأول :

إنّ لنا قِدراً ذِراعين عرضُها ... وللطُول منها أذْرُعٌ وشِبار

قال الآخر : وما هذه ؟ أخزى الله هذه قدراً . ولكني أقول :

بوأتُ قدري (موضعاً[4]) فوضعتها ... برابيةٍ من بين ميْثٍ وأجْرَعِ

جعلت لها هضْبَ الرجام وطخفةً ... وغولاً أثافي دونها لم تُنزَّعِ

(١) كذا في الاصل وصحتها الترعيب وهو السنام المقطع شطائب مستطيلة .

(٢) هو الكميت بن زيد شاعر اسلامي أموي ، اكثر شعره بمدح آل البيت والتشيع لهم . وفي الأغاني : انه من شعراء مضر وألسنتها ، والمتعصبين على القحطانية ،المقارنين المقارعين لشعرائهم ، العلماء بالمثالب والأيام ، المفاخرين بها ،وكان معروف بالتشيع لبني هاشم .

(٣) الغطامط بضم الشين صوت الغليان . واسلم وغفار : قبيلتان كانت بينهما مهاجاة .

(٤) ساقطة في الأصل .

بقدرٍ كأنَّ الليل سُحمةُ قعرها   ترى الفيلَ فيها طافياً لم يقطَّع

يُعجّل للأضياف واري سَديفها   ومن يأتها من سائر الناس يشبع

قال أبو عُبيدة : ولما قال الفرزدق [1] :

وقِدر كحيزوم النعامة أحمشت   بأجذال خشبٍ زال عنها هشيمها [2]

قال مَيْسرة أبو الدرداء : وما حيزوم النعامة ؟ والله ما

تُشبعُ هذه الفرَزْدق ! ولكني أقول :

وقِدر كجوف الليل أحمشت غليها   ترى الفيلَ فيها طافياً لم يُفصَّل

وقال عبدُ الله بن الزبير [3] يمدح أسماء بن خارجة [4] .

---

(١) البيت في محاضرات الراغب منسوب الى مضرس ، وغير موجود في ديوان الفرزدق .

(٢) هذا البيت من قصيدة مطلعها :

وداعٍ بلحن الكلب يدعو ودونه   من الليل سجفا ظلمة وغيومها

ورواية البيت كما في الحماسة ج ٤ ص ٢٣٣ ط مصطفى محمد .

غضوبا كحيزوم النعامة أحمشت   بأجواز خشب زال عنها هشيمها

(٣) هو عبد الله بن الزبير الأسدي ويكنى ابو كثير ، شاعر كوفي المنشأ والمنزل ، من شعراء الدولة الأموية ، وكان من شيعة بني أمية . وذوي الهوى فيهم ، والتعصب والنصرة على عدوهم ، وكان شاعراً هجاءً ، هجا عبد الله ابن الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن أم الحكم ، واكثر شعره في اسماء ابن خارجة الفزاري ،

(٤) هو اسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة الفزاري، من أجواد الكوفة

أَلم تَرَ أنَّ المجدَ أرسلَ يبتغي حليفَ صفاءٍ قابلاً لا يزايله
تخيَّرَ أسماءَ بن حصنٍ فبطّنت بفعل العُلى أيمانُه وشمائله [1]

ومما يجوز في هذا الباب، وإن لم يكن فيه صفة قدر، قول الفرزدق في العُذافر بن زيد، أحدِ بني تيمْ اللات بن ثعلبة:

لعمرُكَ ما الأرزاقُ يومَ اكتيالها بأكثرَ خيراً من خوانِ العذافر
ولو ضافه الدَّجالُ يلتمسُ القِرى وحلَّ على خبّازه بالعساكر
بعدَّة يأجوجٍ ومأجوجَ جُوَّعاً لأشبعهم شهراً غداءُ العُذافر

وقال ابن عبدل [2] في بشر بن مروان بن الحكم [3]:

لو شاء بشرٌ كان من دون بابه طماطمُ سُودٌ أو صقالبةٌ حُمرُ
ولكنَّ بشراً أسهلَ البابَ للتي يكونُ لبشرٍ عندها الحمدُ والأجر
بعيدُ مراهِ العين ما ردّ طرفَه حِذارَ الغواشي بابُ دارٍ ولا ستر

---

(١) للشعر تكملة وهي:

ترى البازل البختي فوق خوانه مقطعة أعضاؤه ومفاصله

(٢) هو الحكم بن عبدل بن جبلة الأسدي الغاضري. شاعر من شعراء العصر الأموي. واعرج أحدب خبيث اللسان مقذع هجاء، وكان شديد الاتصال ببشر بن مروان بن الحكم. ترجم له في الاغاني ج ٢ ص ٤٠٤

(٣) هو بشر بن مروان بن الحكم، ولي العراقين بعد عزل خالد ابن عبد الله القسري إلى أن مات. وكان لين الولاية سهل الحجاب طلق الوجه كريماً، وكان صاحب شراب ينادم عليه.

وقالوا في مُناقضات أشعارهم في القُدور، قال الرَّقاشي:

لنا من عطاء الله دَهماء جَونة[1] ... تُناولُ بعد الأقربين الأقاصيا

جعلنا الألا والرِّجام وطخفة[2] ... لها فاستقلَّت فوقهن الأثافيا

مؤدِّيةً عنا حُقوق محمدٍ ... إذا ما أتانا بائسَ الحال[3] طاويا

أتى ابن يسير كي ينفّس كربها[4] ... إذا لم يرُحوا في مع الصُّبح غاديا

فأجابه ابن يسير، فقال:

وترماء تَلماء النواحي ولا يَرى ... بها أحدٌ عيباً سوى ذاك باديا

يُنادي ببعض بعضُهم عند طلعتي: ... ألا أبشروا هذا اليسري جائعاً[5]

وقال ابنُ يسير في ذلك:

قدْرُ الرَّقاشيِّ لم تُنقَر بمنقار ... مثلَ القدور، لم تفتضّ من غار

لكنَّ قدرَ أبي حفص - إذا نسبت ... يوماً - ربيبةَ آجام وأنهار

فاعترض بينهما أبو نواس الحسَن بنُ هانئ الحكَميّ،

---

(١) دهماء جونة: القدر السوداء.

(٢) ألال: اسم جبل بعرفات. والرجام: جبل طويل احمر نزل به جيش أبي بكر عنه يريدون عمان أيام الردة. وطخفة - بكسر الطاء وتفتح -: جبل

(٣) في عيون الأخبار: يابس الجنب.

(٤) في عيون الأخبار: كربه.

(٥) وردت القصيدة كاملة بعيون الأخبار ج ٣ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ على أن البيت الأول مطلع القصيدة. والثاني: نهاية القصيدة.

يذكر قِدْر الرقاشي أيضاً بالهجاء فقال :

ودهماء تُشفيها رقاشُ إذا شتت ... مُركَّبة الآذان أمَّ عيالِ

يغصُّ بحيزوم البعوضة صدرُها ... وتنزُلها عفواً بغير جِعالِ (١)

ولو جئتها ملأى عبيطاً مجزلا (٢) ... لأخرجتَ ما فيها بعودِ خلال

هي القدر قدر الشيخ بكر بن وائل ... ربيعُ اليتامى عام كلِّ هُزالِ

وقال فيها أيضاً :

رأيت قدور الناس سوداً على الصلى (٣) ... وقدر الرقاشيين زهراءَ كالبدر

ولو جئتها ملأى عَبيطاً مجزّلاً ... لأخرجت ما فيها على طرف الظفر

يُنَبِّذُها للمُعتفي بفنائهم ... ثلاثُ كحظِّ الثاء من نقط الحبر

تبيَّنُ في محراثها أن عوده ... سليمٌ صحيح لم يُصبه أذى الجمر

---

(١) ورد هذا الشعر في ديوان أبي نواس ط سنة ١٧٧ كما يلي :

يغص بحيزوم الجرادة صدرها ... وينضج ما فيها اتقاد ذبال

وتغلي بذكر النار من غير حرها ... وينزلها الطاهي بغير جعال

والجعال بالكسر : خرقة تنزل بها القدر .

(٢) العبيط : اللحم الطري . ومجزل : مقطع

(٣) في عيون الأخبار والعقد الفريد : من الصلى .

(٤) روايت البيت في العقد الفريد ج ٦ ص ١٩٠ ط اللجنة :

يضيق بحيزوم البعوضة صدرها ... ويخرج ما فيها على طرف الظفر

(٥) هذا البيت ساقط في عيون الأخبار .

تَروح على حيِّ الرباب ودارمٍ وسعدٍ وتعروها قراضبة القزر (١)

وللحيِّ عمرو نفحةٌ من سجالها وتغلب والبيض اللهاميم من بكر (٢)

إذا ما تنادوا (٣) بالرحيل سعى بها أمامهمُ الحولي من ولد الذر

وقال بعض التميميّين وهو يهجو ابن حبار (٤) :

لو أن قدراً بكت من طول ما حُبِسَت

من الحُفوف بكتْ قدر ابن حبّار

ما مسها دسمٌ مذ فُضَّ معدنها ولا رأت بعد نار القين من نار

والشُعوبية والآزاذ مردّية المبغضون لآل النبي ﷺ وأصحابه ، ممن فتح الفتوح ، وقتل المجوس ، وجاء بالاسلام ، تزيدُ في جُشوبة عيشهم ، وخشونة ملبسهم ، وتنقص من نعيمهم ورفاغة عيْشهم . وهم من أحسنِ الأمم حالاً مع الغَيْث ، وأسوئهم حالاً إذا خفّت السحاب ، حتى ربما طبّق الغيثُ الأرض بالكلاء والماء ، فعندَ ذلك يقولُ المصرم والمقتر :

---

(١) الرباب ودارم وسعد والقزر : أسماء قبائل . والقراضبة : اللصوص والفقراء . واحدة قرضاب أو قرضوب

(٢) الأبيات من الثالث الى السادس ساقطة في العقد الفريد .

(٣) في عيون الأخبار : إذا ما ينادى .

(٤) في عيون الأخبار : ذكر الفرزدق عقبة بن جبار المنقري وقدره فقال .

« مرعى ولا أكولة ، وعشبٌ ولا بعير ، وكلأٌ تيجع له كبد المصرم [1] » ولذلك قال شاعرهم :

وجنّبت [2] الجيوش ابا زنيب   وجادَ على مسارحك السحاب [3]

وإذا نظرت في أشعارهم ، علمت أنهم قد أكلوا الطيّبَ وعرفوه ، لأنّ الناعم من الطعام لايكونُ إلاّ عندَ أهل الثراء وأصحاب العيش . فقال زياد بنُ فيّاض ، يذكر الدرمك ، وهو الحوّارى :

ولاقت فتى قيس بن عيلان ماجداً   إذا الحرب هرّتها الكماة الفوارس

فقام إلى البَرك الهجان بسيفه   وطارت حذار السيف دهمٌ قناعس

فصادف حد السيف قبّاء جلمداً   فكاست وفيها ذو غرارين نائس

فأطعمها شحماً ولحماً ودرمكاً   ولم تثننا عنه الليالى الحنادس

وقال :

---

(١) راجع اللسان مادة صرم والبيان ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) في اللسان . فجنبت .

(٣) البيت في اللسان (زنب) ومعاني الشعر للأشناندانى ص١٠٨ والعمده ٢ – ١٥٢ . وفي اللسان أن زينب تصغير زنب بعد الترخيم وروايه **البيت** في العمده : تجنبك الجيوش أبا حبيب .

تظلُّ في درْمكٍ وفاكِهةٍ   وفي شِواءٍ ـ ماشئت ـ أو مرقه

وقال جَرير :

تـكلّفُني معيشَةَ آلِ زَيْدٍ   ومن لي بالمرقّق والصِناب (١)

وقال النَمِر بن تَوْلب :

لها ما تشتَهي : عسلٌ مصفى   وإن شاءتْ فَحُوّارى بسَمن

ومن أشرف ما عرَفوه من الطعام ، ولم يُطعِم الناسَ أحدٌ منهم ذلك الطعامَ ، إلا عبدُ الله بنُ جُدعان ، وهو الفالوذَق ، مدَحه بذلك أميةُ بنُ أبي الصلت (٢) فقال :

الى رُدُحٍ من الشيزى عليها(٣)   لبابُ البرّ يلبَك بالشهاد (٤)

ولهم الثريد ، وهو في أشرافهم عامٌ ، وغلبَ عليه هاشم ، حينَ هشَم الخبزَ لقومِه ، وقد مُدِح به في شعر مَشْهور وهو قوله :

---

(١) في طبقات الشعراء ص ٣٣٢ . قال ابن سلام : واشترى جرير جارية من رجل من أهل اليمامة يقال له زيداً يعرف بابن النجار ، ففركته وكرهت خشونة عيشه فقال :

تـكلفني معيشة آل زيد   ومن لي بالمرقق والصناب

وقالت : لاتضم كضم زيد   وما ضمي وليس معي شبابي !

(٢) راجع الصفحة (٣٧٥) وهامشها .

(٣) في شعراء النصرانية ص ٢٢٢ : ملاء .

(٤) راجع القصيدة في شعراء النصرانية ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

عمرُو العلا هَشم الثريدَ لقومه ... ورجال مكّة مُسنِتون عِجافُ

ومن الطعام الممدوح « الحَيْس » ، وتزعم مخزوم أنّ أولَ من حاسَ الحيس سُويد بن هَرَمي . وقال الشاعر :[1]

وإذا تكون شديدة[2] أُدعى لها ... وإذا يُحاسُ الحيسُ يدعى جندب

والخبزُ عندهم ممدوح . وكان عبد الله بنُ حبيب العنبري ، أحدُ بني سَمُرة ، يقال له : آكلُ الخبز ، لأنه كان لا يأكل التمر ، ولا يرغب في اللبن ، وكان سيّد بني العنبر في زمانه ، وهم إذا فخروا قالوا : منّا آكل الخبز ، ومنّا مجير الطير ! يعني ثوبَ بن شَحمة العنبري . وهم يقدّمون اللحم على اللبن ، ولذلك قال شاعرهم :

ولو أنها لم تدفع الرسْل دمّها ... رأى بعضها من بعض أنسابها دما

ويقدّمون اللحم على التمر ، ألا تراه يقول :

قرتني عُبيدٌ تمرها وقريتها ... سنامَ مُصرّاةٍ قليلٍ ركوبُها

فهل يستوي شحمُ السنام إذا شتا ... وتمرٌ جُواثا حين يُلقى عسيبُها

وليس يكون فوقَ عقر الابل ، وإطعامِ السنام شيء .

---

(١) هو لهني بن أحمر الكناني . وقيل هو لزرافة الباهلي كما في اللسان مادة « حيس » وراجع الابيات في عيون الاخبار ج ٣ ص ١٨ و ١٩ .

(٢) في عيون الاخبار : كريهه .

والعَقْر هو النَجْدة ، واللبن هو الرِسْلُ ، قال الهذلي (١) :

لو أنّ عندي من قريمٍ (٢) رجلاً (بيض الوجوه يحملون البلا) (٣)
لمنعوني نجدَةً أو رِسْلا

وقال الهُذَلي :

ألا إنّ خيرَ الناس رِسْلاً ونجدة

وقال المرّار بن سعيد الفقْعَسي (٤) :

لهم إبلٌ لامن ديات ولم تكن ... مُهوراً ولامن مكسب غير طائل
ولكنّ حماها من شماطيطِ غارةٍ ... حِلال العوالي فارس [illegible] مائل
مُخيَّسةٌ في كلِّ رسلٍ ونجدةٍ ... ومعروفةٌ ألوانُها في المعاقِلِ

وقد وصفوا الثريد ، فقال الراعي :

---

(١) هو صخر الغي كما في الامالي ،واسمه صخر بن عبد الله الخيثمي الهذلي ، ولقب الغي لخلاعته وشدة بأسه وكثرة شره . والبيت من قطعة كان يرتجز بها في احدى مخاطراته ضد بني المصطلق من خزاعه إذا ماأحاطوا به فظل يرميهم ويقاتلهم حتى قتلوه .

(٢) في الأمالي واللآلي : لو أنّ حولي من تيم رجلاً . وفي اللسان : قريم

(٣) مزيدة من اللآلي ص ٤٩٥

(٤) هو المرار بن سعيد بن حبيب بن خالد بن نضله بن الاشتر ابن حجوال بن فقعس بن طريف شاعر اسلامى كثير الشعر كما يقول المرزباني

فباتتْ تعدُّ النجمَ من مستحيرةٍ سريعٍ على أيدي الرجالِ جمودها (١)

(وقال حسان بن ثابت (٢)):

ثريدٌ كأنَّ السمْنَ في حجراتهِ نجومُ الثريّا أو عيونُ الضيّاونِ (٣)

وقال ابنُ هرمة :

إلى أنْ أتاهم بشيزيّةٍ تُعدُّ كواكبها الشُّبُك

وقال كاملُ بنُ عكرمة (٤) :

فقرَّب بينهم خبزاً وكدماً كساها الشحمُ ينهصر انهصارا

يَدِفُّ بها غلاماه جميعاً تردُّهما إلى الأرض انهصارا

فأصبح سورُهم فيها ـ وعلمي لو أنّ العلم صدّقها ـ أسارا

فهذا في صفة الثريد .

وقال بشرُ بن أبي خازم (٥) :

---

(١) في الحماسة لابي تمام ج٤ ص٨٠ ط التجارية: سريع بأيدي الآكلين جمودها.

(٢) مزيدة ساقطة في الأصل . وقال آخر : فان فلوتن . وما اثبتناه عن الحيوان .

(٣) الضياون : جمع ضيون وهو السنور الذكر ، وقيل هي دابة تشبهه.

(٤) ذكره المرزباني في معجم الشعراء ص ٣٥٥ وأورد له بيتين من الشعر ولم يعرفه .

(٥) هو بشر بن أبي خازم الأسدي ، شاعر جاهلي قديم . ترجم له ابن قتيبة . وكان معروفا عند نقاد الشعر بأقوائه . وله قصيدة اوردها المفضل الضبي في المفضليات .

تَرى ودكَ السَّديفِ على لحاهُمْ كلَوْنِ الرَّارِ لبَّدَهُ الصقيعُ

وقال الآخر :

جَلا الأذْفَرُ الأحْوَى من المِسْكِ فَرْقَهُ

وَطِيبُ الدِّهانِ رَأْسَهُ، فهو أنْزَعُ

إذا النَّفَرُ السُّودُ اليمانُونَ حاوَلوا

له حَوْكَ بُرْدَيْهِ أرَقُّوا وأوْسَعُوا (١)

وقال الزبيرُ بنُ عبدِ المطّلب (٢) :

فانا قَد خُلِقْنا إذ خُلِقنا لنا الحِبَرات والمِسكُ الفتيت

ولولا الحُمسُ لمْ يلبسْ رجالٌ ثيابًا غُرّةً حتى يموتوا

ثيابهمُ شمالٌ أو عباءٌ بها دَنَسٌ كما دَنِسَ الحَميتُ

فميز كما ترى بين لباس الأشراف، وأهل الثروة، وغيرهم

وقال الأعشى :

---

(١) يقول الجاحظ في البيان ص ٣٠٣ ط ١٩٣٢ : ان هذا الشعر قيل بالاسهم بن الأحنف الأسدي وهذا الشعر من اشعار الحفظ والمذكرة .

(٢) هو الزبير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف سيد كريم وشاعر محسن . وله اشعار حسان في كتاب بني هاشم كما يقول الآمدي ويقول ابن قتيبه في الشعر والشعراء ص ٣٤٩ ط الحلبي : ان الزبير ابن عبد المطلب كان ينزل عليه الخلفاء .

للشَّرفُ العَوْدُ فأكنافُهُ ما بين حُمْرانَ فَيَنْصوب
خيرٌ لها إن خَشيتْ حجرَةً من ربِّها زيدِ بنِ أيوبِ
مُتَّكِئاً تُقْرَعُ أبوابُهُ يسعى عليه العبْدُ بالكُوبِ

وقال أبو الصّلت بن أبي ربيعة (1) :

إشرب (2) هنيئاً عليك التاج مرتفقاً في رأس غُمدان (3) داراً منك محلالا

وليسَ هذا من باب الافراط . وباب الافراط كقول جِران العَوْد (4) ، حين وصفَ نفسه وعشيقته ، فقال :

---

(1) هو والد الشاعر أمية بن أبي الصلت ، وكان شاعراً . والبيت من قصيدة يمدح بها سيف بن ذي يزن مذكورة في الشعر والشعراء ص ٤٣١ - ٤٣٣

(2) في الشعر والشعراء : فاشرب .

(3) غمدان : بناء عظيم كان بصنعاء اليمن .

(4) هو عامر بن الحارث شاعر نميري ، واختلف في نسبه واسمه ، فقيل اسمه : المستورد ، وقيل : عامر بن الحارث بن كلفة ولقب بجران العود لقوله يخاطب امرأتيه :

خذا حذرا يا خلتي فانني رأيت جران العود قد كاد يصلح

وفي الديوان ص ٨ : انما سمي جران العود لقوله

عمدت لعود فالتحيت جرانه وللكيس أمضى في الأمور وأنجح

وكل من البيتين من قصيدة واحدة في أول الديوان .

والجران من البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره . والعود : المسن من الابل .

فأصبح [١] من حيث التقينا غنيمة [٢]   سوار وخلخال ومرط ومطرف [٣]
ومنقطعات [٤] من عُقود تركنها   كجمر الغضا في بعض ما تتخطرف [٥]

ومن ذلك قول عَديّ بن زيد [٦] :

يا لبيْنى أوْقدي النارا   إن من تهوين قد حارا
رُبَّ نارٍ بتُّ أرقبها   تقضِمُ الهنديَّ والغارا [٧]

وقال الآخر :

أرى في الهوى نار الظبية أوقدت   تشبُّ وتذكى بعدَهن وَقُودها
تشبُّ بعيدان اليلنْجوج موهناً   وبالرَّندِ أحياناً فذاك وَقودها

---

(١) في ديوانة « وأصبح في » .

(٢) خبر مقدم ، يعني : أن هذه الحلي أصبحت غنيمة لمن يجدها . وفي ديوانه « غدية »

(٣) في ديوانه « وبرد مفوف » .

(٤) وفي رواية : ومنتثرات .

(٢) في اللسان : الخطرفة ، والتخطرف ، السرعة في المشي وتوسيع الخطافيه ، بحيث يجعل الخطوتين خطوة .

(٦) هو عدى بن زيد ، وكان شاعراً فصيحاً من شعراء الجاهلية، وكان نصرانياً . وليس ممن يعد من الفحول ، وكان الاصمعي وأبو عبيدة يقولان : عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها مجراها .

(٧) وبعدها كما في الاغاني :

عندها ظبي يورثها   عاقد في الجيد تقصارا

قد ذكرنا الطعام الممدوح ماهو ، وذكرنا أحدَ صِنفي الطعام المذموم . والصنفُ الآخر « الخزيرة » التي تعابُ بها مجاشع بنُ دارم ، وكنحو السَخينة التي تعابُ بها قريش .

قال خداش بن زهير [1]

يا شدّةً ما شددْنا غير كاذبةٍ ... على سَخينةَ لولا الليلُ والحرمُ [2]

وقال عبد الله بن همام [3]

إذن لضربتهم حتى يعودوا ... بمكة يلعقون بها السخينا

وقال جرير :

وضع الخزير فقيل أين مجاشع ... فشحا جحافله هِجَفٌّ هِبْلعُ

(١) هو خداش بن زهير وينسب إلى عامر بن صعصعه ، عدة ابن سلام من شعراء الطبقة الخامسة . قال ابو عمرو بن العلاء : هو أشعر في قريحة الشعر من لبيد، وكان يهجو قريشا ، ويقال ان اباه قتلته قريش ايام الفجار .

(٢) هذا الشعر قاله خداش في يوم نخلة ، وهو الفجار الأخر . وقوله : لولا الليل والحرم . وذلك ان قريش ظلت تقاتل حتى دخلت الحرم ، وجن عليهم الليل ، فكفوا عن القتال .

(٣) هو عبد الله بن همام السلولي ، عده ابن سلام من شعراء الطبقة الخامسه الاسلامين ، وكان رجلا له جاه عند السلطان وصلة بهم ، وكان سريا في نفسه ، وله همة تسمو به ، وكان عند آل حرب مكينا حظياً فيهم . وهو الذي حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية . مات أيام سليمان بن عبد الملك .

والخزيرُ لم يكن من طعامهم ، وله حديث . والسَّخينة كانتْ من طعام قريش . وتهجى الأنصارُ ، وعبدُ القَيْس ، وعُذرة ، وكلُّ من كان يقربُ النخل بأكل التمر، فقال الفرزدق:

(و) لستُ بسعْديّ على فيه حبرةٌ
ولست بعبديٍّ حقيبتُهُ التمرُ

وتهجى أسد بأكل الكلاب ، وبأكل لحوم الناس . والعربُ إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى قبيحاً ، ألزمتْ ذلك القبيلة كلها ، كما تمدحُ القبيلة بفعلٍ جميل ، وإن لم يكن ذلك إلاّ بواحد منها . فتهجو قريشاً بالسخينة ، وعبد القيس بالتمر . وذلك عامٌ في الحيين جميعاً ، وهما من صالح الأغذية والاقوات ، كما تهجو بأكلِ الكلابِ والناس ، وإن كان ذلك إنما كان رجلاً واحداً . فلعلك إذا أردت التحصيل تجدُهُ معذوراً . قال الشاعر (١) :

يا فَقْعَسي لِمْ أكلتَهُ لِمَهْ ؟ لو خافكَ اللهُ عليه حرَّمَهْ
فما أكلتَ لحمه ولا دمه !

وقال (في ذلك (٢)) مُساور بنُ هند :

(١) هو سالم بن دارة الغطفاني كما في الحيوان ج ١ ص ٢٦٧ ط الحلبي .
(٢) مزيده ليست في الاصل .

إذا أسديّةٌ ولدت غُلاماً فَبَشِّرْها بلُؤمٍ في الغُلامِ
تُخرِّسها نساء بني دُبَيرٍ بأخبثِ ما يجدْنَ من الطّعامِ
ترى أظفار أعقدَ مُلْقيات براثنُها على وَضمِ الثّمامِ

وقال (١) :

بَني أسد إن تمحُل العامَ فقعسٌ فهذا إذن دَهرُ الكلابِ وعامُها

وقال الفرزدق :

إذا أسَديٌ جاعَ يوماً ببلدةٍ وكان سميناً كلبُهُ فهو آكلُهْ

وقال شُريح بن أوس، وهو يهجو أبا المهوّش الأسدي (٢) :

وعيّرتنا تمرَ العراقِ وبُرّهُ
وزادُكَ أيرُ الكلبِ شيّطَه (٣) الجمْرُ

وتُهجى أسد وهُذيل والعنبر وباهِلة بأكل لحوم الناس قال الشاعر في هُذيل :

---

(١) أي مساور بن هند .

(٢) ابو المهوش الاسدي : هو حوط بن رئاب ، أبو ربيعة بن رئاب من المخضرمين الذين ادركوا النبي ﷺ ولم يروه .

(٣) في الحيوان : شيطه .

وأنتم أكلتم شحفةَ ابن مُخدّمٍ
زبابٍ [1] فلا يأمنكمُ أحدٌ بعدُ
تداعوا له من بين خمسٍ وأربعٍ
وقد نصل الأظفارُ وانسبأ الجلدُ
ورفّعتمُ جُرْدانةً لرئيسكم معاويةَ الفلحاء يالك ما شكد

وقال حسان فيهم [2] :

إن سرّك الغدرُ صرفاً لا مزاج له فائت الرجيعَ وسل عن دار لحيان
قومٌ تواصوا بأكلِ الجارِ بينهمُ
فالشاةُ والكلبُ والإنسانُ سيّانِ

وهجا شاعرٌ بلعنبر ، وهو يريد ثوبَ بن شحمة [3] ، وفيه حديث :

عجلتمُ ما صادكم علاج من العنوقِ ومن النعاجِ
حتى أكلتم طفلةً كالعاجِ

---

(١) الزباب : ضرب من الفأر ، وهو مما يهجى به ، قال الشاعر :
وهم زباب حائر لاتسمع الآذان رعدا
(٢) أي هذيلا .
(٣) راجع صفحه ٢٦٠ وهامشها .

ولما عُيِّر ثوبُ بن شَحمة بأكل الفتى [1] لحمَ المرأة، إلى أن نزل هو من الجبل، قال:

يابنت عمّي ما أدراكِ ما حسبي إذ لاتجنُّ خبيثَ الزاد أضلاعي
إنّي لذو مِرَّةٍ تُخشى بوادرُهُ عند الصباح بنصل السيف قرّاع

فهجا ثوبَ بن شحمة بأكل لُحوم امرأة، وكان ثوبٌ هذا أكرمَ نفساً عندهم من أن يَطْعم طعاماً خبيثاً، ولو مات عندهم جوعاً، وله قِصَص. ولقد أسرَ حاتمُ الطائي وظلّ عنده زماناً.

وقال الشاعرُ يهجو باهلة بمثل ذلك

إنَّ غِفاقاً أكلتْهُ باهِلَه تمشّشوا عِظامَهُ وكاهِلَه
وأصبحتْ أمُّ غِفاقٍ ثاكِلَه

وهُجيت بذلك أسد جميعاً، بسبب رملة بنتِ فائد ابن حبيب بن خالد بن نضلة [2]، حين أكلها زوجها وأخوها أبو أرب، وقد زعموا أن ذاك إنما كان منها من طريق الغَيْظ والغَيرة.

---

(١) في الحيوان: بأكل الرجل العنبري.

(٢) فائد بن حبيب شاعر اسلامي كوفي كما في معجم الشعراء ولم يزد على ذلك شيئاً بعد ذكر نسبه.

فقال ابنُ دارة (١) ينعي ذلك عليهم :

أفي أنْ رَوِيتُمْ وَاحتلبتم شُكَيِّكُمْ
فخرتُم وفيمَ الفقعسيُّ من الفَخْرِ ؟

ورملةُ كانت زَوجةً لفريقكم ... وأختَ فريق وهي مخزيةُ الذكر

أبا أربٍ كيف القرابة بينكم ... وإخوانكم من لحمِ أكفالها عجز ؟

وقال :

عَدمت نساءٍ بعد رملةَ فائد ... بني فقعسٍ تأتيكمُ بأمانِ !

وباتَتْ عَروساً ثم أصبح لحمُها ... جلا في قدورٍ بينكم وجفانِ !

وقال البراء بن ربعي . أخو مُضرِّس بن ربعي يُعيِّر كلباً وهو أخوه ، فقال :

يا صلتُ ! إن محلَّ بيتك مُنتِنٌ ... فارحلْ ، فإنَّ العُودَ غير صليبِ

وإذا دَعاك إلى المعاقل فائدٌ ، ... فاذكر مكانَ صِدارِها المسلوبِ

والآن فادعُ أبا رجالٍ إنها ... شنعاء لاحقة بأمِّ حبيب

وأبو رجالٍ هذا عمّها . وقال في ذلك معروف الدُبيري :

إذا ما ضِفتَ ليلاً فقعسيّاً ... فلا تطعَم له أبداً طَعاما

---

(١) هو سالم بن مسافع . ودارة أمه ، وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام ، وكان رجلا هجاء .

فانّ اللحم إنسانٌ فدَعهُ   وخيرُ الزّاد ما منَعَ الحراما

وعُيِّرَتْ كلبُ والقينُ بن جسر بأكل الخصى، وذلك بسبب النساء: وذلك أن واحداً منهم لما أطعِم خُصيَيه بسبَب العَبث بامرأة، سار مع من ركبوا ذلك منه فيهم مثل السيرة فقال بعضُ من ركب ذلك:

أبْلِغْ لديكَ بني كلبٍ وإخوتَهم   كلباً فلا تجترُوا بعدي على أحدِ

هذي الخصى فكلُوها من نفوسكم   كما أكلتم خُصاكم في بني أسد

وهذا الباب يكثر ويطول، وفيما ذكرنا دليل على ما قصدْنا إليه مِن تصنيف الحالات. فان أردتَه مجموعاً فاطلبه في كتاب الشُعوبية، فانه هناك مُستقصى.

والأعرابيُّ إذا أراد القِرى، ولم يرَ ناراً، نبح، فيجاوِبهُ الكلبُ، فيتبعُ صوتَه، ولذلك قال الشاعر:

ومُستنبح أهلَ الثّرى يطلبُ القِرَى (١)
إلينا ومَمساهُ من الأرضِ نازحُ

وقال الآخر:

---

(١) في الحيوان ج ١ ص ٣٧٩: يلتمس.

غَوَى حَدَسٌ والليلُ مُسْتَلِسُ النَّدى

لِمُستَنبحٍ بين الرُّمَيثَةِ والحصر

ويدلك على أنه يَنبحُ وهو على راحلته ، لينبحَه الكلبُ قولُ حُميد الارقط :

وعاوٍ عوى والليل مُستحلس النَدَى

وقد ضجعت[1] للغوْرِ تاليةُ النجم

فنهم من يبرِزُ كلبه ليجيب ، ومنهم من يَمنعه من ذلك . قال زيادُ الأعجم ، وهو يهجو بني عِجل :

وتكعمُ[2] كلبَ الحيّ من خَشيَةِ القِرَى

وقِدْرُكَ[3] كالعذراء من دونها سِترُ

وقال آخر :

نزلنا بعمّارٍ فأشلى كلابَهُ ... علينا فكدنا بين بيتَيه نؤكل

فقلتُ لأصحابي أُسرُّ إليهمُ : ... أذااليومُ أمْ يومُ القِيامة أطول؟

وقال آخر[4] :

---

(١) في الحيوان ج ١ ص ٣٧٩ : وقد زحفت .

(٢) في الحيوان : وتطعم .

(٣) في الحيوان : ونارك .

(٤) في حماسة البحتري ص ٤١٥ ط ١٩٢٩ : وقال وبر بن معاوية الأسدي ، وكان يعامل تجار المعدن ويلويهم بحقوقهم .

أعددتُ للضيفان كلباً ضارياً   عندي وفَضلَ هِرواةٍ من أرزن[1]

وقال أعشى (بني[2]) تغلب[3]:

إذا حلّت[4] معاويةُ بنُ عمرو   على الأطواء خنّقت الكلابا

وأنشدني ابن الأعرابي، وزعم أنه من قول المجنون:

ونارٍ قد رُفعتُ لغيرِ خيرٍ   رَجاءُ أن تأوبني الرِعاء

تأوّبني طويلُ الشخص منهم   يجرّ ثِفاله[5] يرجو العشاء

فكان عَشاءه عندي خزيرٌ   بتمرٍ جثيثة فيه النواء

وقال في خلاف ذلك حسّان بنُ ثابت:

أولادُ جفنَة حولَ قبرِ أبيهمُ   قبرِ ابن ماريةَ الكريم المُفضلِ

---

(١) في حماسة البحتري: اعددت للغرماء سيفا صارماً. وبعده:

عجراء ظاهرة الحيود متينة   أعددتها لتجار أهل المدن

وروي في عيون الاخبار بدل البيت الثاني هذا البيت:

ومعاذرا كذبا ووجها باسراً   متشكيا عض الزمان الألزن

وكذا في اللسان. والأرزن: شجر صلب تتخذ منه العصي.

(٢) مزيدة من الحيوان.

(٣) هو اعشى بني تغلب واسمه نعمان بن نجوان. أو ربيعة بن نجوان من جشم بن بكر، وهو شاعر اسلامي. وأورد له الآمدي قصيدة له مدح بها مسلمة بن عبد الملك، وذكر أنها من نادر الشعر.

(٤) في الحيوان: اذا احتلت.

(٥) كذا في فان فلوتن. وفي طبعة الاستاذ الحاجري: ثفالة.

يُغشونَ حتى ما تَهِرُّ كلابهم   لايسألونَ عن السوادالمقبل [1]

وقال المرّار الحماني [2] في كلبه :

ألِفَ الناسَ فما ينبحهم   مِنْ أسيفٍ يبتغي الخيرَ وحُرّ

وقال عمران بن عصام [3] :

لِعبدِ العزيزِ على قومه   وغيرِهِمُ مِننٌ غامره [4]

فبابُك أليَنُ أبوابهم   ودارُكَ مأهولةٌ عامِره

وكلبك آنسُ بالمعتَفين   من الأمِّ بابنتِها الزّائره

وكفك حينَ ترى السائلين   أندى من الليلةِ الماطره

فمنكَ العطاءُ ومنّا الثناءُ   بكلِّ مُحبّرَةٍ سائره

وفي أُنسِ الكلاب بالناس ، لطول الرؤية لهم ، شعرٌ

---

(١) الابيات من قصيدة لحسان يمدح فيها آل غسان . وأولاد جفنة هم ملوك غسان .

(٢) في الحيوان ج ١ ص ٣٨٢ ط الحلبي : وقال البزاز الحلبي . وفان فلوتن : المرار الحماني عن الحيوان مخطوطة كبريلي .

(٣) ذكره الجاحظ في البيان قال : ومن الشعراء الخطباء عمران ابن عصام العرني . وهو الذي اشار على عبد الملك بخلع اخيه عبد العزيز والبيعة للوليد بن عبد الملك .

(٤) الشعر في الاغاني منسوب الى نصيب . وعبد العزيز هو عبد العزيز بن مروان .

كثير . وقال الشاعر [١] :

يا أمَّ عمرٍو أنجزي المَوْعودا | وارْعَيْ بذاك أمانةً وعُهودا
ولقد طرقت كلاب أهلك بالضحى | حتى تركتُ عقورَهنَّ رُقُودا
يضرِبْنَ بالأذنابِ من فَرَحٍ بنا | متوسِّداتٍ اذْرُعاً وخدودا

وقال ذو الرُّمَّة [٢] :

رأتني كلابُ الحيِّ حتى الفِنَني | ومدت نسوج العنكبوت على رحلي

وقال الآخر :

بات الحويرثُ والكلابُ تَشمُّه | وسرت بأبيض كالهلال على الطوى

هذا البيتُ يدخل في هذا الباب . وقال الآخر [٣] :

لو كنت أحمِلُ خمراً يوم زرتُكم | لم يُنكرِ الكلبُ أنّي صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يفعمني [٤] | والعنبرُ الوَرْدُ أُذكيه على النار

---

(١) هو ابن الطثرية كما في الحيوان .

(٢) هو ابو الحارث غيلان بن عقبة بن نهيس . عده ابن سلام من شعراء الطبقه الثانية الاسلامين وشعره بدوي الديباجه ، يصنعه على غرار الشعر الجاهلي ، وكان هواه مع الفرزدق ضد جرير .

(٣) الشعر في البيان منسوب الى بعض الحجازين . وفي الحماسة منسوب الى مالك بن اسماء الفزاري .

(٤) في الحماسة : يفغمني ، وفيها : وعنبر الهند أذكيه . وفي بعض الاصول : ينفحني .

فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني   وكان يَعرفُ ريح الزّقَ والقار

وقال هلالُ بن خثعم (١) :

وإني لَعَفٌ عن زيارة(٢) جارتي   وإني لمنشوء إليَّ اغتيابها
إذا غابَ عنها بعلُها لم أكن لها   زؤوراً ولم تأنس إليَّ كلابُها
وما أنا بالداري أحاديثَ بيتها   ولاعالمٌ من أيّ حوكٍ ثيابها (٣)

وقال ابنُ هرمة في فرح الكلب بالضيف لعادة النّحر :

وفرحةٍ من كلاب الحيِّ يتبعها   مَحْض (٤) يزفُّ به الراعي وترعيب

وقال ابن هرمة :

ومستنبحٍ نبّهت كلبي لصوته   فقلتُ له : قم باليَفاع فجاوب
فجاءَخفيَّ الشخص قدرامه الطوى (٥)   بضربةٍ مفتوق (٦) الغرارين قاضب

---

(١) في عيون الاخبار : بشار بن بشر ، ولم اعثر في كتب الادب على شاعر بهذا الاسم وفي حماسة البحتري ص ٣٧٥ ان الابيات لزياد ابن منقذ التميمي .

(٢) في عيون الاخبار : فكاهة .

(٣) ورد البيت في عيون الاخبار كما يلي :

ولم أك طلابا أحاديث سرها   ولا عالما من أي حوك ثيابها

(٤) في الحيوان : شحم .

(٥) في الحيوان : فجاء خفي الصوت قدمسه الضوى

(٦) في الحيوان : مسنون .

فرحبتُ واستبشرت حين رأيته[1] وتلك التي ألقى بها كلَّ نائب[2]

وفي معنى الكلب من النباح يقول ابن أعيا في الحطيئة :

ألا قبّح اللهُ الحطيئة إنه على كل ضيف ضافه فهو سالِح[3]
دفعت[4] إليه وهو يخنُق كلبه ألا كل كلب - لا أبالك - نابح[5]
بكيت على مذق[6] خبيث قريته ألا كل عبسي على الزاد نائح[7]

---

(١) في الحيوان : بسطته .
(٢) في الحيوان : آئب .
(٣) في الاغاني : سائح .
(٤) في الحيوان : وقعنا .
(٥) ورد هذا الشطر في الحيوان : دع الكلب ينبح انما الكلب نابح .
(٦) في الحيوان : زاد .
(٧) في الاغاني ، قال الأصمعي : لم ينزل ضيف قط بالحطيئة إلا هجاه فنزل به رجل من بني أسد (لم يسمه الاصمعي ، وذكر أبو عبيدة : انه صخر بن أعيا الأسدي ، أحد بني أعياء بن طريف بن عمرو ابن قعين) فسقاه شربة من لبن فلما شربها قال .

لما رأيت أن من يبتغي القرى وأن ابن أعيا لامحالة فاضحي
سددت حيازيم ابن أعيا بشربة على ظمأ شدت أصول الجوانح
ولم أك مثل الكاهلي وعرسه بغى الود من مطروفة العين طامح
غدا باغيا يبغي رضاها وودها وغابت له غيب امرئ غير ناصح
دعت ربها أن لا يزال بفاقة ولا يهتدى إلا رأى حد بارح

قال : فأجابه صخر بن أعيا فقال : الأبيات .
وفي الحيوان نسب البيتان الأولان إلى الراعي ، والثالث إلى أعشى -

وقد قالوا في صِفة أبواب أهل المقدِرة والثروة، إذا كانوا يقومون بحقِّ النعمة. قال الراجز:

إن الندى حيثُ ترى الضِّغاطا[1]

وقال الآخر:

يزدَحِم الناسُ على بابه والمشرَعُ السَّهل[2] كثير الزحام

وقال الآخر:

وإذا افتقرت رَأيتَ بابك خالياً[3] وترى الغني يهدي لك الزُّوارا

وليسَ هذا من الأوَّل. إنما مثلُ قوله:

ألم تَر بيتَ الفقر يُهجرُ أهله وبيت الغِنى يُهدى له ويُزارُ

وهذا مثلُ قوله:

إذا ما قلَّ مالك كنت فرداً وأيُّ الناس زوَّارُ المُقلِّ؟

- بني تغلب، وفي العمدة نسب إلى الراعي وفي الاغاني في البيت الثالث وردت كلمة شائح بدلاً من نائح.

(١) في البيان والتبيين منسوب إلى التيمي وقبله.

أما رأيت الألسن السلاطا والجاه والاقدام والنشاط

والضغاط. الزحام. وفي الكامل منسوب لرؤبه، ونسبه الاخفش لابن أبي نخيلة.

(٢) في عيون الأخبار: العذب.

(٣) في البيان: يرفض عن بيت الفقير ضيوفه.

والعرب تفضّل الرجل الكسُوب ، والغرّ الطلوب ، ويذمّون المقيم الفشِل ، والدثور الكسلان ، ولذلك قال شاعرهم وهو يمتدح رجُلاً :

شتّى مطالبُه ، بعيدٌ همُّه ‏ ‏ ‏ ‏ جوّاب أودية برود المضجع

ومدح آخرٌ نفسه ، فقال :

فان تأتياني في الشتاء وتلمَسا ‏ ‏ ‏ ‏ مكانَ فراشي فهو بالليل باردُ

وقال آخر :

إلى مَلك لاينقض النأيعزمَه ‏ ‏ ‏ ‏ خروجٍ تَروكٍ للفِراش الممهّد

وقال الآخر :

فداكِ قصيرُ الهمّ يملأ عينه ‏ ‏ ‏ ‏ من النوم،إذ مُلقى فِراشك باردُ

وقال الآخر :

أبيضُ بسّام بَرُود مضجعُه ‏ ‏ ‏ ‏ اللُّقمةُ الفردُ مراراً يشبعه

وهم يمدحون أصحابَ النيران ، ويذمّون أصحاب الاخماد . قال الشاعر (١) :

له نارٌ تشَبُّ بكل ريح ‏ ‏ ‏ ‏ اذا الظلماء جَلّلت القناعا

---

(١) هو أبو زياد الأعرابي الكلابي ، كما في حماسة أبي تمام .

وما إن كان أكثرَهم سَواما ولكنْ كان أرحبَهم ذراعا [1]

وقال مزرد بن ضرار [2] :

فأبصر ناري وهي شقراءُ أُوقدت بعلياء نشْزٍ للعُيون النواظِرِ

جعلها شقراءَ ، ليكون أضوأ لها . وكذلك النارُ إذا كان حطَبها يابساً ، كان أشدَّ لحمرة ناره ، وإذا كثر دخانه قلَّ ضوؤه . وقال الآخر

ونار كسحر [3] العود يرفع ضوءها مع الليل هبات الرياح الصوارد [4]

وكلما كان موضع النار أشد ارتفاعاً ، كان صاحبُها أجودَ وأمجدَ ، لكثرة من يراها من البُعد ، ألا ترى النابغة الجعدي [5] حين يقول :

---

(١) رواية البيتين في الحماسة :

له نار تشب على بقاع إذا النيران ألبست القناعا

ولم يك أكثر الفتيان مالاً ولكن كان أرحبهم ذراعا

(٢) هو يزيد بن ضرار الشاعر الفارس أخو الشماخ ، وكان رجلا عريضاً وهجاء خبيث اللسان ، ادرك الاسلام فأسلم . ولقب مزرد بأبيات قالها ذكرها الآمدي .

(٣) السحر : الرئه وما يتعلق بالحلقوم . والعود : الجمل المسن .

(٤) الصوارد : البوارد . والصرد : البرد .

(٥) هو حسان بن قيس بن عبد الله من بني جعدة بن كعب ويكنى أبا ـ

مَنَع الغَدْرَ فلم أهمُمْ به   وأخو الغَدر إذا همّ فعل
خشيةُ الله وإني رجُل   إنما ذِكري كنارٍ بقبل

وقالت خنساء السلمية (١) .

وإن صخراً لتأتم الهداةُ به   كأنه علَم في رأسه نارُ

وليسَ يمنعُني من تفسيرِ كلّ ما يمر ، إلا اتّكالي على معرِفتك . وليس هـذا الكتابُ نفعُه إلا لمن روَى الشعر والكلام ، وذَهب مذاهِب القوْم ، أو يكون قد شدا منه شَدواً حسناً .

ومما يدلّ على كرم القوم أيمانُهم الكريمة ، وأقسامُهم الشريفة قال معْدان بن جواس الكِندي (٢) :

ـ ليلى واختلف في نسبه واسمه . عاش في الجاهلية والاسلام دهراً ، وهو احد المعمرين ، وكان شاعرا مفلقا ، وكف بصره بعد أن اسلم وحسن اسلامه ، وكان في صحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وله مع معاوية أخبار .

(١) هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد . عدها ابن سلام من شعراء المراثي ، واكثر شعرها في رثاء اخيها صخر الذي قتلته بنو أسد ، ومعاوية الذي قتلته بنو مرة بن غطفان .

(٢) هو معدان بن جواس الكندي السكوني . له حلف في ربيعة ، مخضرم نزل الكوفة ، وكان نصرانيا فأسلم في أيام عمر بن الخطاب وقام الزبير بن العوام بأمره فمدحه . معجم الشعراء ص ٤٠٧ .

إن كان ما بُلِّغتَ عني فلامني صديقي وحُزَّت من يدي الانامل
وكفنت وجدي منذراً في ردائه وصادف حوطاً من أعادي قاتل [1]

وقال الاشتر مالكُ بنُ الحارث ، في مثل ذلك أيضاً [2] :

بقيت وفري [3] وانحرفت عن العلى ولقيتُ أضيافي بوجهِ عَبوسِ
إن لم أشُنَّ على ابن حرب [4] غارة لم تخلُ يوماً من نِهاب نُفوسِ
خيلاً كأمثال السَّعالي شُزَّباً تعدو ببيضٍ في الكريهة شوسِ

---

(١) في الحماسة : أن هذا الشعر قاله معدان للنعمان بن المنذر ، يبرأ لديه مما أتهم به ومن انه هو الذي أنذر تميما حين اراد النعمان ان يغير عليها ، فهزمته . ومنذر وحوط ولدا النعمان وروى البيت الاخير :

ولا ذقت طعم الوصل ممن أحبه وأودى ببكري من أعادي قاتل

(٢) هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن سلمه ، ولقبه الأشتر. ضربه رجل من إياد يوم اليرموك على رأسه فسالت الجراحة قيحاً إلى عينه فشتر به ، وكان الأشتر مع علي رضي الله عنه في حروبه ، وقلده مصر ومات في طريقه - سنة ٣٧ - معجم الشعراء ص ٣٦٢ .

(٣) كذا في معجم الشعراء ، وفان فلوتن : وحدي .

(٤) هو عبد الرحمن بن أرطاة ، وقيل عبد الرحمن بن سيحان ابن أرطاة ، من محارب بن خصفة .وآل سيحان حلفاء حرب بن أمية ، وبمنزلة بعضهم عندهم خاصة ، وعند سائر بني أمية عامة ، وكان عبد الرحمن شاعرا مقلاً ، اسلاميا ، ليس من الفحول المشهورين ، ولكنه كان يقول في الشراب والغزل والفخر ومدح أحلافه من بني أمية ، وهو أحد المعاقرين للشراب والمحدودين فيه .

حَمِيَ الحديدُ عليهم فكأنَّه   لمعَانُ برق أو شُعاعُ شموسِ

وقال ابنُ سيحان : (1)

حرامٌ كنَّتي منِّي بسُوءٍ   وأذكُرُ صاحبي أبداً بذامِ
لقد أحرمتُ ودَّ بني مُطيعٍ   حرام الدُّهْنِ للرجلِ الحرَامِ
وخزَّهُمُ الذي لم يَشتروه   ومَجْلسَهم بمُعتلَجِ الظلامِ
وإن جنف الزمانُ مددت حبْلا   مَتيناً من حِبال بني هِشامِ
وريقٌ عودُهم أبداً رطيبٌ   إذا ما اغبرَّ عيدان اللئام (2)

* * *

(1) راجع الهامش رقم (٤) من الصفحة ٤٤٨ فان ترجمة ابن سيحان اثبتت هناك خطأ .

(2) هذه الأبيات قالها ابن سيحان في مدح بني عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام وذم بني مطيع . وهما حيان من بني أمية . وراجع الخبر والأبيات في الأغاني ج ٢ ص ٢٥٥

بعونه تعالى
تم طبع الكتاب في غرة ربيع الاول عام ١٣٧٥
الموافق لشهر تشرين الثاني عام ١٩٥٥

الفهارس العامة

الفهرس الأول

فهرس الأعلام

خ

د

ع

ن

هـ

الفهرس الثاني

فهرس القبائل والأمم

الفهرس الثالث

فهرس الأماكن والبقاع

الفهرس الرابع

فهرس مراجع الكتاب (١)

الأحجار لأرسططاليس . طبع في هيدلبرج سنة ١٩١٢ م

أخبار أبي نواس لابن منظور الجزء الأول

أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ نشره المجمع العلمي العربي بدمشق بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي

أدب الجاحظ للاستاذ حسن السندوبي

أدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري شرح محمد محي الدين عبد الحميد

أساس البلاغة للزمخشري

اسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير

الاصابة في تمييز اسماء الصحابة لابن حجر العسقلاني

الأصمعيات للأصمعي عبد الملك بن قريب

الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني طبعة ساسي

الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني طبعة دار الكتب المصرية

الأمالي لأبي علي القالي طبعة دار الكتب المصرية

الأمثال للمفضل الضبي

أمالي اليزيدي

الأوراق للصولي

البيان والتبيين شرح الأستاذ حسن السندوبي

البيان والتبيين شرح الأستاذ عبد السلام محمد هارون

البخلاء طبعة دار النشر العربي

البخلاء طبعة دار الكاتب المصري شرح الأستاذ طه الحاجري

تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

تاريخ بغداد لابن طيفور

تاريخ ابن عساكر نسخة خطية بدار الكتب الظاهرية بدمشق

تاريخ اليعقوبي أحمد بن يعقوب المعروف بابن واضح الأخباري

التاج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ شرح الاستاذ أحمد زكي

(١) أثبتنا الكتب التي رجعنا اليها في تحقيق ابحاث الكتاب فقط، ولم نذكر جميع الكتب التي وردت في نص الكتاب أو في هوامشه.

تاج العروس (قاموس)
التبصر بالتجاره شرح محمد حسني عبد الوهاب
التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم للخطيب البغدادي
التنبيه والاشراف للمسعودي
التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه لأبي عبيد البكري
تهذيب الألفاظ لابن السكيت
تهذيب الصحاح لمحمود بن احمد الزنجاني تحقيق عبد السلام محمد هارون واحمد عبد الغفور عطار
ثلاث رسائل للجاحظ نشرها يوشع فنكل
ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأبي منصور الثعالبي
الجامع الصغير في أحاديث البشير والنذير للجلال السيوطي
الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار
حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني
حماسة البحتري
الحياة الأدبية في العصر العباسي لعبد المنعم خفاجي
حياة الحيوان الكبرى للاميري
الحيوان للجاحظ طبعة ساسي
الحيوان للجاحظ شرح الاستاذ عبد السلام محمد هارون
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي
الدراسات المحمدية لجولد تسيهر
ديوان الأعشيين
ديوان امرئ القيس
ديوان البحتري
ديوان جران العود النميري
ديوان جرير
ديوان حسان بن ثابت الأنصاري
ديوان الفرزدق
ديوان أبي نواس
ديوان عروة بن الورد
ذيل الأمالي لأبي علي القالي
رسائل الجاحظ شرح الاستاذ حسن السندوبي
رسالة التربيع والتدوير للجاحظ
زهر الآداب وثمر الألباب لأبي اسحق القيرواني
شرح صحيح البخاري للكرماني
شرح مقامات الحريري للشريشي
شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد
شرح الحماسة لأبي تمام تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

الشعر والشعراء لابن قتيبة شرح
احمد محمد شاكر
شعراء النصرانية في الجاهلية للأب
لويس شيخو اليسوعي
شفاء الغليل فيما في كلام العرب من
الدخيل لشهاب الدين الخفاجي
الصحاح للجوهري
صبح الأعشى في صناعة الانشا
لأبي العباس القلقشندي
صحيح البخاري
صحيح مسلم
الصراع بين الموالي والعرب للدكتور
بديع الشريف
ضحى الاسلام للدكتور احمد امين
طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي
ط ذخائر العرب
طبقات القراء
الطبقات الكبرى لابن سعد
العقد الفريد لابن عبد ربه طبعة
لجنة التأليف
العمدة لابن رشيق
عيون الاخبار لابن قتيبة طبعة دار
الكتب المصرية
فضائل الأتراك للجاحظ
فتوح البلدان للبلاذري
الفخري في الاداب السلطانية لابن
طباطبا الطقطقي
الفرق بين الفرق للبغدادي
الفهرست لابن النديم
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي
قاموس المحيط للفيروز أبادي
القرآن الكريم
الكامل في التاريخ لابن الأثير
الكامل في الأدب لأبي العباس المبرد
كشف الظنون عن اسامي الكتب
والفنون لحاجي خليفة
اللآلي في شرح أمالي القالي لأبي
عبيد البكري
اللباب في تهذيب الانساب لابن الاثير
لسان العرب لابن منظور
لسان الميزان لابن حجر العسقلاني
المؤتلف والمختلف في اسماء الشعراء
وكناهم وألقابهم وأنسابهم للآمدي
محيط المحيط (قاموس)
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق
مجمع الامثال للميداني
مجموع رسائل الجاحظ نشره باول
كراس وطه الحاجري
المحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ
المحاسن والمساوئ للبيهقي

محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الاصبهاني
مروج الذهب للمسعودي
المزهر في علوم اللغة للجلال السيوطي
طبع دار احياء الكتب العربية
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري
المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين احمد الأبشيهي
المعارف لابن قتيبة الدينوري
معاني الشعر للأشناندانی
معجم الادباء لياقوت الحموي الرومي
معجم البلدان لياقوت الحموي الرومي
معجم الشعراء للمرزباني
معجم ما استعجم لأبي عبيد البكري
المعرب من كلام الاعجمي لأبي منصور الجواليقي
مفتاح كنوز السنه
المفضليات للمفضل الضبي
من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين
المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي
الموازنة بين الطائيين للآمدي
الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني
النهايه في غريب الحديث والأثر لابن الاثير
نهج البلاغة للشريف المرتضى شرح محمد عبده قام على نشره عبد العزيز سيد الأهل
نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري
الورقة لابن الجراح ط. ذخائر العرب
الوزراء والكتاب للجهشياري
وفيات الأعيان لابن خلكان
يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر لأبي منصور الثعالبي

جدول الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
التصدير	٦	امام البيان	لامام البيان
ظ	١٣	وأبتنامارأيناصحيحاً	وأبتنامارأيناهصحيحاً
١	١	بحفْظه	بحفْظه
٤	١٤	(٤)	(١)
٤	١٦	(٥)	(٢)
٦	٣	ولا مائدته الشعراء	ولا أحضرمائدته الشعراء .
١٠	١٤	(٢)	(١)
١٠	١٥	(٣)	(٢)
١٠	١٦	(٤)	(٣)
١٠	١٧	(٥)	(٤)
١١	١٦	البصرى	البصرة
١١	١٧	البيان والتبين	البيان والتبيين
١٢	٢	،لو	ولو
١٢	٥	(١)	(٢)
١٢	١٣	بطليق	بطليق
١٦	٧	راهبون	راهيون
١٦	١٦	مالم الله	مالام الله
١٧	١٧	ج ٦ ص ...	ج ٦ ص ٢٠٠
١٩	٦	يدلُّ	يدلُّ
٢٠	١٩	المجالس : وفي العقد	المجالس : كذا في العقد

الصواب	الخطأ	سطر	صحيفة
فقال (له)	(فقال) له	٦	٢٣
حالها هي القاضية	حالها في القاضية	٦	٣٢
ولدينك لمادك	ودينك لمادك	١٠	٣٣
أفحمه	أفحمة	١٢	٣٧
ط لجنة التأليف والترجمة	خبر لجبا ودونه	١٧، ١٨	٣٧
الحيوان ج ٢ ص ١٤٩ ط البابي	الحيوان ج ٢	١٤	٣٨
تأخذان	تأخدان	٧	٤١
لتسويتها	لتسويتها	٤	٤٣
على ذي اليمينين	على ذي اليمنين	١٤	٤٤
فلم يره أبته	فلم أبته	١٣	٤٥
التبيين	التبين	١٠	٤٩
أصلحناها	صلحناها	١٨	٥١
شجر	شخر	٨	٥٧
التبيين	التبين	١٠	٥٨
حزينةً	حزينةُ	٩	٦٥
نوع	نوعه	١٦	٦٩
فردٌ	فرزٌ	١٣	٧٠
رأس	زأس	١٠	٧٢
القرشي	القوشي	٣	٧٣
الخندق	الحندق	٤	٧٣
أني إنْ	أني أنْ	٨	٨١
فإنْ	قانْ	٩	٨١

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
٨٢	٣	أكلو	أكلوا
٨٢	١٦	عانة أرفاغه	عانته وأرفاغه
٨٢	١٧	... فلاتعرض . له	... فلا تعرض له :
٨٣	١١	انما نطعمكم	انما نطعمكم
٨٤	١	خالد بن يزيه	خالد بن يزيد
٨٤	٢	المكدي ي	المكدي
٨٤	٤	فوفف	فوقف
٨٥	٧	فعال المرء بنحويه	فعال المرء بنجويه
٨٥	١٧	الذين	اللذين
٨٥	١٩	الصاري	الصاوي
٨٦	١١	يكنْ	يكنْ
٩٠	٨	وانت	وأنت
٩٣	٣	الآفاق	الآفاق
٩٤	١٤	مدينة هـ ملاصقة	مدينة هي ملاصقة
٩٦	١٢	سكأته	سكأته
٩٦	١٣	السان	اللسان
٩٩	١٥	في المجلس	في مجلس
١٠٩	٥	الأخاء	الإخاء
١٠٩	٣	ويحصى	ويخصى
١٢١	٢	لاأبالي (٢)	لاأبالي (١)
١٢١	١١	داذيا (٣)	داذيا (٢)
١٢٢	٨	الحسود	الحسود
١٣٧	١٤	أُبي	أَبي
١٤٤	٢	بعرف	يعرف
١٥٥	٦	ومن (٤)	ومن (٢)

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
١٦٧	٩	حثم	حثثم
١٨٩	١٩	الجاحط	الجاحظ
١٩٥	٩	السكر	السكر(٣)
١٩٥	١٥	ندي	ندِ
١٩٦	٣	بكن	يكن
٢٠٢	٨	لأنه قل	لأنه قلّ
٢١٢	٩	بشبر	بشير
٢٢٧	٦	حبات	حيات
٢٦٤	١٥	طهر	ظهر
٢٦٨	١	هاح	هاج
٢٧٨	١٧	الأحبار	الأخبار
٢٩٦	٩	بعبر	بعير
٢٩٨	٢٠	واصق محمد	مصطفى محمد
٣٠١	١٠	الأسلام	الاسلام
٣١٢	١٠	(٧)	(١)
٣٢٢	٥	كذلك هو نتاج	كذلك وهو نتاج
٣٣٥	٧	وقال عمر لفارس:	وقال عمر : لفارس :
٣٤٥	٢	ابو رعال	ابو رغال
٣٤٥	١٠	غلان بن سلمه	غيلان بن سلمه
٣٤٥	١٤	غيلان بن سلمه ثقيف	غيلان بن سلمه في ثقيف
٣٤٨	٨	وشركاً من استها لا تنقطع	(وشركاً من استّها لا تنقطع)
٣٥٢	٧	الروجة	الزوجة
٣٥٧	١٣	الزبير	الزبير
٣٥٩	١٣	يكفيك	بكفيك

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٦١	٨	فاي لم أسمع	فإنيلم أسمع
٣٦٢	١٤	(١)ق اللسان	(١) في اللسان
٣٧٤	١٣	أبافلانياماإدمك	أبا فلان : ماإدمك
٣٨٢	١٥	(١)	(٢)
٣٨٢	١٦	(٢)	(١)
٣٨٣	١٥	(١)يضرب هذا للمسافر	يضرب هذا المثل للمسافر
٣٩٠	٥	يتقدم با)١ لكتابة	يتقدم با) لكتابة
٤٠٩	٨	(٣)	(١)
٤٠٩	٩	(٤)	(٢)
٤١٦	١٠	سحيم بن عامر، حدثني	سحيم بن عامر، أحد
٤١٦	١١	وذكر إحماده قدَره	وذكر في إحماده قدَره
٤١٩	١٥	شعراء العصران لأكاموي.واعرج	شعراء العصر الأموي. وكان أعرج
٤٢٣	١٦	أن زينب تصغير	أن زنيب تصغير
٤٢٤	١٧	وما ضمني	وماضمّي
٤٤٨	١٦	(٤) هو عبد الرحمن ...	ترجمة عبد الرحمن هذه تعود للصحيفة رقم ٤٤٩ برقم هامش (١)

المطبعة العمومية بدمشق
شارع خالد بن الوليد - هاتف

فهرس الموضوعات

مطبوعات

دار اليقظة العربية

للتأليف والترجمة والنشر

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم المترجم
٦٠٠	الأم	مكسيم جوركي	الدكتور فؤاد وسهيل أيوب
٣٥٠	تشيخوف المؤلفات الكاملة	أنطون تشيخوف	» » » »
٣٥٠	تولستوي	ستيفان زفايج	الدكتور فؤاد أيوب
٣٥٠	روائع من الادب الالماني	شللر وتوماس مان	» » »
٣٥٠	نيتوتشكا	دستويفسكي	الاستاذ سامي الدروبي
٣٥٠	قوي كالموت	جي ده موباسان	الاستاذ ابراهيم الحلو
١٥٠٠	الاخوة كرامازوف ١-٢	دستويفسكي	لجنة الترجمة
٥٠٠	الساقطون	مكسيم جوركي	الدكتور فؤاد أيوب
٤٥٠	عقل وعاطفة	جين اوستن	الاستاذ رضا حواري
٣٥٠	مراسلات بين جوركي وتشيخوف	جوركي وتشيخوف	جلال فاروق الشريف
٣٥٠	ابنة الضابط	بوشكين	الاستاذ سامي الدروبي
٣٠٠	حياة صاخبة	جي ده موباسان	الاستاذ ابراهيم الحلو
٢٥٠	حب وحرب	رومان رولان	الدكتور فؤاد أيوب
١٢٠٠	الجريمة والعقاب ١ - ٢	دستويفسكي	لجنة الترجمة

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم المترجم
٤٥٠	بين الناس	مكسيم جوركي	الاستاذ ليان ديراني
٧٠٠	الساعة الخامسة والعشرون	ك . جيؤرجيو	لجنة الترجمة
٤٥٠	النفوس الميتة	نيقولاس جوجول	الاستاذان حمصي وبنا
٣٥٠	مرتفعات ويذرنج	اميلي برونتي	لجنة الترجمة
٣٥٠	روائع من الادب السوفيتي	نخبة من الكتاب	الاستاذ سهيل أيوب
٢٨٠٠	الحرب والسلم ١ ـ ٤	ليو تولستوي	لجنة الترجمة
١٠٠٠	سقوط باريس	ايليا اهرنبورغ	« «
١٥٠٠	العاصفة ١ ــ ٢	ايليا اهرنبورغ	« «
٤٠٠	الاعماق	مكسيم جوركي	الدكتور فؤاد وسهيل أيوب
٥٠٠	ذكريات بيت الموتى	دستويفسكي	الاستاذ جرجيس فتح الله
٤٠٠	أين الله	مكسيم جوركي	الاستاذ نظير زيتون
٤٠٠	الفتاة والموت	مكسيم جوركي	الدكتور فؤاد وسهيل أيوب
٤٠٠	حياتي	ازادورا دنكان	لجنة الترجمة
٤٠٠	حب وطلسم أو الجلد المسحور	اونوريه ده بلزاك	الاستاذ فريد انطونيوس
٤٥٠	قصة زويا وشورا	ل. كوسمودميانسكايا	الاستاذ سهيل أيوب
١٠٠	بتهوفن	رومان رولان	الدكتور فؤاد أيوب
١٠٠	في سبيل السلام	نخبة من الكتاب	لجنة الترجمة
٢٠٠	صديقان	جورج دو هاميل	الاستاذ ابراهيم الحلو
٢٠٠	المتمردون	بوريس جورباتوف	لجنة الترجمة
١٠٠	أتالا ورينه	شاتوبريان	الاستاذ فريد أنطونيوس

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم المترجم
٤٠٠	مفكرو الثورة الالمانية	ادمون فرمي	الاستاذ خيرت فخري
٣٥٠	القادة السوفيت يتحدثون	الجنرال س. كالينوف	الرئيس يوسف شقرا
٢٥٠	أثر التسلح في التاريخ	الجنرال فوللر	لجنة الترجمة
٥٠٠	إلى أين يسير الاستعمار الاميركي	هنري كلود	الدكتور بدر الدين السباعي
٢٠٠	قصص شامية	السيدة ألفة عمر باشا الادلبي	
٤٥٠	تاريخ الدعوة الاسماعيلية	الاستاذ مصطفى غالب	
١٠٠	٢٦ رجلاً وفتاة	مكسيم جوركي	الاستاذ سهيل أيوب
٢٥٠	الثمرات في اللغة والادب	الاستاذ أسعد الامام الحسيني	
٣٠٠	عبقرية العرب	الدكتور عمر فروخ	
٢٠٠	مذكرات علم النفس ١-٢	الاستاذ جبران بشارة	
٥٠٠	تاريخ الشرق والغرب	الدكتور عابدين حمادة	
٢٠٠	وقائع من الحرب الفلسطينية	القائد طارق الافريقي	
١٥٠	ماذا يجب على كل امرأة أن تعلم	آ. ف دارك	لجنة الترجمة
١٠٠٠	تاريخ الحضارة العربية	الدكتور جورج حداد وراتب الحسامي	
٥٠٠	اليد الماهرة	الاستاذان بنقسلي وصعيدي	
٢٠٠	مستقبل المرأة العربية	الاستاذ منير الشريف	
٤٥٠	مشاكل العالم العربي	الاستاذ محمد عزة دروزة	
٢٠٠	غانية وقديس	الاستاذ أحمد الشيباني	

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم المرجم
٥٠٠	التربية المثلى	الفريد بينه	الاستاذان فخري وبنقسلي
٣٥٠	أسس التربية البدنية	الاستاذ زهير الشربجي	
١٢٥	ليرمنتوف	الدكتور فؤاد أيوب	
١٢٥	المركيزة	جورج صاند	الاستاذ سهيل أيوب
١٢٥	في أميركا	مكسيم جوركي	لجنة الترجمة
١٥٠	مجموعة قصص	أوسكار وايلد	الاستاذ حسن البحيري
١٠٠	ديان بيان فو	الاستاذ صلاح ذهني	
٧٠٠	بعث الأمة العربية ١ ـ ٧	الاستاذ زكي الأرسوزي	
١٥٠	في ظلال الوعي	الاستاذ سعد صائب	
١٠٠	تربية الوليد	الدكتور حمدي المحملجي	
١٥٠	الاهـداف الاستعمارية وراء مشروع مرشال	الاستاذ أحمد الشيباني	
١٢٥	محاكمات نورمبرغ	الدكتور جلبرت	الاستاذان مشعشع وصايغ
٣٠٠	الخلافة	السير توماس أرنولد	الدكتور جميل معلا
٢٥٠	قدر يلهو	الدكتور شكيب الجابري	
٢٥٠	قوس قزح	الدكتور شكيب الجابري	
٧٥٠	ايليا أبو ماضي شعر ودراسة	الاستاذ زهير ميرزا	
٣٥٠	الوجيز في الأدب العربي	جماعة من الأساتذة	
٨٠٠	علم النفس ونتائجه التربوية	الاستاذان الدروبي والجمالي	
٣٠٠	كافر ديوان شعر	الاستاذ زهير ميرزا	
٣٠٠	التيار » »	الاستاذ أحمد الصافي	

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم المترجم
٣٠٠	ألحان اللهيب » »	الاستاذ احمد الصافي	
٦٠٠	سنوات المصير للحرب العالمية الثانية	فون ازيبيك	الملازم رضا استنبولي
٣٥٠	مختصر المنطق ١ ـ ٢	الدكتور جمال الحاسب	
٥٠٠	روض البشر في أعيان دمشق	الاستاذ الشيخ جميل الشطي	
٣٠٠	تراجم أعيان دمشق	» » » »	
٢٠٠	اللاأخلاقي	أندريه جيد	لجنة الترجمة
٣٥٠	التربية البدنية	الاستاذ ميسر السيد	
٤٥٠	أساطين الموسيقي العالمية	الاستاذ صميم الشريف	
٥٠٠	الأشياء وملاحظة البيئة	الاستاذان بنقسلي وواثق	
٨٠٠	الوسيط في المنطق ١ ـ ٢	الدكتوران جمالي ومحاسب	
٥٠٠	الأخلاق والتربية المدنية	الدكتور جمال الحاسب	
٥٠٠	تاريخ الخلافة الاموية والعباسية	الدكتور رفيق المهايني	
٣٠٠	مختصر الاخلاق ١ ـ ٢	الدكتور جمال المحاسب	
٢٠٠	الانشاء الفلسفي	الدكتور جمال الحاسب	
١٠٠	الدستور السوري		
٠٥٠	مذكرات فيصل	الاستاذ سامي الشمعة	
٣٠٠	هؤلاء الصهيونيون	الاستاذان كمدان وشالاي	
٢٠٠	أطفال تحت الطلب	الدكتور صبري القباني	

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٧٥٠	البخلاء	الجاحظ ــ لجنة الدراسة والتحقيق
٤٥٠	الأبيوردي	الدكتور ممدوح حقي
٧٥٠	عصر النبي وبيئته	الاستاذ عزة دروزة
٧٥٠	ديوان ابن حزم	الدكتور ممدوح حقي
٣٥٠	حجة الوداع	لابن حزم ــ تحقيق الدكتور ممدوح حقي
٢٥٠	العروض الواضح	للدكتور ممدوح حقي
٧٥٠	تاريخ الموسيقا	الاستاذ مصطفى الصراف
١٠٠	نظرات في الزواج	الدكتور شوكت الشطي
١٠٠	من النقد الفرنسي	الاستاذ محمد روحي فيصل
٢٠٠	ما وراء الطبيعة	الدكتور حافظ الجمالي
١٠٠	قصر الجماجم	الاستاذ خير الدين الايوبي
١٠٠	شاعر دمشق	الاستاذ ياسين الحموي
١٠٠	جنازة قلب	الاستاذ محمد حاج حسين
١٠٠	هاروت وماروت	الاستاذ خليل هنداوي
١٠٠	القضية العربية	الاستاذ زهير ميرزا
٢٠٠	خفايا الحياة الجنسية ١ ـ ٢	الدكتور وجيه الصباغ
١٠٠	القضية السورية	الاستاذ سامي الشمعة
٢٠٠	أيها العرب اتحدوا	الاستاذ منير الشريف
١٠٠	نظرات في الصيام	الدكتور شوكت الشطي
١٠٠	الشباب العربي	الاستاذ منير الشريف

أسرة التأليف والترجمة العسكرية

الفئة والحضيرة

للمقدم و الرئيس

توفيق شاتيلا جادو عزالدين

•

الرشاش برونينغ عيار ١٢،٧

للرئيس و الملازم

مصطفى شاكر اسعد طباخ

•

١ ــ بطاقة مذكرات

٢ ــ نظام الكلية العسكرية

٣ ــ نظام مدارس الرتباء

•

قتال المشاة

للعقيد محمد صفا

•

السيارات الميكانيك والسواقة

للمقدم فائز موسى القدسي

•

قتال المدرعات

للمقدم حسني جروس

•

قتال المشاة بالتعاون

للمقدم امين نفوري

•

المسدسات الرشاشة

برته طويلة وبرته قصيرة ستين

للرئيس برهان قصاب حسن

السرية في النظام المنضم

للرئيس و الملازم

جادو عزالدين نايف عطواني

•

المشاة المنقولة

للرئيس و الملازم

مصطفى شاكر صبحي الشربتجي

•

إشارات مورس العالمية

المقدم و الملازم

طارق الكيلاني حيدر شريف

•

الجندي والحضيرة

للعقيد محمد صفا

•

السيارات ـ الاصلاح والعناية

للمقدم فائز موسى القدسي

•

المدرعات

للمقدم اسعد اسماعيل

•

الطبغرافيــة

للرئيس جميل حجار

•

المسدس الرشاش

نموذج ٤٥

للرئيس برهان قصاب حسن

المدفع الالماني عيار ٥٠ باك ٣٨
للملازم اسعد طباخ

•

شرطة الجيش
للملازم عيسى عجي

•

التعبئة الصغرى بالمشاة
للملازم عقيل نجار

•

المسدس برونينغ عيار ٩ مم
الملازم اسعد طباخ

•

الطبغرافية
الدكتور محمد علي صبري

مدفع الهجوم عيار ٧٥ مم
للملازم اسعد طباخ

•

الفارس المدرع
للملازم نايف عطواني

•

دليل الغيوم للطيارين
للملازم رمزي سعد الدين

•

الالغام
للملازم ابراهيم الشاعر

•

الدستور السوري

•

مجموعة كراسة عسكرية
وزارة الدفاع

البارودة ٣٦ صندوق الرمل
الهاون ٨١ مم الرشيش ٢٤-٢٩
قتال وحدات المشاة الهاون ٦٠ مم

مجموعة كراسة تدريب
مدارس الرتباء

(١) قتال الحراب (٣) فن الرمي
(٢) القتال القريب (٤) المخابرات

•

مجموعة كراسة فنية
للمقدم توفيق شاتيلا

في التدريب العسكري
في السلوك ازاء الطيران
في الجرائم ضد الوطن
في أوامر المراسلات
في بعض الحالات التعبوية
في صنوف الاسلحة

AL - BOUKHALAA

PAR

Abou Ousman

AL - JAHEZ

Librairie Papyrus

Dar al-Yakaza al-Arabya - Damas

Imp. Al-Omoumyeh - Damas.